

كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الثاني)

٦٣٤-١٤٥٣م

أسد رستم



كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الثاني)

١٤٥٣-٦٣٤ م

تأليف
أسد رستم



كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الثاني)

أسد رستم

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦/١/٢٠١٧

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٢٠٣ ٥

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٨.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	الباب الثالث: النصرانية والإسلام
٩	١- محمّد والإسلام والنصارى
٣١	٢- وصول الإسلام إلى أبرشيات أنطاكية
٥١	٣- المجمع المسكوني السادس
٧١	٤- يُوحناُ الدمشقي دَفَّاقُ الذهب
٨٩	٥- الأيقونات
١٠٩	٦- نظم الكنيسة وقوانينها وطقوسها في القرنين السَّابع والثامن
١٢٣	٧- العبَّاسيُّون والكنيسة
١٣٧	٨- فوطيوس العظيم
١٦٩	٩- عَصْرُ الرُّومِ الذهبي
٢٠٩	١٠- الفاطميون والكنيسة
٢٣٥	١١- بدء الانشقاق العظيم
٢٥٩	١٢- صَدَى الانشقاق
٢٧١	١٣- الحروب الصليبية
٣١١	١٤- رُومة والقسطنطينية في أثناء الحروب الصليبية
٣٣٩	١٥- هولاغو والكنيسة
٣٤٧	١٦- عهد المماليك
٣٧٣	١٧- المجمع الفراري الفلورنسي
٣٩٣	الفهارس
٣٩٥	سلسلة البطارقة

الباب الثالث: النصرانية والإسلام

١٤٥٣-٦٣٤

محمّد والإسلام والنصارى

٦١٠-٦٣٢

انتشار النصرانية في قلب الجزيرة

بَحَثْنَا فِي الْفَصْلِ السَّادِسِ وَالْعَشْرِينَ فِي انْتِشَارِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي بَادِيَةِ الشَّامِ شَرْقًا وَغَرْبًا، وَأَثَرْنَا أَنْ نُرْجِيَّ الْكَلَامَ فِي انْتِشَارِهَا فِي قَلْبِ الْجَزِيرَةِ نَفْسَهَا إِلَى أَنْ يَتَسَنَّى لَنَا الْبَحْثُ فِي ظُهُورِ الْإِسْلَامِ فِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَذِيوعِهِ شَمَالًا وَشَرْقًا.

وَيُسْتَدَلُّ مِنْ أَقْدَمِ الْمَرَاجِعِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنَّ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ مِنْ قَبَائِلِ هُدَيْمٍ وَعُدْرَةَ وَجُدَامٍ وَجُهَيْنَةَ وَبَلِيَّ وَبَهْرًا وَطَيٍِّّ وَحَنِيفَةَ؛ دَخَلُوا فِي النَّصْرَانِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ بَعْضَ هَؤُلَاءِ لَمْ يُسْلِمُوا إِلَّا بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ^١. وَأَقْرَبُ هَذِهِ الْقَبَائِلِ لِلْمَدِينَةِ بَنُو هُدَيْمٍ، وَكَانُوا فُقَرَاءَ ضَعْفَاءٍ، أَمَّا بَنُو عُدْرَةَ فَإِنَّهُمْ نَزَلُوا وَادِيَّ إِضْمٍ فِي شِمَالِي الْحِجَازِ، وَعُرِفُوا بِرِقَّةٍ عَوَاطِفُهُمْ وَطَهَارَةِ عَشْقِهِمْ، وَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابِ الطَّبَقَاتِ لِابْنِ سَعْدٍ أَنَّ أُمَّهَاتَ بَعْضِ الْأَنْصَارِ كُنَّ مِنْ بَنِي عُدْرَةَ^٢. وَكَانَتْ مَنَازِلُ جُهَيْنَةَ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالْعَقْبَةِ وَفِي سَيْنَاءَ حَتَّى الْفَرْمَا، وَجَاءَتْ مَنَازِلُ بَلِيَّ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَتَبُوكَ^٣. وَمِنْ نَصَارَى قِضَاعَةَ بَهْرًا، وَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ بَيْنَ بَلِيَّ وَبَيْنَ مَشَارِفِ الشَّامِ،

^١ عشية الإسلام، للأب هنري لامنس، ص ٢٥٧ و ٢٦٤.

^٢ الطبقات، ج ٣، ص ١١١، وج ٨، ص ٢٧١.

^٣ الهمذاني، ص ١٣٠.

وتاخمت لخم حدود الشام، أما منازل بني طيّ وبني حنيفة فإنها كانت في قلب الجزيرة وإلى شرق المدينة.^٤

والأنصار في القرآن هم نصراء النبي: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾^٥. والأنصار في القرآن أيضاً هم الرسل أصحاب عيسى استنصر بهم من اليهود: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^٦.

وقال ابن إسحاق: «وكان من بعث عيسى بن مريم من الحواريين والأتباع الذين كانوا بعدهم في الأرض؛ بطرس الحواري، ومعه بولس، وكان بولس من الأتباع ولم يكن من الحواريين، إلى رومية، وأندرائس ومنا إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس، وتوماس إلى أرض بابل من أرض الشرق، وفيلبس إلى قرطاجة وهي إفريقية، ويوحنا إلى أفسوس قرية الفتية أصحاب الكهف، ويعقوبس إلى أورشليم وهي إيلياء قرية بيت المقدس، وابن ثلثاء إلى الأعرابية وهي أرض الحجاز، وسيمن إلى أرض البربر، ويهودا ولم يكن من الحواريين جعل مكان يودس»^٧.

وهكذا، فيكون النصارى عند العرب آنئذ هم أنصار عيسى وأنصار أنصاره، ويكون أحدهم نصراني، ومن هنا الآية: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾، وتكون النصرانية بالتالي دين النصارى.

وتمر العصور ويبقى حس هذا العهد مسموعاً في ما تبقى من أدب؛ فهذا حنظلة الطائي يفارق قومه وينسك ويبني ديراً بالقرب من ضفة الفرات، وفيه يترهب حتى يموت. وذاك قس بن ساعدة يتقفر القفار ولا تكنه دار، يتحسى بعض الطعام ويأنس بالوحوش والهوام. وينظم بعضهم الشعر فيزهد في الدنيا ويدعو إلى النظر في الكون والاعتبار بحوادثه.^٨

^٤ Watt, W. M., Muhammad at Medina, (Oxford, 1956), 87–117

^٥ سورة التوبة: ٩٩.

^٦ سورة آل عمران: ٥١.

^٧ السيرة لابن هشام، طبعة محيي الدين عبد الحميد، ج ٤، ص ٢٨٠.

^٨ فجر الإسلام، لأحمد أمين، ص ٢٧.

وصول النصرانية إلى مكة

وليس لنا أن نقول مع صديقنا المرحوم الأب لويس شيخو إن النصرانية توطدت في مكة، وإن الدليل على ذلك أن الكعبة خضعت لأسقف عليها، فالأزرقي قال إن الكعبة كانت مكشوفة لا «سقف» عليها، ولم يقل إنها كانت «لأسقف» عليها!

ولكن لا يختلف اثنان — فيما نعلم — في وصول النصارى من الأحباش إلى مكة وإقامتهم فيها لأغراض يقضونها، وإذا كان هؤلاء من «طبقة العبيد»، وكانت منازلهم بعيدة عن الكعبة متاخمة للصحراء، وكان ما يتحدثون به من قصص دينية لا يتصل بسمع أمجاد قريش وأشرف أهل البلد الحرام، فماذا نقول بأمية بن أبي الصلت الذي كان ينظر في الكتب ويقرؤها ويلبس المسوح تعبدًا، وبورقة بن نوفل الذي عرف الإنجيل ونقل بعضه إلى العربية!^٩ وماذا نقول في القريشيين الأربعة؛ ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن نفيل، الذين خلصوا نجياً^{١٠} فقال بعضهم لبعض: «تعلّموا، والله ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجرٌ نُطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع!» فأما ورقة بن نوفل فاستحکم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علمًا من أهل الكتاب، وأما ابن جحش فإنه هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ثم تنصّر ومات نصرانيًا، وكذلك ابن الحويرث فإنه لجأ إلى قيصر وتنصّر، وابن نفيل لم يدخل في يهودية ولا نصرانية، ولكنه فارق دين قومه واعتزل الأوثان.^{١١}

ومن أخبار النصرانية والنصارى في مكة قبل ظهور الإسلام فيها: أن حليلة السعدية أمّ النبي بالرضاعة عادت بالنبي إلى مكة فرآه نفرًا من الحبشة نصارى، فنظروا إليه وسألوها عنه وقلّبوه، وأرادوا أن يأخذوه إلى ملكهم في الحبشة. وأضل محمد الولد أمه في الرضاعة فوجده ورقة بن نوفل، وأتى به عبد المطلب وقال له: هذا ابنك وجدته بأعلى مكة.^{١٢}

^٩ أسد الغابة لابن الأثير، ج ٥، ص ٨٨؛ والإصابة لابن حجر، ج ٦، ص ٣١٧؛ والأغانى للأصفهاني، ج ٣، ص ١٤-١٥.

^{١٠} الجماعة يتحدثون سرًا يكتُمون حديثهم عن غيرهم، وهو لفظ يستوي فيه الواحد والاثنان والجماعة: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسُّوْا مِنْهُ خَلَّصُوْا نَجِيًّا﴾.

^{١١} السيرة لابن هشام، طبعة محيي الدين عبد الحميد، ج ١، ص ٢٤٢-٢٤٤.

^{١٢} السيرة لابن هشام أيضًا، ج ١، ص ١٧٨-١٧٩، والطبعة نفسها.

الراهب بَحِيرَة

وأحب أبو طالب محمدًا حتى كان يقدمه على أبنائه، وأراد أن يخرج يومًا في تجارة له إلى الشام، وكان محمدٌ لا يزال في الثانية عشرة فأبدى رغبة في مصاحبة عمه، فصحب الغلام القافلة، ووصل الرُّكْبُ إلى بصرى، فنزل بالقرب من صومعة بَحِيرَة الراهب، فرأى بَحِيرَة محمدًا «وغمامة تظله»، فأرسل إلى الرُّكْبِ يقول: إني قد صنعت لكم طعامًا فاحضروا كلكم كبيركم وصغيركم. فاجتمعوا إليه، وتخلَّف محمد لحدائته سنة، فأصَّر الراهب على حضوره فحضر، فجعل بحيرة يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء من جسده حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرَّقوا قام إليه بحيرة وسأله عن أشياء من حاله، فأخبره الرسول فوافق كلامه ما كان عند الراهب من صفاته. ثم نظر الراهب إلى ظهر الرسول فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، وكان مثل أثر المحجم. فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب وقال: «ارجع بابن أخيك إلى بلدك واحذر عليه من اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لبيغته شرًّا.»^{١٣}

خطباء النصارى

ولم يُفد أبو طالب مالا كثيرًا من رحلته إلى الشام فأقام في مكة، وأقام محمدٌ معه قانعًا بنصيبه، فإذا جاءت الأشهر الحرم ظل بمكة مع أهله أو خرج وإياهم إلى الأسواق المجاورة بعكاظ ومجنة وذى المجاز؛ يستمع لإنشاد أصحاب المذاهب والمعلقات، ويصغي إلى خطب الخطباء ومن بينهم اليهود والنصارى، الذين كانوا يأخذون على إخوانهم العرب وثنيتهم، ويحدثونهم عن الإنجيل والتوراة، ويدعونهم إلى الحق، وكان محمدٌ يزن ذلك بميزان قلبه فيراه خيرًا من هذه الوثنية التي غرق فيها أهله.^{١٤}

الراهب نسطور

ورعى الغنم — غنم أهله وغنم أهل مكة — وذكر ذلك مغتبطًا، وأحب عمُّه أبو طالب أن يجد له سببًا للرزق أوسع، فبلغه أنَّ خديجة المثرية تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم

^{١٣} المصدر نفسه أيضًا، ج ١، ص ١٩٤-١٩٧.

^{١٤} حياة محمد، ل محمد حسين هيكل، ص ٧٧.

إياه بشيء تجعله لهم، وإن علم أنها تجهز لخروج تجارتها إلى الشام نادى إليه ابن أخيه محمداً، وكان يومئذٍ في الخامسة والعشرين من سنه، وأخبره بما كان من أمر خديجة، وسأله ما إذا كان يكلمها، فقال محمد: «ما أحببت.» ووافقت خديجة على استخدام محمد، فخرج مع ميسرة، غلامها، وانطلقت القافلة في طريق الصحراء إلى الشام مارة بوادي القرى ومدين وديار ثمود، فلما بلغت بصرى اتصل محمد بنصارى الشام وتحدث إلى رهبانها، وتحدث إليه الراهب نسطور وسمع منه، ولعله جادله.^{١٥}

محمد وأول الوحي

وتزوج محمد من خديجة ابنة عم ورقة بن نوفل، وتيسر له التفكير والتأمل، وكان يلجأ في شهر رمضان إلى غار حراء للتأمل والعبادة، وفيما هو نائم في الغار جاء ملاكٌ وفي يده صحيفة، وقال: اقرأ، فقال محمد: ماذا أقرأ؟ فقال الملاك: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. وتنبه محمد فرعاً، ودخل على خديجة وقال: زملوني. فزملته وهو يرتعد كأن به الحمى، فلما ذهب عنه الروع نظر إلى خديجة وحدثها بالذي رأى، فانطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وأخبرته بما رأى محمد، فأطرق ورقة — وكان نصرانياً كما أوضحنا — ثم قال: «قدوس قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت.»^{١٦} وخرج محمد للطواف بالكعبة فلقية ورقة، فلما أخبره محمد بما رأى قال ورقة: «والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكدّبن ولتؤذبن ولتخرجن ولتقاتلن، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبّل يافوخه.»^{١٧}

^{١٥} المصدر نفسه، ص ٨٣.

راجع في موقف المستشرقين من بحيرة ونسطور: Andrae, T., Mahomet: sa Vie et sa Doctrine, Trad., Gaudefroy-Demombynes, (Paris, 1945), 35-39; Blachère, R., Le Problème de Mahomet, (Paris, 1952), 30-31.

^{١٦} السيرة لابن هشام، الطبعة نفسها، ج ١، ص ٢٥٦.

^{١٧} المصدر نفسه.

النجاشي مسيحي لا يُظلم عنده أحد

ونزلت سورة الضحى، وعلم الله محمداً الصلاة، وصلّت خديجة معه، وأسلم علي بن أبي طالب وأبو بكر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وسعد والزبير، وتحدث الناس عن محمد وظنوا أن حديثه لن يزيد على حديث الرهبان والحكماء أمثال قُس وأمّية وورقة، وأن الناس عائدون لا محالة إلى دين آبائهم، وبعد ثلاث سنين أُنذر النبي عشيرته، وقال: إنه النذير المين، فأعرضوا عنه وانصرفوا مستهزئين.

ثم انتقل محمد إلى أهل مكة جميعاً، وصعد على الصفا ونادى، فنهض أبو لهب، وقال: تباً لك، فجاءت الآية: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾! فحارب أشرف قريش محمداً بالحط من شأنه وبتكذيبه فيما جاء به، فبادأهم محمدٌ بذكر ألتهتهم وعابها، فعظم ذلك عليهم وحزّ في صدورهم، ومضى محمد في دعوته ومضت قريش في ائتمارها، فاعتصم محمد بقومه، ووثبت كل قبيلة على مَنْ فيها من المسلمين الوضعاء يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ثم حاول عتبة بن ربيعة أن يفاوض محمداً، وأن يعرض عليه أموراً لعله يكف، وعرض عليه مالا وزعامة، فقلّ محمداً سورة السجدة! فزاد ما كان ينزل بالمسلمين من الأذى وبلغ منهم القتل. فأشار محمد على جمهور المسلمين أن يتفرقوا في الأرض، فسألوه أين نذهب، فنصح إليهم أن يذهبوا إلى بلاد الحبشة المسيحية؛ لأن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق! وخرج المسلمون إلى الحبشة المسيحية في هجرتين، ونقل جعفر بن أبي طالب إلى النجاشي بعض ما جاء في سورة مريم: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهَدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾. ١٨

جبر النصراني

وفي أثناء الهجرة إلى الحبشة أسلم عمر بن الخطاب، فظن المسلمون في الحبشة أن قريشاً رجعت عن أذاها فعادوا إلى مكة، فعادت قريش إلى الأذى فعاد المهاجرون مرة ثانية إلى الحبشة، وهددت قريش محمداً وهددت أهله وتهكمت به وسخرت منه.

١٨ السيرة لابن هشام، ج ١، ص ٣٤٣-٣٦٤.

وكان محمد يُكثر من الجلوس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له: جبر عبد لابن الحضرمي، وكانوا يقولون: والله ما يُعلمُ محمدًا كثيرًا مما يأتي به إلا جبر النصراني، غلام ابن الحضرمي، فجاءت الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^{١٩}.

عدّاس النصراني

وفراً المسلمون من مكة إلى شعاب الجبل، وحُصروا فيها، ثم مات أبو طالب وماتت خديجة، وازداد أذى قريش، فخرج محمدٌ إلى الطائف وحيداً منفرداً، واحتمى إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وحبس إلى ظل شجرة من عنب وابنا ربيعة ينظران إليه، فلما اطمأنَّ رفع رأسه إلى السماء ضارِعاً وقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني.»

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمتهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له: عدّاس وقالاه: خذ قطعاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، ففعل عداس، وقال: كُلْ، فلما وضع الرسول يده فيه قال: باسم الله، ثم أكل، فقال عداس: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال محمد: ومن أهل أي البلاد أنت وما دينك؟ قال: نصراني وأنا رجل من أهل نينوى، فقال له محمد: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال محمد: ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي، فقَبَّلَ عداس رأسه ويديه وقدميه، فقال ابنا ربيعة: ويلك يا عداس ما لك تُقبل! فقال: لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبيٌّ، فقالوا: ويحك! لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه.^{٢٠}

إبراهيم وموسى وعيسى

ثم عرض محمدٌ نفسه على القبائل في أثناء المواسم، ولكن عمه عبد العزى بن عبد المطلب كان يتبعه ويحرّض الناس على ألا يستمعوا له، وقصد كندة في منازلها، وذهب إلى بني كلب في منازلهم، وأتى بني حنيفة وبني عامر؛ فزدّوه جميعاً رداً غير جميل.

^{١٩} المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٢٠. سورة النحل: ١٠٣.

^{٢٠} السيرة لابن هشام، ج ٢، ص ٢٨-٣١.

وفي هذه الفترة؛ أي حوالي السنة ٦٢١ بعد الميلاد كان الإسراء والمعراج، وأطلَّ جبريلُ وفي يده دابةٌ عجيبةٌ، هي البُرَاق، لها أجنحةٌ كأجنحة النسر، انحنت أمام الرسول فاعتلاها، وانطلقت به انطلاق السهم فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجهة إلى الشمال، فوقف الملاكُ به عند جبل سيناء حيث كلمَّ الله موسى، ثم وقف به في بيت لحم حيث وُلِدَ عيسى، ثم انطلق بعد ذلك في الهواء فبلغ بيت المقدس، فقيّد محمدُ دابته وصلى على أطلال هيكل سليمان ومعه «إبراهيم وموسى وعيسى»، ثم أتى بالمعراج فارتكز على صخرة يعقوب وعليه صعد محمد سراعًا إلى السماوات.^{٢١}

ونقل الزهري عن سعيد بن المسيّب أن محمدًا وصف لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى حين رآهم في تلك الليلة، فقال: «أمّا إبراهيم فلم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه، وأمّا موسى فرجل آدمٌ طويلٌ ضربُ جعدٍ أقنى، كأنه من رجال شنوءة، وأمّا عيسى بن مريم فرجلٌ أحمرٌ، بين القصير والطويل، سبط الشعر كثير خيلان الوجه كأنه خرج من ديماس، تخال رأسه يقطر ماءً وليس به ماء، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفي».^{٢٢}

الهجرة إلى المدينة (٦٢٢)

وقبل الدعوة عددٌ من أهل يثرب، وازدادوا، ولم يجدوا فيها من أذى اليهود والمشركين عبدة الأوثان ما وجده إخوانهم في مكة من أذى قريش، والعيش في يثرب أنشد أرحى منه في مكة، وما أحب محمد أن يرد على قريش إساءتها؛ لأنه كان لا يزال أضعفَ منها، وقد لا ينصره أهلُه عليها، وكانت دعوته لا تزال ترتكز إلى الرفق والإقناع والجدل بالتي هي أحسن، فأمر أصحابه أن يلحقوا بالأنصار في يثرب، وبدعوا يهاجرون، ففطنت قريش للأمر فاعترضت السبيل، ومانعت وعذبت ونكّلت، وحسبت لهجرة النبي نفسه ألف حساب وخشيت أن تؤدي الهجرة إلى قطع طريق الشام أو إلى الإجاعة، واجتمعت قريش في دار الندوة وتشاورت على قتل محمد، وعلم محمد بما بيتت قريش، فظل في مكة حتى لم يبق

^{٢١} حياة محمد، لمحمد حسين هيكل، ص ١٥٣-١٦١.

^{٢٢} السيرة لابن هشام، ج ٢، ص ٧، والخيلان بكسر الخاء جمع خال، وهو هنا شامة سوداء، والديماس هو الحمام.

من المسلمين بها إلا القليل، وفي ليلة الهجرة أُسْرَ إلى علي بن أبي طالب أن يتسجى بُرده الأخرى وأن ينام في فراشه، وأن يبقى بعده في مكة حتى يوزع الودائع التي كانت عنده للناس.

وأخبر محمدُ أبا بكر بأن الله أذن له في الهجرة، فطلب الصديق أن يصحبه فأجابته إلى ذلك، فانطلقا إلى غار ثور أولاً وأقاما به، وفي اليوم الثالث امتطى كل منهما بعيره، وأخذ طريقاً غير الذي أَلِفَ الناس.

وترامت أخباراً هذه الهجرة إلى يثرب، وبينما كان مسلموها ينتظرون يوماً كعادتهم صاح بهم يهودي: «هذا صاحبكم قد جاء!» وخرجت يثرب لاستقباله، رجالاً ونساءً، مؤمنين ويهوداً ومشركين.

اليهود أمة مع المؤمنين

ودخل محمد في دور جديد من رسالته، واضطر أن يعالج مشاكل جديدة لم تظهر من قبل، نراه في أوائل عهده في المدينة منهمكاً في تنظيم العلاقات بين المهاجرين والأنصار، وفي علاقة هؤلاء جميعاً باليهود والمشركين، ويتضح من نص «الصحيفة» الواردة في تاريخ ابن هشام عن ابن إسحاق التي اعتاد المستشرقون المستعربون أن يسموها «دستور المدينة» أن النبي اعتبر المؤمنين «أمة واحدة»، وأنه اعتبر اليهود أيضاً «أمة مع المؤمنين»، وأن للمسلمين دينهم واليهود دينهم، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس، وأن قريشاً لا تُجار ولا تُناصر.^{٢٣}

مخاوف يهود المدينة

وأقبل اليثرييون على الإسلام، وازداد المسلمون شوكة وقوة، فخشي اليهود أن تمتد الدعوة إلى صفوفهم، وأن تفشو في عامتهم، وأسلم عبد الله بن سلام أحد كبار أحبارهم، فزادوا خوفاً وغيظاً، وأجمعوا على أن يكيدوا لمحمد.

^{٢٣} السيرة لابن هشام، ج ٢، ص ١١٩-١٢٣. وقد بحث هذه الوثيقة عددٌ من المستشرقين أهمهم: Wellhausen, J., Skizzen, IV, 65-83; Wensinck, A. J., Mohammed en de Joden, 74-81; Cae-
Jani, L., Annali dell Islam, I, 391-408

محمد ويهود المدينة

وبدأ اليهود بالجدل واستعانوا بالدسيسة والنفاق، فنزل صدرُ سورة البقرة وما يزيد على ثلثها، ونزل قسمٌ كبيرٌ من سورة النساء، وفيها تأنيبٌ لليهود على ما أنكروا من كتابهم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^{٢٤}.

ثم حاول اليهود فتنة محمد نفسه، فذهبوا إليه، وقالوا: «إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا، وإنا وإن اتبعناك اتبعك اليهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنتحتم إليك فتتضي لنا فنتبعك ونؤمن بك.»^{٢٥} فجاءت الآية: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾^{٢٦}، ثم حاولوا إقناعه بالجلاء عن المدينة، فذكروا له أن الرسل اتخذوا من بيت المقدس مقامًا لهم، وأنه يجدر به أن يعتبر المدينة وسطًا في هجرته بين مكة ومدينة المسجد الأقصى، فرد محمد على هذا بأن جعل قبلته إلى المسجد الحرام «بيت إبراهيم وإسماعيل»، فأنكر اليهود عليه هذا التغيير، وقالوا: إنهم يتبعونه إذا هو رجع إلى ما كان عليه من قبل إلى جعل قبلته إلى المسجد الأقصى، وجاءت الآية: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^{٢٧}.

وجاء سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى ومحمود بن دحية وشاس بن قيس ومالك بن الضيف؛ فقالوا للنبي: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرًا ابن الله؟ فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^{٢٨}.

^{٢٤} سورة البقرة: ٨٧-٨٩.

^{٢٥} السيرة لابن هشام، ج ٢، ص ١٩٦-١٩٧.

^{٢٦} سورة المائدة: ٤٩.

^{٢٧} سورة البقرة: ١٤٢.

^{٢٨} السيرة لابن هشام، ج ٢، ص ٢٠٠، وسورة التوبة ٢٩.

محمد ونصارى نجران

ووفد على محمد في إبان هذا الجدل العنيف ستون راكبًا من نصارى نجران، بينهم العاقب، وهو أميرهم، واسمه عبد المسيح والسيد وهو تمالهم واسمه الأيهم وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل وهو أسقفهم وحرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم فشرهه ملوك الروم ومولوه وبنوا له الكنائس، فلما وصلوا المدينة دخلوا على النبي في مسجده حين صلى صلاة العصر، وحانت صلاتهم فقاموا في هذا المسجد نفسه يصلون، فقال الرسول: «دعوهم.» فصلوا إلى المشرق، ثم كلموا الرسول، فلما كلمه الحبران قال لهما: أسلما، قالا: قد أسلمنا، قال: إنكما لم تسلما، قالا: بل قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدًا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير، قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت عنهما ولم يجبهما، فنزل صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية: ٢٩ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ... ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسُّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالنُّورَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ ... ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ... ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ... ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

سلمان الفارسي

وكان محمد قد وجد في يثرب بين أرقاء اليهود رجلًا فارسيًا نصرانيًا، ذكي الفؤاد كثير الخبرة واسع الاطلاع دقيق التصرف؛ فأحبه وعاونه على عتق نفسه، ثم جعله من صحبه

٢٩ السيرة لابن هشام، ج ٢، ص ٢٠٤-٢١٢.

وأخصائه، وهو سلمان الفارسي، ذاك الذي قال عنه النبي فيما بعد: «سلمان منا أهل البيت». ٣٠

وقال ابن إسحاق: إن سلمان الفارسي قال: «كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان، وكان أبي دهقان قريته، وأمرني يوماً بالذهاب إلى ضيعته لقضاء بعض ما أراد، فخرجت أريد ضيعته فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، فدخلت، فأعجبتي صلاتهم، ورغبت في أمرهم وقلت: هذا — والله — خير من الدين الذي نحن عليه، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام، فرجعتُ إلى أبي، فقال: ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آباءك خيرٌ منه، فقلتُ له: كلا، إنه لخير من ديننا، فجعل في رجلي قيداً ثم حبسني في بيته. وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركبٌ من الشام فأخبروني بهم، فقدم عليهم ركبٌ من تجار النصارى فخرجتُ معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين علماً؟ فقالوا: الأسقف في الكنيسة، فجيئته وقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين فأحببت أن أكون معك وأخدمك فأتعلم منك وأصلي معك، قال: ادخل، فدخلت معه، وكان رجل سوءٍ يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكننزه لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، فأبغضته بغضاً شديداً، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه فأریتهم موضع الكنز، وجاءوا برجلٍ آخرٍ فجعلوه مكانه، وما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أفضل منه وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلاً ولا نهاراً منه، فأحببته حباً لم أحبه شيئاً قبله مثله، فأقمت معه زماناً، ثم حضرته الوفاة فقلت له: إني قد كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى فيالي من توصي بي وبما تأمرني، فقال: والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه، فقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل، وهو فلان، وهو على ما كنت عليه فالحق به.

فلما مات وغيبٍ لحقت بصاحب الموصل، فأقمتُ عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فألحقني برجل بنصيبين، فالتحقت به وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن

٣٠ الطبقات لابن سعد، ج ٤، ص ٥٣-٥٧، ومسند ابن حنبل، ج ٥، ص ٤٤١-٤٤٤، وأسد الغابة لابن الأثير، ج ٢، ص ٣٢٨-٣٣٢. Caetani, L., Annali, V, 399-419; Huart, C., Selman du Fars, Mélanges.

.Derenbourg, 297-310. Massignon, L., Salman Pak, (Tours, 1934)

نزل به الموت، فأوصى بي إلى رجل في عمورية، فأقمت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم، واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، ثم نزل به أمر الله، فسألته إلى من توصي بي قال: والله ما أعلمه أصبح اليوم أحدٌ على مثل ما كُنَّا عليه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوثٌ بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجره إلى أرض بين هرتين بينهما نخل، به علاماتٌ لا تخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت فافعل.»^{٢١}

محمد والقتال

وهكذا، فإن محمدًا لم يفكر في ملك ولا في مال ولا في تجارة، وإنما كل همه توفيرُ الطمأنينة لمن يتبع رسالته وكفالة الحرية لهم في عقيدتهم ككفالتها لغيرهم في عقيدتهم، وهذه الوجهة في التفكير هي التي نزل بها الوحي على محمد منذ الهجرة، وهي التي جعلته جنوحًا للمسلم راغبًا عن القتال، مقتصدًا — طول حياته — أشد القصد فيه، غير لاجئٍ إليه إلا لضرورة تقتضيه دفاعًا عن الحرية والدين والعقيدة، ألم يقل له أهل يثرب ممن بايعوه في العقبة الثانية حين سمعوا المتجسس عليهم يصيح بقريش ينبهها لأمرهم: «والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا.» فكان جوابه: «لم نؤمر بذلك.» ثم ألم تكن أول آية في القتال: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، والآية بعدها: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾! فتفكير محمد إذن إنما كان متجهًا لغاية واحدة عليا، هي كفالة حرية العقيدة والرأي، كفالة في سبيلها وحدها أحل القتال، ودفاعًا عنها أُبِيح دَفْعُ المعتدي حتى لا يُفْتَنَ أحدٌ عن دينه، ولا يظلم أحدٌ بسبب عقيدته أو رأيه!^{٢٢}

ولم تكن السرايا الأولى التي أنفذت لقتال قريش إلا محاولة لإفهام قريش أن مصلحتهم تقضي بالتفاهم مع المسلمين، تفاهمًا يكفل حرية الدعوة إلى الدين وحرية التجارة للمشركين، ولعل محمدًا رمى من وراء هذه السرايا إلى غرض آخر هو تخويف اليهود الذين بدعوا يقبلون له ظهر المجن، وعملوا لإثارة البغضاء وإيقاظ الأحقاد في المدينة.

^{٢١} السيرة لابن هشام، طبعة محيي الدين عبد الحميد، ج ١، ص ٢٢٣-٢٢٧.

^{٢٢} حياة محمد، لمحمد حسين هيكل، ص ١٨٦-١٨٧.

ولم ينكر محمدُ الدفاعَ عن النفس، ولكنه أنكر حرب الاعتداء، ومن هنا الآية: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، ومن هنا القول في الآية: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾، والجهاد في سبيل الله معناه قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ويصدونه عن سبيل الله.

إجلاء اليهود

وحاولت قريش إثارة شبه الجزيرة كلها على محمد وأصحابه، فأيقنَ محمدُ أنه لم يبق في الاتفاق معهم أي رجاء، وخرج أبو سفيان في خريف السنة ٦٢٣ في تجارة إلى الشام، فتحين محمدُ موعدَ عودته منها وأرسل إلى طريق الشام من ينتظر خبر هذه العودة، وخشي أن تفوته العير في عودتها إلى مكة فنذب المسلمين قائلًا: «هذه قريشُ، فأخرجوا إليها؛ لعل الله يكفيكموها». وأراد بعض من لم يسلم أن ينضم طمعًا بالغنيمة، فأبى محمد «أو يؤمنوا بالله ورسوله». واستنفر ضمضم قريشًا إلى أموالهم فخرجت مكة كلها للدفاع عن تجارتها، وعدل أبو سفيان بالسير مساحلًا، وفات المسلمين خبره فنجأ، وكانت موقعة بدر في آذار السنة ٦٢٤، وانتصر المؤمنون على المشركين.

ووصل رسولُ محمد إلى المدينة يبشر بالفوز وسرَّ المسلمون، أما الذين بقوا على الشرك واليهود فقد كُتبتوا لهذا النبأ، فقالوا: إن محمدًا قُتل وإن أصحابه هُزموا، ثم دخل محمد المدينة منتصرًا، وازداد قوة ونفوذًا، ولكنه ما كاد يعود من بدر حتى بدأت طوائف المدينة الأخرى تتغامز وتآتمر وتُغري بالمسلمين وتُحرض عليهم.

وقدمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بني قينقاع ومعها حلية جلست إلى صائغ فهم بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهي تأتي، فجاء يهودي من خلفها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوائها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ — وكان يهوديًا — فقتله، وشدَّت اليهودُ على المسلم فقتلوه، فوقع الشر بين المسلمين وبين بني قينقاع، وطلب محمد إلى هؤلاء أن يكفُّوا وأن يحفظوا العهد، فاستخفُّوا به، فحاصرهم المسلمون في دورهم خمسة عشر يومًا، فلما سلّموا أُخرجوا من المدينة، فساروا حتى بلغوا وادي القرى فأقاموا فيها زمانًا، ثم ساروا صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات على حدود الشام.^{٣٣}

^{٣٣} السيرة لابن هشام، ج ٢، ص ٤٢٧، والمغازي للواقدي طبعة أوروبية ٩٢-٩٤، والرسول والملوك للطبري، ج ١، ص ١٣٦٠-١٣٦٢.

وعاهد محمد قبائل الشاطيء عبر طريق الشام، فنصح الأسود بن المطلب قريشًا بأخذ طريق العراق، ودلهم على فرات بن حيان من بني بكر بن وائل يدلُّهم على الطريق، وقال فرات: طريق العراق ليس يَطوُّها أحدٌ من أصحاب محمد، فإنما هي أرض نجد وفيافٍ، فعلم محمد بذلك فأنفذ مائة راكب اعترضوا تجارة قريش، فغنموا وعادوا إلى المدينة، فثار ثائر قريش وجهزوا للثأر، فكانت موقعة أُحد في ربيع السنة ٦٢٥، وظفر المسلمون، ثم دارت الدائرة عليهم فاستماتوا في الدفاع عن الرسول، وتحرَّج موقفُ محمد في المدينة وبين القبائل المحيطة بها، وقام بنو أسد يدعون إلى مهاجمة المدينة والسير إلى محمد فيها، فسأبر النبي مائة وخمسين راكبًا فاجتأوا بني أسد وعادوا غانمين، وتكررت هذه الحوادث بين المسلمين وبين القبائل المجاورة، فجاءت سجالاً.^{٣٤}

ووجد اليهود وغيرهم من أهل المدينة في ما أصاب المسلمين ما ذكرهم بأحد، فخشى النبي أمرهم، وشاء أن يستدرجهم ليستوضح نياتهم، فذهب إلى اليهود من بني النضير في محلثهم في ضواحي المدينة في عشرة من كبار المسلمين، بينهم أبو بكر وعمر وعلي، فراه أمرهم وانسحب تاركًا أصحابه عندهم، وقام هؤلاء في طلبه فوجدوه في المسجد، فذكر لهم ما رابه، ثم بعث إلى بني النضير من قال: «إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي، لقد نقضتم العهد بما همتم به من الغدر بي، لقد أجلتكم عشرًا، فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه.» وحاصر المسلمون بني النضير عشرين ليلة، فاستأنوا، فصالحهم، فخرجوا ونزلوا خيرًا، وسار بعضهم إلى أذرعات في الشام.^{٣٥}

وخرج نفرٌ من بني النضير وقدم مكة، فسألهم أهلها عن قومهم فقالوا: تركناهم بين خيبر والمدينة ينتظرونكم لتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه، وسألوهم عن بني قريظة فقالوا: هم في يثرب متى أتيتم مالوا معكم، وقالت قريش لليهود: إنكم أهل الكتاب الأول، وتعرفون ما نختلف فيه ومحمد، فهل ديننا خير أم دينه؟ فقالت اليهود: بل دينكم خير من دينه. وخرج اليهود إلى عرب غطفان وبني مرة وبني فزارة وأشجع وسليم وسعد

^{٣٤} المغازي للواقدي، ص ١٠١-١٤٨، والطبري، ج ١، ص ١٢٨٣-١٤٢٧.

Caetani, L., Annale, I, 540-566; Hamidullah, Battlefields of Mohammad 18-24; Watt, W. M., Mohammed at Medina, 21-39

^{٣٥} السيرة لابن هشام، ج ٣، ص ١٩١-١٩٤، والمغازي للواقدي، ص ١٦٠-١٦٧، والرسل والملوك للطبري، ج ١، ص ١٤٤٨-١٤٥٣.

وأسد، فحرضوهم على الأخذ بالثأر، وخرجت هذه الأحزاب كلها متجهة نحو يثرب فبلَّغوها في أواخر آذار السنة ٦٢٧، واتصل خبرُ هذا السير بمحمد وجماعته، فحفروا الخندق أمام المدينة بإرشادِ سلمانَ الفارسي، فعُرفت هذه الحرب بحرب الخندق. وأقبلت قريشٌ وأحزابُها ففاجأها الخندقُ، فحاصرت المدينة واكتفت بتبادلِ الترامي بالنبال، وتحركت في بني قريظةَ يهوديئُهم، فنقضوا عهدهم مع محمد! وتراجعت قريشٌ وتراجع أحزابها، فأمر محمد مؤذناً فأذُن في الناس: «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينَّ العصر إلا ببني قريظة!» فقُتلت المقاتلة وقُسمت الأموال وسُبيت الذرية والنساء.^{٣٦}

وقلَّ متجر قريش، وخَفَّ دخلها ولم تأت الحرب بفائدة، وجعل محمد قبلته إلى المسجد الحرام فسئمت قريش الحرب وياتت أكثر استعداداً للتفاهم والمسالمة، وكان محمد على صلة مستمرة بعمه العباس وغيره، فعلم بهذا التطور النفساني، فأذُن في الناس بالحج في شهر ذي القعدة الحرام من السنة السادسة للهجرة؛ أي في آذار السنة ٦٢٨، وخرج إلى مكة بمن معه من المهاجرين والأنصار، وأحرم بالعمرة؛ ليعلم الناس أنه لا يريد قتالاً، وفاوض محمد قريشاً فتَهَادَنَّا، فعُرفت المهادنة بعهد الحديبية، وعاد المسلمون إلى المدينة وفي نفوسهم من أمر هذا الصلح شيء، فنزلت سورة الفتح وهم في الطريق، وتلاها محمد عليهم.^{٣٧}

وفكَّر محمدٌ في هذا الأمر ملياً، فانتهى به تفكيرُهُ إلى ضرورة القضاء على شوكة اليهود، وإلى إرسال رسله إلى هرقل وكسرى، وغيرهما، ولم يُقم في المدينة إلا شهراً واحداً، ثم جهز لغزو خيبر، وانطلق المسلمون في ألف وستمائة، وفاجئوا خيبراً وحاصروها، فاستقتل اليهود ثم دبَّ اليأسُ إلى قلوبهم فصالحوا على نصف إنتاجهم، وذلك في حزيران السنة ٦٢٨،^{٣٨} وجرى كُلُّ هذا مع يهود فدك ووادي القرى، وكانت جزية خيبر للمسلمين؛ لأنهم قاتلوا لاستخلاصها، وكانت جزية فدك للنبي؛ لأن المسلمين لم يجلبوا عليها، وقبل يهود تيماء

^{٣٦} المغازي للواقدي: ١٩٠-٢١٠، والرسل والملوك للطبري، ج ١، ص ١٤٦٣-١٤٨٥.

^{٣٧} السيرة لابن هشام، ج ٣، ص ٣٥٥-٣٧٧، والمغازي للواقدي، ص ٢٤١-٢٦٤، والطبقات لابن سعد، ج ٢، ص ٦٩-٧٢، والرسل والملوك للطبري، ج ١، ص ١٥٢٨-١٥٥١.

^{٣٨} السيرة لابن هشام، ج ٣، ص ٣٧٨-٣٨٩، والمغازي للواقدي، ص ٢٦٤-٢٩٦، والرسل والملوك للطبري، ج ١، ص ١٥٧٥-١٥٩٠.

الجزية بدون حرب، وأوصى النبي بألا يفتن اليهود عن يهوديتهم ولم يكلف يهود البحرين دفع الجزية وإن ظلوا على دينهم، وصالح بني غازية وبني عريض بالذمة والجزية.

الرسائل إلى الملوك والأمراء

وجاءت رسالة محمد سمحاء فلم يُكره أهل الكتاب من اليهود والنصارى على قبولها، ولكنه اعتبرها عالمية، فرغب في تعميمها قدر المستطاع، وخرج يومًا على أصحابه فقال: «أيها الناس إن الله قد بعثني رحمة وكافة.» ثم ذكر لهم أنه مرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغساني والحارث الحميري والنجاشي؛ يدعوهم إلى الإسلام، فصنع له خاتمًا من فضة نقش عليه «محمد رسول الله». وبعث بكتبه إلى هؤلاء الملوك والأمراء في أيار السنة ٦٢٨، وجاء في كتابه إلى هرقل:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد؛
فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِمَ تسلم يؤتكَ الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما
عليك إثم الأريسيين.

وكتب مثل هذا إلى كسرى والنجاشي والمقوقس والحارث الغساني والحارث الحميري، وحمل رسالته إلى هرقل دحية بن خليفة الكلبي، وإلى كسرى عبد الله بن حذافة السهمي، وإلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري، وإلى المقوقس حاطب بن أبي بلتعة، وإلى الحارث الغساني شجاع بن وهب الأسدي، وإلى الحارث الحميري المهاجر بن أمية المخزومي،^{٣٩} ويشك بعض علماء الفرنجة في صحة هذه الرسائل، ولكنهم يتطرفون.^{٤٠}

وتتمّة ما جاء في المصادر العربية أنّ دحية التقى بهرقل في حمص، وأن هرقل لم يغضب ولم تتثر ثأرتُهُ، وأنه رد على الرسالة ردًا حسنًا، وجاء أيضًا أن الحارث الغساني

^{٣٩} الطبقات لابن سعد، ج ١، ص ١٥-٨٦.

^{٤٠} Noldeke, Th., Wiener Zeit fur de Kunde des Morgenlandes, XXI, 307; Goldziher, I.,
Vorlesungen uber den Islam, 25; Lammens, H., Etudes sur le Règne du Calife Moawia, I,
.422; Caetani, L., Annali, I, 725-739, Studi, III, 236, 257; Grimme, H., Mohammed, I, 123

بعث إلى هرقل يُخبره أن رسولاً جاءه من محمد بكتاب يدعو فيه إلى الإسلام، وأن الحارث استأذن بأن يقوم على رأس جيش لمحاربة صاحب هذه الدعوة، وأن هرقل أجاب الحارث بأن يوافيه إلى المدينة المقدسة.

ومما جاء في المصادر العربية أيضًا: أن شرحبيل بن عمرو الغساني صاحب بصرى في حوران قتل الحارث بن عمير الأزدي رسول النبي إلى صاحب بصرى في حوران، ومما تشتمل عليه المصادر أيضًا أن المقوقس حاكم مصر بعث إلى النبي في الرد على رسالته يقول: إنه يعتقد أن نبياً سيظهر، ولكنه في الشام، وتضيف هذه المصادر أن المقوقس بعث إلى محمد جاريتين وبغلاً وحمارًا وكميةً من المال وبعض خيرات مصر، وأن النبي قيل هذه الهدية، وتزوج من إحدى الجاريتين ماريًا فولدت له إبراهيم، وأهدى شيرين الجارية الثانية إلى شاعره حسان بن ثابت، وأنه أسمى البغلة الفريدة في بياضها دلدل، والحمار عُفيرًا أو يعفورًا.

قتال النصارى في مؤتة (٦٢٩)

ومضى عامٌ بعد الحديبية، وخرج النبيُّ إلى عُمرَةَ القضاء وجلت قريشٌ عن مكة، وصعدت في التلال المجاورة، وأمَّ المسلمون البيت الحرامَ وطافوا بالكعبة، ثم نحر النبي الهدي عند المروة وحلق رأسه وأقام ثلاثة أيام ثم خرج إلى المدينة.

وأقام محمدٌ بضعةً أشهر في المدينة لم تقع في خلالها سوى بعض المناوشات والمناورات الصغيرة. وكان بين هذه إرسال خمسة عشر رجلًا إلى ذات الطلح على حدود الشام يدعون إلى الإسلام، فقتلوا كما قُتل الحارث بن عمير الأزدي ولم ينجُ منهم إلا زعيمهم، فجهز محمدٌ ثلاثة آلاف من خيرة رجاله، وأمر عليهم زيد بن حارثة وأنفذهم إلى حدود الروم في خريف السنة ٦٢٩.

وسار المسلمون حتى بلغوا معان، وسبقهم نبأهم، فجمع شرحبيل عامل هرقل جموعًا من قبائل الحدود؛ من نصارى لخم وجذام والقين وبهراء وبلي. وبلغ المسلمين وهم في معان خبرٌ هذه الجموع، فترددوا أولًا، ثم قالوا مع عبد الله بن رواحة: «إنما هي إحدى الحسنين فيما ظهور وإما شهادة». ومضوا، فالتقوا بأعدائهم في مشارف عند تخوم اللقاء، فلما اقترب حلفاء الروم انحاز المسلمون إلى قرية مؤتة ليتحصنوا بها، فدارت معركةٌ أسفرت عن مَقْتَل عدد من المسلمين بينهم زيد بن حارثة ربيب النبي نفسه وجعفر بن أبي طالب، فدافع خالد بن الوليد بالقوم وحاشى، ثم انحاز وتحيز حتى انصرف بالناس، وعاد المسلمون إلى

المدينة فإذا بذويهم يصيحون في وجوههم: «يا فُرَّار، فررتم في سبيل الله!» وإذا بقريش تَعْتَبِر تراجعَ المسلمين هزيمةً قاضيةً.^{٤١}

سقوط مكة (٦٣٠)

وقضى صلح الحديبية بحرية التحالف؛ أي أن يدخل في عهد محمد من شاء وأن يدخل في عقد قريش من شاء، ودخلت خزاعة في عهد محمد، ودخل بنو بكر في عهد قريش، وكانت بين هاتين القبيلتين ثاراتٌ قديمة، فلما انكسر المسلمون في مؤتة ظن بنو بكر أنه قُضي عليهم، وخُيل إلى بعضهم أن يأخذوا بثأر قديم ففاجئوا خزاعة وقتلوا منهم، فلجأ هؤلاء إلى حليفهم محمد، وكان البعض من قريش — وفي طليعتهم عكرمة — قد حرصوا بني بكر، فرأى محمد أن لا مفر من فتح مكة فتحًا.

وبعثت القبائل من سليم ومزينة وغطفان وغيرها؛ مَنْ انضم إلى المسلمين من المهاجرين والأنصار، وسار النبيُّ بهؤلاء جميعًا فلقبه بالجحفة العباس عمه وجماعة من أهله، فأسَلَّمُوا، وتابع محمدُ السير حتى نزل طوى ورأى أن مكة لا تقاوم فاستوقف الناس وانحنى يشكر الله، وعلى الرغم من هذا فإنه ظل متحذرًا ففرق جيشه أربع فرق، ودخل مكة في الحادي عشر من كانون الثاني سنة ٦٣٠، فلم يَلْقَ منها مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد.^{٤٢}

الأسقف ضُغاطِر

وعاد النبي إلى المدينة بعد فتح مكة وبعد انتصاره في حنين وبعد حصار الطائف والقضاء على مقاومة المشركين فيها، فعظَّم شأنه في الجزيرة وقبِلَ دعوته عددٌ كبير من أبنائها، وظل النصارى في شمال الجزيرة على دينهم، ولا سيما وأن هرقل كان قد استعاد هيبة الروم وكرامتهم بعد انتصاره على الفرس.

فكتب النبيُّ في هذه الآونة إلى أسقف من أساقفة البادية اسمه ضُغاطِر، يقول: «إلى ضُغاطِر الأسقف، سلامٌ على مَنْ آمَن، أما على أُنْثَر ذلك فإن عيسى بن مريم روح الله وكلمته

^{٤١} الطبقات لابن سعد، ج ٢، ص ٩٢، والرسائل والملوك للطبري، ج ١، ص ١٦١٠.

^{٤٢} المغازي للواقدي، ص ٣١٩-٣٥٥.

ألقاها إلى مريم الزكية، وإني أوْمَنُ بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، والسلام على من اتبع الهدى.»^{٤٣} لا ندري — بالضبط — ماذا كان أثر هذه الرسالة في نفس ضغاطر وبين قومه ورعيته، وليس لدينا ما ينبئُ بقبولها وبدخول هؤلاء في الإسلام.

تبوك

وراقب الغساسنة محمداً ولعلمهم دسوا في صفوفه فخشي أمرهم،^{٤٤} وذكر يوم مؤتة وما جره من هزء واستخفاف، فأمر بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في أواخر صيف السنة ٦٣٠ «في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر، وحين طابت الثمار — والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم — وكان قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له»، أما غزو تبوك فإنه بيّنه للناس؛ لبعد المسير، وليتأهبوا، فأمرهم بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم، فقال للجد بن قيس: «هل لك العام في جلد بني الأصفر؟» أي الروم، فقال جد: ما من رجل أشدَّ عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر. فأعرض عنه رسول الله وقال: قد أذنت لك، وحضَّ محمد أهل الغنى على النفقة، فاحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان وحده ألفَ دينار، وبلغ محمداً أن ناساً من «المنافقين» يجتمعون في بيت سُويلم اليهودي، يثبطون الناس عن غزوة تبوك؛ فأمر بإحراق البيت،^{٤٥} وسار الجيش حتى بلغ الحجر، وبها أطلال ثمود، ثم انطلق قاصداً تبوك، فبلغ الرومَ أمرٌ هذا الجيش وقوته، فأثرت الانسحابَ بجيشها.

فأقام محمد عند الحدود، ووجه رسالة إلى يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة عند خليج العقبة أن يدعنه أو يغزوه، فأقبل يوحنا وعلى صدره صليبٌ من ذهب، وقدم الهدايا وصالح محمداً على جزية يدفعها في كل عام، فأمنه محمد بكتاب وجهه إليه،^{٤٦} وخشي محمد

^{٤٣} الطبقات لابن سعد، ج ١، ص ٢٨.

^{٤٤} السيرة لابن هشام، ج ٤، ص ١٩١.

^{٤٥} السيرة لابن هشام، ج ٤، ص ١٧٠-١٧١.

^{٤٦} السيرة لابن هشام أيضاً، ج ٤، ص ١٨٠-١٨١.

انتقاض أكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني أمير دومة الجندل (الجوف) فأنفذ خالد بن الوليد إليه على رأس قوة، ففاجأه خالد وهو يطارد بقر الوحش وأخذه أسيراً وقدم به على محمد، فحقن له دمه وصالحه على الجزية.^{٤٧}

الجزية على يد

وتبرم بعض من اشترك في الحملة على تبوك وتأنفوا من أنهم تحملوا وعادوا ما تحملوه ولم يغنموا،^{٤٨} وكان بعض المسلمين قد تخلفوا عن مؤازرة النبي في الحملة على تبوك، فعاد النبي وتلا من سورة التوبة: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾.

ثم خرج أبو بكر حاجاً في ثلاثمائة مسلم، ولحق به علي بن أبي طالب فوقف في الناس وهم يؤدون مناسك الحج في منى، فتلا عليهم آيات من سورة التوبة: ﴿بِرَاءةٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ولما أتم تلاوتها صاح: «أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته.» ثم أجل الناس أربعة أشهر ليرجع كل إلى مأمنه وبلاده.^{٤٩}

ثم أمر الرسول بجهاد أهل الشرك بعد الأربعة الأشهر فجاءت الآيات: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَتُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾، ثم ذكر قوم قريش لتتقطع عنا الأسواق فهلكن التجارة وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق، فجاءت الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾؛ أي عوض ما تخوفتم من قطع الأسواق، ودلت الآيات التالية على أن الإشارة بالعبارة «الذين أوتوا الكتاب» هي إلى اليهود وإلى النصارى،^{٥٠} ومن هنا خروج القبائل العربية المسلمة إلى الشام والعراق.

^{٤٧} المرجع نفسه، ص ١٨٢.

^{٤٨} حياة محمد، لمحمد حسين هيكل، ص ٤٣٠.

^{٤٩} السيرة لابن هشام، ج ٤، ص ٢٠٣-٢٠٤.

^{٥٠} المصدر نفسه، ص ٢٠٥-٢٠٦.

الفصل الثاني

وصول الإسلام إلى أبرشيات أنطاكية

٦٥٦-٦٣٢

تعاليم الإسلام

هو الله لا إله إلا هو رب العالمين، خلق السماوات والأرض وما بينهما، وقد اختار أفرادًا من خلقه واتصل بهم بالوحي، ومن هؤلاء إبراهيم وموسى وعيسى، ومحمد رسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وعلى المسلم أن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، وعليه أن يبتعد عن الفحشاء والمنكر، وعليه أن يعدل ويعفو عند المقدرة، وأن يفي بالوعد، ويصبر عند الشدائد، كما عليه أن يردَّ التحية بأحسن منها وأن يستأنس قبل الدخول إلى بيوت الغير وأن يسلم على أهلها. والمؤمنون إخوة، أكرمهم عند الله أتقاهم، وعليهم طاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر منهم، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

الإسلام والإنجيل

والإنجيل بموجب القرآن منزلٌ تنزيلاً، وعلى المؤمنين أن يؤمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله، ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾^١، وعليهم أيضاً أن يروا في الإنجيل والتوراة تصديقاً لما جاء في القرآن نفسه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا

^١ سورة النساء: ١٣٦.

مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ^٢. وعلى النصارى أن يحكموا بما جاء في الإنجيل: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ
الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^٣.

توجيه الجيوش إلى الشام (٦٣٣-٦٣٤)

وجاء الإسلام يدعو إلى محو التعصب للقبيلة ومنع الثأر وفرض الدية وأوجب دفع الزكاة في أوانها، فتأثر به البعض وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، واستتقله آخرون وهم الأعراب، وعدَّ هؤلاء دفع الزكاة ضريبة ومذلة واعتبروها إتاوة تدفع من قبيلة إلى أخرى تتسلط عليها، ومن هنا قول قررة بن هبيرة لعمر بن العاص: «يا هذا، إن العرب لا تطيب لكم نفسًا بالإتاوة، فإن أعفيتها من أخذ أموالها فتسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم»^٤ والواقع أن عددًا من القبائل رفض دفع الزكاة بعد محمد، وكانت قريش لا تزال تتأفف من تكسير الأصنام وتخشى أن تخسر مغنم الحج، وكان المهاجرون من اليهود الوثنيين لا يزالون على حُدود الروم يدسون ويفسدون، وكان الروم أنفسهم قد دخلوا في حرب مع النبي لم تأت نتائجها في صالح المسلمين^٥.

فلما فرغ أبو بكر من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش إلى الشام، فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يدعوهم للجهاد ويرغبهم فيه، «فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع»، وأتوا المدينة من كل أوب، فعقد ثلاثة ألوية لثلاثة رجال؛ خالد بن العاص بن سعيد بن أمية، وشرحبيل بن حسنة، وعمر بن العاص بن وائل السهمي، واعترض عمر بن الخطاب على تعيين خالد بن سعيد؛ لأنه كان رجلًا فخورًا متعصبًا، فعزله أبو بكر ودفع لواءه إلى يزيد بن أبي سفيان، فسار به ومعاوية أخوه يحمله بين يديه، وكان العقد لكل من هؤلاء في بادئ الأمر على ثلاثة آلاف مقاتل، فما زال أبو بكر يمددهم بالرجال حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمائة، وأمر

^٢ سورة النساء: ٤٧.

^٣ سورة المائدة: ٤٧.

^٤ فجر الإسلام لأحمد أمين، ص ٧٤-٨٣، Watt, W. M. op. cit., 142-150.

^٥ فتوح البلدان للبلادري، طبعة أوروبية، ص ١٠٧.

الأمراء أن يعقدوا لكل قبيلة لواء، وأن يسلك عمرو بن العاص طريق أيلة (العقبة) عامداً لفلسطين، وأمر يزيد وشرحبيل أن يسلكا طريق تبوك.^٦

وادي عربية

وفي أوائل السنة ٦٣٤ وصلت جموع المسلمين العرب إلى شرق بحر الميت وغربه، فظن سرجيوس بطريق قيصرية فلسطين أنه أمام غزوة عادية من غزوات البدو، فقام بنفسه على رأس ما تيسر لديه من الرجال واتجه نحو الجنوب، فاشتد القتال في وادي عربية وتكاثر المسلمون فمُنِيَ سرجيوس بالفشل، ثم كان قتال في قرية دائن بالقرب من غزة وكان انتصار للمسلمين، ولقي سرجيوس حتفه، فانفتحت أبواب فلسطين على مصراعها أمام المسلمين، «وحدّث شيوخ الشام فيما بعد أن الفاتحين لم يقاتلوا قبل عربية، ولم يمروا بشيء من الأرض مذ فصلوا من الحجاز إلا غلبوا عليه بغير حرب وصار في أيديهم.»^٧

خالد بن الوليد

ولما صار عمرو بن العاص إلى أول فلسطين كتب إلى أبي بكر يُعلمه بكثرة العدو وسعة أرضه، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد وهو بالعراق يأمره بالمسير إلى الشام، فأتى خالد عين التمر ففتحها عنوة، ثم صدوداء فقاتله أهلها فظفر بهم، ثم قاتل جمعاً لبني تغلب بن وائل في المضيق والحصيد فهزمهم وسبى، ثم أغار على قراقر وهو ماء لكب، ثم فوز منه إلى سوي، وهو ماء لكب ومعهم فيه قوم بهرا فقاتلوه، ثم أتى أركة ففتحها صلحاً ثم دومة الجندل ففتحها أيضاً، ثم أتى تدمر فامتنع أهلها وتحصنوا ثم طلبوا الأمان، فأمنهم «على أن يرضخوا للمسلمين ويكونوا ذمة»^٨، ثم صمد أهل القريتين في وجهه وأهل حوارين فظفر وغنم وسبى، ثم وصل إلى مرج راهط فأغار على غسان في يوم فصحهم فسبى وقتل، وقدم خالد على المسلمين في حواران فحاصروا بصرى عاصمتها وحاربوا بطريقها فصالحهم أهلها، إما على طعام وزبيب وخل أو على جزية يؤدونها، ثم دخل خالد موآب صلحاً.^٩

^٦ فتوح البلدان، ص ١٠٨-١٠٩.

^٧ المصدر نفسه، ص ١٠٩.

^٨ المصدر نفسه، ص ١١١-١١٢.

^٩ فتوح البلدان للبلاذري، ص ١١٢-١١٣، و ١٥٢.

أجنادين وفحل

ونشط هرقل وجيش «فسرّب بعضاً من جماعته وتجمع الباقي من النواحي»، وعقد اللواء لأخيه ثيودوروس القبقلاق،^{١٠} وصعب على ثيودوروس أن يستجلي خطة خصمه في الحرب، ولعل سبب ذلك أن هذه القبائل المغيرة لم تكن لها خطة عسكرية واضحة، وتقدم ثيودوروس ببطء فرابط في جلق^{١١} أولاً ليحمي دمشق ويهدد القبائل الغازية، ثم اتجه جنوباً للدفاع عن المدينة المقدسة، فصمد في أجنادين بين القدس وغزة، فترفع خالد ولم يحفل بإمكانات السلب والنهب، بل أسرع إلى الجنوب عبر شرق الأردن وجمع الجموع في وادي عربة، ثم دفع بها إلى أجنادين، فنشبت معركة حامية في الثلاثين من تموز سنة ٦٣٤ كُتب النصر فيها للعرب، فجلا الروم عن الأرياف في جنوب فلسطين وهمدوا وراء مستنقعات بيسان Scythopolis فغلبوا فيها، فقاموا إلى فحل Pella، فقتلوا أشد قتال وأبرحه، وقتل بطريقهم وتفرق الباقون في مدن الشام، وذلك في الخامس والعشرين من كانون الثاني سنة ٦٣٥، وتحصّن أهل فحل فحصرهم المسلمون حتى سألوا الأمان على أداء الجزية عن رءوسهم والخروج عن أرضهم، فأمنوا على أنفسهم وأموالهم ولم تهدم أسوارهم، ولم يبق للروم في فلسطين سوى مدنها المحصنة المنيعة.^{١٢}

تطور في الهدف والخطة

وحدث أبو حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي عن «عدة»، منهم أبو بشر مؤذن مسجد دمشق، أن «المسلمين» لما قدموا الشام كان كل أمير منهم يقصد إلى ناحية ليغزوها ويبيث غاراته فيها، فكان عمرو بن العاص يقصد لفلسطين وكان شرحبيل يقصد للأردن وكان يزيد بن أبي سفيان يقصد «لأرض» دمشق،^{١٣} وتوفي أبو بكر في الثالث والعشرين من آب سنة ٦٣٤، وتولى الخلافة بعده عمر بن الخطاب، وبان عيب

^{١٠} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١١٣، والطبري، ج ١، ص ٢٣٤٧ ولعل الإشارة إلى اللقب Curopalates ومعناه: قائد القوات جميعها.

^{١١} في جنوب حوران الشرقي.

^{١٢} فتوح البلدان للبلاذري ص ١١٥.

.Becker, K., Expanston of Saracens Cam. Med. Hist., II, 341-342

^{١٣} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١١٦.

الروم وضعفهم وعيب الفرس وانتهاء أمرهم، فتحول الغزو والسلب والسبي إلى فتح، وأصبح رائد المسلمين السيطرة على الشام والبقاء فيها،^{١٤} واتخذوا من السامريين واليهود «عيوناً وأدلاء لهم»،^{١٥} وكان أمير الغزاة في عهد أبي بكر عمرو بن العاص، يقودهم عند الاقتضاء، ثم تزعم غاراتهم خالد بن الوليد، فلما تطور الهدف وجاء عمر «ولّى أبا عبيدة بن الجراح أمر الشام كله، وأمّره الأمراء في الحرب والسلم، ففتح شرحبيل بن حسنة طبرية صلحاً على أن يؤمن أهلها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومنازلهم، إلا ما جلاوا عنه وخلوه. وفتح جميع مدن الأردن على هذا الصلح فتحاً سيراً، ففتح بيسان وسوسية وأفيق وجرش وبيت راسن وقدس والجولان وعكة وصورة وصفورية».^{١٦}

دمشق (٦٣٥)

وتوجه المسلمون إلى دمشق، فالتقوا بالروم في مرج الصفر، فاقتتل الطرفان قتالاً شديداً «جرت في أثناءه الدماء في الماء وطحنت بها الطاحونة»، وجرح من المسلمين أربعة آلاف، ثم ولي الكفرة منزهمين مغلولين لا يلوون على شيء حتى أتوا دمشق وبيت المقدس، وأقام المسلمون خمس عشرة ليلة، ثم زحفوا على دمشق فأخذوا الغوطة وكنائسها عنوة، وتحصن أهل المدينة وأغلقوا أبوابها في أوائل آذار السنة ٦٣٥،^{١٧} وحاصر المسلمون دمشق ستة أشهر، وأهمل أمرها هرقل ولم يرسل النجديات، فوقف أسقفها على السور في أيلول، فدعي له خالد، فإذا أتى سلم عليه وحادثه فقال له: يا أبا سليمان إن أمركم مقبل، ولي عليك عدة فصالحني عن هذه المدينة، فدعا خالد بدواة وقرطاس فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها، أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ والخلفاء والمؤمنين، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية.

^{١٤} Lammens, H., La Syrie, I, 55

^{١٥} البلاذري أيضاً، ص ١٥٨.

^{١٦} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١١٦ أيضاً.

^{١٧} المصدر نفسه، ص ١١٨-١٢٠.

ولما رأى الأسقف أن أبا عبيدة قد قارب دخول المدينة من باب الجابية؛ بدر إلى خالد فصالحه وفتح له الباب الشرقي، فدخل والأسقف معه ناشراً كتابه الذي كتبه له، فقال بعض المسلمين: والله ما خالد بأمير، فكيف يجوز صلحُه؟ قال أبو عبيدة: إنه يجيز على المسلمين أداناهم، وأجاز صلحَه وأمضاه، ولم يلتفت إلى ما فُتح عنوة، فصارت دمشق صلحاً كلها.^{١٨}

«وزعم الهيثم بن عدي أن أهل دمشق صولحوا على أنصاف منازلهم وكنائسهم، وقال محمد بن سعد: قال عبد الله الواقي: قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أرَ فيه أنصاف المنازل والكنائس، ولا أدري من أين جاء به من رواه، ولكن دمشق لَمَّا فُتحت لحق بشرٌ كثيرٌ من أهلها بهرقل، وهو في أنطاكية، فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون.»^{١٩}

ورُوِيَ عن الأوزاعي أنه قال: كانت الجزية في الشام في بدء الأمر جريباً وديناراً على كل جمجمة، ثم وضعها عمر بن الخطاب على أهل الذهب أربعة دانير وعلى أهل الورق أربعين درهماً وجعلهم طبقات، ورُوِيَ أن اليهود كانوا كالدِّمة للنصارى؛ يؤدون إليهم الخراج فدخلوا معهم في الصلح.^{٢٠}

بعلبك وحمص

ولما فرغ أبو عبيدة من أمر مدينة دمشق؛ سار إلى حمص فمر ببعلبك، فطلب أهلها الأمان والصلح فصالحهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وكتب لهم:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب أمان لأهل بعلبك رومها وفرسها «وعربها» على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم، داخل المدينة وخارجها وعلى أرحائهم، وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً، ولا ينزلوا قرية عامرة، فإذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاءوا، ومن أسلم منهم فله ما لنا

^{١٨} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٢٠-١٢٢.

^{١٩} المصدر نفسه، ص ١٢٣.

^{٢٠} البلاذري أيضاً، ص ١٢٤.

وعليه ما علينا، ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج، شهد الله وكفى بالله شهيداً.^{٢١}

ثم نهض أبو عبيدة إلى حمص، فنزل في باب الرستن، فصالحه أهل حمص على تأمين أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم، واستثنى عليهم من هذه ربع كنيسة يوحنا للمسجد، واشترط الخراج على من أقام منهم.^{٢٢}

بيروت (٦٣٦)

وأتى يزيد بن أبي سفيان بعد فتح مدينة دمشق صيدا وعرقة وجبيل وبيروت، «وعلى مقدمته أخوه معاوية» ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثيراً من أهلها، وتولى فتح عرقة معاوية نفسه،^{٢٣} أما طرابلس فإنها ظلت صامدة حتى أوائل ولاية معاوية (٦٣٩).

حماة والمعرة واللاذقية (٦٣٦)

ومضى أبو عبيدة بعد حمص إلى حماة فتلقاه أهلها مُدْعِنِينَ، فصالحهم على «الجزية في رءوسهم والخراج في أرضهم»، فمضى نحو شيزر «فخرجوا يكفرون ومعهم المقلسون» ورضوا بمثل ما رضي به أهل حماة، وبلغت خيل أبي عبيدة الزراعة والقسطل، ومر بمعرة حمص فخرجوا يقلسون بين يديه، ثم أتى فامية، ففعل أهلها مثل ذلك، وأذعنوا بالجزية والخراج، ووصل إلى اللاذقية فقاتله أهلها ودخل عبادة الحصن وعلا حائطه «فكبر عليه»، وهرب قوم من نصارى اللاذقية إلى اليسيد ثم طلبوا الأمان، فقوقعوا على خراج يؤدونه قُلُوا أو كثروا، وتركت لهم كنيستهم، وبنى المسلمون مسجداً جامعاً، ثم فتحوا بلدة على فرسخين من جبلة، ثم فتح عبادة أنطرطوس ومرقية وبلتياس.^{٢٤}

^{٢١} البلاذري، ص ١٢٩-١٣٠.

^{٢٢} المصدر نفسه، ص ١٣٠-١٣١.

^{٢٣} المصدر نفسه أيضاً، ص ١٢٦-١٢٧.

^{٢٤} البلاذري، ص ١٣٢-١٣٣.

يوم اليرموك (٦٣٦)

وكان هرقل في أثناء هذا كله يسعى بنشاط بين أنطاكية والرها؛ لتجيش قوة كبيرة يتمكن بها من صد المسلمين وإنقاذ سورية الجنوبية وفلسطين والساحل، وبرغم خسارته الكبيرة في الرجال إبان الحرب الفارسية، وبرغم قلة المال في الخزينة؛ فإنه حشد في خريف السنة ٦٣٥ من الروم والأرمن والعرب بين الثلاثين والخمسين ألفاً، وأمر عليهم ثيودوروس تريثوروريوس، وأنفذهم في ربيع السنة ٦٣٦ إلى الجنوب، وكان خالد آنئذٍ في حمص، فلما علم بقُدوم هذا الجيش الكبير جلا عن حمص ودمشق وسائر المدن المجاورة، وجمع ما لديه من الرجال خمسة وعشرين ألفاً، وانتقى الجابية فصمد فيها فأدركه الروم وضربوه فدافع وانسحب إلى اليرموك، أحد روافد الأردن الشرقية.

ووصل الروم إلى اليرموك في تموز السنة ٦٣٦، وتناوش الفريقان وتناول بعضهم بعضاً في معارك صغيرة ردحاً من الزمن، وفيما خالد ينتظر وصول المدد كان الروم يتخاصمون فيما بينهم بدافع الحسد وقلة الانضباط، فانهزم ثيودوروس في عدد من تلك المناوشات، فنادى الجند ببناس فسيلفسا، فأدى هذا الفساد إلى انسحاب القبائل العربية المسيحية من معسكر الروم وامتناعهم عن القتال، فجاءت هذه الفوضى وجاء هذا الانسحاب في صالح المسلمين، واغتنم خالد هذه الفرصة السانحة فقام بحركة التفاف حول الروم من الشرق، ثم احتل الجسر فوق وادي الرقاد فحرم خصمه إمكان التراجع غرباً، وفي الثاني والعشرين من آب سنة ٦٣٦ انقضَّ عليهم بفرسانه المجريين فقتل من قتل وشرد من شرد. ٢٥

أنطاكية وحلب (٦٣٨)

وسار أبو عبيدة إلى حمص، ثم أتى قنسرين وعلى مقدمته خالد بن الوليد، فقاتله أهلها، ثم لجئوا إلى حصنهم وطلبوا الصلح، فصالحهم أبو عبيدة على مثل صلح حمص، وكان حاضر قنسرين لتتوخ «منذ أول ما تنخوا بالشام»، فدعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام، فأسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية، وبقي بنو سليح على النصرانية، وكان بالقرب

٢٥ الرسل والملوك للطبري، ج ١، ص ٢٢٤٧ وما يليها، وفتوح البلدان للبلاذري، ص ١٣٥.

من حلب حاضر يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم، فصالحهم أبو عبيدة على الجزية، ورحل إلى حلب وعلى مقدمته عياض الفهري، فوجد أهلها قد تحصنوا، فنزل عليها، فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها، ثم سار إلى أنطاكية وقد تحصن بها خلق من جند قنسرين، فلما وصل إلى مهروبة لقيه جمع للعدو ففضّهم وألجأهم إلى المدينة وحاصر أهلها من جميع أبوابها، وكان معظم الجيش على باب فارس وباب البحر، ثم صالحوه على الجزية والجلء، فجلا بعضهم وأقام بعضهم، وكانت أنطاكية عظيمة الذكر والأمر عند عمر وعثمان، فلما فتحت كتب عمر إلى أبي عبيدة أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين «أهل نيات وحسبة»، واجعلهم بها مرابطة «ولا تحبس عنهم العطاء!»^{٢٦}

وبلغ أبا عبيدة أن جمعاً للروم بين معرة مصرين وحلب، فلقبهم، وقتل عدة بطارقة، وفتح معرة مصرين على مثل صلح حلب، وجالت خيوله فبلغت بوقا وفتحت قرى الجومة، وفتح أبو عبيدة جميع أرض قنسرين وأنطاكية، ثم سار يريد قروش فتلقيه راهب من رهبانها فصالحه فعقد لأهلها عهداً مثل الذي أعطى أهل أنطاكية. وأتى أبو عبيدة حلب المأجور ودلوك ومنبج، فصالحهم مثل صلح أنطاكية، وبعث جيشاً عليه حبيب بن مسلمة إلى بالس وقاصرين، فصالحهم على الجزية والجلء، فجلا أكثرهم إلى أرض الروم وأرض الجزيرة، وبلغ أبو عبيدة الفرات، ثم رجع إلى فلسطين.^{٢٧}

الجرجمة (٦٣٨)

وغزا حبيب بن مسلمة الجرجومة في جبل اللكام بين حلب والإسكندرية «عند معدن الزاج»، فلم يقاتله أهلها، ولكنهم بدروا بطلب الأمان والصلح، فصالحوه «على أن لا يؤخذوا بالجزية، وأن ينقلوا أسلاب من يقتلون من أعداء المسلمين»، ودخل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع، من الأنباط وغيرهم؛ في هذا الصلح.^{٢٨}

^{٢٦} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٤٤-١٤٨.

^{٢٧} المصدر نفسه، ١٤٩-١٥٠.

^{٢٨} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٥٩.

المدينة المقدسة (٦٣٨)

وكان لا يزال يعلو السدة البطريركية في أورشليم الشيخ الورع التقي الأمين صفرونيوس، وقد سبق الكلامُ عنه في الفصل الأخير من المجلد الأول، فلما شعر بالخطر المداهم أبعد الصليب المقدس، وأثمنَ ما لديه من الأواني الكنسية إلى ساحل البحر، فالقسطنطينية.^{٢٩} وعاد أبو عبيدة إلى فلسطين بعد فتح الشمال، «فأمر بتشديد الحصار على المدينة المقدسة فطلب أهلها الأمان على أن يكون المتولي للعقد لهم عمر نفسه»، فكتب أبو عبيدة إلى عمر، فقدم فنزل الجابية، ثم سار إلى «إيلياء»، فاستقبله صفرونيوس على جبل الزيتون وفاوضه في صلح «على مثل ما صُوح عليه أهل مدن الشام»، فقبل عمر وكتب بذلك، ثم نزل الكبيران إلى المدينة لزيارتها، فصلى الخليفة عند أطلال هيكل سليمان، عند الصخرة التي قام فوقها فيما بعد مسجد عبد الملك بن مروان، وجاء في رواية عربية ثانية أن الخليفة أعطى سكان بيت المقدس على ما أحاط به حصنهم «شيئاً» يؤدونه ويكون للمسلمين ما كان خارجاً.^{٣٠}

قيصرية وطرابلس (٦٤٠-٦٤٤)

وتوفي أبو عبيدة، فولى الخليفة عمر بن الخطاب يزيد بن أبي سفيان الأردن وفلسطين، وأمره أن يغزو قيصرية فلسطين، فنهض إليها في سبعة عشر ألفاً، فقاتله أهلها فحاصروهم، «وكان سبب فتحها أن يهودياً يقال له: يوسف، أتى المسلمين ليلاً فدللهم على طريق في سرب لقاء تأمينه على أهله، فدخلها المسلمون في الليل وكبروا فيها، فأراد الروم أن يهربوا من السرب فوجدوا المسلمين عليه، وفتح المسلمون الباب فدخل معاوية، وكان قد تسلّم القيادة بعد وفاة أخيه، فسبى أربعة آلاف وأرسلهم إلى عمر، وحُوصرت قيصرية سبع سنين، وكان بها خلُقٌ من العرب.»^{٣١}

^{٢٩} Sebeos, 98.

^{٣٠} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٣٨-١٣٩.

Theophanes, Chron., a 6129; Michel le Syrien, II, 425-426; Eutichius, Annales, P. G., Vol. 111, Col. 1099; Vincent et Abel, Jerusalem Nouvelle, II, 930-932.

^{٣١} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٤٠-١٤٢.

ولما استخلف عثمان وولّى معاوية الشام وجّه معاوية سفيانَ بن مجيب الأزدي إلى «أطرابلس» وهي ثلاث مدن مجتمعة، فبنى في مرج على أميال منها حصنَ سفيان، وقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره وحاصرهم، فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدّهم، أو يبعث إليهم بمراكب يهربون فيها، فوجه إليهم مراكب كثيرة فركبوها ليلاً وهربوا، فأسكنها معاوية جماعةً كبيرة من اليهود. ٢٢.

يوم الجابية

وغزا المسلمون وغنموا، ثم غلبوا الروم في الميادين الطلقة، فحاصروا المدن المحصنة فصالحت، واتسعت رقعة الدولة ودخل فيها ألوف مؤلفة من النصارى والمشركين واليهود، وتدفقت الأموال على بيت المال وكثُرَ طُلَّابُهَا واختلّفوا في ما أصابهم منها، وكان لا بدّ من الدفاع عن هذه الدولة والنظر في أمور أهلها وسكانها، فقام عمر إلى الجابية عاصمة الغساسنة في الجولان يصحبهُ عددٌ من الصحابة، فاستدعى كبار القادة والوجهاء وشاور؛ فقرر اتخاذ بعض الإجراءات الحربية والمالية والإدارية، وكان ذلك في أثناء السنة ٦٣٨.

قضية الجزية

وذكر المسلمون الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، ففرضوا جزية على رءوس النصارى وخراجًا على أملاكهم.

وقدّر للمسلمين النصر على الروم في اليرموك، فأتى جبلةُ بن الأيهم ملك غسان عمرَ بن الخطاب — وهو على نصرانيته — فعرض عمرُ عليه الإسلام وأداء الصدقة، فأبى ذلك وقال: أقيم على ديني وأؤدي الصدقة، فقال عمر: إن أقمت على دينك فأدّ الجزية، فأنف

٢٢ المصدر نفسه، ص ١٢٧.

منها، فقال عمر: ما عندنا لك إلا واحدة من ثلاث؛ إما الإسلام وإما أداء الجزية وإما الذهاب إلى حيث شئت، فدخل جبلة بلاد الروم في ثلاثين ألفاً، فلما بلغ ذلك عمر ندم، وعاتبه عبادة بن الصامت فقال: لو قبلت منه الصدقة ثم تألفته لأسلم، فوجه عمر عمير بن سعد الأنصاري إلى بلاد الروم وأمره أن يتلطف لجبلة ويدعوه إلى الرجوع إلى بلاد الإسلام على أن يؤدي ما كان بذل من الصدقة ويقيم على دينه، فسار عمير حتى دخل بلاد الروم وعرض على جبلة ما أمره عمر بعرضه فأبى إلا المقام في بلاد الروم.^{٣٣}

وكتب عمير بن سعد إلى عمر أنه أتى شق الفرات الشامي، وأرادَ من هناك من بني تغلب على الإسلام، فأبوا وهموا بالحاق بأرض الروم، فكتب إليه عمر يأمره أن يضعف عليهم «الصدقة» التي تؤخذ من المسلمين في كل سائمة وأرض.^{٣٤}

وتقدّم أبو عبيدة في شمال سورية ووصل إلى جبال اللكام، وغزا حبيب بن مسلمة الجرجومة فبدر أهلها في طلب الأمان «على أن لا يؤخذوا بالجزية، وأن ينقلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين»، فوافق حبيب ودخل الجراجمة في دولة الإسلام ولم يدفعوا الجزية.^{٣٥}

وصالحت حلب على جزية تؤديها كسائر مدن الشام، ولكنها احتفظت بحصنها، وقد مرّ بنا كيف تنص رواية من الروايات على أن المسلمين صالحوا سگان بيت المقدس على «شيء» يؤدونه وأعطوهم ما أحاط به حصنهم على أن يكون للمسلمين ما كان خارجاً، وقوطع أهل اللاذقية على «خراج» يؤدونه، قُلُوا أو كثروا!

ولما فتح عياض بن غنم الرها أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم «على أن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهرها ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً».^{٣٦}

عهدة عمر

ونظر عمر بن الخطاب نظرة فاتح مؤسس فأمّن وعدل وأنصف، واعتبر الدولة الفتية دولة إسلامية تحمي الإسلام والمسلمين أولاً كما كانت دولة الروم دولة مسيحية تحمي

^{٣٣} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٣٦.

^{٣٤} المصدر نفسه، ص ١٨١-١٨٢.

^{٣٥} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٥٩.

^{٣٦} المصدر نفسه، ص ١٧٣.

المسيحية والمسيحيين أولاً، ومن هنا قوله إلى عمرو بن العاص عندما حلَّ القحط في المدينة: «أخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها.»^{٢٧}
وروى عبد الرحمن بن غنم الأشعري، الذي تُوِّفِي سنة ٧٨ للهجرة: كتبنا لعمر بن الخطاب — رضي الله عنه — حين صالح نصارى أهل الشام:

هذا كتاب عبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا، أنكم لَمَّا قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذراريننا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطًا منها في حُطط المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن نُنزل مَنْ مَرَّ بنا من المسلمين ثلاث ليالٍ نطعمهم، ولا نُؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم غشًا للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نُظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحدًا، ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أراد، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم، ولا نركب بالسروج ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر، وأن نجزَّ مقدم رءوسنا ونلزم زِينًا حيثما كُنَّا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، ولا نُظهر صلباننا ولا كتبنا في شيء من طُرُق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربًا خفيفًا، ولا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانيننا ولا باعوثنا، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نُظهر النيران في شيء من طرُق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع إلى منازلهم.

^{٢٧} الرسل والملوك للطبري، ج ١، ص ٢٥٧٧.

وأتى الأشعري خليفة الخليفة وأطلععه على هذا النص، فزاد فيه:

ولا نضرب أحدًا من المسلمين، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل مِلَّتِنَا، وَقَبِلْنَا عَلَيْهِ الْأَمَانَ، فَإِن نَحْنُ خَالَفْنَا فِي شَيْءٍ مِّمَّا شَرَطْنَا لَكُمْ وَضَمْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا فَلَا ذِمَّةَ لَنَا، وَقَدْ حَلَّ مَنَا مَا يَحِلُّ مِنْ أَهْلِ الْمَعَانِدَةِ وَالشَّقَاقِ.^{٣٨}

الكنائس والأديار

واحترم المسلمون حَقَّ النصارى في استعمال الكنائس القائمة في أكثر المُدُن والقُرى، وأخذوا بعضها عنوة ككنائس الغوطة وطبرية،^{٣٩} أما كاتدرائية دمشق فإن نصفها أصبح مسجدًا منذ اللحظة الأولى، وأراد معاوية أن يزيد النصف الآخر في المسجد، «فأبى النصارى ذلك فأمسك»، وما فتئ بيدهم حتى عهد الوليد بن عبد الملك،^{٤٠} وأمن أبو عبيدة نصارى حمص على كنائسهم، ولكنه استثنى ربع كنيسة يوحنا للمسجد.^{٤١}

خروج النصارى

وجاء في المراجع العربية في كتاب فتوح البلدان للبلاذري؛ أنه لَمَّا فَتَحَتْ دِمَشْقُ «لِحَقِّ بَشَرٍ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِهَا بِهَرَقْلٍ وَهُوَ فِي أَنْطَاكِيَةِ، فَكَثُرَتْ فُضُولُ مَنَازِلِهَا». وجاء أيضًا أن يزيد بن أبي سفيان وأخاه معاوية «أجليا كثيرًا من أهالي صيدا وبيروت وجبيل وعرقة» لدى فتحها، وأن أهالي طرابلس «هربوا» بمراكب قبيل سقوط بلدتهم، وجاء أيضًا أن جبلة بن الأيهم الغساني دخل بلاد الروم بعد اليرموك «في ثلاثين ألفًا»، وأن أهل أنطاكية صالحوا على الجزية والجلاء «فجلا بعضهم وأقام بعضهم»، وأن أكثر أهالي بالس وقاصرين جلاوا إلى بلاد الروم، وكذلك سكان الثغور الشامية بين الإسكندرونة وطرطوس، فإنهم «هربوا إلى بلاد الروم خوفًا»، وقيل: إن هرقل أدخلهم معه عند انتقاله من أنطاكية،

^{٣٨} سراج الملوك للطرطوشي، ص ٢٨٣.

^{٣٩} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١١٦ و ١٢٥.

^{٤٠} المصدر نفسه، ص ١٢٥.

Jalabert, L., Damas, Dict. Arch. Chrét., IV, col. 125-126

^{٤١} المصدر نفسه أيضًا، ص ١٣١.

ووجّه أبو عبيدة ميسرة بن مسروق إلى درب بفراس ليقطعها «فلقي جمعًا للروم معهم مستعربة من غسان وتنوخ وأياد؛ يريدون اللحاق بهرقل». ^{٤٢}
ولم يرض هرقل عن هذا النزوح الكبير، فإنه أعلم المخلصين من النصارى في جميع أنحاء سورية وفلسطين أنه عائدٌ لا محالة، وأوجب عليهم البقاء في أماكنهم؛ استعدادًا لجولة ثانية في ميدان القتال. ^{٤٣}

اليعاقبة والمسلمون

ويرى عددٌ من المستشرقين المستعربين، ومن رجال الاختصاص في تاريخ الروم أنَّ اختلاف النصارى في كنيسة أنطاكية حول الطبيعة الواحدة، وضغط الروم على مَنْ لم يشاركهم قولهم في الطبيعتين؛ حمل اليعاقبة على الترحيب بالدولة الإسلامية الجديدة. ويغيب عن بالٍ هؤلاء أنَّ معظم مَنْ وقف إلى جانب هرقل من قبائل النصارى العرب كان ممن قال بالطبيعة الواحدة، وأن مَنْ نزح من هؤلاء إلى بلاد الروم كان من المونوفيسيين أيضًا، وأن هرقل كان قد ثبتَّ (٦٣١) في رئاسة الكنيسة الأنطاكية بطريرك اليعاقبة أنفسهم أثناسيوس الجمال، وأن بابا رومة كان قد سكت عن القول بالمشيئة الواحدة أو قاله، وأن بطاركة القسطنطينية والإسكندرية وأرمينية كانوا قد اتفقوا على هذه العقيدة الجديدة وحدها، فلا يجوز بإزاء هذه الحقائق الناصعة وإزاء الأعمال الحربية التي قام بها اليعاقبة أنفسهم ضد المسلمين أن نقول مع أفتيخيوس: إن أبناء حمص رأوا في هرقل إمبراطورًا مارونيًّا عدوًّا للدين القويم؛ لأنه قال بالمشيئة الواحدة، ^{٤٤} وأما قول المستشرق المستعرب ده غويه: إن حروب الفتح استهدفت تحرير العرب في سورية من نير الروم؛ فإنه مجرد خيال لا تؤيده النصوص.

البطريرك مقدونيوس (٦٢٨-٦٤٠)

وكاد اليهود لأنسطاسيوس الثاني خليفة الرسولين وأمسكوه وعذبوه وجروه في شوارع أنطاكية جرًّا، فمضى نحبه شهيدًا في السنة ٦٠٩، ثم كان ما كان من أمر الفرس وزحفهم،

^{٤٢} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٢٣ و ١٣٢ و ١٣٦ و ١٤٧ و ١٥٠ و ١٦٤.

^{٤٣} Dolger, Reg., 210; Agapius de Maboug, Patr. Or., VIII, Fasc. 3, 471.

^{٤٤} Patr. Graeca, Vol, 111, Col. 1088.

فتولى السدة الرسولية الأنطاكية غريغوريوس الثاني، وكان آنئذٍ في القسطنطينية، فبات ينتظر نهاية الحرب الفارسية؛ لينهض إلى أنطاكية ويدير دفة الرئاسة بنفسه، وطالت الحربُ فطال انتظارُهُ، وتوفي في القسطنطينية بعيدًا عن أنطاكية في السنة ٦٢٠، وخلفه في الرئاسة أنسطاسيوس الثالث، وبقي في القسطنطينية حتى وفاته في السنة ٦٢٨.^{٤٥} وكان سرجيوس البطريك المسكوني قد بدأ يقول بالمشيئة الواحدة، ورغب في تعميم رأيه وتدعيمه، فسعى لمقدونيوس أحد أصدقائه برئاسة كنيسة أنطاكية، وتسلمَ مقدونيوس عكاز الرعاية في القسطنطينية، وبقي فيها،^{٤٦} وقضت ظروفُ التقارب وتوحيد الصفوف بالاعتراف ببطريك اليعاقبة أنثاسيوس الجمال بطريركًا على أنطاكية؛ مقابل اعترافه بالطبيعتين والمشيئة الواحدة، فأصبح هو رئيس كنيسة أنطاكية المسئول، ثم تُوِّفي أنثاسيوس بعد هذا بقليل (٦٣١) فعادت السلطة إلى يدِ مقدونيوس، ووافق مقدونيوس صديقه سرجيوس، فأعلن قوله بالمشيئة الواحدة، وسعى لتعميمه في أبرشيات أنطاكية، فقال هذا القول عددٌ كبيرٌ من الأساقفة والرهبان، وبين هؤلاء رهبانُ القديس مارون — كما سبق وأشرنا^{٤٧} — وظهر الإكثيسيس وقد سبق الكلام عنه، فأيده مقدونيوس وحث المؤمنين على قبوله.

البطريك جاورجيوس الأول (٦٤٠-٦٥٥)

واستمر العداء بين الروم والمسلمين، وأنفذ الرومُ حملة على مصر وحملة غيرها على أنطاكية (٦٤٦)، وركب المسلمون البحرَ وهجموا على قبرص (٦٤٩) واحتلوا جزيرة أرواد (٦٥٠) وانتصروا على أسطول الروم في «ذات الصواري» (٦٥٥)، فلم يتمكن جاورجيوس الأول خلف مقدونيوس من الوصول إلى أنطاكية والإقامة فيها، فبقي في القسطنطينية حتى وفاته في السنة ٦٥٥.

^{٤٥} Constantius, Patriarchs of Antioch, Neale, J. M., op. cit., 167.

^{٤٦} Hefelé-Leclercq, op. cit., III, 390-391.

^{٤٧} Bréhier, L., Schisme Monothélite, Fliche et Martin. op. cit., v. 169.

مجمع اللاتران (٦٤٩)

وتُوفي هرقل في السنة ٦٤١ وتولى العرش بعده في آنٍ واحدٍ كلٍ من ولديه قسطنطين الثاني وهرقلون على أن يحكما بإشراف الفسليسة مرتينة زوجة هرقل الثانية ووالدة هرقلون، وتُوفي قسطنطين الثاني في السنة ٦٤١ مسمومًا، فاثُهمت مرتينة بقتل ابن ضرتها، وتمرد الجند وأكروهوا مرتينة على إشراك قسطنطين الثالث ابن قسطنطين الثاني في الحكم، ثم قطع لسان مرتينة وجدع أنف ابنها ونُفيا إلى رودوس، وتولى الحكم قسطنطين الثالث (٦٤١-٦٦٨).

وكان هرقل قد أصدر في سنة ٦٣٨ الإكتيسيس الذي أوجب به القول بالمشيئة الواحدة، وكان بيروس قد خلف سرجيوس على السدة المسكونية (٦٣٨) واضطرَّ أن يتنازل على أثر هياج الشعب في العاصمة ضد مرتينة ربيته، فهاجر إلى إفريقية، وكان قد قام بينه وبين مكسيموس المعترف جدالٌ علني (٦٤٥) انتهى باقتناع بيروس ورجوعه عن بدعة القول بالمشيئة الواحدة.

فكتب بيروس إلى بولس الثاني خليفته على عرش كنيسة القسطنطينية يهدده بالقطع إن لم يرجع عن الهرطقة ويرفع الإكتيسيس عن أبواب الكنائس، ورحل بيروس ومكسيموس معًا إلى رومة فأيدَهُما البابا ثيودوروس الأول (٦٤٢-٦٤٩)، فألغى قسطنطين الثالث الإكتيسيس وأصدر التيبوس Typos القانون (٦٤٨) محظرًا به كل تعليم بالمشيئة الواحدة أو المشيئتين.^{٤٨}

وتُوفي غريغوريوس برايفيكتوس إفريقية وصديق بيروس وحاميه، فخشي بيروس ألا يتمكن من العودة إلى عرش القسطنطينية، فالتجأ إلى أفلاطون إكسرخوس رابينه وعاد إلى القول بالمشيئة الواحدة، فغضب البابا ثيودوروس ودعا مجمعًا محليًا ثم زار قبر الرسول مستجيرًا، وغمس «قلامسه Calamus» قلمه في الدم المقدس ووقع حارمًا بيروس.^{٤٩} وانقضى أجلُ ثيودوروس الأول في الثالث عشر من أيار سنة ٦٤٩ فخلفه على السدة الرومانية مرتينوس الأول (٦٤٩-٦٥٣)، وكان مرتينوس قد مثلَّ السدة الرومانية في

^{٤٨} Mansi, X, 1029-1032; Hefelé-Leclercq, III, 432-434

^{٤٩} Theophanes, Chron., a. 6121; Hefelé-Leclercq, III, 430; Liber Pontificalis, (Duchesne),

القسطنطينية مدّة من الزمن وخبّر رجالها، فلم يرَ فائدة في المفاوضة. فلما تسلّم عكاز الرعاية دعا إلى اللاتران عددًا كبيرًا من الأساقفة للنظر في أمر البدعة الجديدة، ولبّي هذه الدعوة مائة وخمسة أساقفة معظمهم من إيطالية وبعضهم من إفريقية، ووصل اسطفانوس أسقف دورة في فلسطين، فاشترك في أعمال هذا المجمع، وحضر الجلسات عددًا من القساوسة والرهبان اليونانيين المقيمين في رومة آنئذٍ، وكان بين هؤلاء يوحنا رئيس دير القديس سابا الفلسطيني وجاورجيوس رئيس دير قيليقيا في رومة. وأجمع الأعضاء على شجب التعاليم الجديدة واعتبارها خروجًا وهرطقة، فكانت جلسات خمس، استمع فيها الآباء إلى قراءة جميع ما صنّف في المشيئة الواحدة، وإلى الأوامر الإمبراطورية الصادرة في صدها، فاعتبروها جميعها من صنع سرجيوس وببروس وبولس بطاركة القسطنطينية وكيروس بطريك الإسكندرية وثيودوروس أسقف فارانة، ثم نبذوها وقطعوا هؤلاء البطاركة، وكرروا الاعتراف بالإيمان النيقاوي واقترحوا إضافة بند ينص على القول بالمشيئتين.^{٥٠}

مرتينوس وأنطاكية وأورشليم

وساء الآباء المجتمعين انتشارُ القول بالمشيئة الواحدة في أبرشيات أنطاكية وأورشليم، وعلموا بشغور الكرسي الأورشليمي وابتعاد بطاركة أنطاكية عن حقل عملهم وقولهم بالمشيئة الواحدة، فأقام مرتينوس أسقف فيلادلفية (عمان) وكيلاً بطريكياً على أبرشيات الكنيستين الأنطاكية والأورشليمية، وحضّه على خلع كل أسقف يصر على القول بالمشيئة الواحدة،^{٥١} ووجه مرتينوس رسالة رعائية إلى المؤمنين في أنطاكية وأورشليم، كما كتب إلى بعض الشخصيات الكبيرة من الشعب والإكليروس، ومما جاء في هذه الرسائل أن مقدونيوس انتحل الأسقفية لنفسه، وأن الكنيسة الجامعة لا تعرفه أسقفًا؛ لأنه يوافق الهرطقة.^{٥٢}

Mansi, X, Col. 863–1170; Hefelé–Leclercq, III, 434–451; Theophanes, Chron., a. 6121, °
.6141

.Mansi, X, Col. 806–822 °١

.Hefelé–Leclercq, III, 452–453; Duchesne, L., L’Eglise au VI Siècle, 443 °٢

ويلاحظ هنا أن هذه الرسائل التي صدرت في السنة ٦٤٩ اعتبرت مقدونيوس مستمراً في رئاسة الكنيسة الأنطاكية، وهو أمرٌ ذو بال يوجب بحثاً دقيقاً في تعيين السنوات التي ترأس فيها كل من مقدونيوس وجاورجيوس ومكاريوس كنيسة أنطاكية.

استشهاد مرتينوس ومكسيموس

واستعظم قسطنطين الثالث موقف مرتينوس ومكسيموس؛ فأمر بإلقاء القبض عليهما وبمحاكمتهما أمام المجلس الإكليريكي الأعلى في القسطنطينية، ف جاء القديسان إلى العاصمة وأتتهما بالمؤامرة على سلامة الدولة وُعدّبا تعذيباً، ثم نُفي مرتينوس إلى الخرسونة في ربيع السنة ٦٥٥ فنُوفي فيها، ثم نقل جثمانه إلى رومة في الثاني عشر من تشرين الثاني، فأحيت الكنيسة الجامعة بفرعها اليوناني واللاتيني ذِكْر هذا الشهيد البار.^{٥٣}

وما كاد المركب الذي أقل مكسيموس وتلميذيه أنسطاسيوس وأنسطاسيوس يرسو في ميناء العاصمة حتى هجم الجُند على مكسيموس وعزّوه من ثيابه الرهبانية وجروه جراً في شوارع القسطنطينية، ثم ساقوه أمام ديوان الإمبراطور وحققوا معه في تهمة الخيانة والتآمر على سلامة الدولة، فلم يثبت عليه شيءٌ منها فأعادوه إلى السجن وأرسلوا مَنْ يقنعه بالخضوع للإمبراطور والقول بالتبوس، فقال: كيف أطيع الملك وأغضب الله! فنّفوه مع تلميذيه، ثم حاولوا إقناعه مرة ثانية فلم يُفلحوا، فلما أعيتهم الحيل رشقه المجلس الإكليريكي بالحرم، ثم صدرت الأوامرُ بقطع لسانه ويده اليمنى؛ ليمتنع عن الكلام والكتابة، وحل بتلميذيه مثلما حلَّ به، ونُفي مكسيموس ورفيقاه إلى لازقة، وتُوفي القديس فيها في الرابعة والثمانين من عمره وفي الثالث عشر من آب سنة ٦٦٢.^{٥٤}

لنكرمن أيها المؤمنون بالتساويح الواجبة محب الثالث مكسيموس العظيم الذي علم بالإيمان علانية بأن يمجّد المسيح بطبيعتين ومشيتتين وفعلين هاتفين السلام عليك يا كاروز الإيمان.

أورولوغيون، ٢١ كانون الثاني

^{٥٣} Diehl, C., L'EXarcate de Ravenne, 406-408; Leclercq, H., Les Martyrs, IV, 234-246
^{٥٤} Acta Sancli Maximi, Pat. Gr., Vol. 90, Col. 109-170; Bréhier, L., Schisme Monothélite, ^{٥٤}
.V, 173-175; Assaf, M., Synxarion, I, 91-98

تقارب ومهادنة

وسئم الطرفان الروماني والقسطنطيني هذا التنافرَ وهذه المساواة، وتزايد الضغط الإسلامي وتعاضم الخطر، وتوفي البابا أوجانيوس الأول (٦٥٤-٦٥٧)، وخلفه فيتاليانوس (٦٥٧-٦٧٢)، فأعلم هذا قسطنطين الثالث بارتقائه السدة الرومانية، وكتب إلى زميله في القسطنطينية الرسالة السلامية، فاعترف الإمبراطور بقانونية الانتخاب البابوي، وقدم الهدايا الملكية وبينها إنجيل مذهب مرصع،^{٥٥} ويستدل من أعمال المجمع السادس أن فيتاليانوس امتنع عن نبذ التيبوس، وأن الإمبراطور أكد تعلُّقه بالتعاليم الأرثوذكسية، فتمت مهادنة عاد على أثرها اسم البابا إلى ذبيتيخة الكنيسة القسطنطينية.^{٥٦}

^{٥٥} Liber Pontificalis, (Duchesne) I, 343.

^{٥٦} Mansi, IX, Col 199.

المجمع المسكوني السادس

٦٦٨-٧١٥

قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٥)

وأساء قسطنطين الثالث الظن بأخيه ثيودوسيوس، فألبسه ثوب الرهينة ثم أمر به فقتل، فثار به ضميره، وأصبح أخوه يتراءى له حاملاً كأساً من دمه، ويقول له: اشرب يا أخي! فكره قسطنطين الإقامة في المدينة التي ارتكب فيها إثمه ونزح عنها، وفي السنة ٦٦٢ ذهب إلى رومة فاستقبله فيها البابا فيتاليانوس بالحفاوة والإكرام، أما الشعب في القسطنطينية فإنه لم يرض عن تغيب قسطنطين ومنع التحاق زوجته وأولاده به، ثم بعد ست سنوات دخل قسطنطين حماماً في سرقوسة، فضربه خادم الحمام بصندوق من الصابون على رأسه فتوفي في السنة ٦٦٨.

وفي أثناء غياب هذا الإمبراطور كان ابنه قسطنطين الرابع يسوس الملك، وهو بعد فتى، فلما علم بقتل والده ونشوب الثورة في صقلية نهض إليها فأخذ بالثار ثم عاد والشعر قد نبت في وجهه فلُقب بالألحي Pogonatos.

التوسع الإسلامي

وكانت الاضطرابات الداخلية التي نجمت في الدولة الإسلامية عن مقتل عثمان بن عفان قد انتهت، فاستتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان (٦٦١-٦٨٠)، ومعنى هذا — في رأينا — أن الأمر استتب لتجار قريش أولئك الذين قدروا عظمة التجارة التي كانت تربط حوض

المتوسط بالشرق الأقصى، فكان — بالتالي — طبيعياً أن يدركوا مبلغ الخسارة التي حَلَّتْ بأبناء الساحل اللبناني السوري المصري من جراء ما سبب لهم الفتح الإسلامي من انقطاع عن أسواقهم في آسية الصغرى والبلقان وإيطالية وأوروبا الغربية. وهكذا، فإنهم لم يروا بدءاً من متابعة الحرب ضد الروم ودفعها إلى نتيجة حاسمة.^١

وكان معاويةٌ ومَنْ حوله يعلمون علم يقين أن رغبة الروم في العودة إلى القتال لم تنته، وقد اغتنم قسطنطين الثالث فرصة انشغال معاوية بالمشاكل الداخلية، فدَسَّ إلى جبال العلويين في لبنان بضعة آلاف من المردة يُغيرون منها على الحواضر والأرياف، فيهددون سيادة المسلمين في الشام، ويعيثون في البلاد فساداً، وكان معاويةٌ قد صالح قسطنطين هذا على مال يؤديه له كل سنة شرط أن يقطع قسطنطين الإعانة عن المردة.^٢ واغتيال قسطنطين الثالث في السنة ٦٦٨، واعلى أريكة الملك بعده فتى يافع هو قسطنطين الرابع، وتمرد الجند مطالبين بحق أخوي هذا الملك الفتى. وثار مزيزيوس في صقلية وسابوريوس في أرمينية، واستنجد سابوريوس بالعرب، فرأى معاويةٌ أن الفرصة سانحةٌ، وكان قد احتاط لأمر المردة فاستقدم عدداً من الفرس وأَسْكَنَهُمْ مدن الساحل اللبناني، وأتبعهم في السنة ٦٦٩ غيرهم من أهل العراق،^٣ ثم عُني بترميم الحصون الساحلية، وفي السنة ٦٦٩ قام بمناورة عسكرية بحرية وبرية في الغرب ليضلل خصمه، ولكنه في الوقت نفسه سبر غور الدفاع البيزنطي في آسية الصغرى فإذا بطلائع جيشه تصل إلى القسطنطينية، وكان زعيم هذه الحملة أبا أيوب الأنصاري، وقد تُوِّفي في أثنائها، فدفن خارج أسوار عاصمة الروم!

وفي ربيع السنة ٦٧٣ وصلت عمارة إسلامية كبيرةٌ إلى مياه القسطنطينية تُحاصر عاصمة الروم، وتحاول إنزال الجنود فصدَّتْها مراكبُ الروم، وفي الخريف عادت هذه العمارةٌ إلى شبه جزيرة كيزيكوس؛ لتمضي فصل الشتاء، وتتلقى المؤن والذخائر من قواعدها في الساحل اللبناني السوري، وفي الربيع التالي استأنف المسلمون الحصارَ فارتدوا ثانية، فعادوا يصرفون الشتاء في كيزيكوس، وظلوا كذلك حتى المرة الرابعة، واستعمل الرومُ في هذا الحصار النار الإغريقية فنشروا الذعر في صفوف المسلمين، وجاءت

^١ Lewis, A. R., Naval Power and Trade in the Mediterranean, 54-55

^٢ فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٥٩.

^٣ الأعلام النفيسة لابن رسته، ص ٣٢٧، والبلاذري أيضاً.

السنة ٦٧٧ فإذا بالمسلمين يعودون إلى الحصار، فانطلقت لصددهم مراكب النار البحرية، فأحرقت عددًا كبيرًا من مراكب المسلمين، فاضطر ما بقي إلى العودة إلى قواعده في الشام، وهبت عاصفة هوجاء حطمت قسمًا آخر وطارد الروم البقية الباقية فغنموا معظمها،^٤ وفي السنة ٦٧٨ فاوض معاوية الروم في الصلح فأقروه عليه لثلاثين سنة، شرط أن يدفع في كل سنة ثلاثة آلاف قطعة من الذهب، وخمسين جوادًا عربيًا وخمسين عبدًا.^٥ وتوفي يزيد بن معاوية في السنة ٦٨٣ فتولى الخلافة بعده معاوية الثاني، ورأى هذا أنه ليس بأهل للخلافة، فخلع منها نفسه ولم يعين له خليفة، فعادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل ثلاث سنوات عندما توفي معاوية الأول، وتبوأ العرش مروان بن الحكم، وكان رجلًا طاعنًا في السن، فاستغل قسطنطين الرابع مشاكل يزيد فأكرهه على الخروج من قبرص، وجاءت مشاكل معاوية الثاني ومروان، فزحفت جيوش قسطنطين عبر الحدود الجنوبية فدكت حصون ملاطية وأجلت المسلمين عن مرعش، وتوفي مروان فاضطر ابنه وخليفته عبد الملك أن يفاوض الروم، وأن يدفع مالا سنويًا أكثر مما كان غيره يدفع من قبل، وتم الصلح على هذا الشرط في السابع من تموز سنة ٦٨٥.^٦

المجمع المسكوني السادس (٦٨٠-٦٨١)

ولم يقوَ زوان سرجيوس وكيروس وأونوريوس على حنطة صفرونيوس ومكسيموس، وأثمر التقارب الذي تم بين الإمبراطور قسطنطين الرابع وبين البابا فيتاليانوس فرقي السدة القسطنطينية بطاركة ثلاثة عُرفوا بالمحبة والمسالمة، وهم توما (٦٦٧-٦٦٩) ويوحنا (٦٦٩-٦٧٥) وقسطنطين (٦٧٥-٦٧٧)، ثم جاء ثيودوروس في صيف السنة ٦٧٧، وكان ضعيف الرأي شديد الإصغاء إلى زميله مكاريوس بطريرك أنطاكية، فالتبس عليه وجه الصواب، وطالب بحذف اسم فيتاليانوس بابا رومة من الذبتيخة، وكان قسطنطين الرابع قد نجح في صد المسلمين ورغب في إخماد الفتن الداخلية وتوحيد الصفوف، فلم يكتفِ برد طلب ثيودوروس، بل إنه عمد إلى عقد مؤتمر شرقي غربي

Canard, M., Expéditions des Arabes contre Constantinople, Journ. Asiat., 1925-1926, ^٤ 77-80

.Theophanes, Chron., a. 6169; Nicephore, 32-33, 42; Dolger. Reg. 239 ^٥

.Brooks, E. W., Successors of Heraclius, Cam. Med. Hist., II, 400-406 ^٦

تبحث فيه أهم نقاط الخلاف الديني،^٧ فكتب في صيف هذه السنة نفسها إلى دونوس بابا رومة وطلب إليه أن يوفد اثني عشر أسقفًا إيطاليًا إلى مؤتمر ينظر في الخلاف القائم في العقيدة، وكتب الإمبراطور إلى إكسرخوس رابينة يأمر بتسهيل سفر هؤلاء الأساقفة وإبحارهم إلى القسطنطينية،^٨ وكان دونوس قد تُوِّفي في نيسان السنة ٦٧٩ فخلفه أغاثون، فاتصل البابا الجديد بأساقفة الغرب مستمزجًا، فتأخر جوابه فانتهز ثيودوروس القسطنطيني هذه الفرصة فحذف اسم فيتاليانوس من الذبتيخة، فرد عليه الإمبراطور بأن أمر به فخلع واستعيز عنه بجاورجيوس، وكان هذا أقل تمسكًا بالمونوثلية من سلفه.^٩

وفي أوائل أيلول السنة ٦٨٠ وصل الوفد الروماني إلى القسطنطينية، وكان مؤلفًا من أساقفة ثلاثة وقسيسين وشماس وأيبوذياكون، وحمل هذا الوفد رسالة من أغاثون إلى قسطنطين تنبئ بتأليف الوفد وباستعداد أعضائه لتأييد قرارات المجامع المسكونية السابقة،^{١٠} وحمل الوفد أيضًا بيانًا بالإيمان موقعًا من البابا ومائة وخمسة وعشرين أسقفًا غربيًا، يؤكدون فيه نبد التعليم بالمشيئة الواحدة،^{١١} ولدى وصول هذا الوفد طلب الإمبراطور إلى كل من جاورجيوس بطريك القسطنطينية ومكاريوس بطريك أنطاكية؛ أن يدعوا الأساقفة الخاضعين لسلطتهما إلى القسطنطينية للاجتماع بزملائهم الغربيين،^{١٢} فلبى الدعوة — بادئ ذي بدء — ثلاثة وأربعون أسقفًا، ثم تكاثروا حتى أصبح مجموع الموقعين مائة وأربعة وسبعين، ومثَّل كنيسة الإسكندرية القس بطرس، وكنيسة أورشليم القس جاورجيوس، وبدأت أعمال المجمع في السابع من تشرين الثاني سنة ٦٨٠، وانتهت في السادس عشر من أيلول سنة ٦٨١، وبلغ عدد الجلسات الرسمية ثمان عشرة جلسة.

وعقد المجمع جلساته في قاعة القبة «الأطرولوس» In Trullo، وجلس قسطنطين الرابع في حفلة الافتتاح في صدر المجلس، وعن جانبه قضاة الدولة، ثم جلس عن يساره

^٧ Mansi, XI, Col. 617–620

^٨ Dolger, Reg., 242; Liber Pontificalis, I, 350

^٩ Theophanes, Chron., a. 6168, 6169, 6170

^{١٠} Mansi, XI, Col. 234–286

^{١١} Mansi, XI, Col. 286–315; Hefelé–Leclercq, III, 477–483

^{١٢} Dolger, Reg., 244; Mansi, XI, 201–204; Hefelé–Leclercq, III, 483–484

نُؤَاب البابا ونائب بطريك أورشليم، وجلس عن يمين الإمبراطور جاورجيوس بطريك القسطنطينية، ثم مكاريوس بطريك أنطاكية، ثم نائب بطريك الإسكندرية فسائر الأساقفة بعضهم عن اليمين والبعض عن اليسار، وجعل الإنجيل المقدس في الوسط.

وطلب نواب البابا في الجلسة الأولى إلى إكليروس القسطنطينية أن يشرحو القول بالفعل الواحد والمشية الواحدة، فطلب الإمبراطور إلى البطريركين جاورجيوس ومكاريوس أن يُجيبا، فقال بطريك أنطاكية: إنه موجود في مجامع أشهر الآباء وبطارقة القسطنطينية ومعتقدات كيروس الإسكندري وأونوريوس بابا رومة، فطلب القصر البيئية على ذلك، فأحضرت أعمال المجمع وقرئت في الجلسات الأربع التالية، وتبين أن الرسالة التي نسبها سرجيوس بطريك القسطنطينية إلى سلفه في الكرسي ميناس لم تتفق في الخط والترقيم وما قبلها وما بعدها من أعمال المجمع الخامس، ولدى التفتيش في محفوظات بطريكية القسطنطينية وُجدت نسخة أخرى من أعمال هذا المجمع نفسه، وتبين أنها خالية من نص الرسالة موضوع البحث.^{١٣}

وفي الجلستين الخامسة والسادسة في السابع من كانون الأول سنة ٦٨٠ والثاني عشر من شباط سنة ٦٨١ قَدَّمَ مكاريوس البطريرك الأنطاكي ثلاثة مجلدات، ضمنها نصوصاً ادعى أنها تؤيد القول بالمشية الواحدة، وفي الجلسة السابعة في الثالث عشر من شباط قَدَّمَ الوفد الروماني مقتطفات من أقوال الآباء في تأييد القول بالمشيئتين.

وفي الجلسة الثامنة في السابع من آذار سنة ٦٨١ طلب الإمبراطور إلى البطريركين جاورجيوس ومكاريوس أن يُبديا رأيهما في بيان البابا أغاثون، فعاد جاورجيوس إلى نصوص الآباء ودرسها على ضوء ما جاء في بيان زميله الروماني، فتبين له وجه الصواب وقال بالمشيئتين، ووافقه في ذلك جميع الأساقفة الخاضعين لسلطته، وطلب هذا البطريرك إعادة اسم البابا فيتاليانوس إلى الذبيتيخة فأعيد، ثم سُئِلَ مكاريوس والأساقفة الأنطاكيون عن رأيهم، فوافق هؤلاء الأساقفة على القول بالمشيئتين، ولكن مكاريوس أبى مدعيًا أن القول بالمشيئتين يعرضهما إلى الاختلاف والتناقض، فأعاد الإمبراطور الطلب فأنكر البطريرك مفضلًا الموت مُقَطَّعًا على القول بالفعلين والمشيئتين.

وانصرف الآباء في الجلسة التاسعة إلى التدقيق في المجلدات الثلاثة التي وضعها مكاريوس لتأييد القول بالفعل الواحد والمشية الواحدة، وقابلوا بعض ما أخذه عن الآباء

^{١٣} Hefelé-Leclercq, III, 487-490, 504-506.

بالأصول؛ فظهر التبديل والتحريف، فاقترح الآباء قطع مكاريوس وتلميذه اسطفانوس، وخصصت الجلسة العاشرة للتدقيق في ما قدمه الوفد الروماني ومقابلته بالأصول. واجتمع الآباء للمرة الحادية عشرة والثانية عشرة في العشرين والثاني والعشرين من آذار لدرس جميع ما صنف مكاريوس، فتلّت جميعها، وسُئل مكاريوس عنها فاعترف بصحة نسبتها إليه، فسأل القضاة المجمع ماذا يكون مصير مكاريوس بعد الندامة والتوبة. وهل يظل بطيريركا على أنطاكية، فلم يرض الآباء الأعضاء، فخلع مكاريوس ونوّه بثيوفانس خلفاً له.^{١٤}

وفي الجلسة الثالثة عشرة حكم بالحرم على سرجيوس وبيروس وبطرس بطاركة القسطنطينية وعلى كيروس بطيريك الإسكندرية وعلى أونوريوس بابا رومة وثيودوروس أسقف فارانة سيناء.

ودخل على الآباء في الجلسة الخامسة عشرة في السادس والعشرين من نيسان قس متوحد من أتباع مكاريوس، اسمه بوليخرونيوس، وادعى هذا القس أنه رأى في حلم ملائكة سماويين وفيهم رجلٌ عظيمُ الجلال أوصاه أن يذهب إلى الإمبراطور وينذره ألا يقول إلا بمشيئة واحدة، وادعى القس أيضاً أنه يستطيع إقامة الأموات تصديقاً لرسالته، فخرج الأساقفة والرؤساء إلى ساحة الحمام، ووضعوا أمام القس ميثاً على نعش وطلبوا إليه أن يقيمهم، فوضع القس على صدر الميت اعترافه بالمشيئة الواحدة، وانحنى عليه يبتتب فلم يستطع أن يفعل شيئاً، فقطعه المجمع وحرّمه.^{١٥}

وفي الجلسة السابعة عشرة صدق المجمع جميع أعماله السابقة وحرّم المعتقدين بالمشيئة الواحدة والفعل الواحد، وفي الثامنة عشرة في السادس عشر من أيلول سنة ٦٨١ تلي اعتراف المجمع هكذا: «بمسيح وابن ورب وحيد، هو نفسه بطبيعتين وأقنوم وشخص واحد وبمشيئتين طبيعيتين وفعلين طبيعيين بلا انقسام ولا تغيّر ولا تجزؤ ولا اختلاط ... وليست المشيئتان متضادتين، حاشى! بل المشيئة البشرية تتبع بلا مقاومة ولا مناكفة، وتخضع لمشيئته الإلهية القادرة على كل شيء.»^{١٦}

^{١٤} Hefelé-Leclercq, III, 499-504.

^{١٥} Mansi, XI, Col. 602-611.

^{١٦} Mansi, XI, Col. 611-622. Hefelé-Leclercq, III, 515-538; Duchesne, L., L'Eglise au VI

.Siècle, 472-473; Bréhier, L., La Paix Religieuse, Fliche et Martin, op. cit., V, 189-190

وجاء حرم البابا أونوريوس هكذا: «وإننا نحرم أونوريوس الذي قام بابا على رومة القديمة؛ لأننا وَجَدْنَاهُ في تحاريره إلى سرجيوس تابعًا في كل شيء لرأيه، وموافقًا على عقائده الفكرية.» ووافق نُوَّابُ البابا على هذا الحرم وأيده البابا لاوون الثاني؛ لأن أغاثون تُوِّفِّيَ في مطلع السنة ٦٨١.

واعتبر المجمع رسالة صفرونيوس إلى سرجيوس من أعمال المجمع، ودعا آباء المجمع للرؤساء، فقالوا: «إننا ندعو بالسنين الكثيرة لأغاثون بابا رومة وجاورجيوس وثيوفانس بطريركي القسطنطينية وأنطاكية وللمجمع والسينودوس.» ودعوا أيضًا لقسطنطين الرابع «نصير الأرثوذكسية وعمود الكنيسة وحارس الإيمان»، ووافق الإمبراطور على جميع أعمال هذا المجمع، وأوجب القول والعمل بها بإرادتين إمبراطوريتين؛ الأولى بتاريخ السادس عشر من أيلول، والثانية بتاريخ الثالث والعشرين من كانون الأول سنة ٦٨١. ١٧.

يوستينانوس الثاني (٦٨٥-٦٩٥)

وتُوِّفِّيَ قسطنطين الرابع في أول أيلول سنة ٦٨٥، فتولى العرش بعده ابنه يوستينانوس الأثرم Rhinometos، وكان لا يزال في السادسة عشرة من عمره، وكان طموحًا مشبعًا بحب العظمة والمجد، فأراد أن يحتدي مثال سمييه يوستينانوس الأول، ولكنه كان يشكو شيئًا من قلة الاتزان، فتطور سوء ظنه بالناس وحبه للعنف إلى شراسة في الخلق ورغبة في سفك الدماء، أما في أمور العقيدة فإنه كان أرثوذكسيًا مخلصًا متمسكًا بقرارات المجمع المسكونية. ١٨.

المجمع الخامس السادس (٦٩٢)

وأدَّتْ حروب القرن السابع وفتنته إلى إهمال القوانين الكنسية وقلة الاكتراث بها، ١٩ وحصر آباء المجمعين الخامس والسادس أبحاثهم في أمور العقيدة، ولم يعالجوا مشاكل الكنيسة

١٧ .Dolger, Reg., 248; Mansi, XI, Col. 727-729

Bréhier, L., La Paix Relig. op. cit., V, 191-192; Diehl, C., L'Empereur au Nez Coupé, ١٨

.Choses et Gens de Byzance, 174-177

.Diehl, C., Le Monde Oriental, 211-235 ١٩

الإدارية، فدعا يوستينيانوس الثاني إلى مجمع يكمل أعمال هذين المجمعين فيُعنى بالإدارة والضبط، ومن هنا تسميته بالمجمع البنثيكتي Penthektos؛ أي الخامس والسادس، واسمه في الآداب الكنسية الغربية Quinesextum. واشترك في أعمال هذا المجمع مائتان وسبعة وعشرون أسقفًا أو مائتان وأربعون، وأبرزهم بولس بطريرك القسطنطينية، وبطرس بطريرك الإسكندرية، وجاورجيوس بطريرك أنطاكية، وأنسطاسيوس بطريرك أورشليم، وأسقف غورتيني وأسقف رابينة نائبًا بابا رومة. واجتمع الأعضاء وعقدوا جلساتهم في القسطنطينية وفي قاعة القبة أيضًا. وسنَّ المجمع البنثيكتي مائة قانون وقانونين، وأثبت الآباء في أول هذه القوانين تمسكهم بالعقيدة الأرثوذكسية كما جاءت في أعمال المجمع الستة، وكرَّروا شجب الهرطقة وحرَم القائلين بها بما فيهم البابا أونوريوس،^{٢٠} وأكد الآباء في القانون الثاني تأييدهم للقوانين التي سنَّها سلفاؤهم أعضاء المجمع السابقة، وبحثوا في المائة الباقية علاقات الشماسة بالقساوسة وزواج هؤلاء وأولئك، وعَيَّنوا السن التي يجب أن يبلغها الإكليركي قبل سيامته، وحرَّموا الدِّين بالربا على رجال الدين، والرشوة للوصول إلى المناصب الكنائسية، وبحثوا الكتب المقدسة وكيفية استعمالها والمحافظة عليها والتعليم بها، كما بحثوا في أمور الرهبانية والأديار والجمعيات السرية وعتق الرقيق، والتساوير البذيئة، والسحر والكهانة وأمر اليهود.^{٢١}

رومة تحتج

ودونت أعمال هذا المجمع في نسخ ست، واحدة لكل من الإمبراطور والبطاركة الخمسة وأُرسلت جميعها إلى رومة ليوقعها البابا، وكان البابا كونون قد تُوِّفي في السنة ٦٨٧ فخلفه سرجيوس الأنطاكي (٦٨٧-٧٠١)، فأبى سرجيوس أن يوقع، محتجًا ببعض محتوياتها كتحریم الصوم أيام السبت والإذن للكهنة بالزواج، فأراد يوستينيانوس أن يكرهه على ذلك، ولكن جيشه في إيطاليا وقف إلى جانب البابا.^{٢٢}

^{٢٠} Bréhier, L., op. cit. V, 195

^{٢١} Mansi, XI, Col. 921-936; Liber Pontificalis (Duchesne), I, 372-373; Hefelé-Leclercq, III, 560-561, 575-576

^{٢٢} Gorres, F., Justinian II und das Romische Papsllum, Byz. Zeit., 1908, 440-450

خلع يوستينيانوس وعودته

واستنزفت حروب يوستينيانوس كل ما في الخزينة، فجمع وزيراه الأموال عن طريق الاغتصاب فجرا عليه كراهية الشعب، وأراد هو في السنة ٦٩٤ أن تهدم كنيسة في القسطنطينية ليقم في مكانها بناءً له، وكلف البطريرك المسكوني أن يصلي على الكنيسة قبل هدمها، فأجابه البطريرك: أما لأجل بناء كنيسة فعندنا أفشين، ولكن لأجل هدم كنيسة فليس لنا ما نقول! فأجبره يوستينيانوس أن يصلي للهدم، فوقف البطريرك ودموعه تسيل وصلى قائلاً: المجد لله الطويل الأناة كل حين وكل أوان وإلى دهر الداهرين.

وطغى يوستينيانوس وتجر فصار القائد لاونديوس إلى القصر وقبض على يوستينيانوس وجدع أنفه ونفاه إلى الخرسون، ثم أخفق لاونديوس في إفريقية فنادى الجند بطيباريوس إمبراطورًا، ووفق طيباريوس هذا الثالث في حروبه ضد المسلمين، ولكن الشعب والجيش كانوا قد أصبحوا لا يخضعون لسيطرة أحد، فبات عرش طيباريوس متداعياً، وفرَّ يوستينيانوس الثاني من منفاه ونزل في بلغاريا واستنصر تربيل ملك البلغار، فزحفاً معاً على القسطنطينية، وعاد يوستينيانوس إلى العرش (٧٠٥)، وفي السنة ٧١١ ثار فيليببيكوس البرداني فدخل العاصمة ثم قتل يوستينيانوس وابنه طيباريوس، فانتهى أمر الهرقليين بعد مائة سنة وسنة.

يوستينيانوس والبابا قسطنطين (٧١١)

ورغب يوستينيانوس بعد عودته إلى الحكم في موافقة رومة على أعمال المجمع البنثيكتي، فدعا البابا قسطنطين إلى زيارة القسطنطينية، فأما في السنة ٧١١ واستقبل فيها بحفاوة وإكرام، واختلى يوستينيانوس بقسطنطين في نيقوميذية فخرجا متفقين، وأقام البابا قداساً حافلاً في القسطنطينية وتناول يوستينيانوس من يد البابا، وعاد البابا إلى رومة مكرماً، وبقي أمر هذا الاتفاق غامضاً تنقصه التفاصيل.^{٢٣}

ظهور الكنيسة المارونية

واستولى الفرس على أبرشيات أنطاكية فرحب اليعاقبة بقدمهم وتعاونوا معهم، وطالت الحرب الفارسية (٦٠٩-٦٢٨) فلمس هرقل أهمية ولاء اليعاقبة والأرمن لقبهم من حدود

^{٢٣} Bréhier, L., La Paix Raix Relig., op. cit., V, 199-200

فارس ولكثرة عددهم، فرغب في تسوية الخلاف القائم بين هؤلاء وبين الكنيسة الجامعة، فأعد سرجيوس البطريك المسكوني حلاً للمشكلة فقال بطبيعتين مع الكنيسة الجامعة بفعل واحد لاسترضاء اليعاقبة والأرمن والأقباط، ووضعت الحرب أوزارها، فأخذ هرقل يطوف في الولايات الآسيوية ويحض النصارى على التفاهم وتوحيد الصفوف بالشكل الذي اقترحه سرجيوس بطريك القسطنطينية، ووصل هرقل إلى الجزيرة في صيف السنة ٦٣١ وزاره فيها أزر كاثوليكوس الأرمن فقبل الحل الجديد، ثم اتصل هرقل بأخبار اليعاقبة في منبج فقالوا بالمشيئة الواحدة والطبيعتين، واعترف هرقل ببطريركهم أثناسيوس الجمال بطريركاً قانونياً على كنيسة أنطاكية، ثم اتجه الإمبراطور شطر سورية الشمالية مقرّباً موحدًا، فلقي ترحيباً كبيراً.

ووصل هرقل إلى حمص في هذه السنة عينها (٦٣١) فخفّ رهبان بيت مارون إلى استقباله فيها، ورحبوا به ترحيباً، «فأقطعهم أراضي واسعة»،^{٢٤} وأبقى في أيديهم ما كانوا قد أخذوه من الكنائس والأديار التي كانت لليعاقبة،^{٢٥} فازدادوا عزة ومناعة ونفوذًا وتعاونوا معه.^{٢٦}

وأطل المسلمون على سورية وانتشروا في سهولها واستولوا على مغانمها، وتراجع هرقل وأوصى أعوانه وأنصاره — وبين هؤلاء رهبان بيت مارون وأتباعهم — بالتيقُّظ والتربص مؤكِّدًا عودته بعد حين، فاشتد ضغط المسلمين على هؤلاء الأعوان والأنصار، وأكد اليعاقبة للمسلمين أنهم ليسوا من أنصار الملك، فأطلق المسلمون يدهم فاضطهدوا رهبان بيت مارون وأتباعهم محاولين استرجاع ما خسروا من أديار وكنائس،^{٢٧} وكان اليعاقبة لا يزالون كثيرًا في أبامية ونواحيها، ولهم دير عظيم بالقرب منها على اسم مار باسوس بلغ عدد رهبانه ستة آلاف وثلاثمائة،^{٢٨} فطلب المواردة لهم ملاجئ حصينة يعيشون فيها

^{٢٤} .Eutychius, Annales, P. G., Vol 111, Col. 1039, Ed. Cheikho, II, 26

^{٢٥} .Barhebraeus, Chronicon Eccl., I, 270–274

^{٢٦} Michel le Syrien, II, 412; Bréhier, L., Crise Relig., op. cit., V, 116; La Vie de l'Eglise Byz.,
op. cit. V, 481

^{٢٧} .Barhebraeus, op. cit., 270–274

^{٢٨} .Chabot, La Légende de Mar Bassus, 55, 60, 63

أحرارًا طلقاء، ويمتنعون بها إلى أن يعيد الروم الكرة ويجولوا جولة ثانية في الحرب القائمة بين النصارى والمسلمين، واغتنم معاويةً نشوب الثورات في أوائل عهد قسطنطين الرابع فأنفذ حملاته الشهيرة ووصل إلى أسوار القسطنطينية (٦٧٣-٦٧٧)، فأنفذ الروم المردة والجراجمة إلى جبال لبنان للقيام بغارات جريئة في بلاد الشام تعرقل أعمال تموين العدو وتهدد عاصمته، فاحتفى بهؤلاء كثيرون من أهل البلاد،^{٢٩} وضوى إليهم «جماعة كثيرة من الجراجمة والأنباط»،^{٣٠} وهؤلاء الأنباط هم في عُرف رجال البحث والاختصاص العناصر الآرامية المعاصرة^{٣١} ومنها الموارنة، ولم تأت هذه الهجرة دفعة واحدة، وإنما حدثت في أزمنة متتالية، ف جاء الموارنة إلى لبنان على موجات صغيرة واستقروا — بطبيعة الحال — في أعالية الشمالية في منطقة الجبة القريبة من وادي العاصي، وفي بلاد العاقورة التي كانت لا تزال قليلة السكان كثيرة الغابات.^{٣٢}

وسار موكبُ المشيئة الواحدة في البلدان التي لم تكن قد فتحها المسلمون سيرًا موفقًا، فقال بها بطاركة القسطنطينية وأرمينية ومصر، وأيدهم أونوريوس بابا رومة، فصدر الإكتيسيس بالمشيئة الواحدة في السنة ٦٣٨، وتولى السدة القسطنطينية بعد سرجيوس من قال بالمشيئة الواحدة وبث الدعاية لها وناصر من ناصرها، وتعاقب على الكرسي الأنطاكي من قال هذا القول منذ السنة ٦٣١ حتى السنة ٦٨١، وأشهر هؤلاء مقدونيوس صديق سرجيوس وكاريوس صاحب المصنفات في المشيئة الواحدة، وكان القول بالمشيئة الواحدة على ما دعا إليه هرقل قد شاع في أبرشيات أنطاكية وأورشليم، وتفشى بين طبقات الشعب والإكليروس من الملكيين الموارنة منهم وسواهم، ومن هنا اهتمام البابا مرتينوس وتفويضه إلى يوحنا أسقف عمان أمر رعاية من تبقى من المؤمنين الأرثوذكسيين وتخويله خلع الأساقفة في أبرشيات أنطاكية وأورشليم الذين ضلوا فضلوا،^{٣٣} وقد نغالي كثيرًا إذا اعتبرنا البطاركة الأنطاكيين المونوثيليين المقيمين في القسطنطينية آئذٍ شرفيين كثيرًا In Partibus Infidelium بكل ما في هذا الاصطلاح من سلطة وهمية وفقر في النفوذ،

^{٢٩} Theophanes, Chron., a. 6169.

^{٣٠} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٦٠.

^{٣١} ZDMG, 1871, 124-125.

^{٣٢} تسريح الأبصار للأب لامنس، ج ٢، ص ٥٢.

^{٣٣} Mansi, X, Col. 806-822; Duchesne, L., L'Eglise au VI Siècle, 443.

فموقف الإمبراطور من مكاريوس قُبيل انعقاد المجمع المسكوني السادس يدل على صلة بين البطريك الأنطاكي وبين الأساقفة الخاضعين لسلطته.^{٣٤} وكان ما كان من أمر المجمع المسكوني السادس (٦٨١) وحرّم القول بالمشيئة الواحدة، وأصر بطريك أنطاكية مكاريوس على عيّه وأمعن في تيهه، فوسم بطابع الهرطقة وحرّم هو وأتباعه، وأثر مكاريوس الاتصال ببابا رومة على البقاء في القسطنطينية فأذن له بذلك، فأقلع إلى إيطالية مع أعضاء الوفد الروماني، ووصل إلى رومة والتبست عليه وُجوه الرشد فغلا في هرطقته فدخل ديرًا وأقام فيه، واعتبر اليعاقبة عمل المجمع المسكوني السادس غلًا في ما ذهب إليه المجمع الخلقيدوني، فاشمأزوا واتهموا قسطنطين الرابع بالخيانة، وادعوا أنه باع ضميره لقاء مائة وسبعين قنطارًا من الذهب دفعها إليه البابا إغاثون!^{٣٥} وأصبح من نكّب من الملكيين عن طاعة المجمع السادس بلا رأس، فاجتمع رهبان بيت مارون ورسوموا على قول المؤرخ اليعقوبي بطريركًا وأساقفة من ديرهم، وهكذا تأسست كنيسة مارونية مستقلة بين أواخر القرن السابع وأوائل الثامن.

يوحنا مارون (٦٢٧-٧٠٧)

وأثبت ما يستنتج من تقاليد الموارنة أن رهبان دير مارون وأتباعهم — أثناء شعور الكرسي الأنطاكي — نادوا بيوحنا أحد رهبانهم الأفاضل بطريركًا على أنطاكية، وأنه هو أول بطارتهم، ومما جاء في التقليد أنه رقد في جبل لبنان وتوالى بعده بطاركة الموارنة.^{٣٦}

الموارنة والمشيئة الواحدة

ويذكر القديس جرمانوس البطريك المسكوني (٧١٥-٧٢٩) الموارنة في كتابه المجمع والهرطقات، فيقول: إنهم لم يعترفوا بالمجمعين الخامس والسادس،^{٣٧} ويعد القديس

^{٣٤} Dolger, Reg., 244; Mansi, XI, Col. 201-204; Hefelé-Leclercq, III, 483-484; Bréhier, L.,

.La Paix Relig., op. cit., V, 186

^{٣٥} Michel le Syrien, II, 447-448, 457

^{٣٦} لباب البراهين عن حقيقة الطائفة المارونية، للمطران يوسف دريان، ص ١٢١، راجع أيضًا الجامع المفصل في تاريخ الموارنة للمطران يوسف الدبس ٦٣-٦٩ و Chabot, J. B., Les Origines de la Légende و

.de Sainl Jean Maron, Mem. Acad. Insc. Bel. Let., 1935, 1-9

يوحنا الدمشقي رسالة في العقيدة الأرثوذكسية قبل السنة ٧٢٦ ليتبناها إلياس أسقف يبرود أمام رئيسه بطرس متروبوليت دمشق، فيجيء في القسم في آخرها أن الأسقف لا يقول إلا بها، وأنه لا علاقة له بأي دستور إيمان آخر، ولا سيما دستور إيمان الموارنة،^{٢٨} ويوجه ثيودوروس أبو قرة أسقف حران (٧٤٠-٨٢٠) رسالة إلى صديق له كان يعقوبياً فاهتدى^{٢٩} فيقول بالعربية: «ولا نرى أن القوى التي كانت في التركيب الأنسي بطلت؛ لأن الكلمة هو كان المدبر والمحرك لها وإن كان قد يرى ذلك جند الموارنة.» ولعله ينسب للموارنة رأي غلاة المونوثيلية المتأخرين.

وقام سعيد ابن البطريق بطريرك الإسكندرية (٩٣٣-٩٤٠) يؤرخ منذ الخليقة حتى أيامه، فقال: إن مارون علم بالطبيعتين والمشية الواحدة والفعل الواحد والأقنوم الواحد، وإضافة أنه علم في عصر موريقوس، وأن أكثر من تبعه تلاميذه أهل مدينة حماة وقنسرين والعواصم فسُموا المارونية،^{٤٠} وسعيد ابن البطريق هو أفتيخيوس المشار إليه آنفاً، وهو يخلط بين القديس مارون ويوحنا مارون البطريرك الماروني الأول، فيضعف روايته.^{٤١}

ويتصدى للبحث في هذا الموضوع في القرن العاشر مؤرخ مسلم، هو أبو الحسن علي المسعودي، المتوفى في السنة ٩٥٧ للميلاد، وقد اشتهر بحب الاستطلاع والبحث في المواضيع الإسلامية وغيرها، وصنف كتباً عديدة أشهرها مروج الذهب، وبحث في كتاب التنبيه والإشراف في الموارنة، فقال:

وظهر في أيام موريق رجل من أهل مدينة حماة، من أعمال حمص يُعرف بمارون، وإليه تُنسب المارونية إلى هذا الوقت المؤرخ به كتابنا، وأمرهم مشهور في الشام وغيرها، وأكثرهم بجبل لبنان وسنير وحمص وأعمالها كحماة وشيزر

^{٢٧} .Patr. Gr., Vol. 98, Col. 82

^{٢٨} .Patr. Gr., Vol. 94, Col. 1432

^{٢٩} Die Arabischen Schriften des Theodor Abu Qurra von Harran, Forschungen zur Christlichen Literatur, X; Cheikho-Malouf-Bacha, Vingt Traités Théol. d'Auteurs Arabes Chrétiens, 75-107

^{٤٠} .Edit. Cheikho, Corpus Script. Christ. Orient., I, 210

^{٤١} .Vailhé, p., Origine Relig. des Maronites, Echos d'Orient, 1906, 266

ومعرة النعمان. وكان لهم ديرٌ عظيمٌ يعرف شرقي حماة وشيزر، ذو بنيان عظيم، حوله أكثر من ثلاث مئة صومعة فيها الرهبان، وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيءٌ عظيم فخرّب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن من الأعراب وجور السلطان، وهو يقرب من نهر الأرنط نهر حمص وأنطاكية. وكان مارون قد أحدث آراءً أبان بها عن تقدمه من النصارى في المشيئة وغيرها وكثر متبعوه، وقد أتينا على شرح مذهبه وموافقته الملكية والنسطورية واليعاقبة في الثالث، ومخالفته إياهم في ما يذهب إليه من أن المسيح جوهران أقنوم واحد مشيئة واحدة، وهذا القول متوسط بين قول النسطورية والملكية.^{٤٢}

كتاب الهدى

وقد سطتْ محنُ الدهر وعوادي الزمن على آثار المواردة الأولين، فلم يبق منها شيء يُذكر، وأقدم ما عند المواردة كتاب الهدى والمقالات العشر.^{٤٣}

وكتاب الهدى، أو كتاب الناموس، أو كتاب الكمال الذي يُنسب إلى المطران داود الماروني هو في الحقيقة مجهولُ المؤلف؛ لأن المطران داود لم يؤلفه، وإنما نقله من السريانية إلى العربية في نحو السنة ١٠٥٨؛ وذلك إجابة لطلب راهب فاضل اسمه يوسف، والمطران داود مجهولٌ أيضاً، وكذلك صديقه الراهب يوسف، وليس في متن كتاب الهدى ما يدل على واضعه سوى العبارة «وقال الأب القديس». أو ما يشابهها. ولا نعلم مَنْ هو هذا الأب القديس، ولعله مار يوحنا مارون أو أحد خلفائه البطارقة الأولين أو غيرهم، وقد يكون هذا الكتاب من كُتُب الطائفة المارونية؛ بدليل ما جاء في الباب الثالث عشر منه عند ذكر آراء النصارى في أخذ القربان؛ فقد جاء ما نصه بالحرف: «فأرت الروم أن تقريبه في كل يوم واجب، ولكنها قالت: إن ترك أخذه في أكثر الأوقات أولى من أخذه دائماً، أما الأرمن فإنهم لا يرون تقريبه بالجملة إلا في أوقاتٍ مخصوصةٍ مثل الخميس

^{٤٢} التنبيه والإشراف للمسعودي، طبعة باريس، ص ١٥٤.

^{٤٣} كتاب الهدى، وهو دستور الطائفة المارونية في الأجيال الوسطى، عُني بنشره الأخ بطرس تامر العشقوتي، حلب ١٩٣٥.

الكبير والفصح، وما أشبه ذلك من الأعياد الكبار، فأما أكثر السريان، وهم أهل مذهبنا وأكثر اليعاقبة وسريان المشرق والنساطرة؛ فرأيهم في المواظبة على أخذه في أكثر الأوقات أولى من تركه.» ويتضح من هذا أن السريان أهل مذهبه هم غير الروم والأرمن واليعاقبة والنساطرة وسريان المشرق.^{٤٤} نقول: قد يكون هذا الكتاب من كتب الموارنة؛ بدليل ما اقتبسنا، وقد لا يكون. وقد يكون لبعض الموارنة لا لجميعهم.

والذي يهمنا من كتابه الهدى جاء في القانون الأول منه وفيه كلام صريح في أمر المشيئة الواحدة، وإليك نصه:

فنقول: إنه هكذا نعتقد، وهكذا نؤمن أن أحد الأقانيم الثلاثة الشريفة، وهو الابن الكلمة المولود من الآب ليس في الزمان والابتداء وليس كتوليد الأجسام بعضها من بعض، بل هو نورٌ من نور إله حق من إله حق في آخر الزمان من أجل كثرة رحمته قد صنع خلاص الجنس الأدمي بمشيئة الآب، وروح القدس هبط من السماء من غير أن يفارق ذات الآب، ومن غير تغير ولا فساد، تجسد من روح القدس والطاهرة ابنة يواقيم وحنة، وأخذ منها جسداً موازياً لنا في طبيعتنا وموازياً لنا في جوهرنا الإنساني، جسماً ذا نفس ناطقة عالمة، وشابهنا في كل شيء سوى الخطيئة، وولد منها ابناً واحداً ورباً واحداً يسوع المسيح أقنوماً واحداً وشخصاً واحداً ذا جوهرين معقولين من جوهر الآب الأزلي بلاهوته، ومن جوهرانا بناسوته محسوس بالجسم الإنساني وغير محسوس باللاهوت، محدود بالجسم الزماني الإنساني وغير محدود باللاهوت الأزلي الأبدي.

وإن قد اعتقدنا فيه هذا الاعتقاد الذي ذكرناه؛ فإننا لا نعتقد فيه أيضاً اثنين ولا مسيحين ولا فعلين حاشا من ذلك، بل هو واحد، يسوع المسيح ابن الله، الذي من أجلنا تأنس أقنوم واحد وشخص واحد، وهو يعقل بجوهرين ومشيئة واحدة وفعل واحد إله أزلي ليس له ابتداء، وإنسان آدمي زماني ذو جسم نفساني حساس زماني، وهو إله تام باللاهوت وإنسان تام بالجسم الإنساني. وبهذه الأوصاف قد آمنت البيعة المقدسة، وبها أقرت واعترفت هي وجميع أولادها، وعلى ذلك اتفق رأيُ النصارى المؤمنين، وأمّنوا بالرب يسوع المسيح

^{٤٤} لباب البراهين للمطران يوسف دريان، ص ٢١٤-٢٣٦.

.Dib, Mgr. Pierre, L'Eglise Maronite, 131-134

ابن الله الحي الأزلي الذي هذه أوصافه، وكانت أرواحهم متفقة في جميع ما قدمنا ذكره إلى هذا الذي انتهينا إليه من أوصاف الابن الأزلي يسوع المسيح، ثم اختلفوا فيه كيف كان بعد الاتحاد وافترقوا فرقًا كثيرة.

فأول فرقة ظهرت من الفرق المشهورة الفرقة المنسوبة إلى آريوس، وهي التي تُدعى الأريوسية، ثم النسطورية، وهي المنسوبة إلى نسطور. ثم اليعقوبية، وهي المنسوبة إلى يعقوب الذي كان من مدينة تدعى بردعاء؛ ولذلك يقال له: البرداعي. ثم الملكية، وهي المنسوبة إلى قسطنطين بن قسطنطين بن هرقل الملك. ثم المارونية، وهي المنسوبة إلى مارون يوحنا بطريك أنطاكية العظمى.^{٤٥}

وثبتت هذه الفرق الأربعة على أن الفرقتين الملكية والمارونية اللتين ذكرناهما إنما هما فرقة واحدة، ورأيهما في الاتحاد والجوهر والأقنومية رأي واحد، وإنما اختلفتا في المشيئة، فقالت الملكية بمشيئتين، وقالت المارونية بمشيئة واحدة. واحتجّت كل واحدة منهما بحجج، فقالت الملكية في المسيح: إنه ذو مشيئتين للجوهريين؛ مشيئة إلهية للجوهر الإلهي ومشيئة إنسانية للجوهر الإنساني، وقالت المارونية: بل هو ذو مشيئة واحدة للجوهريين الإلهي والإنساني. ومن بعض ما احتجّت به الملكية أنه لما كان المسيح ذا جوهريين؛ جوهر إلهي وجوهر إنساني؛ وجب أن يكون ذا مشيئتين: مشيئة إلهية للجوهر الإلهي، ومشيئة إنسانية للجوهر الإنساني، إلا أن الجوهر الإلهي تختص به مشيئة التفضل والإنعام وإظهار المعجزات، مثل: شفاء المرضى وفتح أعين العمي وإنهاض الزماني وإحياء الموتى؛ وما أشبه ذلك، والجوهر الإنساني يختص به العمليات مثل الأكل والشرب، ولو كان المسيح ذا مشيئة واحدة؛ لوجب أن يكون جوهرًا واحدًا وعاد الأمر إلى ما قالت اليعقوبية، واستدلّت على ذلك بقوله في الإنجيل: أما النفس فمختارة مستعدة، وأما الجسم فموجعٌ ضعيف، وبقوله: ما أتيت لأصنع مشيئتي، بل مشيئة الأب الذي أرسلني، وقالت طائفة المارونية: هاتان المشيئتان اللتان ادعيتموهما لا تخلوان من أن تكونا إما متساويتين أو

^{٤٥} ويعلق هنا المطران دريان فيقول: «وفي النسخة الكريمة يوجد بعض التشويش في هذه العبارة خاصة، فقد وردت فيها كما يلي: ثم المارونية المنسوبة إلى مارون وإلى قسطنطين بن قسطاس بن قسطنطين بن هرقل.» لباب البراهين، ص ٢٣٩.

متضادتين، فإن كانتا متساويتين في جميع حالهما عاد الأمر إلى مشيئة واحدة، وإن كانتا متضادتين جاء من ذلك أن يكون الجوهر الإلهي يشاء ما لا يشاء الجوهر الإنساني، وكذلك الجوهر الإنساني يشاء ما لا يشاء الجوهر الإلهي، وإذا حصل ذلك وقع التباين والقضاء وحصلًا اثنين وبطل حكم الاتحاد وصار الثالث رابعًا، وآل الأمر إلى رأي نسطور وما ادعاه في المسيح.^{٤٦}

المقالات العشر

وكتاب المقالات العشر في المشيئة الواحدة للأسقف توما الكفرطابي يقول مع كتاب الهدى بالطبيعتين والمشية الواحدة، ويستدل من مقدمة هذا الكتاب أن صاحبه توما كان أسقفًا على موارنة كفر طاب وكورة حلب^{٤٧} في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وأنه كتب في المشيئة الواحدة ليرد على يوحنا السابع بطريرك أنطاكية الأرثوذكسي، وذلك في السنة ١٠٨٩، ومن أهم ما جاء في هذه المقالات قوله:

ونحن وأنتم دُمنّا ثابتين على ذلك زمان كثير إلى زمان مكسيماس خاصتكم الذي من تحقيق ولد زنا؛ لأن أمه كانت امرأة عجمية زنت مع رجل يهودي من ملة السامرة، فلما ولد منها هذا المذكور ونشأ، ثم إنه تدرّب بكل أمور منشقة عن العدل بكل مكر وأفعال ردية؛ لأنه تربى في طبرية، وانتقل من هناك إلى مدينة قسطنطينية، وعند ذلك الحين كان في مدينة قسطنطينية ملكين أخوة، مرقيان وأخيه تسلّمًا مقاليد سياسة مملكة الروم. حينئذٍ تقدم إليهم مكسيما المذكور وطفق يشير عليهما بأن يوجب أننا نزيد مشية أخرى ويكونا مشيئين لذو الطبعين، وهذا الاعتقاد يلزم افتراق الطبيعتين من الاتحاد الشريف، ثم إن الملكين امتثلا قوله؛ لأنه قال كما أنتما ملكين يصير لكما شعبٌ يسمى ملكين باعتقاد مشيئين وطبعين وفعلين ومذبحين، ويصُلَّب بأصبعين، فلما حسن ذلك عند الملكين كي يظهر لهم سمعة جديدة في العالم أمرهم مكسيماس يكتبوا

^{٤٦} لباب البراهين للمطران دريان، ص ٢٣٧-٢٤٢.

^{٤٧} المرجع نفسه، ص ٢٥٣، هامش رقم ٢، وفيه بحثٌ دقيقٌ في انتساب هذا الأسقف إلى الموارنة، وردُّ على ابن القلاعي والدويهي وغيرهما ممن أنكروا على توما مارونيته.

مناشيرَ إلى بلد الشام؛ كي أنهم يعتقدوا مقالة المشيتين التي قالها مكسيماس، فلما انتهت كتبهم إلى بلاد سورية الشام وبلد حلب ودمشق وجبل لبنان، حينئذٍ قالوا أهل الشام إننا نحن راجعين إلى حكم دير ماران سرياني، تفسيرها عربي: دير ربنا؛ لأن صفة هذا الدير كان على شط العاصي خارج مدينة حماة، وكانت جملة رهبانه ثمانمائة راهب كلهم قديسين.

ثم وصلت لهم كتب الملكين مرقيان وأخيه إلى دير ماران، فلما وقفوا على قراءتها وتأملوا مضمون إشارتها للحين؛ نفروا منها غاية الإنفار، ثم إن الرهبان ردوا جواب كتب الملكين قائلين لهم هكذا: أنتم تعلمون؛ لأن نحن بأيدينا أمانة الثلاثمائة وثمانية عشر أباً بمدينة نقية، وقامت عليها خمسُ مجامع وثبتتها لنا واحرموا لكل من يغيرها أو يميل عنها، وتأمرونا نقيم مذهب مكسيماس بيد غالبية وسيف، ومذهب حق لم يكن بقوة حرب، وهذا الشقاق اخترعه مكسيماس من تلقين قلبه بأغراض مفسدة مائلة عن عدل المجمع، فإن كان مكسيماس قوله حق يجي ويجتمع نحن وإياه بمدينة الله أنطاكية، فإن رأينا نعمة روح القدس حلَّ عليه علمنا أن قوله عدل، وإذا لم يكون كذلك وإلا لم يكرهنا أحد على اتباع مقالته غصباً بغير شهادة برهان من كتب الكنيسة المقدسة الرسولية وتثبيت قوانين المجمع المقدسة المهذبة بنعمة الروح القدس.

ثم إن أولئك الرهبان القديسين كتبوا جواب مراسلة الملكين، وتسلم رسل الملوك وانصرفوا من عندهم، فلم يشعروا إلا وقد ظهرت جيوش الإسلام، وقطعت البلد، وتغلبوا على دمشق ومصر، وأيضاً بيت المقدس وجميع الشام، فلما عادوا الملكين كاتبوا دير مارون، عند ذلك ثبتوا أهل الشام وجبل لبنان على تلك المقالة المقدسة المفوضة من الرسل والمجمع المقدم ذكرها، فلما عاد توفوا الملكين مرقيان وأخيه.

حينئذٍ تقلد سياسة مملكة الروم بعد هولاي هرقل الملك المنصور الذي رفع مجد دين النصرانية، وأباد أعاديها وأهلك أصدانها من الفُرس وغيرهم، وأهلك بلدانهم وأخرب حضراتهم وأمحى ذكرهم ورفع منارة الصليب الكريم على جميع الأعالي، وكسر معبودات المجوس عبَّاد الأوثان، وأقام بحق الملك نظير قسطنطين الكبير الملك القديس، الذي ثبت مقالة الثلاثمائة والثمانية عشر في مدينة نيقية.

وإن الملك هرقل القديس نكر على مقالة مكسيماس، ثم كتب عرف البان لاوون بطريرك رومية بفساد تلك المقالة الذي زادها مكسيماس بغير شهادة حق، فلما بلغ كتاب الملك هرقل إلى لاوون حينئذ تأمله وفهم مضمون صحة إيمانه، عند ذلك أرسل جوابه رسالة يبارك له بملكه ويدعي له بالنصر قائلاً له: إن الذي ابتدع هذا الشقاق مستحق تأديب قطع لسانه ويده، فلما وصل كتاب البطريرك قبله هرقل قبل الوقوف عليه، حينئذ أشخص بين يديه مكسيما وأمر بعض غلمانه أحد اسمه قسطا قطع لسان مكسيما ويده وأنفاه إلى جزيرة تُسمى الريكية، وهذا المقال مؤرخ عندنا وعندكم بكتاب سعيد بن بطريق، وهناك مات مكسيما منقياً وبطلت مقالة المشيئتين ومحا ذكرها في ملك هرقل وابنه قسطنطين، وابن قسطنطين كان اسمه قسطاس مقدار سبعين سنة.

وبعد هولاي تقدموا تلاميذ مكسيماس إلى أهل المراتب، وقدموا لهم البرطيل والرشوات الجزيلة، وردوا المقالة المنشقة كما كانت من مكسيما، وانشقوا أولئك إلى تلك المقالة، وثبتنا نحن أهل حلب وحماة وحمص في الشرق وجبل لبنان بمقالة الخمس مجامع، وثبتوا تلاميذ مكسيماس منشقين وحودهم لا يخالطهم أحداً، وأكثروا المقال والعيب واللعنات؛ بغضة منهم ورقاعة إلى جميع صفوف النصارى المؤمنين إخواننا المسيحيين.

وأنتم تلاميذ مكسيماس أخذتم لكم لعنة تلعنوا بها جميع المسيحيين، ظلماً وبغضة بغير شهادة عدل، وما سمعتم ما قال الإنجيل المقدس صلوا على من يلعنونكم ظلماً، افرحوا وابتهجوا؛ لأن أجركم كثير في السماء، وباركوا على من لعنوكم ومن صخرَك ميل مُرَّ معه ميلين، وأنتم أخذتم لكم لعنة تلعنوا بها النساطرة والإفرنج والأرمن، والقبط والحبش، واليعاقبة والموارنة.

ولا تعتبوا علينا ولا تلومونا؛ لأننا أورييناكم الصواب، ولكم بروسكم ولربنا المجد، ونحن سمينا موارنة من دير ماران — تفسيره دير ربنا — وأنتم انشقيتم وحوذكم وسميتم ملكيين على اسم الملكين عابدين مشيئتين وإرادتين وفعلين وغرضين ومذبحين وتصلبوا بأصبعين، وأفرقتم السيد المسيح مسيحين، عرفتك ذلك بعد إكرامك يا أبي القديس وصلي عليّ مِنْشَانِ اللهُ، له السبح، آمين آمين.^{٤٨}

^{٤٨} باب البراهين للمطران دريان، ص ٢٦٣-٢٦٧.

موقف علماء الموارنة

وأحكم ما صنّف في هذا الموضوع على يد الموارنة كتاب: لباب البراهين عن حقيقة أمر الطائفة المارونية، للمطران يوسف دريان، فإنه جاء — والحق يُقال — غزيرَ المادة جزيلاً المباحث واضحَ التعبير، وظهر بعده بثمانية عشر عاماً كتابٌ آخرٌ بالإفريقية، لصديقنا سيادة الحبر العلامة المطران بطرس ديب، وقد أسماه: «الكنيسة المارونية حتى نهاية العصور الوسطى»،^{٤٩} وقد استوعب سيادته أصول هذا الموضوع، وأحاط به بالطريقة العلمية الحديثة، فجاء كتابه مرجعاً لا يُستغنى عنه، وتلخص نظرية المطران يوسف دريان والمطران بطرس ديب بما يلي:

أولاً: أن القول بالمشيئة الواحدة لم يصل إلى أبرشيات أنطاكية في عهد سرجيوس وأونوريوس وهرقل، وأن القول بالمشيئتين تسرب إلى هذه الأبرشيات بواسطة بعض الأسرى في أوائل القرن الثامن.

ثانياً: أن الموارنة — ولو قالوا بالمشيئة الواحدة — لا يصح أن يقال بصواب أنهم مونوثليون بحصر المعنى؛ لأن المشيئة الواحدة في عُرفهم «واحدة معنوياً؛ أي في مفعولها ونتيجتها لا في قوتها ومبدئها».^{٥٠}

ثالثاً: أنه لا يجوز عدُّ الموارنة الأولين هراطقة؛ لأنه لا يصح فيهم تحديدهم الهرطقة وشروطها، ولا سيما وأنه لم يكن في عملهم أيُّ عناد أو جسارة، أو مكابرة أو عصيان على سلطة الكنيسة، كما برهنوا على ذلك عند أول اتصالهم بالكرسي الرسولي الروماني بعد تحديد المجمع المسكوني السادس.

ويرى صديقنا العلامة سيادة المطران مخائيل ضومط أن التعبير «مشيئتان طبيعيتان وعلان طبيعيتان» الذي أقره المجمع المسكوني لم يظهر في المناقشات الأولى التي رافقت قضية المشيئة الواحدة، وقد أخذها بعضهم بمعنى أدبي يقصد به «الأمر المراد»، وبالفعل «الأمر المفعول»، وفي عدم التمييز التباسٌ أدنى إلى جدال هو أشبه شيء بما قام حول تعبير الطبقيّة الواحدة الموروس عن كيرلس الإسكندري.

^{٤٩} Dib, Mgr. Pierre, L'Eglise Maronite jusqu'à la Fin du Moyen age, Paris, 1930.

^{٥٠} لباب البراهين، ص ٢٤٧.

الفصل الرابع

يُوحنا الدمشقي دَفَّاقَ الذهب

٧٤٩-٦٥٥

شقاء «الملكين»

واستغل اليعاقبة الحروب بين الروم والأمويين، وأكدوا لهؤلاء ولاء أبناء الكنيسة الجامعة لدين ملك الروم ودعوهم «ملكين» واتهموه بالتجسس للروم، فضيق الأمويون على هؤلاء «الملكين» ومنعوا قيام بطارقة لهم في أنطاكية وأورشليم والإسكندرية، وقد مرَّ بنا أن البطارقة الأنطاكيين مقدونيوس وجاورجيوس الأول ومكاريوس ظلوا بعيدين عن أنطاكية مقيمين في القسطنطينية، وشمل هذا المنع ثيوفانس الأول (٦٨١-٦٨٧) واسطفانوس الثالث (٦٨٧-٦٩٠)، ولعل جاورجيوس الثاني (٦٩٠-٦٩٥) وخلفه ألكسندروس الثاني (٦٩٥-٧٠٢) عادا إلى أنطاكية وأقاما فيها،^١ ولكن بطارقة اليعاقبة ظلوا هم أيضًا بعيدين عن أنطاكية، مقيمين في جهات ديار بكر وملاطية، وعلى الرغم من أن أحدهم إلياس نال حظوة لدى الأمويين فمنح حق إنشاء كنيسة في أنطاكية؛ فإنه لم يسمح له بالإقامة في هذه المدينة.^٢

^١ Mansi, XI, Col. 988

^٢ Barhebraeus, Chron., I, 298

الأمويون والنصارى

ورغب الأمويون في المال لاصطناع الأحزاب وللمتعة بأسباب الدنيا ولتتابعة الحرب، فزادوا الجزية والخراج وشدُّوا في تحصيلهما، وضيقوا على الناس حتى أخذوا الجزية في بعض الأحيان ممن دخل في الإسلام، ورأى بعض النصارى أن الإسلام لا ينجيهم من الجزية والعتف، فعمدوا إلى لبس الأسكيم، فأدرك عمال بني أمية غرضهم فوضعوا الجزية على الرهبان، وأراد بعضهم اقتضاءها من الأموات فجعلوا جزية الموتى على الأحياء.^٣ ولا يجوز التعميم في شيء من هذا، فإن الأمويين عطفوا أيضاً على بعض المسيحيين من أبناء الكنيسة الجامعة نفسها، وأشهر هؤلاء منصور بن سرجون والد دقاق الذهب، وعطف الأمويون على بعض الأطباء وعلى الأخطل أيضاً، وكان هذا يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن وهو سكران وفي صدره صليب ولا يعترضه أحد، ولا يستنكفون من ذلك؛ لأنهم كانوا يستعينون به في هجو الأنصار،^٤ وأجاد في مديح بني أمية في مناظرة جرت بينه وبين جرير فقال قوله المشهور:

شمسُ العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

فصاح عبد الملك الخليفة الذي جرت المناظرة في حضوره: «لا فُضُّ فوك! أنت مُحامينا وشاعرنا، اصعدْ على ظهر مُناظِرِك.» فخلع الأخطلُ بُردَهُ وشمر رداءه وقبض بيده على عنق جرير، فصرخ هذا يستنجد: «يا أمير المؤمنين إن مسيحياً لا يحق له أن يسوم مسلماً هذه الإهانة.» فأيدَهُ الحاضرون، وقالوا: الحق في جانبه يا أمير المؤمنين! ولكن عبد الملك لم يبد أي اهتمام لهذا الكلام، حتى إذا وطئ النصراني بقدمه عنق غريمه قال عبد الملك: هذا حسبك.^٥

ومما يروى عن عبد الملك أن طبيبه كان مسيحياً نسطورياً اسمه سرحون، وأنه عين أثناسيوس الرهاوي مريباً لأخيه عبد العزيز.

^٣ للمقريزي، ج ١، ص ٥٠ و ٢٩٥.

^٤ الأغانى للأصبهاني، ج ٧، ص ٧٤ و ١٧٨.

^٥ ديوان جرير، ص ٢٤-٢٥.

ويُروى عن عبد الملك نفسه أيضًا أنه كان يدعو المسيحيين للدخول في الإسلام، ولكن بدون ضغط أو إجبار،^٦ ويُروى عنه أيضًا أنه نشأ في أوساط المدينة، ورغب في الدين فلما بلغه أن أباه أضحى أميرًا للمؤمنين أغلق القرآن، وهو يقول: «ليس بعد بيننا من جامع.»^٧ وينقل البلاذري بالإسناد أن عبد الملك طلب كاتدرائية دمشق «للزيادة في المسجد» وبذل للنصارى مالاً لهذه الغاية فأبوا أن يسلموها إليه، فامتنع.^٨

واحتاج عبدُ الملك إلى مقاومة جماعة من مناظريه على الخلافة، وفيهم عبد الله بن الزبير في مكة والمختار بن أبي العبيد في العراق وغيرهما، فوكل ذلك إلى الحجاج وأمثاله، فاستخدموا العنف وحصلوا الأموال بحق وبغير حق، ومما يُحكى أن الحجاج كتب إلى عبد الملك يستأذنه في أخذ بقية من الأموال من أهل الذمة فأجابته: «لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وأبق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً.»^٩

ونقّص يوستينيانوس الثاني معاهدة السنة ٦٨٥، وكان عبد الملك مشغولاً في توطيد دعائم ملكه، فاشترى الصلح مع الروم، وزاد المال السنوي الذي كان يدفعه معاوية (٦٨٩)، ثم استتب له الأمر في الداخل فنشأت مشادة بين عبد الملك ويوستينيانوس حول ما كتب أو نقش على القراطيس والدنانير؛ فإن الروم كانوا لا يزالون يستوردون الورق من مصر، وكانت قد جرت عادة الأقباط على كتابة اسم المسيح وعبارة التثليث على أعلى الطوامير، فأمر عبد الملك باستبدال هذه العبارة: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وكتب في صدور كتبه إلى الروم: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وذكر النبي مع التاريخ، فكتب إليه يوستينيانوس: إنكم قد أحدثتم كذا وكذا، فاتركوه، وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون — وكانت العملة الرائجة في البلدان الإسلامية لا تزال دنانير رومية ودرهم فارسية — فغضب عبد الملك وخشي ما قد يحدثه هذا التهديد من أثر سيئ في نفوس المسلمين، فأشار خالد بن يزيد على عبد الملك بالتمسك بما أحدثه في القراطيس، وقال: يا أمير المؤمنين حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها، واضرب للناس سككاً ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا في الطوامير.^{١٠} فسك عبد الملك دنانيره الأولى في السنة ٦٩٢، وأرسل المبلغ السنوي المفروض

^٦ Lammens, H., Les Chantres des Omiades, 116

^٧ Ibid., 230

^٨ فتوح البلدان الطبعة الأوروبية، ص ١٢٥.

^٩ الأحكام السلطانية للماوردي، ص ١٤٣.

^{١٠} فتوح البلدان للبلاذري، ص ٢٤٩، والكامل لابن الأثير، ج ٤، ص ٣.

عليه ملك الروم من هذه الدنانير الجديدة، فغضب يوستينيانوس لخلو هذه الدنانير من صور أباطرة الروم، ولحملها عباراتٍ لم تخلُ من التحدي: «أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله.» فرفض يوستينيانوس قبول هذه الدنانير، وتحرك بجيوشه إلى الحدود الإسلامية ٦٩٣،^{١١} وأنزل عبد الملك الصلبان^{١٢} واستشهد البطريرك الأنطاكي ألكسندروس الثاني وجماعة من المؤمنين، وترمل الكرسي الأنطاكي أربعين سنة.^{١٣} وتوفي عبد الملك في خريف السنة ٧٠٥ وتولى بعده ابنه الوليد (٧٠٥-٧١٥)، «وكان جبارًا عنيدًا»^{١٤} فأمر بجميع أسرى الروم فقتلوا، ثم ضغط على النصارى — ولا سيما التغالبة — للدخول في الإسلام.^{١٥}

طمع الوليد في كاتدرائية دمشق «فجمع النصارى وبذل لهم مالا عظيما على أن يعطوه إياها فأبوا، وأدخلها في المسجد»^{١٦}. وسار سليمان (٧١٥-٧١٧) أخو الوليد على هذه الخطة عينها.

أما عمر بن عبد العزيز (٧١٧-٧٢٠) فإنه أوجب البر بالعهود وإعطاء كل ذي حق حقه، فأمر عامله في دمشق أن يرد إلى النصارى كنيستهم، فكره ذلك أهل دمشق وقالوا نهدم مسجدا بعد أن أذنا وصلينا! ثم أقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا فرضوا بذلك،^{١٧} ثم شدد عمر في تنفيذ عهده عمر بن الخطاب جد أمه.

^{١١} Cedrenus, *Historiarum Compendium*, I, 772; Zonaras, XIV, 229-231; Theophanes, Chron., a. 6186

^{١٢} Theophanes, Chron., a. 6186

^{١٣} Canstantius, Patriarch of Antioch, Neale, J. M., op. cit., 168

^{١٤} مروج الذهب للمسعودي الطبعة الأوروبية، ج ٥، ص ٣٦١، والفضول المختارة للجاحظ ص ١٩٢.

^{١٥} Barhebraeus, *Chron. Syr.*, 121; Michel le Syrien, II, 481-482; Zayat, H., *Les Martyrs Chrétiens dans l'Islam*, Machriq, 1938, 463-465

^{١٦} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٢٥.

^{١٧} Lammens, H., *Le Calife Walid et le Partage de la Mosquée des Omiades à Damas*, Bull. Inst. Fr. Arch, Or. 1925; *Etudes sur le Siècle des Omiades*, 269-304

^{١٨} فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٢٥.

أسرة يوحنا الدمشقي

ولا نعم شيئاً عن أصل الأسرة التي تحدر منها دُفَّاق الذهب، ولا نجد شيئاً في المراجع الأولية يؤيد قول فون كريمر العَلَّامة الألماني أن هذه الأسرة بزنتية الأصل،^{١٨} وليس لنا أن نقول مع الأب إسحاق الأرملي إن هذه الأسرة كانت عربية أو آرامية جارت اليعاقبة وقالت قولهم، فالقديس الدمشقي ابتعد عن أديار اليعاقبة ونسك هو وأقاربه في دير أرثوذكسي في فلسطين هو دير القديس سابا، وشهادة ابن البطريق أفتيخيوس أن أبا يوحنا طلب إلى خالد أن يعطي الأمان «له ولأهله ولبن معه ولأهل دمشق سوى الروم» لا تعني أن منصوراً كان سريانياً يعقوبياً،^{١٩} فاللفظ «الروم» الوارد في هذه الشهادة قد يُشير إلى العنصر لا المذهب،^{٢٠} والتلمحري، المُتَوَقِّفُ في السنة ٨٤٥ يرى في سرجيوس بن منصور الكاتب الدمشقي رجلاً خلقيدونياً لا يعقوبياً.^{٢١}

وتوطنت أسرة منصور دمشق، ونعمت في أيام موريقيوس (٥٨٢-٦٠٢) بالنفوذ والاحترام، فمنصور في عُرْفِ أفتيخيوس شغل منصباً مالياً هاماً، وكاد يكون عامل موريقيوس في ولاية فينيقية اللبنانية، ودمشق آنتِذٌ كانت من أهم مُدُنِ هذه الولاية، وأبقى هرقل منصوراً في منصبه بعد دخول الفرس إلى سورية،^{٢٢} ومنصور هذا هو الذي فاوض المسلمين باسم سُكَّانِ دمشق بعد تَخَلِّي الروم عنها، وهو الذي حظي بعطف أولئك بعد دخولهم إليها وتسلمهم أزمة الحكم فيها، فبقي في المنصب الذي شغله في أيام الروم ولم يدخل سرجيوس بن المنصور في الإسلام كما زعم ابن عساكر وابن شاكر، فكلامهما في هذا الموضوع مصنوعٌ وحديثهما محسن مزلف،^{٢٣} وثيوفانس الراهب الذي

^{١٨} Kremer, A. Von, Culturgeschichte des Orients, II, 408.

^{١٩} الملكيون لإسحاق الأرملي، ص ٣٢.

^{٢٠} أسرة يوحنا الدمشقي للأب يوسف نصر الله، ص ٣٨-٣٩، «الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي».

^{٢١} آداب اللغة اليونانية للأب أرملي نفسه في المسرة ١٩٢١، ص ٤٠٩.

^{٢٢} Eutychi, Annales, 26.

^{٢٣} تاريخ دمشق لابن عساكر، ج ٦، ص ٧١، وعيون التواريخ لابن شاكر، ص ٣٧٦-٣٧٧.

دُون بين السنة ٨١٠ والسنة ٨١٤ يؤكد تعلق سرجيوس بالدين المسيحي، وينعته بما تعريبه: «كان مسيحياً كاملاً»^{٢٤}

وتقوى معاوية بعد أن نودي بعثمان خليفة سنة ٦٤٤، ونوى الاستئثار بالسلطة في سورية، ثم صار خليفة أمويًا في دمشق، فاستعان بالنصارى في الحرب والسلم، وكلف ابن آثال بخراج حمص، وأبقى أفراد أسرة المنصور في مراكزهم في دمشق،^{٢٥} ولعل السبب في ذلك خدمات منصور أيام الفتح واحتياج الفاتحين إلى موظفين إداريين من ذوي الخبرة والأمانة، وأن معاوية كان يخشى طمع أشراف الفاتحين ولجوءهم إلى المساومة عند دفع الأموال.^{٢٦}

وأخلص سرجيوس لمعاوية النصح، واجتهد له في المشورة فاتسعت صلاحياته وشملت ديوان المقاتلة بالإضافة إلى المالية، فكلفه معاوية — وهو على سرير الموت — أن يُسير الأمور بعد موته حتى يعود ابنه يزيد من الحملة التي كان يقودها في آسيا الصغرى،^{٢٧} وأبقى يزيد سرجيوس على ما كان عليه، وهكذا فعل معاوية الثاني.^{٢٨} وأحب عبد الملك أن يستبدل اليونانية بالعربية في الدواوين المالية وما تبعها، وأن يُغير بعض النظم في هذه الدواوين فلم يرض سرجيوس عن ذلك، فولى عبد الملك سليمان بن سعد وهو «أول مسلم ولي الدواوين»،^{٢٩} وتوفي سرجيوس بين السنة ٧٠٣ والسنة ٧٠٥. وخلف سرجيوس ابنين أحدهما يوحنا دقاق الذهب، وهو منصور المؤرخين المسلمين، والآخر والد اسطفانوس السبتي ولا نعرف اسمه، وترهب اسطفانوس في دير القديس سابا أيضًا، وتبعه ابن عم له اسمه غريغوريوس، وقد اشتهر بنظم الترانيم، وفي القرن التاسع اعتلى السدة البطيركية الأورشليمية بطيركان من أفراد هذه الأسرة نفسها هما سرجيوس (٨٤٢-٨٥٨) وإيليا الثالث (٨٧٩-٩٠٧).^{٣٠}

^{٢٤} Theophanes Chron., a. 6182

^{٢٥} كتاب الوزراء والكتاب، للجيشياري، ص ٢٤. وأسرة يوحنا الدمشقي، للأب نصر الله، ص ٤٧.

^{٢٦} Lammens, H., Etudes Sur le Règne de Moawia, 11-12

^{٢٧} Lammens, H., Le Califat de Yazid, 108

^{٢٨} التنبيه والإشراف للمسعودي، ص ٣٩٧.

^{٢٩} تاريخ دمشق، لابن عساكر (الظاهرية) رقم ٢١، ص ٢٤٦.

^{٣٠} أسرة يوحنا الدمشقي للأب يوسف نصر الله، ص ٦٢.

مولد القديس ونشأته

وُلد قديسنا في دمشق وإليها نُسب، ومن هنا القول: إنه يوحنا الدمشقي، ومن هنا أيضًا لقبه الآخر دُفَاق الذهب، فالتعبير اليوناني Chrysorroas «دفاق الذهب» أطلق أولاً على نهر دمشق ومنعش غوطتها، وأول من أطلقه على يوحنا الدمشقي هو المؤرخ ثيوفانس الذي دُوِّن بين السنة ٨١٠ والسنة ٨١٤،^{٣١} وهو يوحنا في المراجع اليونانية ويوحنا بن منصور في المراجع القبطية وقوريني بن منصور في تاريخ ابن العبري وابن سرجون في كتاب الأعاني،^{٣٢} أما سنة ولادته فإنها مجهولة، وقد حصرها أصحاب سير القديسين بين السنتين ٦٧٠ و٦٨٠، ويرى الأب نصر الله أن قديسنا ولد حوالي السنة ٦٥٥، وقد جاء اجتهاده في محله.^{٣٣}

ونشأ يوحنا في بيت غنّي ووجاهة وعلم، ولا بدّ أن تكون دمشق قد نعمت بمدرسة عالية كغيرها من مدن ذلك العصر، فماري بن سليمان يقول: إن الأساقفة حدّوا حدو فوطيون كاثوليكوس النساطرة، فأنشئوا المدارس في مراكز أبرشياتهم،^{٣٤} ولكن سرجيوس أثر التهذيب الخصوصي، ففتش عن مهذبٍ لائق يُعنى بتعليم ولده يوحنا وولده بالتبني قوزما وتهذيبهما، ووافق هذا وقوع راهب صقلي في يد القرصان المسلمين اسمه قوزما أيضًا، فلما جاء القرصان بهذا الراهب وبغيره من ركاب السفينة المأسورة إلى دمشق؛ رأى سرجيوس هذا الراهب، ورأى البعض من رفاقه يجثون أمامه طالبين البركة، فرثى لحاله واقترب وتحادث إليه فلمس فيه ضالته المنشودة، فمثل أمام الخليفة واستوهبه الراهب فأعطاه إياه، فأخذه سرجيوس وأقامه على تربية ابنه يوحنا وابنه بالتبني قوزما، وكان هذا الراهب يُدعى قوزما أيضًا، وكان ماهرًا في العلوم والآداب والفنون، فأخذ يلقن الولدين اللغة اليونانية وآدابها والعلوم والفلسفة والموسيقى، ثم لس في الولدين ميلًا إلى الإلهيات فلقنهما مبادئ علم اللاهوت، ولما أتمّ الولدان علومهما استأذن الراهب ولجأ إلى دير القديس سابا فدعي إلى الدرجة الأسقفية وسيم أسقفًا على

^{٣١} Theophanes, Chron., a. 6221

^{٣٢} Graf, G., Gesch, der Christ. Arab. Lit., I 377, 378

^{٣٣} Nasrallah, J., Saint Jean de Damas, 58-59

^{٣٤} أخبار بطاركة المشرق، ص ٦٦.

ميومة ميناء غزة،^{٣٥} وقد اعترض الأب جوجي الإفرنسي^{٣٦} على صحة هذه الرواية فجاء اعتراضه ضرباً من الحدلقة الفارغة، ونحن نرى مع الأب نصر الله أنه ليس في هذه الروايات القديمة ما لا ينسجم وظروف القرن السابع والثامن وأخباره المدونة.^{٣٧}

يوحنا والدولة الأموية

وعوّلت السلطات الإسلامية على تعريب الدواوين في دمشق العاصمة وفي الولايات كما سبق وأشارنا، ولكن الولاة أَلْحُوا بوجود الاحتفاظ بالكتابة والموظفين النصارى،^{٣٨} ومن هنا قول سليمان بن عبد الملك: «لم نستغن عنهم ساعة، ولم يحتاجوا إلينا ساعة واحدة في سياستهم.»^{٣٩} فخلف يوحنا أباه في الإدارة «وصار كاتباً لأمير البلد متقدماً عنده صاحب سرّه وجهره وأمره ونهيه.»^{٤٠} أما قول البطريك يوحنا إن قديسنا أصبح «مستشار الخليفة الأول» فإنه لا شك مبالغ فيه.^{٤١}

وقام يوحنا بأعباء منصبه أحسن قيام مسخراً لذلك مواهبه وعلمه ومبادئه المسيحية السامية، ثم خير هو بين البقاء في مركزه وبين المحافظة على إيمانه، فهجر العالم غير آسف.^{٤٢}

ويقول الراهب ميخائيل في سيرة يوحنا الدمشقي: إنه لما رأى يوحنا ما صارت إليه الكنيسة من الاضطهاد والاضطراب في أثناء حرب الأيقونات هبَّ يدافع عن الإيمان القويم، فألف في ذلك ودعم رأيه بالبراهين اللاهوتية والمنطقية، وذلك بلغة يونانية فُصْحَى، فراع الإمبراطورَ ما رآه من هذا الخصم العنيد، ففكر في إهلاكه بالحيلة، فأمر

^{٣٥} سيرة يوحنا الدمشقي للراهب ميخائيل «طبعة الخوري قسطنطين الباشا» ص ١٢-١٥.

^{٣٦} Echos d'orient, 1925, 140

^{٣٧} Nasrallah, J. op. cit. 61

^{٣٨} مناقب عمر بن عبد العزيز طبعة بكر الألمانية، ص ٦٤.

^{٣٩} الموفقيات - زبير بن بكار، رقم ٢٧، وتاريخ ابن عساكر، ج ٣، ص ٢٧.

^{٤٠} سيرته للراهب ميخائيل، ص ١٥.

^{٤١} Patr. Gr., XCIV, Col. 449; Lammens, H., Califat de Yazid, 106, n. 1

^{٤٢} Mansi, XIII, Col. 356

بتروير رسالة تُنسب إلى يوحنا وتوجه إلى الإمبراطور، ويجيء فيها وصف ما يُلاقيه النصارى على يد المسلمين من الذل والهوان، ويبين فيها مواقع الضعف في الدولة الأموية، ثم تظاهر الإمبراطور لاوون بصداقة الخليفة عمر بن عبد العزيز وكتب إليه يُطلعه على خيانة يوحنا، فانخدع الخليفة واستشاط غضباً، فأمر بيوحنا فقطعت يده وطُرد من الخدمة. ويضيف الراهب ميخائيل أن يوحنا عاد إلى بيته يجر أذيال العارِ والدمُّ يقطر من يده البريئة الطاهرة، فانطرح أمام أيقونة العذراء وبكى كثيراً وصلى وتضرع ونام، فترأت له البتولُ واقتربت إليه وأعادت له يده المقطوعة، وكان هو قد تسلم يده المقطوعة ليدفنها، فلما أفاق وشاهد يديه كاملتين ذهب إلى عمر وأراه يده كاملة، فدهش الخليفة وطلب إليه أن يعود إلى وظيفته، لكن يوحنا باع ما عنده ووزع ثمنه على الفقراء والأديار والكنائس، وقصد دير القديس سابا وتضرع إلى الآباء أن يقبلوه في عداد صغار المبتدئين،^{٤٣} ويلاحظ هنا أنَّ أعمال المجمع السابع خالية من أيَّة إشارة إلى قطع اليد والأعجوبة، وأنَّ المؤرخين قدرينوس وأفراميموس وزوناراس ونيقيفورس؛ ساكتون عن هذا الخبر بكامله.^{٤٤}

يوحنا الراهب

واعترزل يوحنا قومه وابتعد عن ضوضاء العالم وأكاذيبه، فانتقل من القصور والرياض إلى الصوامع والقفار، وكان اسمه قد ملأ الدنيا رغم حداثته، فخشي رهبان القديس سابا أن يكون شوقه للحياة الرهبانية ربحاً عاصفة فيعود بعد مدة إلى بيته وسابق عهده، فامتحنوه فأقاموا عليه مرشداً طاعناً في السن شديداً على نفسه وعلى غيره، فأمره ألا يسير بموجب إرادته في أمر من الأمور، وألا يفتر في البكاء عن ذنوبه الماضية، وألا يستعلي بسبب ما عنده من العلوم، «وألا يعمل عملاً دون رأيه ومشورته، ولا يكتب

^{٤٣} سيرة القديس يوحنا الدمشقي، للراهب ميخائيل، ص ١٥-٢٠.

Jean, Patr, Vita, P. G., XCIV, Col. 457-461

^{٤٤} Cedrenus, G., Synopsis Historion, I, 799; Ephraemus, Corp. Script. Hist. Byz., XII, 82; Zonaras, C. S. H. B., XXXI, 270; Nicéphore, Breviarum, 74; Nasrallah, Jean de Damas, 75-

رسالة إلى أحد.^{٤٥} فلبّي يوحنا وخضع ولم يخالف لمرشده أمرًا، فكان كبيرًا في نُسكِهِ وتواضعه بقدر ما كان في مكانته الاجتماعية ومنصبه الحكومي، وعلم يوحنا أنّ أحد رُفقائه الرهبان فقد والده، فرثى لحاله وحادثه معزيًا، وذكر قول شاعر من شعراء اليونان فنقله إليه:

وهذه الأرض لا تُثقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان

فوبخه مرشدُهُ على إظهار معارفه الأدبية، وعاقبه بالسجن في غرفته، فأصغى للقول وَقِيلَهُ وَأذعن.^{٤٦}

ثم رغب الرؤساء في ترقية يوحنا، فلم يرض المرشد واستمهلهم إلى أن تَثَبَّتْ فضيلتُهُ، فأمر يوحنا أن يحمل كمية من السلال التي كان يحوكها الرهبان ويذهب بها إلى دمشق بلد يوحنا ليبيعها في أسواقها! وزاد المرشد ثمن السلال وأوصاه ألا يعود حتى يبيعها جميعًا، فشد يوحنا على حمار الدير وحمله جبلًا من السلال وساقه في طريق دمشق، ووصل إلى مسقط رأسه وتجوّل في عاصمة الأمويين عارضًا سلالة، فلم يجد من يشتريها لارتفاع سعرها، وما لبث أن عرفه الناس.

فتألّبوا حوله لينظروا ذلك الوجه الكبير الذي أمسى راهبًا حقيرًا بائع سلال، وأمطروه الأسئلة وتغامزوا واستنكروا أسعاره فسخروا منه، أما هو فحافظ على هدوئه ولم يُقابل ما سمع إلا بالصمت والإطراق، ثم أطلّ عليه أحدُ خدمه القدماء فابتاع السلال كلها وأنهى عذابه ومحنته، وعاد يوحنا إلى الدير منتصرًا على شيطان الكبرياء والظهور.^{٤٧}

«لقد وقفت أمام أبواب هيكلك، ولم أقص الأفكار المنكرة، لكن أنت أيها المسيح الإله، يا من برر العشار ورحم الكنعانية وفتح للصوص أبواب الفردوس، افتح لي أحشاء محبتك للبشر، واقبلني وأنا أدنو إليك وأمسك كما قبلت الزانية ونازفة الدم» (متالوبسي ليوحنا الدمشقي).

^{٤٥} سيرة يوحنا الدمشقي، للراهب ميخائيل، ص ٢٠.

^{٤٦} السنكسار للمطران ميخائيل عساف: ٤ كانون الأول.

^{٤٧} السنكسار نفسه والسيرة نفسها، ص ٢٠-٢١.

يوحنا الكاهن والواعظ

وانقطع قديسنا إلى الدرس، وتعمق في اللاهوت على يد يوحنا الرابع البطريرك الأورشليمي (٧٠٦-٧٣٤) وسِيمَ كاهناً واعظاً، فكان يصعد من الدير إلى المدينة المقدسة ليعلم ويعظ في كنيسة القيامة وغيرها،^{٤٨} وتجلت مواهبه في هذه الفترة من حياته، فجاءت عظائمه ومصنفاته بليغة العبارة لطيفة الكناية قوية الحجة.

وأمر يزيد الثاني الخليفة الأموي بتحطيم جميع الأيقونات في كنائس النصارى في السنة ٧٢٣،^{٤٩} وتبعه في ذلك زميله ومعاصره لاوون الثالث، إمبراطور الروم — كما سنرى في حينه — فانبرى قديسنا للدفاع عن الدين القويم، فوعظ وصنف وهدد باللعنة والقطع (٧٢٦-٧٣٠)، ولدى تنازل جرمانوس عن الكرسي القسطنطيني (٧٣٠) اشترك يوحنا في أعمال المجمع الأورشليمي، وحض الأساقفة على المناداة بهرطقة الإمبراطور وقطعه،^{٥٠} وجاء في بعض المراجع أن يوحنا طاف في مدن فلسطين وسوريه وبلغ القسطنطينية نفسها مناقشاً مدافعاً،^{٥١} ولكنه قولٌ ضعيفٌ لا يقبله رجال الاختصاص، والراجح عند هؤلاء أن يوحنا قضى هذا الدور من حياته بين دير القديس سابا والمدينة المقدسة،^{٥٢} وأنه لم يبرح هذه المنطقة إلا مرة واحدة في السنة ٧٣٤ عندما زار دمشق ليعالج الضربة التي وجهها الخليفة هشام الأموي إلى أخيه والد اسطفانوس السبثي^{٥٣}.

يوحنا دُفَّاق الذهب

وتأليف يوحنا الدمشقي عديدة، بعضها لاهوتي فلسفي وبعضها جدليٌ وبعضها زهدي رهباني وبعضها تفسيري، والبعض الآخر تسبيحي طقسي، ولكن الدمشقي لاهوتي في

^{٤٨} السيرة، للراهب ميخائيل، ص ٢٤، 103-100، J., Jean de Damas, Nasrallah.

^{٤٩} Denis de Tell-Mahré (Chabot), II

^{٥٠} Theophan, Chron., a. 6221

^{٥١} Gordillo, M., Damacenic, Orient. Christ. Analecta, 1926, 64; Monologio di Basilio II,

.213; Graf, G., Gesch. der Christ. Lit., I, 379

^{٥٢} Nasrallah, J., op. cit. 115-116

^{٥٣} Léonce de Damas, Acta SS., III, 184

الدرجة الأولى «فما نثر ولا نظم ولا ناظر ولا علم إلا إثباتًا للحقيقة المنزلة، أو تمهيدًا لها، أو دفاعًا عنها، أو تبيانًا لأسرارها». ^{٥٤} وأشهر ما صنف في اللاهوت ينبوع المعرفة ^{٥٥} والمقدمة في العقائد ^{٥٦} والإيمان الحق ^{٥٧} والثالوث الأقدس ^{٥٨} وإيضاح الإيمان، ^{٥٩} وأشهر هذه المصنفات وأكملها كتاب ينبوع المعرفة، وقد جاء في أجزاء ثلاثة الفصول الفلسفية، وكتاب الهرطقة وتفصيل الإيمان الأرثوذكسي، وقال الدمشقي في الطريقة التي اتبعها في عرض ينبوع المعرفة: سأبين أولاً أحسن ما عند الحكماء؛ لأنه هبة من الله للبشر، وسأورد هذيان الهرطقة لنعرف ضلالهم فنزداد تعلقًا بالحقيقة، ثم أشرح — بعون الله — الحقيقة التي تقوض الضلال وتطرد البهتان، وأضاف محددًا علاقة الفلسفة بالإيمان فقال: «وبما أن الرسول يقول امتحنوا كل شيء وتمسكوا بما هو حسن، فسندرسُ تعاليم الحكماء الوثنيين؛ لعلنا نجد عندهم ما يحسن اتخاذَه ونجني للنفس ثمرةً تفيدنا.

هذا، وكل صانع يحتاج إلى أدوات لصناعته، ولا بدّ للملكة من خادمتها، فلنجمع التعاليم التي تخدم الحقيقة بعد أن ننتزعها من طغيان الكفر، ولا نسيء استخدام الخير، ولا نستخدم فن الجدل لإغواء البسطاء، ولو كانت الحقيقة لا تحتاج إلى براهين مختلفة، فلنستخدم المنطق أيضًا لدحض البهتان وتحطيم أعداء الإيمان.

أجل، يجب أن نكتفي بما أوحى الله إلينا بواسطة ابنه وأنبيائه ورسله، ويجب أن نثبت فيه غير ناقلين حدوده الأبدية ولا خارجين عنها». ^{٦٠}

وأساس الإيمان عند دفاق الذهب هو الوحي الإلهي لا براعة العقل البشري، فالنفس بحاجة دائمة إلى مُعلم والمعلم المنزه عن الضلال هو المسيح، ولنسمع صوته في الكتاب المقدس؛ فإن النفس التي تفرع بنشاط وثبات باب روضة الكتاب المقدس الغناء؛

^{٥٤} الدمشقي اللاهوتي للأب خريسوستموس حلاق (الذكرى المئوية)، ص ٩٤.

^{٥٥} .Patr. Gr., XCIV. Col. 525–1228

^{٥٦} .P. G., XCIV, Col. 99–112

^{٥٧} .P. G., XCIV, Col. 1421–1432

^{٥٨} .P. G., XCV, Col. 8–18

^{٥٩} .P. G., XCV, Col. 417–436

^{٦٠} .P. G., XCIV, Col. 532. Trad. P. Chrysostomos Hallac

لكالشجر المغروس عند مجاري المياه،^{٦١} والدمشقي شديد التمسك بالتقليد الرسولي؛ لأن الكتاب المقدس نفسه يوجب هذا التمسك.^{٦٢}

وحاول الهراطقة الدفاع عن أضاليلهم بفلسفة أرسطو، فصرخ الدمشقي بهم: «أتجعلون أرسطو قديساً وثالث عشر الرسل! أم تعتبرون الوثني أكثر من الكتبة الملهمين». ^{٦٣} ثم انبرى يُحارب هؤلاء بسلاحهم بفلسفة أرسطو، ولم يكن عمله هذا أمراً يسيراً؛ فموقف أرسطو من القوى فوق الطبيعة مناقض لعقائدنا المنزلة، ولا سيما: سر الثالوث الأقدس والتجسد الإلهي، ولكن الدمشقي وُفق إلى إصلاح بعض نظريات أرسطو، ولا سيما فيما يتعلق باللاهوت الطبيعي وعلم الأخلاق وُخلود النفس، وأخذ عن أرسطو كثيراً من التحديدات، ولكنه أضاف إليها أشياء وأشياء كالفرق بين الطبيعة والجوهر والأقنوم، واستعان بها على إنشاءٍ تعابيرٍ خاصة بعلم اللاهوت مستقلة عن المذاهب الفلسفية العديدة، دقيقة، خالية من الالتباس الذي أدى فيما مضى إلى الجدل والخصام والشقاق. وهكذا، فإن قديسنا أدرك قوة فلسفة أرسطو فانتزعها من أيدي أعداء الإيمان وسخرها فنصرها ووضعها في خدمة رجال اللاهوت الذين أتوا بعده؛ كبطرس اللومباردي وتوما الأكويني، فأصبح — بحق — مؤسس اللاهوت السكولاستيكي.^{٦٤}

ويعتبر الدمشقي في تاريخ الفكر المسيحي لاهوتي سر التجسد الإلهي؛ فقد عالج هذا السر العجيب في أكثر مؤلفاته اللاهوتية فوفق كل التوفيق إلى الاستخراج من عقيدة الاتحاد الأقنومي جميع ما نقول به في الإيمان واللاهوت، ودعم استنتاجاته المنطقية بنصوص الكتاب المقدس وشهادات الآباء، فلم يترك مجالاً للشك في صحة ما ذهب إليه. وصنّف الدمشقي في الجدل، فجاءت رسائله متينة الحجة صحيحة الاستدلال فردت أهل البدع صاغرين قميئين، وأشهر ما كتب في الجدل رسائله الثلاث في الدفاع عن الأيقونات،^{٦٥} وقد سطرها — فيما يظهر — بين السنة ٧٢٦ والسنة ٧٣٠، فحوت وجه الصواب في إكرام القديسين، وحددت المسائل المتعلقة بهذا الموضوع، ولا نزال حتى يومنا هذا نعتدّ كلام هذا القديس العظيم في موقفنا من الأيقونات.

^{٦١} P. G., XCIV, Col. 529

^{٦٢} P. G., XCIV, Col. 1173, 1256, 1301

^{٦٣} P. G., XCIV, Col. 1441

^{٦٤} الدمشقي اللاهوتي، للأب خريسوستموس حلاق، ص ٩٥-١٠٥.

^{٦٥} P. G., XCIV, 1231-1420

ولم تبكّم قرارات المجمع الخامس من قال بالطبيعة الواحدة، فجاء الدمشقي يُكمل عمل أفلوغيوس الأنطاكي وتيموثاوس القسطنطيني وأنسطاسيوس الأنطاكي وأنسطاسيوس السينائي، فكتب رسالته الشهيرة في التريصاغيون ووجَّهها إلى الأرشمندريت جوردانس، فأيد فيها الموقف التقليدي من أن آغيوس المثلثة موجهة إلى الأقانيم الثلاثة لا إلى الابن فقط، وأنه — بالتالي — لا يجوز أن يُضاف إليها قول بطرس القصار: «أنت الذي صُلبت من أجلنا»^{٦٦} وكتب الدمشقي رسالة ثانية باسم بطرس متروبوليت دمشق، إلى أسقف دارا اليعقوبي؛ مفندًا موقف اليعاقبة، مثبتًا رأيه بالمنطق وبأقوال الآباء،^{٦٧} وعاصر الدمشقيُّ إيليا الأول بطريك اليعاقبة (+٧٢٣)، وكان هذا أرثوذكسيًّا، فلما طالع مؤلفات سويروس الأنطاكي جنح إلى القول بالطبيعة الواحدة فسقّفه اليعاقبة على كرسي أوفيمية ثم رقوه بطريركًا عليهم، فوجه إليه لاوون أسقف حرّان الأرثوذكسي رسالة في موضوع جنوحه عن العقيدة الأرثوذكسية، فأجابه البطريرك الجانح برسالة يحتج فيها عن نفسه، وأشار فيها إلى رسالتين وضعهما الدمشقي في موضوع الجدل لا نعرف لهما نصًّا.^{٦٨}

ومن آثار قديسنا رسالتان في الرد على النساطرة يثبت فيهما ألوهية السيد المخلص ووحدة شخصيته،^{٦٩} وردًّا أيضًا على من قال بالمشيئة الواحدة ناسجًا على منوال القديسين صفرونيوس ومكسيموس.^{٧٠}

وكانت المانوية قد عادت إلى الظهور في منتصف القرن السابع متخذةً ثوبًا جديدًا فعُرفت بالبولسية، واضطربت بها الألسنة وتفشّت في أرمينية والجزيرة وسورية، وتدرّع أصحابها بالآية: «حيث العابدون الحقيقيون يعبدون الآب بالروح والحق.» فرفعوا الأيقونات ومنعوا السجود للصليب المقدس، واستغنوا عن إكرام العذراء والقديسين،^{٧١}

^{٦٦} P. G., XCV, Col. 21–62

^{٦٧} P. G., XCV, Col. 111–126

^{٦٨} اللؤلؤ المنتور، للبطريك أغناطيوس برصوم، ص ٣٠٧–٣٥٨.

^{٦٩} P. G., XCV, Col. 187–224

^{٧٠} P. G., XCV, Col. 127–186

^{٧١} Pargoire, L., L'Eglise Byzantine, 181

فأمسك قديسنا يراعه وجال جولة موفقة في ميدان العقيدة، ولا سيما الخريستولوجية منها، وصنّف رسالتين في الرد على المانويين البولسيين.^{٧٢} ثم أطلّ المسلمون حاملين القرآن حافظين الحديث، فاضطرّ الدمشقي أن يدافع عن الأسرار واحداً واحداً، فجاء الفصلُ المائة والواحد رداً صريحاً على العقيدة الإسلامية،^{٧٣} وثبت تلاميذه في الإيمان بطريقة السؤال والجواب، فظهر حوارهِ الأول والثاني مع المسلمين،^{٧٤} ولم يخل كتابه ينبوع المعرفة من الرد على المسلمين ففصوله في الواحد الأحد والثالوث الأقدس والتجسد الإلهي جميعها ردود على أهل الجدل من المسلمين.^{٧٥} وعُني الدمشقي أيضاً بالزهد والترهب، وأشهر ما صنّف في هذا الموضوع كتاب التوازي Parallyla، وقد جاء هذا الكتابُ في أبوابٍ ثلاثة فبحث الأول منها في الثالوث والتوحيد وضم الثاني رأي الدمشقي في الإنسان ومشاغله، وجاء الثالث بحثاً مستفيضاً في الفضائل والرذائل، فقابل المؤلف كل رذيلة بفضيلة معينة، ومن هنا اللفظ التوازي في عنوان الكتاب كله.

وجاء في التقليد أنّ قديسنا وضع كتاب المعزي الأوكطوئخوس اليوناني Octoichos، ولعله نسّقه ونظمه وأضاف إليه، وجاء أيضاً أنه نظم عدداً كبيراً من قوانين الخدمة، وأنه لعب دوراً هاماً في تنظيم تبييكون القديس سابا، وأنه لحن معظم الأوكطوئخوس كما لحن عدداً كبيراً من القوانين والطروباريات، وأنه أدخل تحسيناً ملموساً في الموسيقى البيزنطية الكنسية،^{٧٦} وجاء أيضاً أنه هو أول من نظم السنكسار الرومي.

الدمشقي والآداب العربية

ولا نعلم ما إذا كان قديسنا كتب شيئاً في لغتنا العربية، ولكنه خلف أثراً ملموساً في علم الكلام وفنّ الجدل الإسلاميين العربيين، فالخطة التي رسمها لتأليف كتابه ينبوع المعرفة

^{٧٢} P. G., XCVI, Col. 1319–1336, XCIV, Col. 1505–1584

^{٧٣} P. G., XCIV, Col. 763–773

^{٧٤} P. G., XCIV, Col. 1585–1595, XCIV, Col. 1335–1348

^{٧٥} Becker, K., Islamstudien, 432–449

^{٧٦} Laily, A., L'Influence liturgique et Musicale de Saint Jean de Damas (Centenaire, Harissa, 1950), 84–93; Nasrallah, J., op. cit., 150–157; Emereau, Hymnographi Byzantini, Echos d'Orient, 1923

هي الخطئة عينها التي اتبعها علماء الكلام فيما بعد، فهم يبدعون مثله بمقدمة فلسفية، ثم ينتقلون مثله أيضًا إلى بحثٍ في الملل والنحل قبل الخوض في صلب الموضوع. ولا يقف الكلاميون عند هذا الحد في الأخذ عن يوحنا الدمشقي؛ فإنهم ينسجون على منواله في تنسيق الكلام عن العقيدة، فيعالجون موضوعَ الله وصفاته أولاً، ثم ينتقلون مثل الدمشقي إلى الكلام في الله وأعماله، ثم يطولون البحث في النبوة محل البحث في المسيح.^{٧٧}

الوفاء والتكريم

وتختلفُ المراجعُ في تعيين السنة التي تُوفي فيها يوحنا الدمشقي اختلافًا كبيرًا؛ فقد تكون السنة ٧٥٠ وقد تكون السنة ٧٨٠، ولكن الأب فايهي يرى العبارة الواردة في أعمال مجمع هييرية Hieria سنة ٧٥٤ دليلًا قاطعًا على أنَّ يوحنا الدمشقي تُوفي قبل هذا التاريخ، وهذه العبارة تنص على أن الثالث الأقدس كان قد «أمات» الثلاثة جرمانوس القسطنطيني وجاورجيوس القبرصي ويوحنا الدمشقي، ثم يرى هذا الأب العالم في كلام لاونديوس الدمشقي عن استفانوس السبثيتي ما يُعين على تعيين سنة وفاة يوحنا الدمشقي وجعلها السنة ٧٤٩، فاسطفانوس التحق بعمه يوحنا في دير القديس سابا وهو في التاسعة من عمره، وبقي معه في الدير خمسة عشر عامًا، وتوفي في التاسعة والستين من العمر في السنة ٧٩٤، فلو طرَحْنَا ٦٩ من ٧٩٤ عَرَفْنَا سنة ولادة اسطفانوس وجعلناها السنة ٧٢٥. ثم لو أضفنا تسع سنوات إلى هذه السنة عرفنا السنة التي دخل فيها اسطفانوس الدير (٧٣٤)، ولو أضفنا إلى هذه السنة (٧٣٤) الخمسة عشرة عامًا التي قضاها اسطفانوس في جوار عمه يوحنا بلغنا السنة ٧٤٩، سنة وفاة قديسنا.^{٧٨}

وفاضت روح قديسنا في السنة ٧٤٩ في دير القديس سابا ودفن فيه، ثم نقلت عظامه في أواخر القرن الثاني عشر، أو أوائل القرن الثالث عشر إلى القسطنطينية، إلى كنيسة جميع القديسين في جوار كنيسة الرسل، ثم نهب الصليبيون هذين المقامين، وجاء الأتراك بعدهم فهدموهما لإنشاء جامع السلطان محمد الثاني.^{٧٩}

^{٧٧} Anawati, M. M., *Theologie Musulmane*, 200–207.

^{٧٨} Vailhé, S., *Date de la Mort de Saint Jean de Danas*, *Echos d'Orient*, 1906, 28–30.

Nasrallah, J., *op. cit.*, 127–128.

^{٧٩} Nasrallah, J., *op. cit.*, 128–129; Ebersolt, J., *Sanctuaires de Byzance*, 31–43.

يُوحناً الدمشقي دُفَّاق الذهب

وملاً يوحنا الدمشقي الكنيسة بعبير فضائله وعلمه، فأكرمه المؤمنون في حياته وبعد وفاته، وردد المجمع المسكوني السابع (٧٨٧) صدى هذا الإكرام، فأعلن قداسة يوحنا الدمشقي في جلسته السابعة وهتف: «ليكن ذكره خالداً.» ثم نظم اسطفانوس المرتل مديحاً ليوحنا في أواخر القرن الثامن، فأتحفنا بما لا نزال نردد ونرتل في الرابع من كانون الأول من كل عام:

ماذا ندعوك أيها القديس، أيوحنا المتكلم باللاهوت أم داود المترنم؟ أكنارة ملهمة من الله أم نايًا رعائياً؛ فإنك تحلي السمع والعقل وتبهج محافل الكنيسة، وبأقوالك المفضية عسلاً تزين الأقطار، فابتهل في خلاص نفوسنا.

الفصل الخامس

الأيقونات

٧١٧-٧٨٧

لاوون الثالث الأسوري (٧١٧-٧٤٠)

وأنجب الروم في إبان محنتهم لاوون الأسوري، فأنزل بالمسلمين هزيمة بالغة وردَّهم عن القسطنطينية، فكانت محاولتهم هذه الأخيرة من نوعها في تاريخ الخلفاء الأمويين. وعُني لاوون بالتشريع، فرأى أن القوانين والأنظمة التي ترجع إلى عهد يوستينيانوس الكبير قد أصبحت تفتقر إلى إعادة نظر وتعديل، رأى الناس يؤثرون العرف حتى على بعض شرائع يوستينيانوس، كما رأى بعد تقلُّص الإمبراطورية من جراء الحروب الإسلامية وتغلُّب الصقالبة والبلغار على جزء كبير من البلقان؛ أن اليونانية قد أصبحت اللغة الوحيدة التي يفهمها السكان، وبالتالي لا بدَّ من تشريع باليونانية خلاف تشريع يوستينيانوس الموضوع باللاتينية، فانتقى في السنة ٧٢٦ لجنة من كبار رجال القانون أسند إليها إعادة النظر، فظهرت الإكلوغة Ecloga ومعنى هذا اللفظ: المنتخبات، وتضمنت الإكلوغة في أقسامها الثمانية عشرة الحقوق المدنية والأحوال الشخصية، ولم تبحث في الجزاء إلا قليلاً، وجاءت الإكلوغة مسيحية أكثر من الديجستا.

وثمة ثلاثة قوانين أُخرى تعود إلى عهد الأسوريين أيضًا، وأشهرها قانون المزارعين، ويرى العالم الروسي بنشكو أن هذا القانون مستمدٌ من العُرف الذي ساد الأوساط الريفية، والذي لم تشمله الإكلوغة، ونجد في بعض نُسخ الإكلوغة الخطية ملاحقًا تتضمن قانونين آخرين، أحدهما بحريٌّ والآخر عسكري.

الأيقونات

والأيقونة لفظٌ يونانيٌّ، معناه الصورة أو الرسم، وهو يُستعمل في المصطلحات الدينية للإشارة إلى صور القديسين، والأيقونات في عُرف الكنيسة نوعان: منها العادي ومنها العجائبي، وحرب الأيقونات تنقسم إلى مدتين: الأولى من السنة ٧٢٦ حتى السنة ٧٨٠، وهي سنة انعقاد المجمع المسكوني السابع، والثانية تمتد من السنة ٨١٣ حتى السنة ٨٤٣ وتنتهي بإرجاع الأرثوذكسية إلى حالتها الأولى.

وأسباب حرب الأيقونات لا تزال غير واضحة ولا ثابتة؛ لأن ما نعلمه عنها مأخوذ — في معظمه — من أقوال أحد الخصمين، فقد ضاعت مصنفات الذين حاربوا الأيقونات، وما بقي منها جاء في معرض الردود التي كتبها الخصوم، وهو — والحالة هذه — غير صالح للأخذ به؛ لما ينقصه من العدالة، وما يصح من هذا القول على المصنفات العامة يصح كذلك على قرارات المجمعين اللذين بحثا أمر إكرام الأيقونات، فمقررات مجمع السنة ٧٥٤ قد وردت في قرارات المجمع المسكوني السابع.

والباحثون في أسباب هذا النزاع يختلفون في الرأي، فبعضهم يرى أسبابها دينية وغيرهم يراها سياسية، فالمؤرخ اليوناني الحديث بابا ريغوبولو يرى في كتابه تاريخ الحضارة اليونانية أن حرب الأيقونات كانت في أساسها حرب إصلاح سياسي اجتماعي، وأن لاوون الثالث ومن خلفه من أسرته أراد أن يحرر التعليم والتربية من سيطرة الإكليروس، وأن العناصر المستتيرة المتحررة في الدولة وبعض كبار رجال الدين والجيش؛ قد أيدوا هذه الحركة الإصلاحية، وأن إخفاق هؤلاء أجمعين إنما نتج عن تمسك العناصر الجاهلية من النساء والرهبان بكل قديم،^١ ويرى المؤرخ الإفرنسي لومبار في كتابه قسطنطين الخامس^٢ أن حرب الأيقونات كانت حركةً إصلاحيةً دينية، ترمي إلى تطهير

^١ Paparigopoulo, K., Hist. de la Civ. Hellenique, 188-191

^٢ Lombard, A., Constantin V, 105, 124-128

النصرانية من أدران الوثنية، وأنها جاءت في الوقت نفسه الذي جرت فيه محاولات أخرى للإصلاح، ويرى لويس براهيه الإفرنسي أيضاً أن محاربة الأيقونات ذات وجهين، فثمة مشادة حول إكرام الأيقونات، وثمة بحث دقيق إذا كان يصحّ الرمز إلى ما فوق الطبيعة بالرسم والتصوير،^٣ ويرى أوسبنكي الروسي أن السبب الحقيقي الذي دفع بلاوون وخلفائه إلى خوض غمار هذه الحرب إنما كان خوفهم من ازدياد ثروة الرهبان وتزايد نفوذهم، فالمشادة كانت زمنية سياسية في مستهل أمرها فجعلها الرهبان دينية؛ ليوغروا صدور المؤمنين ويحضوهم على مقاومة سياسة الحكومة.^٤

والواقع أن الاعتراض على الأيقونات لم يكن ابن ساعته؛ ففي بدء القرن الرابع حرم مجمع ألفيرة Elvira المحلي في إسبانيا إقامة الصور في الكنائس،^٥ ورأى أفسابايوس مؤرخ الكنيسة أن إكرام صور السيد وبطرس وبولس كان من «عادات الأمم»،^٦ وفي القرن الرابع نفسه أيضاً مرّق أيبفانيوس القبرصي ستاراً في إحدى كنائس فلسطين؛ لأنه كان يحمل صورة السيد وأحد القديسين،^٧ وفي القرن الخامس اعترض خينائياس أسقف منبج (٤٨٨) على الأيقونات قبل سيامته،^٨ وفي القرن السادس جاهد أغاثياس (+٥٨٢) في حماية أيقونة مار ميخائيل ضد المعترضين،^٩ وقبل نهاية هذا القرن نفسه في السنة ٥٩٩ حرم سيرينوس أسقف مرسلية إقامة الأيقونات في الكنائس، فكتب إليه القديس غريغوريوس بابا رومة يثني على عدم التعبد لما هو من صنع البشر، ويذكر — في الوقت نفسه — بالمؤمنين الأميين الذين لا يقرءون ولا يكتبون وبضرورة إعانتهم على النظر إلى ما لا يمكنهم أن يقرءوه في الكتب،^{١٠} ويجب ألا يغيب عن البال أن اليهود لم يرضوا

^٣ Brehier, L., La Querelle des Images, 3-4

^٤ Uspensky, Th. J., Byz. Emp., II, 22-53, 89-109, 157-174

^٥ Mansi, Sac. Conc. Nov., Constitum Liberitanum, Par. XXXVI

^٦ Eusèbe, Hist. Ecc. VII, 18

^٧ Patr. Gr. XLIII, Gol. 390., Acad. Inscr. Belles Lettres, 1904, 361-363, Baynes, N. H.,

Idolatry and the Early Church, Byz. Studies, 127-128

^٨ Theophanes, Chron., a. 5982

^٩ Anthologie Grecque, Epigrammes Chrétiennes, I, 34, Trad. Waltz. I, 34-36

^{١٠} Reg. IX, 208, XI, 10

قط عن شيء من هذا، وأن القرآن علّم بأن الأنصاب رجس من عمل الشيطان «سورة المائدة»، وأن المانوية بثوبها البولسي استنكرت إكرام الأيقونات — كما سبق وأشارنا.

لاوون والأيقونات

وأخلص لاوون للدين والدولة، وتوخى مناهج الرشد، فأصلح القضاء والإدارة والمال، ولم يُغفل حدوده الجنوبية طرفة عين، فراقب المسلمين واستقرى أحوالهم، وترصد البولسيين المنتشرين في ولاياته الجنوبية وفي الجزيرة وسورية الشمالية وقيليقية وذكر موقفهم من الصليب المقدس والسجود له،^{١١} ولم ينس اليهود وأحقادهم وما قالوه في الأيقونات، فرأى أنّ مصلحة الدولة تقضي بمعالجة هذه القضية معالجة جدية.

ويرى شارل ديل أن لاوون نشأ في جوّ عائلي آسيوي، يمقت الأيقونات ويرى في إكرامها خروجًا على العقيدة القويمة، وأنه رغب في الإصلاح السياسي الاجتماعي الاقتصادي؛ فرأى أنه إذا حارب الأيقونات يضرب الرهبان ضربة مكيئة فيصيب عصفورين بحجر واحد،^{١٢} ويلمس كارل شينك في شخص لاوون الثالث ورعًا وتصوفًا شديدتين، جعلاه يعتبر بما حل بالدولة من ويلات، فيعزي ذلك إلى إكرام الأيقونات،^{١٣} ويقول كارل شفارتز لوزي بشيء من هذا، ويضيف أن لاوون كان جنديًا خشنًا لا يتذوق الفن، وأن تربيته العائلية واحتكاكه باليهود والمسلمين دفعاه إلى تحطيم الأيقونات، ولا سيما وأنه كان يعتبر نفسه رئيسًا زمنيًا وروحيًا في آن واحد.^{١٤}

يزيد والأيقونات (٧٢٣)

ويرى بعض رجال الاختصاص أن القرآن حرم الأصنام والأنصاب، ولكنه سكت عن الصور والرسوم، وأنّ تحريم هذه جاء في الحديث فقط، ويرون أيضًا أن الأمويين

^{١١} Grégoire, H., Les Pauliciens et l'Iconoclisme, Congrès des Etudes Byzantines, 1936

^{١٢} Diehl, C., Leo III and the Isaurian Dynasty, Cam. Med. Hist., IV, 1-26

^{١٣} Schenk, K., leos III walten Im Innern, byz Zeit. 1896, 257-301

^{١٤} Schwazlose, K., Der Bilderstreit, ein Kampf der Grichischeu Kirche um ihre Eigenart und ihre Freiheit, Gotha, 1890. Improtant

زينوا بعض قصورهم بما مثل الكائنات الحية،^{١٥} وأنهم لم يتورعوا عن التداول بالعملية البنزطية التي كانت تحمل رسوم الأباطرة، وأن محاربة رسوم الكائنات الحية بدأت في عهد عبد الملك بن مروان، وهم يرون أيضًا في خلو فسيفساء الجامع الأموي من رسوم الأحياء دليلًا على بدء محاربة الرسوم في أوائل القرن الثامن.^{١٦}

وشملت محاربة الأيقونات الكنائس والمعابد والبيوت فأمر عبد الملك بن مروان بتحطيم جميع الصلبان، ثم جاء يزيد الثاني (٧٢٠-٧٢٤) فقرب يهوديًا من طبرية وأصغى إليه، فأشار عليه هذا بتحطيم جميع الصور والصلبان حيثما وجدت؛ وذلك ليطول عمر الخليفة وعهده، فأمر يزيد بذلك فتوفي في السنة التالية،^{١٧} وجاء في كتاب الخطط للمقرئزي (ج ٢، ص ٤٩٢-٤٩٣) أنه لما تولى يزيد كان أسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج على النصارى في مصر، فاشتد عليهم وأوقع بهم، «ثم هدمت الكنائس وكسرت الصلبان ومحيت التماثيل وكسرت الأصنام جميعها». وجاء أيضًا في تاريخ أبي فرج الملطي أن يزيد «أمر أن تنزع صورة كل حي من الهياكل والجدران والأخشاب والحجارة والكتب». وأن لاوون ماثله في ذلك.^{١٨}

أساقفة آسية الصغرى

وخاض الناس في خبر يزيد، وانتشر بريده في آسية الصغرى فتلقاه قسطنطين أسقف نقولية Nocolia برُحْب صدره، فأطلق لسانه في هذا الموضوع،^{١٩} فاعترضه في ذلك رئيسه متروبوليت سينادة Synnada فقام قسطنطين إلى القسطنطينية يبحث موضوع الخلاف مع جرمانوس البطريرك المسكوني، مستندًا في اعتراضه على الأيقونات بما جاء في الفصل

Marcais, G., La Question des Images dans l'Art Musulman, Byzantion, 1932, 161-183; ^{١٥}

Lammens, H., l'Attitude de l'Islam Primitif en face des Arts Figurés, Journ, Asiat, 1915, 239 ff

Eustache de Lorey, Les Mosaiques de la Mosquée des Omeyyades à Damas, Cahiers ^{١٦} d'Art, 1929, 206 ff

Theophanes, Chron., a. 6125; Nicephore, Antirrheticus, III, Mansi, XII, Col. 197; Denis ^{١٧} de Tell-Mahré, (Chabot), 17

^{١٨} تاريخ أبي الفرج الملطي، المشرق ١٩٤٩، ص ٤٨٤.

^{١٩} Nicephore, Antirrheticus, III; Germain, De Haeresibus et Synodis, P. G., XC VIII, Col. 77

العشرين من سفر الخروج: «لا يكن لك آلهة أخرى تجاهي، لا تصنع لك منحوتاً ولا صورة شيء مما في السماء من فوق ولا مما في الأرض من أسفل، ولا مما في المياه من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن؛ لأنني أنا الرب إلهك إله غيور.» وكان المتروبوليت قد كتب إلى البطريرك في ذلك أيضاً، فأسكت البطريرك الأسقف وكتب إلى المتروبوليت ودفع برده هذا إلى الأسقف طالباً إليه أن يوصله إلى رئيسه، فعاد الأسقف إلى نقولية واحتفظ برسالة البطريرك، فاغتاظ المتروبوليت وعلم البطريرك بذلك، فكتب إلى الأسقف يهدده بالقطع،^{٢٠} وجارى قسطنطين كل من توما أسقف كلوديابوليس وثيودوسيوس رئيس أساقفة أفسس، فكانت مشادة وكان انطلاق في سبيل تحطيم الأيقونات.^{٢١}

بسر السوري ولاوون (٧٢٣)

وجاء في حوليات ثيوفانس أن لاوون أحب مارقاً سورياً اسمه بسر، وأن بسرًا هذا كان بطلاً مغواراً فأحبه لاوون وعطف عليه، ووقع بسر أسيراً في يد العرب فدخل في الإسلام ونال حظوة عند يهودي طبري كان يزيد الخليفة الأموي قد قربه من شخصه، وجاء أيضاً أن بسرًا عاد إلى القسطنطينية في السنة ٧٢٣ واتصل بلاوون، فجعله بطريقاً فقتل في ثورة الأرتفذة في السنة ٧٤٠.^{٢٢}

ويعلق بعض رجال البحث أهمية على اتصال بسر بلاوون، فيشيرون إلى أن لاوون أعلن موقفه من الأيقونات في السنة نفسها التي اتصل بها بسر، وهو — في نظرنا — استنتاجٌ ضعيفٌ لا يركن إليه؛ فمجرد وقوع الحادثين في سنة واحدة لا يبرر الاستنتاج بأن أحد الحادثين سبب الآخر، ويعلق هؤلاء أهمية أيضاً على اللقب «الشرقي» الذي ألصق بلاوون فيما بعد، فيربطون بين هذا اللقب وبين أثر المسلمين في سياسته الدينية،^{٢٣} ويسهو عن بال هؤلاء أن عدالة الرواة الذين ألصقوا هذا اللقب غير ثابتة!

^{٢٠} P. G. XCVIII, Col. 156–164.

^{٢١} P. G. XCVIII, Col. 164–188; Ostrogorsky, G., *Les Débuts de la Querelle des Images*, 238,

Hist. of the Byz. State, (1956), 143–144.

^{٢٢} Theophanes, *Chron.*, a. 6215; Brehier, L., *Beser*, *Dict. Hist. Géog. Ecc.*, VIII, Col. 1171–

1172.

^{٢٣} Ostrogorsky, G., *Byz. State*, op. Cit., 142–143.

بركان سنتورينة (٧٢٦)

وثار بركان جزيرة سنتورينة في السنة ٧٢٦، وغارت جزيرة صغيرة بالقرب منها، وظهرت جزيرة جديدة فوق سطح المياه، فرأى لاوون في هذا كله غضباً ربانياً؛ فدعا الناس في العاصمة وخطب فيهم منذراً موجباً التعبد لله وحده والتندم على ما فرط منهم في إكرام الأيقونات،^{٢٤} فدمدم الحضور وهمموا، فأكد الإمبراطور أنه لا يقصد التهاون بالأيقونات ولا الاستهانة بها، وإنما يرغب في رفعها إلى محلات عالية في الكنائس؛ كي لا يؤدي لمسها وتقبيلها إلى إتلافها.^{٢٥}

أيقونة خالكة (٧٢٧)

ثم أطلق لاوون لنفسه عنان هواه، فأمر في مطلع السنة ٧٢٧ بإنزال أيقونة السيد المخلص من مكانها فوق أحد مداخل قصر خالكة، فاضطرب سكان العاصمة وهجم بعضهم يمنع إنزال الأيقونة، فصدّهم رجال الأمن، فاصطدم الفريقان ووقعت بعض الضحايا، فألقي القبض على المتظاهرين وجُلد بعضهم وشُوهِ البعض الآخر ونُفي غيرهم.^{٢٦}

ولم تلق دعاية لاوون أذاناً صاغية بين أساتذة جامعة القسطنطينية، فغضب لكرامته وشوُّش عليهم، ولعله أقفل هذه المؤسسة، ولا صحة — فيما يظهر — لما جاء في بعض المراجع المتأخرة من أن لاوون أمر بإحراق مكتبة الجامعة.^{٢٧} واستوقدت دعاية لاوون في هذه السنة نفسها غضب الجند في ثيمة هيلانكي في بلاد اليونان نفسها، فركبوا البحر وأقلعوا إلى القسطنطينية، فوصلوا إلى مياهها في الثامن عشر من نيسان السنة ٧٢٧، ولكنهم لم يقووا على النار الإغريقية فأخفقوا، فأمر الإمبراطور برؤسائهم فذبّحوا ذبّاحاً.^{٢٨}

^{٢٤} Baronius, Annales Ecclesiastici, IX, 55–56

^{٢٥} Brehier, L., Querelle des Images, Fliche et Martin, op. Cit. V. 449–450

^{٢٦} Theophanes, Chron., a. 6218; Vita Stephani Junioris P. G. C. Col. 1085

^{٢٧} Theophanes, Chron., a. 6221; Georges le Moine, II, 742; Fuchs, F., Die Hohern Schulen von Konstantinopel, 9–13

^{٢٨} Theophanes, Chron., a. 6218; Nicephore, Breviarum, 57–58

البطريك والبابا

وكان لاوون يقظَ الفؤاد، لا يغفل عن النظر فيما أهمه، فظل حتى السنة ٧٣٠ يتحين الفرص ويفاوض، ففي السنة ٧٢٨ فاوض جرمانس البطريك المسكوني في أمر الأيقونات، وزعم أن جميع البطاركة والأباطرة ضلوا سواء السبيل بما قاموا به من إكرام واحترام للأيقونات، ثم هول وأفزع فصفحه جرمانوس وخيب أمله.^{٢٩}

وكتب لاوون في هذه الأثناء إلى بابا رومة غريغوريوس الثاني وأعدًا وعدًا كريمًا في حال الموافقة على تحريم الأيقونات، متوعدًا بالخلع إن هو خالف الرغبة الملكية، فأندر غريغوريوس المؤمنين بطغيان الإمبراطور وتيهه وحذرهم منه.^{٣٠}

ويستدل مما تبقى من نصوص هذه الرسائل؛ أن لاوون تذرع بالتوراة لتحريم الأيقونات، فاستشهد الفصل الثامن عشر من سفر الملوك الرابع، فذكر «كيف أزال حزقيا المشارف، وحطم الأنصاب وسحق حية النحاس التي كان موسى صنعها؛ لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يقترون لها وسموها نحوشتان». وادعى أنه إنما يقتفي أثر هذا الملك الصالح، ومما احتج به لاوون في هذه الرسالة أنه اعتبر نفسه كاهنًا وإمبراطورًا، أما غريغوريوس فإنه عاب على لاوون إقدامه على ما فعل بدون مشاورة السلطات المختصة، وأكد له أن ما ورد في التوراة إنما جاء ليردع اليهود عن التعبد للأوثان.

ويلاحظ هنا أن اعتراض الثقات على صحة هذه الرسائل وأصالتها^{٣١} قد تلاشى بعد ظهور البحث الدقيق الذي قام به العلامة جورج أوستروغورسكي أستاذ تاريخ الروم في جامعة بلغراد.^{٣٢}

وفي أواخر السنة ٧٢٩ أعاد لاوون الكزة، فبحث موضوع الأيقونات مرة ثانية مع جرمانوس وتَصَنَّعَ له في المودة وتَمَلَّقَه، ولكن جرمانوس أَصَرَ على الإباء، فأصغى إليه الإمبراطور، ولكنه حال عن مودته وسَمَّ أَلْفَتَه.^{٣٣}

^{٢٩} Theophanes, Chron., a. 6218.

^{٣٠} Liber Pontificalis, (Duchesne), I, 404; Theophanes, Chron, a. 6221.

^{٣١} Guérard, L., Lettres de Grégoire II, a Léon l'Isaurien; Schwarzlose, K., op. cit. 113 ff.

^{٣٢} Ostrogorsky, G., Debuts de la Querelle des Images, Mélanges Charles Diehl, (1930), I, 244-254.

^{٣٣} Theophanes, Chron., a. 6221; Vita Stephani, P. G., C. Col. 1084-1085.

تحريم الأيقونات (٧٣٠)

وتوثق لاوون من أمره فدعا السيلنتيون Silention إلى جلسة قانونية في قصر دفنة في البهو ذي التسعة عشر سريراً في السابع عشر من كانون الثاني سنة ٧٣٠. والسيلنتيون مجلس أعلى كان يضم أعضاء مجلس الشيوخ وكبار رجال الدولة والكنيسة،^{٣٤} وكان لاوون قد أمر بإعداد بيان رسمي بتحريم الأيقونات،^{٣٥} فلما اكتمل الحضور طلب الإمبراطور إلى البطريك جرمانوس أن يوقع هذا البيان، فرفض البطريك ورفع الأوموفوريون وقال إلى الإمبراطور: «أنا يونان اطرحوني في البحر، لا يمكنني أن أعترف إلا بالدستور الذي أقره المجمع المسكوني.» وخرج إلى بيت أبيه وأكمل أيامه فيه،^{٣٦} وجاء أنه طرد من البطريكية طرداً، وأُجبر على الإقامة في أحد الأديار، ولكنه قول ضعيف.^{٣٧} واعتبر لاوون الكرسي القسطنطيني شاغراً، فأوعز بارتقاء أنسطاسيوس السنكلوس، فانتخب هذا بطرياً مسكونياً في الثاني والعشرين من الشهر نفسه، ودعا المجمع القسطنطيني إلى الانعقاد وحرم استعمال الأيقونات، وأرسل الرسائل السلامية ووجه إحداها إلى غريغوريوس الثاني بابا رومة وأعلمه بما فعل، فاعترض أسقف رومة وألح عليه بوجوب العودة إلى الأرثوذكسية.^{٣٨} وضيّق الإمبراطور والبطريك الجديد على من أيد الأيقونات، وعدّها عدداً كبيراً من المؤمنين وشوّهها وأعدّها، ولكن المراجع الأولية لا تُمكننا من تعيين شهداء هذه الفترة، وجاء في سيرة اسطفانوس الأصغر أن سكان العاصمة قرّوا زرافات زرافات، وأن والدي اسطفانوس الأصغر أودعا ابنهما هذا ناسكاً فنشأ راهباً.^{٣٩}

^{٣٤} Theophanes, Chron., a. 6221; Ebersolt, Le Grand Palais de Constantinople, 58 f.

^{٣٥} Bréhier, L., Querelle des Images, op. cit., V, 454, n. 3

^{٣٦} Nicephore, Breviarum

^{٣٧} Theophanes, Chron., a. 6177; Bréhier, L. op. cit., 454, n. 3

^{٣٨} Liber Pantificalis, (Duchesne), I, 408-409

^{٣٩} Vita Stephani. P. G., C. Col. 1088

موقف كنيسة أنطاكية

وكانت كنيسة أنطاكية لا تزال مُيَمَّمةً، لا راعي لها — كما سبق وأشرنا — ولكن ابنها البارَّ يوحنا الدمشقي هبَّ للدفاع عن الدين القويم، فصنَّف رسائل ثلاثاً رد بها على لاوون وأتباعه، فأتحف الكنيسة الجامعة بحجج لاهوتية منطقية دامغة أصبحت فيما بعد حجة الكنيسة الرئيسية،^{٤٠} ويعتبر بعض الثقات رسائله هذه أفضل ما صنَّف؛ لأنه أثبت فيها مقدرة في الاجتهاد فاق بها جميع أقرانه من علماء القرن الثامن،^{٤١} ولم يكتف قديسنا بقول بولس الرسول: «تمسكوا بالتقاليد التي تعلمتموها، إما بكلامنا وإما برسالتنا». بل ذهب إلى أبعد من هذا فاعتبر الأيقونة رمزاً ووسيطاً بالمعنى الأفلاطوني الجديد، ثم ربط تكريمها بسر التجسد الإلهي وسر الخلاص، مؤكداً أن من يُحارب الأيقونات يُنكر حرمة شكل الإله المنظور، ويهدد سرَّ التجسد بالانهيار.^{٤٢}

ويرى بعض رجال الاختصاص أن يوحنا الدمشقي تكلم في هذا الموضوع باسم يوحنا الخامس بطريك أورشليم وزعيم كنيسة أورشليم وأنطاكية آنئذٍ، وأن هذا ما جعله يهدد لاوون باللعنة والقطع، ومما يذكر لهذه المناسبة أن قديسنا اعترض على تدخل لاوون في أمور العقيدة، واعتبر البحث فيها من خصائص الكنيسة الجامعة وحدها.^{٤٣}

وأدى اهتمام لاوون بالدين إلى سلخ أبرشيات سورية عن كنيسة أنطاكية وضمها إلى كنيسة القسطنطينية، فخرت كنيستنا أربعة وعشرين أسقفًا ومتربوليتًا، ولعل الظرف السياسي الحربي قضى بهذه التجزئة، فإن سورية أصبحت بعد الفتح الإسلامي بعيدة عن أنطاكية، خاضعة لإمبراطور الروم.^{٤٤}

٤٠. Menges, H., Die Bilderlehre des Johannes von Damaskus, Munster, 1938

٤١. Ostrogorsky, G., Byz. State, 145

٤٢. Schwarzlose, K., Bilderstreit, 187 ff. Ostrogorsky, G., The Holy Icons and Their Connection, With Christological Doctrine, 35 ff

٤٣. Nasrallah, J., Jean de Damas, 110–112

٤٤. Parthey, G., Hieroclis Synecdemus, 74

البابا غريغوريوس الثالث (٧٣١-٧٤١)

ودعا غريغوريوس الثالث إلى مجمع محلي في رومة في أول تشرين الثاني من السنة ٧٣١، فحرم هذا المجمع كل من قاوم احترام الأيقونات وإكرامها،^{٤٥} فحرم لاوون بدوره أسقف رومة من دخل أوقافه في كلابرية وصقلية ورفع سلطته الروحية عن كنائس اليرية وكلابرية وسردينية وألحقها كلها بالبطيركية المسكونية،^{٤٦} فبذر بعمله هذا شقاقًا في الكنيسة أدى فيما بعد إلى عواقب وخيمة.

قسطنطين الزبلي (٧٤٠-٧٧٥)

وتوفي لاوون في السنة ٧٤٠ فتسلم قسطنطين الخامس أزمة الحكم في القسطنطينية، وهو الذي أطلق عليه لقب الزبلي Koproponymos؛ لأنه أفرز في جرن العماد حين المعمودية،^{٤٧} ويروى أيضًا أنه لُقّب بالزبلي؛ لأنه كان يحب الخيل،^{٤٨} وما كاد يستوي على عرشه حتى انتزع الملك منه صهرة أرنافزدوس زوج أخته حنة، فاضطر قسطنطين أن يحاصر العاصمة، واستولى عليها عنوة، وقلع عيني صهره وأعين ابنيه، ونفى الثلاثة معًا. وتبنى قسطنطين مقاومة الأيقونات، وقال قول رجال هذه المقاومة فأكد استحالة تمثيل الله بواسطة المادة؛ لأن المادة زائلة والله دائم، وقال إن ما يصح عن الله ينطبق على العذراء والقديسين؛ لأنهم أصبحوا عند الله، فإذا ما مثلوا بالمادة نزع عنهم شرف وجودهم أمام الله، وأضاف أن المسيح هو صورة الأب، فإذا ما مثلناه بالمادة نزعنا عنه طبيعته الإلهية وأصبحنا من النساطرة. ويقول البطريرك نيقوفوروس إن قسطنطين صنف رسالة في هذا الموضوع، أكد فيها استحالة تمثيل طبيعته المسيح الإله، وأوجب اعتبار الأفخارستية صورة السيد الوحيدة، وهام قسطنطين في ضلاله فاستبدل اللفظ «أبيوستاسيس» الذي أقره الآباء في المجمع باللفظ «بروسيتون»، فجارى بذلك من قال

^{٤٥} Liber Pontificalis, (Duchesne), I, 416

^{٤٦} Mansi, XIII, Col. 808, XV, Col. 167; Hefelé-Lectercq. III, 680-681; Bury. J. B., Hist. of the Eastern Roman Empire 194; Duchesne, L., Eglises, J. B., Hist. of the Eastern Roman Empire, 194; Duchesne, L., Eglises Separées, 214-215

^{٤٧} Theophanes, Chron., a. 6211

^{٤٨} Lombard, A., Etudes, Constantin V, 10-21

بالطبيعة الواحدة،^{٤٩} ومن هنا قول ميخائيل السرياني اليعقوبي: إن الخلقيدونيين نبذوا قسطنطين وأقواله؛ لأنه استصوب بملء إرادته التحديدات التي أقرها الأرثوذكسيون؛ أي اليعاقبة.^{٥٠}

قسطنطين والصليب

ثم شرع الزبلي في اضطهاد الكنيسة فسخر بكل قديس وبالاحتفال به، ومنع الأعياد والأصوام، وحطم الأيقونات وطلّى جدران الكنائس بما يطمس الصور والرسوم، ولكنه احترم الصليب فزَيَّن به كل حنية ورسمه مكبراً على سقوف الكنائس وحفره في المسكوكات والأختام.^{٥١}

وجاء صليب هؤلاء المحطمين عريض الأطراف، شبيهاً — إلى حدٍّ معين — بصليب فرسان مالطة، وظهر في بعض الأحيان في المسكوكات والأختام قائماً فوق مدرج صغير، وبدا أحياناً أخرى في مجموع من الأغصان المورقة متأثراً بشكل صليب النصر القسطنطيني، ولعل علاقة الصليب بالنصر كانت هي الدافع لاستمساك المحطمين بالصليب وإبقائهم عليه.^{٥٢}

هيراخية أنطاكية

وأنكر الأرثوذكسيون الأنطاكيون على لاوون وابنه بدعتهما وقَبَّحوا عملهما، وكتب يوحنا الدمشقي رسائله في نقض هذه البدعة وتحريمها، وأيده في ذلك البطريرك الأورشليمي يوحنا الخامس — كما سبق وأشرنا — فكان خلاف ظاهر ملموس بين إمبراطور الروم

^{٤٩} Ostrogorsky, G., Studien zur Gesch. des Byz. Bilderstreites, 19, 25–26.

^{٥٠} Michel le Syrien, II, 523.

^{٥١} Millet, G., Les Iconoclast et la Croix, Bull, Corresp. Hellen., 1910, 96–109; Ebersolt, J., Sceaux Byzantins, Rev. Numis., 1914, no. 139; Lihacev, Sceaux de Leon III, Byzaution, 1936, 469–482; Jerphanion, G., Eglises Rupestres de Cappadoce, I, II, Planche 144, 154–158.

^{٥٢} Gage, La Théologie de la Victoire Impériale, Rev. Hist., 1933, et la Vict. Imp. dans l'Empire Chrétien, Rev. Hist. Philol. Relig., 1933, 370–400.

وبين كبار رجال الكنيسة الجامعة الأرثوذكسية في بطريركيات أنطاكية وأورشليم والإسكندرية، فشفع هذا كله عند هشام بن عبد الملك وضعت ريبته في رعيته من الأرثوذكسين، فرخص لهم بالرجوع إلى حقوقهم القديمة بإقامة بطاركة لهم من أحبارهم البلديين، فانتخبوا راهباً أعزّه هشام وأجلّه، فرقي السدة الأنطاكية في السنة ٧٤٢ باسم اسطفانوس الرابع.^{٥٣}

واشتد الجدل في هذه الآونة بين علماء المسلمين وبين الآباء المسيحيين، فتخاصموا وتغالبا في المناظرة يُريد كُلُّ واحدٍ إفحامَ خصمه، وتدخل بطرس متروبوليت دمشق في هذا الجدل، وأيده اسطفانوس الرابع البطريرك الأنطاكي الجديد، فغضب الوليد الثاني خليفة هشام (٧٤٣-٧٤٤) لكرامة الإسلام والمسلمين، فأمر باسطفانوس فقطع لسانه وتوفي في السنة ٧٤٤، ثم أمر ببطرس فقطع لسانه أيضاً ونفي إلى «العربية السعيدة»،^{٥٤} ونجا ثيودوروس أبو قرة أسقف حران، ولعلَّ السبب في ذلك أنه جادل النصارى من أصحاب المشيئة الواحدة والطبيعة الواحدة.^{٥٥}

وفي السنة ٧٤٥ رضي مروان الثاني عن الكاهن الأرثوذكسي ثيوفيلكتوس بن قنبرة الصائغ الرهاوي فأوعز بانتخابه بطريركاً على أنطاكية، فانتخب وتسلم عكاز الرعاية، وحرر الرسائل السلامية، فوجهها إلى زملائه رؤساء الكنائس الخمس، واضطر أن يدافع عن سلامة العقيدة، فضيق على الباقيين من رهبان بيت مارون في منبج وفي وادي العاصي.^{٥٦}

وكان بطرس القصار قد أباح للكرجيين في النصف الثاني من القرن الخامس أن ينتخبوا كاثوليكوساً عليهم شرط أن تتم سيامته على يد البطريرك الأنطاكي، فلما تم الفتح الإسلامي وانقطعت العلاقات بين الكرسي الأنطاكي وبلاد الكرج شغل الكرسي الكاثوليكي كما شغل الكرسي الأنطاكي، وفي السنة ٧٤٥ جاء وفدٌ كرجي يفاوض ثيوفيلكتوس البطريرك في أمر الرئاسة، فدعا البطريرك الأساقفة إلى مجمع محلي،

^{٥٣} Theophanes, Chron., a 6234

^{٥٤} نظم الجوهر لسعيد ابن البطريرق، ج ٢، ص ٤٥ وما يليها.

Barhebraeus, Chron. Syr. 126; Theophanes, Chron., a. 6234

^{٥٥} Charon, Abou Qorra, Dict. Hist. Geog. Ecc. I, Col. 157-158

^{٥٦} Theophanes, Chron., a 6236; Michel le Syrien, II, 511

وسمّح للكرجيين أن ينتخبوا رئيسهم، وأن يرسموه مستقلين شرط أن يذكروا البطريرك الأنطاكي ويؤدوا له مالاً سنوياً، وبقي الحال على هذا المنوال حتى السنة الألف تقريباً حينما حل البطريرك الأورشليمي محل البطريرك الأنطاكي في نظام الكنيسة الكرجية.

مجمع هيرية (٧٥٤)

وطوى الزبلي فؤاده على عزيمة ماضية فراح في حوالي السنة ٧٥٢ يستمزج الرعايا في أمر العقيدة التي كان قد عقد نيته عليها، فأمر الولاة والمطارنة بعقد الاجتماعات لهذه الغاية،^{٥٧} وبعد أن لاحت أشراف الفوز دعا الأساقفة إلى مجمع في قصر هيرية Hieria بالقرب من خلكيدونية في العاشر من شباط سنة ٧٥٤.^{٥٨} فالتأم في هذا الموعد ثلاثمائة وثمانية وثلاثون أسقفًا، ولم يظهر بينهم أي ممثل لكنائس رومة والإسكندرية وأورشليم وأنطاكية، وتوفي أنسطاسيوس البطريرك القسطنطيني قبيل انعقاد هذا المجمع فتولى الرئاسة فيه ثيودوروس متروبوليت أفسس، وكان قد اشتهر بعدائه للأيقونات، وعاونه في تسيير أمور المجمع كل من سيسينيوس أسقف برجة وباسيليوس أسقف أنطاكية بسيدية.^{٥٩}

وبحث الآباء المجتمعون أمر الأيقونات فتبنّوا قول لاوون وابنه وأوجبوا نزعها، وأكدوا أن تصوير المسيح بالمادة يعني واحدًا من اثنين، إما القول مع نستوريوس بإمكانية فصل الطبيعتين وتصوير واحدة منهما وهي البشرية أو مجازاة المونوفيسيين والقول معهم بطبيعة واحدة هي الإلهية،^{٦٠} وأبى الآباء أن يتقبلوا شيئاً من آراء الزبلي الخصوصية، فإننا نراهم يؤكدون أن مريم هي والدة الإله، وأنها أسمى المخلوقات، تشفع مع سائر القديسين من أجل البشر،^{٦١} ومنع الآباء كل تخريب في الكنائس وكل تحطيم بدون موافقة البطريرك والإمبراطور.

^{٥٧} Theophanes, Chron., a 6244

^{٥٨} Vita Stephani Junioris, P. G., C. Col. III; Ostrogorsky, G., Bilderstreit. 14

^{٥٩} Theophanes, Chron., a. 6245; Nicephore, Breviarum. 65-66

^{٦٠} Mansi, XIII, Col. 257, 260; Ostrogorsky, G. Byz. State, 153

^{٦١} Mansi, XIII, Col. 335, 347-348; Brehier, L., Querelle des Images, op. cit., V, 469

وفي منتصف شهر آب من السنة ٧٥٤ قدم الزبلي البطريرك الجديد قسطنطين سيلايون إلى الآباء المجتمعين، ثم أعلنت في السابع والعشرين خلاصة أعمال هذا المجمع مشفوعة بإرادة إمبراطورية تقضي بالتنفيذ وتؤدي بقطع كل من جرمانوس القسطنطيني وجاورججوس القبرصي ويوحنا الدمشقي،^{٦٢} وانتحل الآباء المجتمعون الصفة المسكونية لهذا المجمع فاعتبروه المجمع المسكوني السابع.

تضييق واضطهاد

وتقوى قسطنطين الخامس الزبلي بقرارات هذا المجمع، فاندفع في محاربة الأيقونات أكثر من ذي قبل، وصب غيظه وبلاءه على الرهبان، فكم عيناً قلع وكم يداً وأذناً قطع فضلاً عن قتلهم،^{٦٣} وأكره طائفة منهم على الزواج إكراهاً، واستعرض مرة فئمة منهم في ميدان الهيبيدروم موجباً على كل منهم أن يمسك بيد امرأة في أثناء العرض،^{٦٤} ويقول ثيوفانس إن حاكماً من حكام آسية الصغرى (ميخائيل لاخانوذراكون) جمع رهبان ولايته وراهباتها، فأمرهم بأن يرتدوا الأبيض ويتزوجوا حالاً، ومن لم يطع فنُسمل عيناه ويُقضى إلى قبرص، فهناك الزبلي قائلاً: لقد وجدت في شخصك رجلاً يحب ما أحب وينفذ جميع رغباتي،^{٦٥} وصادر الزبلي أملاك الأديرة وضمها إلى أملاك الدولة، وهكذا فرَّ عددٌ كبيرٌ من الرهبان إلى إيطالية وجنوب روسية وشاطئ لبنان وفلسطين، ويقدر الأستاذ أندريف الروسي عدد الذين فروا إلى إيطالية بخمسين ألفاً،^{٦٦} وأشهر الشهداء في هذه الفترة من تاريخ الكنيسة اسطفانوس الأصغر،^{٦٧} ومن هنا — في الأرجح — كان رأي الأستاذ أوسبنسكي الروسي أنَّ المؤرخين ورجال اللاهوت قد حَرَّفُوا الحقائقَ وشَوَّهُواها

^{٦٢} Theophanes, Chron., a, 6245; Nicephore, Brev., 66

^{٦٣} Nicephore, Brev., 61

^{٦٤} Theophanes, Chron., a, 6257. 6259; Amann, E., Querelle des Images, Fliche et Martin, ^{٦٤} op. Cit. VI, 109-110

^{٦٥} Theophanes, chron., a. 6262, 6263

^{٦٦} Andreev, I, Germanus and Tarasius, 78

^{٦٧} Vita Stephani, P. G., C. Col. 1070-1186

عندما رأوا في هذه الحوادث حرباً ضد الأيقونات Iconomachia؛ لأن الواقع أنها كانت حرباً ضد الرهبان Monachomachia.^{٦٨}

موقف رومة

وكان من جراء العنف الذي لجأ إليه لاوون وابنه قسطنطين؛ أن نفرت رئاسة الكنيسة الغربية من حكومة الروم، فتقربت من ملوك الغرب؛ لتستعين بهم على دفع شر الاضطهاد، فأفتى البابا زخريا (٧٤١-٧٥٢) في السنة ٧٥١ بخلع كليريك ملك فرنسا وتنصيب بيبينوس، وفي السنة ٧٥٥ قديم بيبينوس بجيش إلى إيطالية يُحارب اللومبارديين فجعل البابا اسطفانوس الثالث (٧٥٢-٧٥٧) سيّداً على كل ولايات الروم في إيطالية، ولما طالب قسطنطين الزبلي بولاياته هذه أجابه بيبينوس أنه وهبها لكرسي رومة عن حب لبطرس الرسول كيما تغفر له خطاياه، من هذا التباعد بين الفسيلفس والبابا، وهذا التقارب بين البابا وبيبينوس زرعت بذور الانشقاق في الكنيسة البذور التي أدت فيما بعد إلى الانشقاق العظيم.

المجمع المسكوني السابع (٧٨٦-٧٨٧)

وفي السنة ٧٧٥ تُوفي قسطنطين الخامس فخلفه ابنه لاوون الرابع، وكان لاوون هذا مثل والده يرفض الأيقونات، ولكنه كان لئيب الجانب، وبعد خمس سنين خلفه ابنه قسطنطين السادس وله من العمر عشر سنوات، وتولت أمه إيرينة زمام الحكم باسمه، وكانت من مُجَبِّي الأيقونات،^{٦٩} ورأت إيرينة منذ بداية عهدها أن الجيش ما يزال معادياً للأيقونات، وأن الصقالبة في غليان مستمر، فأرجأت النظر في إعادة الأيقونات إلى وقت آخر، وكان البطريرك بولس الرابع القسطنطيني وغيره من كبار رجال الكنيسة قد أكرهوا إكراهاً على تقبل قرارات مجمع هييرية (٧٥٤) فاستقال ونصح إلى الوصية أن تجمع مجمعاً مسكونياً، وأن يُرقى إلى الكرسي البطريركي طراسيوس كاتم أسرار الدولة asecretis، وكان طراسيوس عالماً ورعاً تقيّاً فلم يقبل الدرجة إلا بعد أن استوثق من الوصية

^{٦٨} Uspensky, Ch. N., Hist. of Byzantium, I, 228

^{٦٩} Diehl. C., l'Impératrice Irène, Figures Byzantines, I, 77-111

بأنها تدافع عن الرأي القويم،^{٧٠} وما إن تسلّم عكاز الرعاية حتى بادر إلى توجيه الرسائل السلامية إلى رومة والإسكندرية وأنطاكية وأورشليم، مبيّناً فيها استمساكه بقرارات المجامع المسكونية وإيمانه الوثيق بشفاعة العذراء والملائكة والقديسين واحترامه للأيقونات.^{٧١}

وفي السنة ٧٨٤ كتب البطريرك طراسيوس وكتبت الوصية باسمها وباسم ابنها قسطنطين السادس إلى البابا أدريانوس الأول (٧٧١-٧٩٥) وإلى البطاركة أبوليناريوس الإسكندري وثيودوروس الأنطاكي وإلياس الأورشليمي من أجل مجمع مسكوني يعقد في القسطنطينية،^{٧٢} فأجاب أدريانوس مادحاً مبتهجاً، ولكنه اعترض على ارتقاء طراسيوس من العوام وعلى لقبه المسكوني، وطلب أن ترد له «أملاك بطرس الرسول» والسلطة على الأبرشيات «التي أضافها لاون الثالث إلى الكرسي القسطنطيني».^{٧٣}

وفي صيف السنة ٧٨٦ اجتمع المجمع في القسطنطينية في كنيسة الرسل،^{٧٤} ولكن الجند اندفعوا إليها شاهرين السلاح فدفعوا بالآباء إلى الخارج،^{٧٥} فاستبدلت الوصية حامية العاصمة بغيرها، وعاد الآباء إلى الاجتماع في أيلول السنة ٧٨٧ في مدينة نيقية، فتألف المجمع من ٣٦٧ أباً، وكان رئيسه البطريرك طراسيوس وناب عن البابا أدريانوس القسان بطرس وبطرس، وعن البطاركة الشرقيين الثلاثة القسان توما ويوحنا؛ لأن الظروف السياسية في الدولة الإسلامية كانت شديدة على هؤلاء.^{٧٦}

وعقد المجمع المسكوني السابع ثماني جلسات، واشترع اثنين وعشرين قانوناً، وذلك في خلال شهر واحد، بين الرابع والعشرين من أيلول والثالث والعشرين من تشرين الأول سنة ٧٨٧، وافتتح طراسيوس أعمال المجمع بخطبة وجيزة، ثم تلي كتاب الإمبراطور والوصية، وأهم ما جاء في هذا الكتاب ما معناه: «إننا قياماً بالوصية الإنجيلية وصية

Vita Tarasii, P. G., X CVIII, Col. 1385, 1424; Theophanes, Chron; a. 6277; Mansi, XII, ^{٧٠} Col. 986 f.

.Mansi, XII, Col, 1119; Grumel, Regestes des Actes du Patirarcate de Const., 351, 352 ^{٧١}

.Dolger, Reg., 343; Mansi, XIII, Col. 1056 ^{٧٢}

.P. L., XCVI, Col. 1215 f; Mansi, XII, Col. 1073 f ^{٧٣}

.Grumel, V., Regestes, 355 ^{٧٤}

.Theophanes, Chron., a. 6278 ^{٧٥}

.Mansi, XII, Col. 1127-1146: Amann, E., Querelle des Images, op. cit., VI, 116, n. 5 ^{٧٦}

المسيح رئيس الكهنة الأبدى قد عُيننا بإرجاع السلام إلى الكنيسة، فبرضاه ومسرته قد جمعناكم أنتم كهنته الجزيل برکم الحافظين عهده بذبائح غير دموية؛ ليكون حكمكم حكم المجمع الأرثوذكسية.» وجاء في هذه الرسالة أيضًا أن طراسيوس أغضب على قبول المنصب البطريركي، وأنه قال قبل أن يقبل الشرطونية: «إني أرى وأنظر كنيسة المسيح المؤسسة على الصخرة التي هي المسيح إلهنا مقسومة الآن ومنشقة، وإننا نحن كنا نقول قبلاً بغير ما نقول الآن، ومسيحيو الشرق المائلون لنا في الإيمان يقولون قولاً آخر وافقهم عليه مسيحيو الغرب، ونحن أصبحنا غرباء عنهم جميعاً، وكل يوم نحرم من الجميع، فأطلب عقد مجمع مسكوني يحضره نواب عن بابا رومة وعن رؤساء كهنة الشرق.»^{٧٧}

وبعد ذلك وفي الجلسة الثالثة في الثامن والعشرين من أيلول دخل الأساقفة المبتدعون، واعترفوا بالخطأ الذي وقعوا فيه وقدموا الندامة، ورفعوا اعترافات إيمان مستقيم، وفي مقدمة هؤلاء باسيلوس أسقف أنقيرة، وقد قال في اعترافه: «فأنا باسيلوس أسقف مدينة أنقيرة قد اخترت أن أتحد بالكنيسة الجامعة أعني: أديانوس بابا رومة القديمة الجزيل القداسة وطراسيوس البطريرك الجزيل الغبطة، والكراسي الرسولية الجزيلة القداسة، كراسي إسكندرية وأنطاكية والمدينة المقدسة، وسائر رؤساء الكهنة والكهنة الأرثوذكسيين، وقدمته إليكم أنتم الذين نلتهم السلطان عن الأصل الرسولي.»^{٧٨}

وقرئت رسالة البابا ورسائل البطارقة، وأعلن طراسيوس موافقته على مضمون هذه الرسائل، واعترف الآباء في الجلسة الثالثة والرابعة بوجوب تكريم الأيقونات وقبولها وألغوا قرارات مجمع هييرية (٧٥٤)،^{٧٩} وفي الجلسة السابعة كتبوا اعتراف الإيمان، وحددوا موقفهم من الأيقونات فقالوا «بإكرامها بالسجود احتراماً للذين صورت عليهم لا عبادة لهم؛ لأن العبادة إنما تجب لله وحده دون غيره.»^{٨٠}

^{٧٧} Mansi, XII, Col. 1085

^{٧٨} Mansi, XII, Col. 1087

^{٧٩} Mansi, XII, Col. 1086, XIII, Col. 132

^{٨٠} Mansi, XIII, Col. 377 ff

وأوجبت القوانين الاثنان والعشرون التعويض على الأديار والأوقاف عما لحق بها من خسارة وأضرار، وفرضت على الأساقفة القيام بواجبهم، كما بينت حقوقهم وصلحاياتهم وتطلبت من الكهنة والقساوسة والرهبان التقيد بالقوانين الكنسية.^{٨١}

إمبراطورية غربية

وكان من جراء هذا الاضطهاد الطويل الذي لحق بالكنيسة في الشرق والغرب، ومن جراء استمساك بطريك القسطنطينية بلقب بطريك المسكونة؛ أن حاول بابا رومة لاوون الثالث إعادة الحق إلى رومة القديمة العاصمة الأولى في انتخاب الإمبراطور، فإنه اعتبر — فيما يظهر — سلطة إيرينة غير قانونية؛ لأنها امرأة، ولأنه لم يسبق لرومة أن اعترفت بحق امرأة في الحكم، واعتبر عرش الإمبراطورية الرومانية شاغراً بعد خلع قسطنطين السادس وسمل عينيه، فتوج كارلوس الكبير ملك الإفرنج إمبراطوراً في كنيسته الكاتدرائية، وفي يوم عيد الميلاد من السنة ٨٠٠ واعتبره خلفاً للاوون الرابع وهرقل ويوستينيانوس وثيودوسيوس وقسطنطين، واعتبرت حكومة القسطنطينية هذا العمل خروجاً على السلطة، وتوقعت زحف كارلوس الكبير على الشرق كما فعل غيره من الأباطرة الذين قاموا قبله في الغرب فزحفوا ووجدوا،^{٨٢} وعلم كارلوس — حق العلم — أن حكومة القسطنطينية ستنتقي بعد إيرينة فسيلفساً جديداً، ففاوض إيرينة في الزواج، ولكنها خلعت في السنة ٨٠٢،^{٨٣} ولم تعترف حكومة القسطنطينية بلقب كارلوس الجديد قبل السنة ٨١٢، ولكنها في مقابل هذا أضافت رسمياً إلى اللقب الفسيلفس الكلمة «الروماني»! وبقيام إمبراطورية غربية تناظر الإمبراطورية الرومانية الشرعية اشتد النزاع بين بطريك هذه وبابا تلك، ومهدت الطريق لانشقاق الكنيسة الجامعة انشقاقاً كبيراً!

^{٨١} Hefelé-Leclercq; Hist. des Conciles, III, 741–798; Grumel V., Images, Dict. Theol. Cath., ^{٨١} VII, Col. 746–844.

^{٨٢} Bury, J. B., Charles the Geat and Irene, Hermanthena, 1893, 17–37; Schramm, P., Kaiser ^{٨٢} Rom und Renovatio, I, 12–13.

^{٨٣} Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 265–269.

نظم الكنيسة وقوانينها وطقوسها في القرنين السابع والثامن

ارتباك وانحطاط

وأدت حروبُ القرن السابع إلى الارتباك والبلبلة، وزادت هجمات البرابرة الطين بلة، فكثرت تنقلات العائلات والعشائر واختلط الحابل بالنابل، واستهال الأمر على الناس، وتخوفوا وتنازقوا وتسافهوا وتطايشوا، ولجأت الحكومة إلى القسوة، فسملت العيون وجدعت الأنوف، وصلمت الأذان وقطعت الألسن، فتباغض الناس وتقاطعوا وانغمسوا في الشر، وتهافتوا على المنكر، وسخف الرأي وانتشرت الخرافات.

ترفع وتصون

ولاحظ آباء القرن السابع هذه الأمور، فأيقظوا لها الرأي، وأسهروا لها القلوب، واشتروا في المجمع الخامس السادس في السنة ٦٩٢ مائة قانون وقانونين، وأوجبوا معاقبة كل كاهن أو علماني يتغيب عن الاشتراك في صلوات الأحاد ثلاث مرات متتالية، وأبعدوا الخمارات وحوانيت الطعام عن الكنائس، ومنعوا النساء عن الثرثرة والبقبقة في أثناء الاحتفالات الدينية، وقبجوا إيواء الماشية في كنائس القرى والمزارع، ثم زجروا الرجال والنساء الذين استغلوا ظرف الصلاة للاتجار بأجسادهم، وحرموا سنة كاملة أولئك الذين أتلفوا الكتب المقدسة أو باعوها من تجار العطور؛ ليصنعوا منها أبواقًا، ومنع المجمع منعًا باتًا إقامة حفلات الأعبدة في الكنائس.^١

١ Canons 80, 70, 76, 88, 97, 68, 74; Mansi, XI, Col. 935 ff

وهدد المجمع — بأشد العقوبات — جميع الذين يخالطون ويعاشرون الزهّد الذين كرسوا أنفسهم لله، واعتبر الإجهاض نوعًا من القتل، وحرّم جميع الذين يصنعون ويتجرون ويروجون الرسوم المخلة بالآداب، وشجب المجمع كل تفنّن في ترتيب شعر الرأس لُفّت النظر والإغواء.^٢

وكان المؤمنون لا يزالون يمارسون بعض الطقوس الوثنية القديمة، فيحتفلون ببدء السنة الجديدة بالطقوس نفسها التي كان يُمارسها الوثنيون لتكريم كرونوس Kronos إله الزمان، فيتنكرون بجلود الحيوانات ويصنعون وجوههم،^٣ وكانوا لا يزالون يكرسون الأسابيع الثلاثة بين الرابع والعشرين من تشرين الثاني والسابع عشر من كانون الأول؛ لشرب الخمر وتغير الأزياء والرقص، وغير ذلك مما شاع في عهد الوثنيين احتفاء بعيد الإله باخوس،^٤ فنهى الآباء المجتمعون عن هذا كله وعن الميومة أيضًا، وهي احتفال الربيع، كما منعوا المؤمنين عن إبقاء النيران في أول الشهر القمري، وعن تبادل الألبسة بين النساء والرجال لمناسبة عيد القطاف، وحرّموا على طلبة الحقوق التنكّر بالألبسة لمناسبات معينة.^٥

ولم يغفل الآباء أمر السحر والشعوذة وما تبعهما من خرافات وأحاديث كاذبة، وكان قد كثر عدد المشعوذين والساحرين والعرفّافين الذين ادّعوا علم الغيب، وكان قد أصغى إليهم وعمل بإشاراتهم بعض كبار الرجال، فشجب الآباء هذا كله وفرضوا ندامة ست سنوات على المؤمنين الذين يلجئون إلى السحرة والمشعوذين والذين يعرضون الدببة وغيرها من الحيوانات ليبيعوا صوفها تعاويذ وأحرازًا.^٦

قوانين الرسل

واعترف آباء المجمع الخامس والسادس بجميع قرارات المجمع المسكونية الستة، ثم اتخذوا من قوانين الرسل الخمسة والثمانين التي جمعها يوحنا سكولاستيكوس في كتابه

^٢ .Canons, 4, 91, 100, 96

^٣ .Leclercq. H., Dasius, Dict. Arch. Chrét., IV, Col. 175–279

^٤ .Crawford, J., De Bruma et Brumalibus Festis, Byz. Zeit., 1920, 365–396

^٥ .Canons, 62, 65, 71

^٦ .Schlumberger, G., Quelques Monuments Byzantins Byz. Zeit., 1893, 187–191

النوموقانون أساسًا لكل تشريع كنسي، وهي ليست رسولية بالمعنى الحرفي؛ أي أنها ليست من تصنيف الرسل أنفسهم، وإنما تضمنت التقليد الذي شاع وطُبق في كثيرٍ من الكنائس منذ أيام الرسل كما تضمنت أيضًا عددًا من القوانين التي اشترعها الآباء في مجامعهم المحلية قبل المجمع المسكوني الأول.

واستمسك الآباء المجتمعون في المجمع الخامس السادس بجميع هذه القوانين، وحذا حذوهم فوطيوس فيما بعد، وكذلك بلسامون وزونوارس، وشك آباء الكنيسة اللاتينية الشقيقة بصحة بعض هذه القوانين، فلم يعتبروا ثابتًا منها سوى الخمسين التي جمعها ديونيسيوس الصغير، فكان هذا الاختلافُ حول هذه القوانين من عوامل الانشقاق.^٧

وصايا الرسل

وامتنع آباء المجمع الخامس السادس عن الاعتراف بوصايا الرسل؛ لأنهم لمسوا فيها دسًا غريبًا لا يتفق والعبادة الحسنة، ورأوا من الصواب طرحها جانبًا «كي لا يسري سم الهرطقة»، وبنوا — بوضوح — أسماء الآباء الذين يرجع إليهم في أمر النوماقانون، فذكروا في القانون الثاني ديونيسيوس وبطرس الإسكندرانيين وغريغوريوس قيصرية الجديدة وأثناسيوس الإسكندري، وباسيليوس قيصرية قبدوقية وغريغوريوس نيصيص وأمفيلوسيسوس أيقونية وتيموثاوس الإسكندري، وثيوفيلوس وكيرلس الإسكندرانيين وجناديوس القسطنطيني وكبريانوس قرطاجة.

الكتب المقدسة

وعينت قوانين الرسل التي تبنّاها المجمع الخامس السادس الكتب المقدسة فجاءت هكذا: أسفار موسى الخمسة وسفر واحد للقضاة وسفر واحد لراعوث وأربعة أسفار للملوك وما بقي من أخبار الأيام سفران وسفران لعزرا وسفر واحد لأستير وسفر واحد لأيوب والمزامير سفر واحد، وثلاثة أسفار لسليمان وللأنبياء اثنا عشر سفرًا وواحد لأشعيا وواحد لأرميا وواحد لحزقيال وواحد لدانيال وثلاثة أسفار للمكابيين، وجاء في هذه القوانين: «وعليكم أن تعلموا أحداثكم أيضًا حكمة ابن سيراخ الجزيل المعرفة والأدب.»

٧ Leclercq, H., *Canons Apostoliques*, Dict. Arch. Chrét., II, Col. 1913–1914

أَمَّا كُتُبُ العهد الجديد فهي البشائر الأربُعُ ورسائل بولس الأربعة عشرة ورسالتا بطرس ورسائل يوحنا الثلاثة ورسالة ليعقوب ورسالة يهوذا، و«كتاب أعمالنا نحن الرسل». ومما جاء في القانون الخامس والثمانين إشارة إلى رسالتي إقليمس ووصايا الرسل «التي أوصوا بها لكم أيها الأساقفة، وهي محررةً بواسطتي أنا إقليمس في ثمانية كتب ينبغي عدم إشهارها تجاه الكل لأجل الأمور السرية التي تتضمنها». وردع الآباء المؤمنين عن مطالعة الأبوقريفة، ولا سيما أبو قريفة الشهداء وأمروا بإحراقها.

الأباطرة والكنيسة

وخاض الأباطرة في باطلهم، فتَدَخَّلُوا في شئون الكنيسة تدخلاً فعلياً فسن هرقل الإكتيسيس، واشترع قسطنطين الرابع التيبوس، ودعا إلى المجمع المسكوني السادس، وحذا حذوه يوستينانوس الثاني وأعدَّ لاوون الثالث الإكلوغة وغيرها من القوانين، واعتبر نفسه كاهناً أعظم، فركب رأسه وقال ما قال في الأيقونات المقدسة، وبسط قسطنطين الخامس عنانه في الجهل، وتدخَّل هو أيضاً في أمُور الكنيسة. ويجوز القولُ إن عدداً كبيراً من الأساقفة لم يستلموا عُكَّاز الرعاية إلا برضى الإمبراطور وموافقته. ولكن الكنيسة أنجبت في هذه الفترة نفسها من تاريخها أبناءً قديسين غيورين، أخذوا على يد هؤلاء الأباطرة وقصروا خطاهم وحبسوا عنانهم فدافعوا عن حرية الكنيسة دفاع الأبطال، وهل ننسى أدوار مرتينوس الأول ومكسيموس المعترف وغريغوريوس الثاني ويوحنا الدمشقي!

ومما يجب ذِكرُهُ أن هرقل لوى عنانه وأكد ليوحنا الرابع بابا رومة أن سرجيوس أعد الإكتيسيس، وأن قسطنطين الرابع أفاقَ مِنْ سكرته ورجع عن التيبوس، وأن يوستينانوس الثاني تساهل في تنفيذ قوانين المجمع الخامس السادس، ولم يكره البابا قسطنطين على العمل بموجبها.

ومما لا يجوز إغفاله أيضاً أن لاوون الثالث استمزج وشاور، وحاول الإقناع قبل أن اتخذ القرارات بنزع الأيقونات، وأن ابنه حذا حذوه، وأن الآباء الذين اجتمعوا في هيرة لينفذوا برنامج قسطنطين الخامس قطعوا عليه وجهته في أمر العقيدة وخفضوا من غلوائه وأنه هو أمسك وارتدع!

البطريك المسكوني

وكان المجمع الخلقيدوني (٤٥١) قد اعتبر أسقف رومة الجديدة مساوياً لأسقف رومة القديمة، وكان أكايوس أسقف رومة الجديدة قد اتخذ لقب البطريك المسكوني بعد ذلك بسنوات معدودة. ثم انتشر الإسلام في أبرشيات مصر وسورية ولبنان وفلسطين، وقامت دولة إسلاميةً فتيحةً ثيوقراطيةً، فاستضعف بطاركة الشرق واستكانوا وتضائل نفوذهم، ثم تيمت كراسيهم وأمست شاغرة مدة من الزمن، فأصبح البطريك المسكوني هو البطريك الفعَّال الوحيد في الشرق.

وجاء المجمع الخامس السادس (٦٩٢) فاعترف بالواقع وأَيَّدَ بقانونه السادس والثلاثين قرار المجمع الخلقيدوني، فمنح البطريك المسكوني الامتيازات نفسها التي تمتع بها زميلُهُ بابا رومة، وفي السنة ٧٣٢ استحکم الشقاق بين لاوون الثالث وبين بابا رومة، فوسَّع لاوون سلطة البطريك المسكوني على حساب زميله الروماني، فخضعت ألبانيا وصقلية وكلايرية لسلطة بطريك القسطنطينية، وسلخ لاوون في هذه السنة نفسها أبرشيات أسورية عن كنيسة أنطاكية فأَتبعها الكرسي القسطنطيني أيضاً، وإذا ما قابلنا بين هيرارخية القسطنطينية كما أبانها أيبفانيوس القبرصي في السنة ٦٥٠ وبين تكتيكون البطريك نيقوفوروس في السنة ٨١٠ نجد عدد الأسقفيات التابعة للكرسي القسطنطيني يرتفع من ٤٢٤ إلى ٦٠٠.^٨

وعظم قدر البطريك المسكوني في عاصمة الدولة، وارتفعت منزلتُهُ ووقرت مهابته في الصدور، فأقسم الأباطرة أمامه يمين الولاء للدين القويم وتسلموا التاج من يده،^٩ وتدخل هو تدخلًا فعليًا في الحكم، واشترك في أعمال مجلس الشيوخ والوزراء، وناب عن الإمبراطور في غيابه، وتولى الوصاية على الأباطرة القُصَّر، فإن سرجيوس دار دفة الحُكم في أثناء تَغَيُّب هرقل عن العاصمة وتولى بولس الوصاية على قسطنديوس القاصر، وجلس البطريك المسكوني في المرتبة الأولى بعد الإمبراطور، ونالت حاشيته مرتبة مرموقة في سجل التشريعات.^{١٠}

Parthey, G., Hieroclis Synecdemus et Notitiae Graecae Episcopatum; Gelzer, Georgii ^٨
.Cyprii Descriptio Orbis Romani

.Sickel, Das Byzantinische Kronungsrecht, Byz. Zeit., 1898, 511–558 ^٩

.Dolger, Reg. 213; Constantin Porphyrogénète, De Caerimoniis, II, 39 ^{١٠}

النظام والانضباط

وكانت المجامعُ قد ربطتُ كل أسقف بأبرشيته ربطاً وثيقاً، فحرّمتُ عليه ترشيح نفسه بعد سيامته لأي مركز أسقفي شاغر خارج أبرشيته، وكان هذا التحفظ الشديد قد صعّب انتقاء الأكفاء لبعض المراكز العالية، ولا سيما كراسي البطاركة، وحدث مثل هذا في السنة ٧١٥ عندما تُوفي البطريرك المسكوني يوحنا السادس وشغر كرسيه؛ فإن أنظار الشعب والإكليروس والسلطات الزمنية اتجهتْ شطر جرمانوس أسقف كيزيكة لما تحلّى به من ورع وتقوى وعلم ومقدرة، واضطرتْ هذه العناصرُ إلى توقيع العرائض لإظهار رغبتها وإجماعها قبل نقل هذا الحبر الجليل من أبرشية كيزيكة إلى أبرشية القسطنطينية.^{١١}

ونظر الآباءُ المجتمعون في المجمع الخامس السادس في مشاكل الأسقفية، فحرّموا الزواج على الأساقفة وسمحوا بوصول مرشح متزوج إلى الكرسي شرط انفصال زوجته عنه ودخولها ديرًا من الأديار، وحض الآباءُ الأساقفة على الوعظ والإرشاد، ولا سيما في أيام الأحاد وعلى اقتطاف المعاني والأحكام من الكتاب الإلهي متبعين في ذلك التقليد الذي وضعه الآباء المتوشحون بالله، مستمسكين بالتفسير الذي أقرّه كواكبُ الكنيسة. وأوجب القانون الثامن الذي اشترعه المجمع المسكوني الخامس والسادس على المطارنة دعوة الأساقفة الخاضعين لهم إلى مجمع محلي مرتين في السنة، أو على الأقل مرة واحدة بين عيد الفصح المقدس وقبل انتهاء شهر تشرين الأول، ومنع هذا المجمع الخامس السادس استئثار المطارنة بتركات الأساقفة الخاضعين لهم؛ فقد جاء في القانون الخامس والثلاثين أنه إذا تُوفي أسقف تبقى تركتهُ تحت مراقبة إكليروس الكنيسة التي كان متصدرًا فيها إلى أن يتم انتداب أسقف آخر. وأجاز القانون السابع والثلاثون للأساقفة الذين أكرهتهم الظروفُ على الإقامة في القسطنطينية وعدم العودة إلى أبرشياتهم بالإكرام اللائق برتبهم، وأن يمنحوا الدرجات حسب عاداتهم.

ونص القانونُ الرابع عشر والخامس عشر على أنه لا يسام قسًّا من كان دون الثلاثين من العمر، وأن لا يسام شماسًا من كان دون الخامسة والعشرين ولا أيبودياكونًا من كان دون العشرين، وأنه إذا كان المرشح مستحقًّا فلتؤجل شرطونيته إلى نهاية السنة المعينة؛ «لأن الرب يسوع اعتمد وابتدأ يعلم في سن الثلاثين»، وألغى القانون السادس عشر

^{١١} Theophanes, Chron., a. 6207; Nicephore, Brev., 50

قرار مجمع قيصرية الجديدة فلم يحدد عدد الشماسية. وجاء في القانون السابع أنه لما كان بعض الشماسية يتواقحون فيجلسون فوق القساوسة فإن المجمع يأمر بأن يجلس الشماس تحت القس ولو كان متقلداً وظيفه من الوظائف، وأنه يستثنى من ذلك من كان نائباً عن بطريرك أو متروبوليت، وأتى إلى مدينة أخرى بمهمة معينة، «ومن يخالف هذا الحد متكبراً فليكن آخر جميع الذين من رتبته؛ لأن ربنا نهانا عن محبة المتكآت الأولى في المجالس». وأبقى المجمع الخامس السادس على تشريع يوستتيايوس في أمر الزواج، فمنع الإكليريكين من رتبة أيبودياكون فما فوق عن الزواج، وإذا كان أصحاب هذه الدرجات قد اقترنوا قبل سيامتهم فليحافظوا على نسائهم وليعنوا بهن مبتعدين عنهن عندما يقومون بالخدمة المقدسة، «ومن تجاسر على عمل كهذا فليقطع، ومن أراد من المتقدمين في الإكليروس أن يقترن بامرأة حسب ناموس الزيجة فليفعل ذلك قبل شرطونيته أيبودياكوناً أو شماساً أو قساً».

وعالج الآباء المجتمعون في السنة ٦٩٢ سر الزواج، فاعتبروا الخطبة الرسمية الكنسية عقدًا ساري المفعول، وحرّموا في القانون الثامن والتسعين زواج الخطيبة من شخص ثالث غير الخطيب الأول، وقالوا في القانون الرابع والخمسين: «لا يجوز أن يقترن أحدٌ بابنة عمه أو أم وبنتها بأخوين أو أخوان بأختين، ومن يفعل ذلك فليقف تحت قانون سبع وستين مع فصل الزيجة غير الشرعية». ونص القانون السادس والعشرون أن القس الذي يزوج عن جهل زواجاً غير شرعي له أن يتمتع بالكرامة الكهنوتية، وأما الأعمال الكهنوتية فيمنع منها، ومن يداوي جراحاته لا يحق له أن يبارك غيره، ولذلك فلا يبارك على انفراد ولا علناً ولا يوزع جسد الرب ولا يخدم خدمة أخرى، وليبتهل إلى الرب بدموع ليصفح له، ومثل هذه الزيجة غير الشرعية قد تنحل ولا يكون للرجل اشترك مع تلك التي حُرّم عمل الكهنوت بسببها.

وجاء في القانون السابع والثمانين أن من تترك رجلاً وتقترن بأخر فإنها زانية، وأنه إن ثبت أنها ذهب من عند رجلها بدون داعٍ موجب فالرجل يستحق العفو وأما هي فللعقوبة، ومن يترك امرأته التي ارتبط معها بموجب الناموس ويقترن بأخرى يقع تحت جريمة الزناء، ومثل هؤلاء يوضعون سنة كاملة في عداد الباكين وستين مع السامعين وثلاثاً مع الساقطين، وفي الرابعة يقفون مع المؤمنين ويستحقون القرابين إذا تابوا بدموع! وجاء في القانون الثالث والتسعين أن المرأة التي يغيب رجلها عنها وتنقطع أخباره إذا اقترنت بغيره قبل التثبت من موته تُعتبر زانية، وجاء في القانون الثاني والسبعين

أنه لا يجوزُ لرجل أرثوذكسي أن يقترن بامرأة هرطوقية ولا لامرأة أرثوذكسية أن تقترن برجل هرطوقي؛ لأنه ليس من الواجب أن يخلط ما لا يجب اختلاطه ولا لذئب أن يجتمع بالخروف، وإذا بادر أحد الزوجين الهرطوقيين إلى النور الحقيقي وليث الآخر في الظلمة فلا يفك رباطهما؛ عملاً بقول الرسول: إن الرجل غير المؤمن يقدر بامرأة مؤمنة والمرأة غير المؤمنة فلتتقدس بالرجل المؤمن، وقضى القانون الثاني والتسعون بأن الذين يخطفون النساء والذين يساعدونهم أو يُشيرون عليهم فليقطعوا إن كانوا إكليريكيين وليفرزوا إن كانوا علمانيين.

وحرّم المجمع بقانونه الرابع والثلاثين التأمّر على الأساقفة وغيرهم من رجال الإكليروس، كما نهى عن العبث بالقوانين المدنية المرعية الإجراء، وأوجب قطع من يشترطون بالمال ومن يتناولون مقابلًا لمناولة القربان الطاهر؛ «لأن النعمة لا تُباع؛ ولأننا لا نوزع تقديس الروح بالمال، بل ينبغي أن نعطي القربان لمستحقّيه». وجاء في القانون الحادي والعشرين أن الإكليريكيين الذين يذنبون ثم يتوبون ويبتعدون عن الخطيئة؛ يجوز قسّ شعرهم كسائر الإكليروس، أما إذا لم يرغبوا في ذلك فليربّوا شعورهم مثل العوام؛ لأنهم فضلوا العالم على الحياة السماوية.

ممارسة الأسرار

ونهى الآباء عن التعميد في المنازل، وأوجبوا ممارسة هذا السر في الكنائس، وأمروا بقطع الإكليريكي المخالف وفرز العلماني، وأصروا على وجوب تعلّم دستور الإيمان وتلاوته في صباح الخميس الكبير أمام الأسقف أو الكاهن، وسمحوا بقبول التائبين من الأريوسيين والمقدونيين والنوفاتيين والأبوليناريين بدون إعادة معمديتهم، ولكنهم أوجبوا مسحهم بالميرون المقدس على الجبهة والعينين والأنف والفم والأذن.

وأما البولسيون والأقنوميون الذين يعمدون بغطّة واحدة والمونتانيون والصقاليون الذي يعتقدون بأن الأب والابن أقنوم واحد؛ فهؤلاء نقبلهم كالأمم؛ أي أننا في اليوم الأول نعدّهم مسيحيين، وفي الثاني موعوظين، وفي الثالث نستقسمهم نافخين في وجوههم وفي أذانهم ثلاثاً، وعلى هذه الحالة نعظّم ونجعلهم أن يلبثوا مدة في الكنيسة ويسمعون الكتب وحينئذٍ نعظّمهم، ومثلهم المانويون والفالنتينيون والمركيانيون وغيرهم من أصحاب هذه الهرطقات، أما النساطرة فينبغي أن يعترفوا بالإيمان كتابة، وأن يُنكروا هرطقتهم مع نسطوريوس وأوطيخا، وبما أن القربانة الروحية هي أهم من القربانة

الجسدية، وبما أننا علمنا أن قومًا يقبلون أولادًا من المعمودية ويتزوجون أمهاتهم إذا ترمّلن؛ فإننا نُحدد ألا يجري شيء من هذا.

ومنع آباء المجمع الخامس السادس المؤمنين عن التناول مباشرة، وأوجبوا تناول القربان باليدين الاثنتين متقاطعتين اليمنى فوق اليسرى بشكل صليب والخمر من الكأس، وأجازوا استعمال الملعقة، وحرّموا مناولة أجساد الموتى؛ لأنه كتب: «خذوا فكلوا». وأما أجساد الموتى فإنها لا تأخذ ولا تأكل.

الصوم

وعلم الآباء أنّ النصارى في بلاد الأرمن وغيرها يأكلون بيضًا وجبنًا في الآحاد والسيوت من الصوم الأربعيني، فأمرّوا بترتيب واحد في كنيسة الله في المسكونة كلها، وأوجبوا إكمال الصوم؛ لأن الكنيسة تمنع كل مذبوح والبيض والجبن من أثمار المذبحين.

وعلم الآباء أيضًا أنّ أهل رومة يصومون في سبوت الصوم الأربعيني مخالّفين الترتيب الكنسي، فأمرّوا بقطع كل إكليركي يصوم الأحد أو السبت ما عدا السبت العظيم، وبفرز كل عامي يقدم على ذلك، وأثبتوا في القانون السابع والستين أنّ الكتاب الإلهي يحظر الدم والمخنوق، وأن ذوي البطون الشرهة يقعون تحت العقوبة.

الليتورجية

وتطورت طقوس العبادة تطورًا ملموسًا في القرن السابع، ففي السنة ٦١٥ أو ما يقاربها أدخل البطريرك سرجيوس القسطنطيني ليتورجية القديسات السابق تقديسها البرويجيازمينا، وكانت كنيسة أورشليم قد سبقت غيرها إلى هذا،^{١٢} ويرى بعض رجال البحث أن البرويجيازمينا التي شاع استعمالها في القرن السابع كانت تُقام آنئذٍ في جميع أيام الصوم ما عدا السيوت والآحاد والخميس الكبير،^{١٣} وجاء في القانون الثاني والخمسين الذي أقرّه المجمع الخامس السادس في السنة ٦٩٢ أن قداس البرويجيازمينا

Chronique Pascale, P. G., XCII, Col. 989; Leclereg, H., Messe, Dict. Arch. Chrét., XI, Col. ١٢
.770-771

.Brehier, L., La Vie de l'Eglise Byzantine, op. cit., V, 492 ١٣

يُقام في كل أيام الصوم الأربعيني المقدس ما عدا يومَي السبت والأحد ويوم عيد البشارة المقدس، وتسمى هذه الخدمة خدمة القدسات السابق تقديسها؛ لأن القرايين التي تُقدَّم فيها لا تقبل استحالة، وإنما يتم عليها تذكُّر الخدمة لتقديس المؤمنين، وهذه القرايين يُقدمها الكاهنُ مقدساً ومستحيلَةً من ذي قبل في خدمة سابقة ومؤلفة من جسد الرب ودمه ومحفوظة في بيت القربان Skeuophylakion إلى يوم التقديم.

أما خدمة القداس في أوائل القرن الثامن فإنها الخدمة التي تُنسب إلى أبينا الجليل في القديسين يوحنا الذهبي الفم، وقد وصفها وصفاً كاملاً دقيقاً أبونا الجليل في القديسين جرمانوس بطريرك القسطنطينية (٧١٥-٧٣٠) في كتابه تاريخ الكنيسة، وهو أعظم ما ظهر من نوعه قبل كتاب سمعان التسالونيكوي.

واعتبر آباء القرن السابع تعميّد الأطفال إجبارياً فقل عدد الموعوظين، وتضاءل الحدُّ الفاصلُ بين قدّاس الموعوظين وقداس المؤمنين، وبدأ القدّاس في هذه الفترة بقبول تقادّم الشعب وبتهيئة القرايين Proscomidii وتقدمتها على البروثيسيس Prothesis ثم بقراءة الذبيتيخة،^{١٤} وكانت هذه تشمل ذكْر الأحياء والأموات من الأساقفة وجميع الكهنة والشمامسة، ثم الأباطرة فالشعب،^{١٥} ويلاحظ رجال الاختصاص أنّ الدخول بالإنجيل بعد الخروج به بدأ في طقوسنا في القرن السابع أيضاً، ورأى القديس جرمانوس في هذا رمزاً إلى خروج المسيح من أورشليم وتعليمه الإنجيل الذي هو صوفيا أورثي؛ أي الحكمة المستقيمة الحقيقية، ورأى هذا القديس أن الشمعة التي تتقدم الإنجيل تُشير إلى يوحنا السابق، وأن الترتيل بعد هذا «هلموا نسجد ونركع» إنما هو إشارة إلى فرح البشر بقبول الإنجيل وإيمانهم بالملخص، وأن التسبيح الملائكي «قدوس الله» إنما هو إشارة إلى البشر كما تعلموا سر الثالث بتعليم الإنجيل مجدوا الله بنعمة واحدة مع الملائكة؛ إذ أصبحوا معهم رعية واحدة للراعي الواحد، وهنا يصعد الأسقف إلى السنثرونون Synthronon ويبارك الشعب، وبعد هذا تقرأ الرسائل إشارة إلى أن المسيح أرسل تلاميذه ليبشروا بالإنجيل، ثم يُنلى الإنجيل ويقبل العطاء وينادي الشماس بخروج الموعوظين.^{١٦}

^{١٤} Germain, P. G., XC VIII, Col, 396-397.

^{١٥} Muxime, Mystagogia, P. G. XC, Col. 117.

^{١٦} P. G., XC VIII, Col. 405, 409, 412-413, 416-417.

وعندئذٍ يفتح الكاهن الأنديمنسي؛ أي القائمة مقام المائدة ويصار إلى الأيصونين الكبير المعروف بدورة القُداس، وفيه تدخل القرابين وهي لا تزال غير مقدسة إلى المائدة، والأيصونين الكبير في نظر القديس جرمانوس يرمز إلى نقل جسد يسوع من الجلجلة (المذبح) إلى القبر (المائدة).^{١٧} ويأخذ بعض رجال الاختصاص بما جاء في تاريخ كدريوس، فيقولون: إن الشاروبيكون الذي يرتل لهذه المناسبة أُدخل في الخدمة في عهد الإمبراطور يوستينوس الثاني (٥٦٥-٥٧٨)، وأنه كان قبل ذلك يرتل عند تقديم التقدّم،^{١٨} أما القديس جرمانوس فإنه رأى في المراوح أجنحة السيرافيم ترفرف لمناسبة دخول الملائكة والروح القدس والقديسين مع المسيح الملك، ومن هنا القول في هذا الشاروبيكون:

«أيها المثلث الشاروبيين سرِّياً والمرنمون التسييح المثلث التقديس للتالوث المحيي لنطرح عنا الآن كل مهمة دنيوية؛ لأننا مزعمون أن نستقبل ملك الكل محفوفاً بالمراتب الملائكية بحال غير منظور هلولياً»

أما باقي الخدمة فإنه ظل كما كان في القرن السادس: غسل الأيدي والطلبات «وترتيل» دستور الإيمان، وغلق أبواب الهيكل وصلاة الأنافورا وترتيل التريصاغيون، ولفظ الكلام الجوهرى وقراءة الذبيتيخة وتلاوة الصلاة الربانية، ورفع القدسات وكسر الخبز والمناولة. ورأى البعض أن سكب الماء الساخن يعود إلى القرن السادس، وأن صلاة الشكر أُدخلت في عهد البطريك سرجيوس.^{١٩}

ولا نزال نرى حتى يومنا هذا مع القديس جرمانوس وغيره من الآباء أن الستر الكبير يُشير إلى حجر القبر، والبخور إلى حنوط يوسف ونيقوذيموس، وطيبوب النسوة وتسكير أبواب الهيكل إلى انحدار المسيح إلى الجحيم وتسكير ستر الباب إلى الحراس والتقبيل إلى المحبة، ونقول: «الأبواب الأبواب» إلى البوابين؛ كي لا يدعوا أحداً من غير المؤمنين أو الموغوظين يدخل، ونتلو دستور الإيمان؛ لارتباط المحبة بالإيمان، ونفتح ستر الباب الملوكي؛ لنشير إلى هرب الحراس، ونرفرف فوق القرابين بالستر الكبير؛ لنذكر بالزلزلة التي حدثت عند قيام المخلص. ويطوى الستر إذ يصل قارئ دستور الإيمان إلى

^{١٧} Germain, P. G., XCIII, Col. 416-417.

^{١٨} Ccdrenus, P. G., CXXI, Col. 478.

^{١٩} Chronique Paseole, P. G., XCII, Col. 1001.

العبارة «وقام في اليوم الثالث» للإشارة إلى درجة الحجر عند باب القبر، والمراوح تمنع وقوع شيء من هوام الهواء في الأواني وتشير إلى الأجنحة الستة، ورفع الخبز المقدس يتم به رسمُ قيامة المخلص.

وقول الكاهن: «القدسات للقياسين.» يعني أنه لا يجوز لغير الطاهرين، وقوله: «الذي يجزأ ولا يتقسم.» يعني أن الخبز المقدس هو جسد الرب كله، وكل جزء منه هو جسد الرب كله، فجسد الرب لا يتقسم في جوهره وإن تجزأ في أعراضه، وقوله: «لا يفرغ أبداً.» يعني أن المسيح يكون معنا إلى انقضاء الدهر بأسراره الإلهية وبعد ذلك في ملكوت السماوات، ووضع الخبز المقدس في الكأس يعني أن المسيح قام بكليته جسداً حياً، والماء الحار يقصد به أن يجعل الدم المقدس حاراً — كما هو الدم الحي — ثم توضع في الكأس الأجزاء لتحصل على نعمة من ملامسة دم المخلص، وفتح الباب إشارة إلى ظهور المخلص للتلاميذ بعد القيامة، وعرض الكأس على الشعب هو الاشتراك في تناول، وقول الكاهن: «خلص يا الله شعبك.» إشارة إلى البركة التي أعطاهها المسيح لتلاميذه على جبل الزيتون قبل الصعود، والقول: «ارتفع اللهم.» إشارة إلى صعود الرب وانحدار الروح القدس يوم الخمسين، وعرض الكأس ثانية يُدكر بمجيء المسيح ثانية.^{٢٠}

ومنع آباء المجمع الخامس السادس بالقانون الثامن والعشرين تقديم العنب مع التقدمة الغير الدموية، وأوجبوا تقديم قربان فقط وتوزيعه وحده على الشعب لأجل موهبة الحياة ومغفرة الخطايا، وأجازوا قبول العنب على انفراد ومباركته وتوزيعه على طالبيه شكرًا لواهب الأثمار التي بها تنمو أجسادنا وتتغذى، وحرّموا في السابع والخمسين تقديم العسل واللبن على المذابح.

ولا نجثو برُكبتنا

وأوضح الآباء المجتمعون في السنة ٦٩٢ أنه بعد دخول الكهنة مساء السبت إلى الهيكل لا يحني أحد رُكبتيه حتى عشية الأحد التالية؛ لأننا نتخذ الليل الذي يلي السبت مقدمة لقيامة مخلصنا، ومنها نبتدئ بالنشائد الروحية مقيمين العيد من ظلام إلى نور، فنحتفل بالقيامة يومًا كاملًا ليلاً نهارًا، ونحافظ على التقليد الذي تسلمناه قانونيًا من آباؤنا المتوشحين بالله — القانون التسعون من أعمال المجمع الخامس السادس.

^{٢٠} خدمة القديس الإلهي لجراسيموس مسرة متروبوليت بيروت، ص ٨-١٢.

الترتيل والمرتلون

وكان رومانوس المرتل البيروتي قد اشتهر بنظم التراتيل والابتهالات في القرن السادس، فلما جاء القرن السابع لَمَعَ في هذا الحقل نفسه صفرونيوس البطريرك الأورشليمي،^{٢١} (٦٠٥-٦٣٩) ومكسيموس المعترف،^{٢٢} بيد أن أشهر المرتلين في هذا القرن هو أندراوس الأقرطي، وُلد في دمشق سنة ٦٦٠ وترهب في أورشليم وخدم في كنيسة القيامة، ثم أرسل مع وفد إلى القسطنطينية لمُقابلة الإمبراطور قسطنطين الرابع في السنة ٦٨٥، فبقي فيها وترأس الأورفانوتروفيون، وفي السنة ٧٠٠ سيم متربوليتاً على غورتينة في جزيرة أقرطش، وفي السنة ٧١٢ جنح إلى المونثيلية مع فيليبكوس المغتصب، ثم تاب وتوفي سنة ٧٤٠،^{٢٣} وقد سبقت الإشارة إلى نتاج يوحنا الدمشقي وصديقه قوزما أسقف ميومة فلسطين في هذا الحقل من العمل، فلتراجع في محلها، وكذلك قانون الأكاثيستون الذي نظمه سرجيوس البطريرك القسطنطيني.^{٢٤}

العلم والتعليم

ولم يهمل الآباء العلم والتعليم بعد يوستنيانوس، ولكن مراجعنا في ذلك قليلة مشوشة، وجُل ما يجوز قوله هو أن المدارس المسيحية ظلت سائرة في عملها في الشرق، وأنها زينت أكثر المدن العظمى، فصفرنيوس البطريرك الأورشليمي علم الأدب في دمشق مدة الزمن قبل وصوله إلى الكرسي الأورشليمي وحاز لقب «الحكيم»،^{٢٥} ومحي زلزال السنة ٥٥١ معالم مدرسة بيروت، فاتجهت أنظار طلاب العلوم العالية إلى القسطنطينية

^{٢١} .Patr, Gr., LXXXVII, Col. 3733 ff

^{٢٢} .P. G., XCI, Col. 1417-1424

^{٢٣} Vaithé, S., André de Crète, Echos d'Orient, 1902, 378-387; Petit, L., André de Crète,

.Dict. Arch. Chrét. I, Col. 2034-2041

^{٢٤} Krypiakiewicz, P. F., De Hymni Acathisti Auctore, Byz, Zeit, 1909, 357-382; Meester,

.L'Inno Acatisto, Rome, 1905; Bréhier, L., Vie de l'Eglise Byz., op. cit. V, 496-497

^{٢٥} .Vie de Sophronius, P. G., LXXXVII

وجامعتها، ولعبوا في العاصمة دورًا مرموقًا، ومن هنا اهتمام آباء المجمع الخامس السادس بهؤلاء الطلاب كما جاء عند الإشارة إلى القانون الحادي والسبعين.^{٢٦} وحمل مكسيموس المعترف لواء الدفاع عن الإيمان القويم، فأفحم وأسكت بعلم وافر ومنطق سديد ونطق فصيح، واشتهر في حقل اللاهوت بكتابه الأجوبة على الأسئلة وبحاشيته على هامش مصنفات غريغوريوس النريزي وديونيسيوس الأريوباغوسي، وكتب تحت تأثير هذين كتابه في الزهد ورسالته في التصوف *Mystagogia* وفصوله في المحبة،^{٢٧} وجاء بعد مكسيموس يوحنا الدمشقي، وقد سبق الكلام عنه في فصلٍ خصوصيٍّ فليراجع في محله.

ومن آثار هذه الفترة من تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية حياة القديس يوحنا الرحوم بطيريك الإسكندرية (٦١١-٦١٩)، وقد دبجها لاونديوس أسقف نيابوليس قبرص مستعينًا في ذلك بما وضعه صفرونيوس البطريرك الأورشليمي ويوحنا موسكوس،^{٢٨} وكان يوحنا هذا قد كرس شطرًا وافرًا من حياته في أوائل القرن السابع لجمع أخبار الرهبان القديسين في مصر وفلسطين وسورية، فوضع كتابه الشهر الليموناريون الذي عُرف أيضًا بالعنوان «الفردوس الجديد».^{٢٩}

ومن أغرب ما دُون في هذا العصر قصة برلام ويواصف، وهي في أساسها سيرة بوذا غوماطة بقالب مسيحي، وقد نسبت خطأ إلى يوحنا الدمشقي، ولعل ناقلها راهبٌ آخرٌ باسم يوحنا لا قديسنا الشهير، ونصها اليوناني كما نعرفه اليوم يعود — في الأرجح — إلى القرن الحادي عشر.^{٣٠}

^{٢٦} Fuchs, Die Hoheren Schulen von Konstantinopel im Mittelalter; Schemmel, F., Die Hochschule von Konstantinopel

^{٢٧} Patr. Gr., XC, XCI; Viller, Sources de la Spiritualité de Saint Maxime, Rev, d'Ascétique et de Mystique, 1930

^{٢٨} Delahaye, Une Vie Inédite de Saint Jean l'Aumônier, Aualectd Bollandiana, 1927, 5-75; Gelzer, Leontius von Géapolis

^{٢٩} .Vailhé, S., Jean Moschus, Echos d'Orient, 1902, 107 ff; Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 186

^{٣٠} Boissonade, Anecdota. Graeca, IV; Peeters, Première Trad. Lat. de Berlaam et Joasaph. Anal. Boll., 1931, 276-312; Nercessian, S., Illustration du Roman de Berlaam et Joasaph, 1637, 5-32

الفصل السابع

العبَّاسِيُّونَ وَالْكَنِيسَةُ

٧٥٠-٩٦٩

الثورة العباسية

ونشأت أحزابٌ سياسيةٌ في الدولة الأموية كالزبيريين والخوارج والشيعة، ففتت في ساعد الأمويين وأضعفتهم، فطمع فيهم الخصومُ وقاموا يكيِّدون، ودان للأمويين شعوب كثيرة، ولكن الأمويين لم يحسنوا السياسة فأثقلوا الجزية والخراج واستاقوا الأسرى واستعبدوا وأذلوا، فلم تنم هذه الشعوب على الضيم، وانصرف الأمويون إلى اللهو والخمر والمجون ولس عمالهم غفلة وإهمالاً، فأصبح لا همَّ لهم سوى ابتزاز الأموال وحشدها، وقيل لبعض الأمويين: «ما كان سبب زوال ملككم؟» فقال: «اختلاف فيما بيننا واجتماع المختلفين علينا!»

وكانت الشيعة قد قابلت نزول الحسن عن الخلافة بالسُّخط، وبايعت الحسين، فكان يوم كربلاء، فاستفطعت مقتل ابن بنت الرسول وازدادت حماساً وتعصباً، ثم تقسمت فرقاً فناصر بعضهم محمد بن الحنفية وعبد الله أبا هاشم بعده فمحمد بن عباس، وعباس عم الرسول وإليه انتسب العباسيون، وناصر آخرون وكانوا كثيراً عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي، فتخوَّف العباسيون منه فعدوا مؤتمراً هاشمياً يضم العلويين والعباسيين في مكة، فتشبث العلويون فسايرهم العباسيون ريثما تنهياً لهم الأسباب، ووافقهم على مبايعة «النفس الزكية».

وفي حوالي السنة ٧١٨ أَلَفَ محمد بن عباس جماعاتٍ سريةً، وأرسل معظمهم إلى خراسان؛ لأنها كانت في نظره أصلحَ من غيرها لنشر الدعوة، ففرسها كانوا شيعيين

ويكرهون العرب والأمويين ولا يطمعون في الخلافة، وتُوِّفِّي محمد بن عباس وتزعم الحركة العباسية بعده ابنه إبراهيم الإمام، فأرسل هذا أبا مسلم الخراساني في السنة ٧٤٦ إلى خراسان، فأقام في مرو وبدأ يدعو الناس إلى مبايعة آل محمد بدون تعيين، فتبعه أناس كثيرون واشتدت شوكتُه فهرب عامل خراسان، فألقى الخليفة مروان القبض على الإمام إبراهيم في مركزه في الحميمة في شرق الأردن، فأوصى هذا بالخلافة إلى أخيه أبي العباس السفاح، ومات إبراهيم الإمام فدعا أبو مسلم أهل خراسان إلى مبايعة السفاح، وكانت ثورة وكانت معركة حاسمة عند الزاب الأعلى في الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة ٧٤٩، وتعقب السفاح مروان فأدركه في مصر وحزَّ رأسه، فزالَت دولة الأمويين واستتبَّ الأمر للعباسيين في الشرق كله.^١

السياسة العباسية

وكان العباسيون في عصرهم الأول أصحاب قوة وعزم وتديبر، ولكنهم لم يحجموا عن الفتك بكل من يُخشى شره؛ وتعليل ذلك أنهم كانوا حريصين على الملك يستحلون كلَّ شيء في سبيل تأييده، فقد تجدهم أعدلَ خلق الله وأعظمهم تسامحًا، وقد تجدهم شديدين مشددين، فالحرية عندهم كانت مكفولة ما دامت بعيدة عن سياسة الأحزاب، والتساهل كان مباحًا ما دام لا يؤثر في الملك.^٢

العباسيون والنصارى

وهكذا، فإننا نرى الموالى الفرس الذين نظموا حكومة العباسيين ورتبوا دواوينها يقربون أهل الذمة في العراق والشام، فيطمعونهم بالرواتب والجوائز ويكرمونهم، فجهابذة العباسيين أكثرهم من اليهود، والكتاب من النصارى، وتقلد هؤلاء ديوان الجيش أيضًا وتسبق أكابر رجال الدولة من المسلمين أنفسهم إلى تقبيل أيديهم. وممن تقلد هذا الديوان ملك بن الوليد، قلده إياه المعتضد بالله (٨٩٢-٩٠٢)، «وكان المعتضد شهيمًا

^١ Weil, Gesch. d. Chalifen, I-III; Vloten, G., De Opkomst der Abbasiden; in Chorasán

^٢ أدباء العرب في الأعصر العباسية للأستاذ بطرس البستاني، ص ١٤-١٦.

عاقلاً فاضلاً، وكان شديداً على أهل الفساد»، وقلد المتقي بالله (٩٤٠-٩٤٤) أبا العلاء صاعد بن ثابت خلافة الوزارة وكان نصرانياً،^٢ واستخدم العباسيون الأطباء من أهل الذمة والحكماء والتراجمة والكتّاب، فأكرمهم وراعوا جانبهم وقدموهم. وقد حفظ لنا ابن أبي أصيبعة في كتابه طبقات الأطباء الشيء الكثير من هذه الحُاسنة، ولعل أفضل ما ينقل عنه كلامه عن علاقة الخليفة المنصور بجورجيس بن بختيشوع، وكان جورجيس أنثى رئيس أطباء مارستان جنديسابور، فلما انقطعت شهوة المنصور من الداء الذي أصابه في معدته استقدم جورجيس فدرس علته ووصف الدواء، فاشتفى الخليفة وطابت نفسه ومنع جورجيس من الرجوع إلى بلده، وكان المنصور قد علم أن جورجيس خلف امرأته في جنديسابور فأرسل إليه ثلاث جوار روميات وثلاثة آلاف دينار، فقبل جورجيس الدنانير وردّ الجواري، فلما عاتبه المنصور أجابه: «إننا معشر النصارى لا نتزوج إلا بامرأة واحدة، وما دامت حية لا نأخذ غيرها.»^٤ وبذل المأمون وغيره جهدهم في نقل الكتب من اليونانية والسريانية إلى العربية وأنفقوا بسخاء، فكان السوريون المسيحيون ساعدهم الأقوى، وفيهم الحمصي والبعليكي والدمشقي والحيري والحراني.^٥

وأكرم بعض الخلفاء الأساقفة، وجالسوهم، فالهادي كان يستدعي إليه الأسقف تيموثاوس في أكثر الأيام ويحاوره في الدين، ويبحث معه وينظره، وي طرح عليه كثيراً من القضايا، وله معه مباحث طويلة ضمّنها كتاباً ألفه الأسقف المذكور في هذا الموضوع، وكان هارون الرشيد يفعل مثل هذا أيضاً، وغضّ بعض الخلفاء النظر عن إذلال بعض النصارى فسهلوا لهم الاختلاط بهم، وأظهروا احترام مذهبهم، حتى أصبح هؤلاء النصارى يهدون الخلفاء أيقونات القديسين فيقبلونها منهم، وكثيراً ما كان الأساقفة يطلبون من الخلفاء تثبيتهم في مناصبهم؛ للاعتزاز بذلك على أخصامهم أو منازعيهم.^٦

^٢ الوزراء والكتاب للجهمياري، ص ٩٥.

^٤ طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة، ج ١، ص ١٢٤.

^٥ طبقات الأطباء أيضاً، ج ١، ص ١٣٨، ١٨٥، ١٨٩، ٢٠٥. راجع أيضاً الفهرست لابن النديم ٢٤٥ و ٢٦٤، وتاريخ أبي الفرج اللطفي (المشرق ١٩٤٩)، ص ٤٩١-٤٩٢.

^٦ تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان، ج ٤، ص ١٣٠-١٣١، وفيه إشارة إلى تاريخ المشاركة خط، ص ١٤٣، وكتاب الخطط للمقريري، ج ٢، ص ٥١١.

ولكن بعض هؤلاء الخلفاء والوزراء العادلين المتسامحين كانوا في بعض الظروف أشدَّ الناس تَعَنُّتًا، فالمهدي (٧٧٥-٧٨٥) «قَوَّض الكنائس التي ابتناها النصارى في عهد العرب وأخْرَبَ كنيسة الخلقيدونيين (الروم) في حلب»^٧. وأمر أن لا يقتني النصارى عبيدًا،^٨ وفي السنة ٧٧٩ أقبل المهدي على حلب فخرج إلى لقائه التتوخيون ممتطين خيولاً مطهمة رافلين بالحلل، فقليل له: هؤلاء هم نصارى «فاحتدم المهدي سخطاً واضطهرهم أن يسلموا، فأسلم زهاء خمسة آلاف رجل ولم تسلم النساء، واستشهد منهم رجل جليل اسمه ليث»^٩.

وفي السنة ٧٩٧ مرَّ هارون الرشيد بالرها، فواجهه المسلمون وشكَّوا النصارى مدعين أن ملك الروم يزورهم كل سنة سرًّا ويصلي في كنائسهم، «فبحث الخليفة فاستبان له افتراؤهم فأوسعهم ضرباً، وفي هذا الزمان كان رجل قرشي مسلم اسمه رويح، وكان بيته مجاوراً للكنيسة، وكان يضايق الكاهن ويزعجه وقت الصلاة ويطرح عليه من الكوة كرات من طين، ولما كان يحدق فيه يوماً وقت ذبيحة القديس شاهد في الطبق على مائدة الحياة حملاً مذبوحاً، فانحدر إلى الكنيسة وشاهد أمام الكاهن خبزاً مكسوراً، فعاد إلى الكوة وحدق ثانية فشاهد الحمل، فجاهر حالاً بالانصرانية وترك بيته وقصد أحد الأديار واصطبغ بالمعمودية، ولما بلغ هارون الرشيد خبره استحضره ولأطفه ليعود إلى الإسلام فأبى، فأوثقه وألقاه في السجن، وظل سنتين كاملتين راسخاً في عقيدته»^{١٠}. وفي السنة ٨٠٧ أمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور وأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم.^{١١}

وفي السنة ٨١٢ في عهد الأمين (٨٠٩-٨١٣) اتفق ناصر وعمر الخارجي، وعبرا الجزيرة وجعل أصحابهما الخوارج يقتلون دون شفقة ويسبون ويغزون ويفحشون، وفيما كانا يحاصران حران كتب إليهما الرهاويون يقولون: إن أرسلتما من يدمر كنيسة النصارى فإنهم يضحون بأموالهم كلها حرصاً عليها، فهلع الرهاويون وأوصوا بالصوم

^٧ تاريخ أبي الفرج المظني، «المشرق ١٩٤٩»، ص ٤٩٢.

^٨ المجدل لماري بن سليمان، أخبار بطاركة كرسي المشرق، ص ٧٤.

^٩ تاريخ أبي الفرج المظني، ص ٤٩٣.

^{١٠} أبو الفرج أيضاً، ص ٤٩٥ و ٤٩٧.

^{١١} الرسل والملوك للطبري، ج ٢، ص ٧١٢-٧١٣.

واعتكفوا على السهر والصلاة، فسمع الرب طلباتهم وألهم شيخاً من العرب يقال له: يحيى بن سعيد، فخرج يريد مواجهة ناصر وعمر الخارجين، وأشار عليهما أن يعدلا عن قصدهما، فليياً مشورة الشيخ وأدى لهما الرهاويون خمسمائة ألف درهم.^{١٢} وفي عهد المأمون (٨١٣-٨٣٤) تداعت قبة القيامة في أورشليم، فأرسل بكام المصري إلى توما البطريك الأورشليمي بمالٍ كثير يستعين به على إصلاح القبة، فأصلحها البطريك.^{١٣}

تحاسد النصارى

ولو دققنا في ما كان يلحق بالنصارى من الأذى؛ لرأينا سببه في بعض الأحيان وشايات بعضهم على بعض، فإن عيسى بن شهلا لَمَّا تولى الطبابة في دار الخلافة اغتتم تلك الفرصة وبسط يده على المطارنة والأساقفة يأخذ أموالهم لنفسه، وكتب مرة إلى مطران نصيبين يلتمس أشياء عظيمة المقدار من أواني الكنيسة، وهدد قائلاً: ألسنت تعلم أن أمر الملك بيدي إن شئت أمرضته وإن شئت عافيتُه، فبعث المطران بالكتاب إلى الخليفة فانتقم منه.

وحسد بختيشوع بن جبرائيل الطبيب حنين بن إسحاق المترجم الشهير لما رأى من منزلته عند المتوكل فعمل على الكيد به من طريق الدين، فاصطنع أيقونة للسيدة العذراء وفي حجرها السيد المخلص، وأوعز إلى بعض خاصته أن يحملها هدية إلى الخليفة، وكان هو المستقبل للأيقونة من يد حاملها، فاستحسنها المتوكل وجعل بختيشوع يقبلها، فقال له الخليفة المتوكل: لَمَ تقبلها؟ فقال له: يا مولانا إذا لم أقبل صورة سيدة العالمين فمن أقبال؟ فقال المتوكل: وكل النصارى يفعلون ذلك؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين وأفضل مني، ولكنني أعرف رجلاً في خدمتك يتهاون بها ويبصق عليها، وهو زنديقٌ ملحدٌ، لا يقر بالوحدانية ولا يعرف آخرة، يستتر بالنصرانية وهو معطلٌ مكذبٌ بالرسول. فقال المتوكل: من هذا الذي هذه صفتُه؟ فقال له: حنين المترجم.

فأمر المتوكل بإحضار حنين فاستمهله بختيشوع ساعة، ثم خرج تَوّاً إلى حنين وقال له: أهديت إلى الخليفة أيقونةً وقد استحسنها، وإن نحن تركناها عنده ومدحناها

^{١٢} تاريخ أبي الفرج اللطفي، ص ٥٠٠-٥٠١.

^{١٣} Eutichius, Annales, II, 55-57.

بين يديه احتقرنا، وقال لنا هذا ربكم وأمه مصوران، وقد سألني عن رأيي فيها فقلت مثلها يكون في الحمامات والكنائس، فطلب إليّ أن أبصق عليها فبصقت، فإذا دعا بك فافعل، فصدّقه حنين ولما دعاه الخليفة فعل كما قال له بختيشوع، فحالما بصق على الأيقونة أمر الخليفة بحبسها.

ووجه إلى ثيودوسيوس الجاثليق فأحضره، فلما رأى الأيقونة وقع عليها وقبّلها ولم يزل يقبلها ويكي طويلاً، ثم أخذها بيده وقام قائماً فدعا لأمير المؤمنين وأطنب في دعائه، فدعاه إلى الجلوس ثم سأله عما يستحق الذي يبصق عليها، فقال: «إذا كان مسيحياً عارفاً فإني أحرمه دخول الكنيسة ومن القربان، وأمنع النصارى من ملامسته وكلامه وأضيّق عليه.» فأعطى الخليفة الأيقونة للجاثليق مع جائزة وأمر بحنين فجلد بالسياط والحبال وأمر بنقض منازل وحبسها، ولم ينج من ذلك حتى اعتل المتوكل واحتاج إلى مشورته فأفرج عنه.^{١٤}

الشرع والنصارى

وأظهر العباسيون في دعوتهم أنهم يريدون إحياء السنة وتقويم ما اعوجّج من سبُل الدين في عهد الأمويين، فلما استتب لهم الأمر قربوا الفقهاء والعلماء والزهاد وأكرمهم، وكانوا إذا لقوا فقيهاً أو زاهداً طلبوا إليه أن يعظهم فإذا وعظهم بكوا، وأشهر المتعظين منهم المنصورُ والرشد والمعتصم والواثق، ولا غرو فالمسلمون انقادوا إلى فقهاءهم فاستعان الخلفاء بهؤلاء على إخضاع العامة وامتلاك قلوبهم، واكتسب الفقهاء بتقريبهم مآلاً وجاهاً فرسخَ احترامهم في قلوب العامة، وتمسكوا بهم وعظموهم باسم الدين.

ويُستدل مما تبقى من آداب العصر العباسي أن الفقهاء والعلماء جعلوا «عهد عمر» أساساً لاجتهادهم في معاملة أهل الذمة، وقد سبق لنا القول إن نص هذا «العهد» اتصل بالفقهاء بطريق الإسناد إلى عبد الرحمن بن غنم الأشعري الراوي القديم الذي توفّي في السنة ٧٨ للهجرة، ونُصيف هنا أن أكثر مواد هذا العهد واردة في كتب الفقه والإدارة في العصر العباسي، ويكاد لا يخلو منها أو من بعضها مُصنّف.^{١٥}

^{١٤} طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، ج ١، ص ١٩٤.

^{١٥} سمات النصارى واليهود في الإسلام، لحبيب الزيات المشرق ١٩٤٩، ص ١٦١-٢٥٢.

واختلف الأئمة في قيمة حياة الذمي، فإنها كانت عند أبي حنيفة (٦٩٦-٧٦٧) وابن حنبل (٧٨٠-٨٥٥) تكافي حياة المسلم، وديته دية المسلم، أما عند مالك (٧١٥-٧٩٥) فدية اليهودي أو النصراني نصف دية المسلم، وعند الشافعي (٧٦٧-٨٢٠) ثلثها، أما المجوسي فديته جزء من خمسة عشر جزءاً من دية المسلم، واستحق التأديب عند هؤلاء وغيرهم من قال للمسلم: يا يهودي أو يا نصراني،^{١٦} وذهب بعض فقهاء هذا العصر إلى أنه لا تُقبل شهادة الذمي على أهل دينه، فحرَّ هذا في صدور النصارى حرّاً عميقاً، وذهب البعض مذهباً آخر، وكان على قضاة النصارى أن يقبلوا شهادة المسلم على النصراني فزاد هذا الموقف في كرههم وحقدهم.^{١٧}

واجتهد الفقهاء في هذا العصر اجتهاداً شاقاً في أمر تسلُّط أهل الذمة على المسلمين؛ ففي السنة ٨٤٩ أمر المتوكل ألا يُستعان بأهل الذمة في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري أحكامهم فيها على المسلمين،^{١٨} ولكنه بعد ذلك بعشر سنين أنشأ قصره الجعفري وأجرى إليه نهراً، وجعل النفقة عليه إلى دليل ابن يعقوب النصراني،^{١٩} وفي السنة ٩٠٩ علا أمر النصارى وغلبوا على الكتاب فأمر المقتدر بما أمر به المتوكل، وأضاف ألا يستخدم أحد من اليهود والنصارى إلا في الطب والجهنزة،^{٢٠} ولكن هذه الأوامر كانت ضعيفة الأثر؛ فإن وزيره أبا الحسن علي بن الفرات كان يدعو أربعة من النصارى إلى طعامه كل يوم، وكانوا في جملة الكُتاب التسعة الذين اختص بهم،^{٢١} ولما أراد المقتدر أن يستوزر الحسين بن القاسم في السنة ٩٣١؛ أشار عليه بأن يجتهد في إصلاح أعدائه، فابتدأ ببني رائق فكان يمضي إلى كاتبهم النصراني ويضمن لهم الضمانات، ثم فعل ذلك باصطفن بن يعقوب كاتب مؤنس وقال له: «إن تقلدت الوزارة فأنت قلدتنها»^{٢٢} وكان الحسين

^{١٦} كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي طبعة أوروبية ص ٥٥، وكتاب الخراج لقدامية خط نسخة باريز رقم ٥٩٠٧، ص ٢٩.

^{١٧} كتاب الخراج لقدامية أيضاً، ص ١٣، Sachau, Syrische Rechtsbuecher, II, 107.

^{١٨} الرسل والملوك للطبري، ج ٣، ص ١٣٨٩-١٣٩٠.

^{١٩} المرجع نفسه ج ٣ ص ١٤٣٨.

^{٢٠} أبو المحاسن طبعة أوروبية ج ٢ ص ١٧٤-١٧٥.

^{٢١} كتاب الوزراء، ص ٢٤٠.

^{٢٢} مسكوبة، ج ٥، ص ٣٥٢.

هذا يتقرب إلى النصارى الكُتاب بأن يقول لهم: «إن أهلي منك وأجدادي من كباركم، وإن صليباً سقط من يد عبيد الله بن سليمان جدي، فلما رآه الناس قال: هذا شيء تتبرك به عجائزنا فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم.»^{٢٣} ومثل هذا كثير فليراجع في محله،^{٢٤} وعالج الفقهاء هذه القضية فاختلّفوا، وأفتى بعضهم بأنه يجوز بأن يكون وزير التنفيذ — لا وزير التفويض — من أهل الذمة، ووزير التنفيذ لا يباشر الحكم ولا يقلد العمال ولا يدبر الجيش، أما وزير التفويض فهو الذي يفوض السلطانُ إليه تدبيرَ الدولة برأيه.^{٢٥} ومنع الفقهاء في العصر العباسي تغيير الدين إلا إذا كان دخولاً في الإسلام، فانفصلت الطوائف بعضها عن بعض، وعُوقب المرتدُّ عن الإسلام بالقتل، وقُلَّ التزاوج بين المسلمين وغير المسلمين، أما زواج المسيحي من مسلمة فإنه كان مستحيلاً،^{٢٦} ومنع الفقهاء أيضاً أهل الذمة من تعلية بيوتهم على أبنية المسلمين، فإن ملكوا بيوتاً عالية أُقروا عليها ومنعوا من الإشراف منها على المسلمين.^{٢٧} ولم يُغلق الفقهاء دون أهل الذمة أي باب من أبواب الرزق، فكانوا مزارعين وتجاراً وصُنّاعاً وصيارفة وأطباء،^{٢٨} وكان معظم الصيارفة والجهابذة يهوداً، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى،^{٢٩} وكان رئيس النصارى في بغداد طبيب الخليفة.^{٣٠}

القضاء بين النصارى

ولم يفصل الإسلام بين السلطتين القضائية والتنفيذية؛ فالنبيُّ كان رئيس الدولة الإسلامية وقاضياً في آن واحد، وكان أيضاً «مبلِّغاً لشريعتها»، وكذلك كان خلفاؤه من

^{٢٣} عريب، ص ١٦٤.

^{٢٤} الحضارة الإسلامية، للدكتور آدم متز، ج ١، ص ٦٨-٧٠.

^{٢٥} العقد الفريد لأبي سالم محمد بن طلحة، ص ١٤٧.

^{٢٦} كتاب الخراج، لقدامة بن جعفر، ص ١٣.

Sachau, Syrische Rechtsbucher, II, 75, 170, 192.

^{٢٧} الأحكام السلطانية للماوردي، ص ٤٢٨.

^{٢٨} الخراج لأبي يوسف القاضي، ص ٦٩.

^{٢٩} المقدسي، ص ١٨٣.

^{٣٠} Barhebraeus, Chron, Ecc. III, 187.

بعده، وكان محمد يعهد بالقضاء إلى بعض الولاة ضمن توليتهم أمور الولاية، فاقتفى خلفاؤه أثره واتبعوا الخطة نفسها، فقاضى ولائهم بين الناس بالنيابة عنهم، ثم كثرت الأعمال فاضطر الولاة إلى تعيين القضاة،^{٣١} ولم يحدد الوالي اختصاص القاضي، فاحتفظ لنفسه بما كان «يعجز عنه القاضي»،^{٣٢} ثم خرج القاضي من سلطان الوالي فخضع للخليفة مباشرة، وكان أبو جعفر المنصور أول خليفة ولي قضاة الأمصار من قبله.^{٣٣} وكان هذا القاضي قاضي المسلمين «يحضر مجلسه المسلمون دون أهل الذمة»،^{٣٤} ولا غرابة في ذلك؛ فالمسلمون الفاتحون كانوا قد أقرُّوا الناس على ما كانوا عليه من قبل، فلم يتعرضوا لهم في شيء من معاملاتهم أو أحكامهم، ومن هنا اهتمام النصارى بعد دخولهم في دار الإسلام بالقوانين البيزنطية، ونقلها إلى السريانية والعربية، ومن هذه كتاب الهدى، وقد سبقت الإشارة إليه،^{٣٥} وأجاز بعض الفقهاء تقليد الذمي القضاء بين أهل دينه، واعتبروا هذا التقليد تقليد زعامة ورئاسة لا حكم وقضاء، ولكنهم رأوا أنه إذا امتنع أهل الذمة عن التحاكم أمام قضاةهم لا يجبروا على ذلك، فإذا رجعوا إلى قاضي الإسلام قضى بينهم بحكم الإسلام؛ «لأنه يكون عليهم أنفذ ولهم ألزم».^{٣٦} والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم النصرانية أنها كانت محاكم كنسية، يقوم فيها الرؤساء الروحيون مقام كبار القضاة، ولم تقتصر الأحكام فيها على مسائل الزواج، بل كانت تشمل مسائل الميراث وأكثر المنازعات التي قامت بين المسيحيين وحدهم، ولم ينظر الرؤساء بعين الرضا إلى من لجأ من النصارى إلى المحاكم الإسلامية؛ ولذلك صنف الجاثليق النسطوري ثيموثاوس في السنة ٨٠٠ كتابًا في الأحكام القضائية المسيحية؛ «لكي يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجئون إلى المحاكم غير النصرانية بدعوى النقص في القوانين المسيحية».^{٣٧} ولخص ابن العبري القوانين الكنسية والمدنية في كتابه

^{٣١} Wellhausen, J., Die Religios-Politischen Oppositionsparteien im Allen Islam, 78

^{٣٢} الخطط للمقريزي، ج ٢، ص ٢٠٧.

^{٣٣} تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٦٨، والقضاة للكندي، ص ٣٦٨.

^{٣٤} المبسوط للرخسي، ج ١٦، ص ٩٨.

^{٣٥} Tyan, E., Hist. de l'Organisation Judiciaire en Pays d'Islam, I, 119-138

^{٣٦} الأحكام السلطانية للماوردي، ص ١٠٨-١٠٩.

^{٣٧} Sachau, Syrische Rechtsbueher, II, 57

الهدايا وأبدع في أبواب الشرع المدني،^{٣٨} وجعل الأباء القضاة العقوبات دينية منها التكدير والتوبيخ، ومنها القطع والندامة، ومنها البذل والغرامة.^{٣٩}

الخلفاء والبطاركة

وبعد انتقال مركز الحكم من دمشق إلى بغداد أصبح «الجالثيق» النسطوري ذا مهابة ونفوذ نظرًا لكثرة أتباعه في العراق وفارس وما وراءهما إلى الشرق، وكانت تنتخبه كنيسته فيصدق الخليفة على انتخابه ويكتب له عهدًا كما كان يكتب لكبار العمال، ولم يبق من نصوص هذه العهود سوى نص واحد صدر عن الخليفة المستنجد في السنة ١١٣٩،^{٤٠} وكذلك كان يكتب لبطيريك اليعاقبة وبطيريك الروم، وكان للنصارى النوبيين دون سائر النصارى مكانة ممتازة في الدولة الإسلامية، فكانوا يدفعون الضرائب للملكهم، وكان للضرائب عامل من قبله في بلاد الإسلام.^{٤١}

وكان لليهود رئيس في بغداد يُدعى «رأس الجالوت»، ورئيس آخر في القاهرة بعد قيام الدولة الفاطمية يُلقب «سر هساريم»؛ أي أمير الأمراء، وكان هذا يُعين أحبار اليهود في مصر والشام،^{٤٢} فاحتج أحد بطاركة اليعاقبة، فقال في مجلس له مع الخليفة: إن رؤساء المجوس واليهود حكام دنوبيون، وإنه هو رئيس روجي لا يستطيع إلا فرض العقوبة الروحية كأن يحكم بخلع أسقف أو قطع كاهن أو منع علماني من حضور الاحتفالات الكنسية.^{٤٣}

وظل انتساب بطاركتنا إلى الكنيسة الجامعة واستمسакهم باللغة اليونانية وتعلقهم بأدابها الكنسية؛ سببًا لاتهامهم بالميل إلى الروم والتجسس لهم ومطالعتهم بأخبار المسلمين، وظلوا هم بعيدين عن زميلهم الكبير بطيريك القسطنطينية لا يتصلون به ولا يجراءون على ذكره في الذبيخة؛ فقد جاء في تاريخ أفتيخيوس تحت أخبار السنة

^{٣٨} اللؤلؤ المنتور للبطيريك أغناطيوس أفرام، ص ١١٩.

^{٣٩} Sachau, op. cit., II, 68; Mez, A., Die Renaissance des Islam, Trad. Ar., I, 58

^{٤٠} Amedroz, Journ. Roy. Asiat. Soc., 1908, 467 ff

^{٤١} Barhebraeus, Chron, Ecc., I, 384

^{٤٢} Benjamin von, Tudela, 98; Goldziher, I., Rev. Etudes Juives, VIII, 121 ff

^{٤٣} Dionysius Tellmehre, (Chabot), 148; Barhebraeus, Chron, Ecc., I, 372

(٩٣٧-٩٣٨) أن الروم والمسلمين تهادنوا وتبادلوا الأسرى، فوجه ثيوفيلاكْتوس بطريك القسطنطينية رسولاً إلى أفتيخيوس نفسه بطريك الإسكندرية وإلى ثيودوسيوس بطريك أنطاكية، وإلى خريستوذوللس بطريك أورشليم، يسألهم «أن يذكروا اسمه في صلواتهم وقداستهم، فأجابوه إلى ما سأل، وهذا كان قد انقطع عن وقت خلافة بني أمية».^{٤٤}

فثيودوروس (٧٧٤-٧٩٧) خالف كنيسة القسطنطينية وإمبراطورها وواظب على احترام الأيقونات وقطع قوزما متروبوليت حماة؛ لأنه ماشى القسطنطينية في أمر الأيقونات، ولكنه على الرغم من هذا الموقف المعادي للقسطنطينية اضطر أن يتحمل عذاب النفى والاضطهاد عندما غزا قسطنطين الخامس حدود الخلافة فأبعد إلى موآب.^{٤٥} وكان أيوب الأول البطريرك الأنطاكي (٨١٣-٨٤٤) قد طوى فؤاده على التعاون مع الخلفاء لإسقاط التُّهْم ورفع الشبهات فتوَّج توما الصقلي الثائر في وجه الإمبراطور ميخائيل الثاني إرضاءً للمأمون،^{٤٦} ورافق المعتصم إلى حصار أنقرة فكلم حاميتها «بالرومية وقال أطيعوا السلطان وأدوا الجزية»، فقوبل بالشتم والحجارة،^{٤٧} ورأى خريستوفوروس البطريرك الأنطاكي (٩٦٠-٩٦٧) أن يبعد عن أنطاكية في أثناء الحرب بين سيف الدولة والروم، فسار إلى دير سمعان وأقام فيه، وعندما عاد الروم إلى بلادهم قصد خريستوفوروس سيف الدولة في حلب، فأحسن قبوله وشكره على ما فعل، وعاد البطريرك إلى أنطاكية، ثم تُوِّفِي سيف الدولة فتألَّبت العامة على خريستوفوروس، واتهمه صديقُه ابن مانك بمكاتبة الروم واستنهاضهم، «فحلف البطريرك أنه ما كاتب الروم قَطُّ، فوثب عليه قومٌ من الخراسانيين وأقامه واحدٌ منهم وضربه آخرٌ بالخنجر فأنفذه في بطنه، فسقط، فقطع رأسه وطرح في أتون حمام، وحملت جثته وطُرحت في النهر، وأنفذ ابن مانك قبل الصبح قوماً إلى كنيسة القسيان وقبضوا على ما وجدوه في منزل البطريرك وفي خزانة الكنيسة، وأخذوا كرسي مار بطرس وهو من خشب النخل مصفح بالفضة وحفظوه في دار شيخ يُعرف بابن عمر، وما زال في داره إلى أن ملك الروم

^{٤٤} Eutichius, Ann., II, 93

^{٤٥} Theophans, Chron., a. 6248, 9255

^{٤٦} Michel le Syrien, III, 57

^{٤٧} Eutichius, Ann., II, 60

كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الثاني)

المدينة، وبعد ثمانية أيام ظهرت جثة البطريرك على جزيرة في النهر، فخرج قوم من النصارى وأخذوها سرّاً ودفنوها في الدير المعروف بأرسانة خارج المدينة.^{٤٨}

هيرارخية أنطاكية

وتختلفُ المراجعُ في تتابعُ البطارقة وتعاقبهم على السدة الرسولية، وتتباين آراؤهم في تعيين مدة الرئاسة لكل منهم، وإليك ما جاء في لائحة البطريرك قسطنديوس القسطنطيني وما دونه أفتيخيوس البطريرك الإسكندري وما دونه بعده يحيى بن سعيد الملحق لتاريخ أفتيخيوس.

بطاركة أنطاكية.

لائحة أفتيخيوس		لائحة قسطنديوس	
(١) ٧٤٨-٨١٠			
٧٦٢-٧٥٤	ثيوفيلكتوس	٧٦٢-٧٤٨	ثيوفيلكتوس
٧٩٧-٧٧٤	ثيودوروس	٧٨٧-٧٦٧	ثيودوروس
٨١١-٧٩٨	يوحنا	٨١٠-٧٩٧	يوحنا الرابع
(٢) ٨١٠-٩٠٢			
٨٤٤-٨١٣	أيوب الأول	٨٢٦-٨١٠	أيوب الأول
٨٧١-٨٤٨	نقولاووس	٨٣٤-٨٢٦	نقولاووس
٨٧١-٨٧١	اسطفانوس	٨٤٠-٨٣٤	سمعان
	-	٨٥٢-٨٤٠	إلياس
٨٩٢-٨٧١	ثيودوسيوس	٨٦٠-٨٥٢	ثيودوسيوس
	-	٨٧٢-٨٦٠	نقولاووس الثاني
	-	٨٩٠-٨٧٩	ميخائيل

Eutichius, Ann, II, 124, 127-129; Ibrahim b. Yuhanna, Vie du Patriarche Melkite ^{٤٨}
d'Antioche, Christophore, Proche-Orient Chrétien, 1952, 11-38, 333-366

العَبَّاسِيُّونَ وَالْكَنِيسَةُ

لائحة أفتيخيوس		لائحة قسطنديوس	
٩٠٤-٨٩٢	سمعان	٩٠٢-٨٩٠	زكريا
٩٦٦-٩٠٢ (٣)			
٩٣٠-٩٠٥	إلياس	٩١٧-٩٠٢	جاورجيوس الثالث
٩٤٣-٩٣٤	ثيودوسيوس	٩٣٩-٩١٧	أيوب الثاني
٩٤٨-٩٤٤	ثيوخريستوس	٩٥٩-٩٣٩	أفستراتيوس
٩٦٧-٩٦٠	خريستوفوروس	٩٦٦-٩٦٠	خريستوفوروس

ويستدل من التنقيح الذي أدخل في القرن العاشر على لائحة أنسطاسيوس البطريرك الأنطاكي^{٤٩} أن المؤمنين الأرثوذكسين آثروا أنثد التكتل في السواحل على الانتشار في الداخل، وأن أهم أبرشيات الكرسي الأنطاكي الساحلية أمست في القرن العاشر كما يلي:^{٥٠}

(١) أبوالثمانين إلى باسيلوسرشية عكة من نهر الكرمل حتى نهر الزيب بما في ذلك دير القديس جاورجيوس اللبناني.

(٢) أبرشية صور من نهر الزيب حتى نهر الليطاني.

(٣) أبرشية صيدا من الليطاني حتى الدامور.

(٤) أبرشية بيروت من نهر الدامور حتى نهر إبراهيم، ويضاف إليها برج الهري

Trieris و برج المسيحة Gigarta.^{٥١}

(٥) أبرشية جبيل من نهر إبراهيم حتى سيل قانونيت Kanonit.

(٦) أبرشية البترون من هذا السيل الشتوي حتى وجه الحجر Lithoprosopon.

(٧) أبرشية طرابلس من رأس وجه الحجر (الشقعة) إلى سيل ستروثيون

.Strouthion

^{٤٩} PapadoPoutos-Kerameus, Anec. Hell. Constantinople, 1884, 65-57.

^{٥٠} Vailhé, S. Hiérarchie du Patriecat d'Antioche, Echos d'Orient. 1907, 90-101, 139-145. 393-368.

^{٥١} Dussaud, R., Topographie, 81-83.

(٨) أبرشية عرطوز Orthosias من سيل الستروثيون حتى خريسوبوتاموس Chrysopotamos.

(٩) أبرشية عرقة من الخريسوبوتاموس حتى نهر السوسية Soulié (الحصن).^{٥٢}

(١٠) أبرشية طرطوس من نهر السوسية حتى نهر المرقية، وكانت تدعى أبرشية هنتارغوس Hentargos.

(١١) أبرشية بانياس من نهر المرقية حتى نهر بانياس، وهي خاضعة لمتربوليت أبامية.

(١٢) أبرشية البلدة Paltos من نهر بانياس حتى النهر الكبير، وهي مستقلة.

(١٣) أبرشية جبلة من النهر الكبير حتى نهر صهيون.

(١٤) أبرشية اللاذقية من جسر نهر صهيون حتى نهر تراسكية Thrascaia.

(١٥) أبرشية أبامية من نهر تراسكية حتى النهر الكبير (العاصي).

(١٦) أبرشية سلفكية من النهر الكبير حتى الكيروبوتاموس بما في ذلك دير القديس سمعان.

(١٧) أبرشية موبسوستة من الكيروبوتاموس حتى نهر الفيسي الكبير Physi.

(١٨) أبرشية أدنة من هذا النهر الكبير حتى نهر أدنة.

(١٩) أبرشية طرطوس من نهر أدنة حتى نهر الروسوس Rhosos، وهو الحد الفاصل بين الكرسيين الأنطاكي والقسطنطيني.

وتشير هذه اللائحة المنقحة نفسها إلى كاثوليكوسين تابعين للكرسي الأنطاكي أحدهما كاثوليكوس روماغيريس Romagyris والآخر كاثوليكوس إيرينوبوليس Irenoupolis، وقد أبان الأب فاهي Vailhé أن روماغيريس هو حي الروم في نيسابور، وأن إيرينوبوليس هي مدينة السلام؛ أي بغداد، وكان الداعي لسيامة الكاثوليكوس الأول كثرة التجار اليونانيين في نيسابور، أما بغداد فإنها كانت عاصمة العباسيين وكانت تضم عددًا لا يُستهان به من أبناء الكنيسة الجامعة، وجاء في تاريخ ابن العبري أن البطريرك الأنطاكي إلياس سام أول كاثوليكوس أرثوذكسي في بغداد في السنة ٩١٠.^{٥٣}

^{٥٢} Ibid., 383, 388.

^{٥٣} Barhebraeus, Chron, Ecc., II, 236; Will. Ch., Acta et Scripta, 212 Echos d'Orient, 1907.

الفصل الثامن

فوطيوس العظيم

٨٥٨-٨٦٧ و ٨٧٧-٨٨٦

لاوون الخامس والأيقونات

وسيطر نقفور وزير المال على بلاط إيرينية، وقبض عليها، وحبسها في أحد الأديرة، فأنتهى عهدُ هذه الفسليسة في السنة ٨٠٢. وكان نقفور سامي الأصل ولم يقل قول إيرينية فلم ينفذ مقررات المجمع المسكوني السابع، ولكنه لم يضطهد من قال بإكرام الأيقونات ولا هو شجعهم، وسقط نقفور في حرب البلغار في السنة ٨١١، وقطع البلغاريون رأسه واتخذوا جمجمته كأسًا، وجرح ابنه وولي عهده وتوفي فتولى العرش ميخائيل الأول صهره (٨١١-٨١٣).

وكان ميخائيل لطيف المعشر معجبًا بالرهبان فأبعد عن الوظائف جميع أعداد الأيقونات، فأثار غضبهم ودفَع بهم إلى التآمر، ومما زاد في الطين بلة أن البطريك نيقوفوروس تقسى في معاملة المهاجرين الذين نقلوا إلى العاصمة وتراقية من الولايات النائية الجنوبية الشرقية؛ لتمسكهم بمذاهب لم تقرها المجمع المسكونية، فعادت المشادة الدينية إلى ما كانت عليه من قبل، وكانت الحربُ البلغارية لا تزال ناشبة، فأعد ميخائيل جيشًا وزحف إلى الجبهة في ربيع السنة ٨١٣، فدارت الدائرة عليه، فنادى الجند بلاوون الأرمني أحد كبار القادة فسيلفسًا، فتنازل ميخائيل وترهب.

وأول ما فعله هذا الفسيلفس الأرمني لاوون الخامس (٨١٣-٨٢٠) أنه أقسم يمين الولاء للكنيسة، وقطع وعدًا بأن يحافظ على عقائدها ومصالحها، ولكنه كان وصوليًا،

وكان يعتمد على جنود آسيويين لا يحترمون الأيقونات ولا يرغبون في تكريمها، فما أن استتب له الأمر وتخلص من خطر البلغار حتى نكث يمينه ونبذ عهد الولاء للكنيسة. وكان مراوغاً مداوراً فبث بادئ ذي بدء في الأوساط الرسمية وغير الرسمية أن ما حلَّ بالدولة من ضعف وما أهدق بها من خطر إنما نشأ عن العودة إلى تكريم الأيقونات وتقديسها، وبعد أن تمكن من جمع قرارات مجمع هييرية (٧٥٤) عقد مجلساً في القصر ضمَّ بعض وجهاء الطرفين المتخاصمين ممن قال بالأيقونات وممن حرمها، ودعا البطريرك نيقوفوروس إلى هذا المجلس في خريف السنة ٨١٤ وثيودوروس رئيس دير الاستوديون، وطلب إلى المجمعين أن يبحثوا في أمر الأيقونات، فأجابه ثيودوروس بصراحة وشدة أنَّ البحث في الأمور الدينية منوطٌ برجال الدين، وأن الواجب على الفيلسوف أن يطيع هؤلاء في أمور الدين لا أن يغتصب دورهم اغتصاباً، وأن للفيلسوف أن يُعنى بما سوى ذلك،^١ فأجاب لاوون بأنه لا يرغب في حمل الناس على الاستشهاد، وفي عيد الميلاد من هذه السنة استمع القديس الإلهي في كنيسة الحكمة الإلهية مظهرًا الخشوع مكرماً الأيقونات، ولكنه في ربيع السنة ٨١٥ قبض على البطريرك نيقوفوروس ونفاه إلى خريسوبوليس وأقام في موضعه علمانياً يُدعى ثيودوتوس، ثم عقد مجمعاً محلياً في نيسان سنة ٨١٥ في كنيسة الحكمة الإلهية ثبت فيه مقررات مجمع السنة ٧٥٤ وحرّم تكريم الأيقونات،^٢ على أن لاوون الخامس كان أقلَّ إصراراً ممن سبقه إلى محاربة الأيقونات مع أن مقاومة من كرم الأيقونات كانت أشد وأقوى من ذي قبل، فاكتفى لاوون بنفي الأساقفة والرهبان وحبسهم، وأشهر المنفيين بعد نيقوفوروس البطريرك ثيودوروس الاستودي الذي كتب من منفاه في أزمير في السنة ٨١٩ يشدد عزائم الرهبان، كما أنه استعاث بابا رومة وبطاركة الشرق الثلاثة،^٣ وكان بين المنفيين ثيوفانس المؤرخ، فإنه أبعده إلى سموتراقية فتوفي في السنة ٨١٧.^٤

Vita Theodore, P. G., Vol. 99, Col. 181–183; Dobroklonskij, A., Saint Theodore the Studite, 2 vols., Odessa, 1913–1914.

Serruys, D., Les Actes du Concile Iconoclaste de l'An 815, Mel. Arch. Hist. Ecole Fr. de Rome, 1903, 345–351.

P. G., Vol. 99, Col. 1152–1156

P. G., Vol. 108, Col. 36–44

ميخائيل الثاني والأيقونات (٨٢٠-٨٢٩)

وأشرك لاوون الخامس ابنه في الحكم، وظن أنه بذلك يؤسس أسرة حاكمة، ولكن رفاقه في السلاح الذين عاونوه في الوصول إلى الحكم وفي طليعتهم ميخائيل العموري لم يرضوا عن مسلكه فتآمروا عليه، واكتشف لاوون هذه المؤامرة وقذف بميخائيل إلى السجن، ولكنه أجَلَ عقابه وترك شركاءه في المؤامرة أحرارًا، فضرب هؤلاء ضربتهم قبل أن ينكشف أمرهم وذبحوا لاوون في كنيسته الخاصة، وأخرجوا ميخائيل من سجنه وتوجه فسيلسًا قبل أن تكسر قيوده الحديدية.

وكان ميخائيل الثاني ريفيًا غير مثقف جنديًا عتيقًا في طباعه وعاداته، ولكنه كان قديرًا حكيمًا، وعلى الرغم من قلة إيمانه بالأيقونات^٥ فإنه اتخذ موقفًا معتدلًا؛ فمنع كل مشادة حول الأيقونات، واستدعى من المنفى جميع المبعدين بسبب ذلك، واستقبل ثيودوروس الراهب في قصره وأكد له حرية العبادة، وقال نيقيفوروس البطريك: ليس لي أن أبتدع في الإيمان والعقيدة ولا أن أجادل في التقاليد الموروثة أو أن أنقضها، ولكنه لم يعترف بقرارات المجمع المسكوني السابع.^٦

ثيوفيلوس الأول (٨٢٩-٨٤٢)

ويختلف المؤرخون في موقف ثيوفيلوس من الأيقونات، فبعض يرى فيه عدوًا لدودًا للأيقونات وأنصارها، وبعض يراه معتدلًا في موقفه، مقتصرًا في إجراءاته على العاصمة وضواحيها،^٧ والواقع أنه رغم تعلقه بالعدراء والقديسين فإنه اتخذ له مستشارًا عدوًا للأيقونات؛ وهو العالم الشهير يوحنا الكاتب، وجعل من صديقه هذا بطريركًا مسكونيًا، ولم يكثر بقرارات البطارقة باسيليوس الأورشليمي وخريستوفوروس الإسكندري وأيوب الأنطاكي التي وُجّهت إليه موجبة المحافظة على التقاليد واحترام الأيقونات،^٨

^٥ .Mansi, XIV, Col. 417

^٦ Ostrogorsky, G., Byz. State, 180-181; Ternovsky, F. A., Graeco-Eastern Church, 487;

.Amann, E., Epoque Carolingienne, Fliche et Martin, VI, 240

^٧ Bury, J. B., East. Rom. Emp., III, 140-141; Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 286; Amann, E., op. cit. 241

^٨ .Texte, P. G., Vol. 95, Col. 345-386; Papadopoulos, Chrys. Ist. Ekk., 329

وكوى كفي الراهب العازار بالحديد الحامي، وجلد ثيوفانس وأخاه ثيودوروس الراهبين الفلسطينيين، ووسم جبينيها بأبيات من الشعر نظمها هو نفسه.^٩

يوم استقامة الرأي

وتُوفي ثيوفيلوس في السنة ٨٤٢، وخُلف خمس بنات وابناً ذكراً هو ميخائيل الثالث، وإذا كان ميخائيل هذا لا يزال في السادسة من عمره فإن الفيلسوف الراحل جعل زوجته ثيودورة وصية على ميخائيل القاصر، وعاونها في الوصاية مجلس تألف من كبار رجال الدولة، بينهم أخاها برداس وبتروناس والمابيستر سرجيوس وثيوكتيستوس عزيز ثيودورة المفضل على غيره.^{١٠}

وتحدرت ثيودورة من أصل أرمني بفلاغوني شرقي، ولكنها على الرغم من هذا أحببت الأيقونات وأكرمتها، ووافقها على ذلك مجلس الوصاية، فدعت الآباء الأرثوذكسيين إلى مجمع ليحلوا ثيوفيلوس زوجها من خطيئته في اضطهاد من كرم الأيقونات، وطلبت إلى البطريك يوحنا الكاتب أن يشترك في أعمال هذا المجمع فأبى، وادعى أن مؤامرة كانت تُحاك لاغتiale فأخرجه برداس من المقر البطريركي وأودعه بيته، ثم انتخب مثنويوس المعترف بطريركاً على القسطنطينية، وذلك في الرابع من آذار سنة ٨٤٣، ووافق مجمع الآباء على خلع يوحنا، واعترف برئاسة مثنويوس، وجدد الاعتراف بقرارات المجمع المسكونية، واعتبر تكريم الأيقونات عملاً مشروعاً ولعن من حرّمها،^{١١} وفي الأحد الأول من الصوم الكبير في الحادي عشر من آذار سنة ٨٤٣ خرجت ثيودورة في موكب عظيم إلى كنيسة الحكمة الإلهية يواكبها كبار الرجال؛ لاستماع القديس الإلهي ولتقبيل الأيقونات ولطلب المغفرة لزوجها الراحل، ولا يزال حتى يومنا هذا نعتبر الأحد الأول من الصوم الكبير يوم استقامة الرأي.^{١٢}

^٩ Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 286

^{١٠} Dvornik, F., Photius and Iconoclasm, Dumbarton Oaks Papers, 7, 1953, 96 ff

^{١١} Mansi, XIV, Col. 788; Grumel, Regestes, 415, 422 f

^{١٢} Grumel, Regestes, 425

لصورتك الطاهرة نسجد أيها الصالح، طالبين مغفرة الذنوب أيها المسيح الإله، إن أسرارك كلها يا والدة الإله تفوق كل إدراك وتعلو كل مجد.

التريدوي الأحد الأول من الصوم

الأحزاب والكنيسة

وكانت رومة الجديدة قد ورثت عن رومة القديمة أحزابها الأربعة؛ الزرق والخضر والبيض والحمرة، ثم انضم البيض إلى الخضر والحمرة إلى الزرق، فانقسم سكان عاصمة الروم وأمتهات مدنها إلى حزبين رئيسيين إلى زرق وخضر، وكانت الكنيسة الأرثوذكسية (ولا تزال) يونانية في فكرها ونظمها، فقالت بالديموقراطية وأشركت الشعب في جميع نواحي حياتها، فلعبت الحزبية الشعبية دوراً هاماً في أعمال هذه الكنيسة وأقوالها.

وشمل الزرق في ميدان السياسة الدينية الطبقتين الغنية والمتوسطة والرهبان المتطرفين، ولا سيما الاستوديين، وانضوى إلى الخضر جمهور الشعب والرعاة والكهنة ورهبان آخرون، وحارب الزرق العلوم الكلاسيكية القديمة فماشى العلماء الخضر في غالب الأحيان، فانقسمت الكنيسة إلى زرق محافظين متطرفين Acribeia وإلى خضر طلقاء معتدلين Oeconomia.

واصطبغ الانقلاب الذي دبره الإمبراطور نيقيفوروس وأعوانه في السنة ٨٠٢ باللون الأخضر، فأيده جمهور الشعب والأساقفة والكهنة، وقاومه الأغنياء والأشراف والرهبان، وتوفي طراسيوس البطريرك في السنة ٨٠٦. فرشح الزرق المتطرفون ثيودوروس الاستودي، ولكن نيقيفوروس الإمبراطور أثر الاتزان والاعتدال، فأيد نيقيفوروس وزير المال وجعل منه بطريركاً مسكونياً (٨٠٦-٨١٥)، فاعترض الزرق المتطرفون على شرطونية البطريرك الجديد وقاوموه مقاومة عنيفة،^{١٣} وتآمروا على حياة الإمبراطور،^{١٤} وكان ما كان من أمر نيقيفوروس في حرب البلغار وسقوطه في ميدان القتال، فتألب الزرق المتطرفون على ابنه وولي عهده، وأقاموا ميخائيل الأول إمبراطوراً محله، وعلا شأن الاستوديين في عهد هذا الفسيلفس، ولكن قلة خبرتهم وتطرفهم في الرأي والعمل

^{١٣} Dvornik, F., "Les Staves, Byzance et Rome au IX Siècle" 125 ff

^{١٤} Gregorii Abulpharagii, Chron, Syr., II, 137; Michel le Syrien, III, 12 f

أديا إلى الاندحار في الحرب، وإلى وصول لاوون الخامس إلى الحكم، وإلى تأجيل تكريم الأيقونات ثلاثين سنة أخرى.

وخلف نيقيفوروس على السدة المسكونية ثيودوروس كسيتراس (٨١٥-٨٢١) وأنطونيوس كاسيماتاس (٨٢١-٨٤٧) فيوحنا الكاتب (٨٣٧-٨٤٣)، وقالوا جميعهم برفع الأيقونات من الكنائس وعدم تكريمها، وجاءت الفسيفساء ثيودورة تكرم الأيقونات في السنة ٨٤٣، فأُنزلت يوحنا الكاتب عن الكرسي وراحت تفتش عن خلف له، وكانت متطرفة في عاطفتها الدينية وقالت قول الاستوديين، ولكنها آثرت وصول بطيريك معتدل إلى الكرسي المسكوني تحوطاً،^{١٥} وأوعزت بانتخاب مثنويوس الصقلي العالم الكبير والتقوي الورع وصديق زوجها المتوفى،^{١٦} ورغب مثنويوس رغبة أكيدة في المحافظة على السلم والوئام في الكنيسة، فابتعد في انتقاء الأساقفة الجدد عن الأوساط المتطرفة، فأثار بذلك غضب الاستوديين وأعاونهم، فهاجوا وماجوا وعابوا الأموات قبل الأحياء، فعداوا إلى الطعن في طراسيوس ونيقيفوروس، واضطر مثنويوس أن يقطعهم من الشركة.^{١٧} وتوفي مثنويوس في حزيران السنة ٨٤٧، ولحظ ثيوكتيستوس مستشار ثيودورة وعزيزها تكتلاً في الأوساط العلمية العالية حول برداس مناظره، ففتش هذه المرة عن خلف لمثنويوس في الأوساط المتطرفة، وقدم أغناطيوس ابن الفسيلس ميخائيل الأول، ولم يكثرث لما أبداه المعتدلون من تعلق بغريغوريوس اسبستوس صديق مثنويوس ورئيس أساقفة سرقوسة، وكان أغناطيوس قد اشتهر بورعه وغيرته على الدين والكنيسة، ولكنه كان سريع الغضب معجباً بنفسه مستبداً برأيه.^{١٨}

أغناطيوس وبرداس (٨٤٧-٨٥٧)

وظلت ثيودورة تدير دفة الحكم أربع عشرة سنة (٨٤٢-٨٥٦)، وفي خلال هذه المدة نشبت مشادة بين ثيوكتيستوس وبرداس أخي ثيودورة، أهم أسبابها حب السلطة

^{١٥} Dvornik, F., Les Staves, op. cit. 128 f

^{١٦} Dvornik, F., The Photian Schism, 13

^{١٧} Narratio de Beatis Patriarchis Tarasio et Nicephoro. P. G., Vol. 99, Col, 1853; Grumel,

^{١٨} Pol. Relig. du Patr, St. Methode, Echos d'Orient, 1935, 385-401

^{١٨} Amann, E., Epoque Carolingienne, op. cit., 466; Dvornik, F., Photian Schism, 17 ff

وشهوة الحكم، فنشأ انقسام داخلي في مجلس الوصاية أدى إلى استقالة عمانوئيل عم الفسيلفس وإلى سجن ثيوكتيستوس وقتله سنة ٨٥٤، وكان السبب المباشر وشاية رفعها برداس إلى الفسيلفس الشاب أن ثيوكتيستوس عقد النية على التزوج من ثيودورة أو إحدى بناتها للوصول إلى العرش، فنشأت مشادة عنيفة بين ثيودورة وأخيها برداس حول السلطة أدت في السنة ٨٥٦ إلى خروج ثيودورة وبناتها من القصر، وأصبح برداس صاحب الصول والطول.

وتُوفي أحد أبناء برداس فأقامت امرأته أفذوكية في بيت عمها برداس، ولم تكن الحماة والكنة على مشرب واحد فاندلعت الشرور في البيت، وأظهر برداس عطفًا على كنته فاتهمته زوجته بكنته، فطرد امرأته من البيت فالتجأت إلى أخته ثيودورة، فوبخ أغناطيوس برداس ونهاه عن المحرم، ونصح له أن يقبل امرأته في بيته فأبى برداس، وفي عيد الظهور الإلهي سنة ٨٥٧ تقدم برداس مع ميخائيل الثالث ليتناول الأسرار الإلهية، فأبى البطريرك مناولته وطرده خارج الكنيسة، وحنق برداس على البطريرك أغناطيوس وطفق يسعى للانتقام منه.

واتفق أن راهبًا ادعى أنه ابن ثيودورة من رجل كان لها في السابق، فأخذ الشعب ينظر إليه كأنه هو الملك المزمع بعد تنحيها، فقبض عليه برداس وزجّه في السجن واستنطقه فلم يعترف، فأمر بقلع عينيه وقطع أوصاله، وكان البطريرك أغناطيوس يعطف على هذا الراهب ويدافع عنه ناسبًا عمله إلى الجنون، فاغتنم برداس الفرصة واتهم البطريرك بالتآمر على الفسيلفس؛ ليرجع ثيودورة وبناتها إلى إدارة المملكة، فصدق الفسيلفس كلام برداس وأمر أغناطيوس أن يجعل ثيودورة وبناتها راهبات في إحدى الأديرة، فسألهن أغناطيوس هل يُردن الدخول في سلك الرهبنة فأنكرن، فامتنع عن إجابة طلب الفسيلفس، فصدق ميخائيل أن البطريرك عدو له، فأكره والدته وأخواته على الترهّب، كما أوعز إلى أغناطيوس أن ينزل عن كرسيه، فلمس أغناطيوس تعقّد الأمور لمَسَّ اليد، وأدرك أن لا فائدة للكنيسة من بقائه في منصب الرئاسة، فاستعفى عن رضى واختيار، وأشار على الأساقفة أن ينتخبوا غيره «من أبناء الكنيسة»^{١٩} وليس من العلم

^{١٩} Theophanes Cont. IV, 37-38; Nicetas, P. G., Vol. 105, Col. 504-505; Dvornik, F., Photian

.Schism, 36-50

بشيء أن نُصِرَّ على الغي فنقول مع مرتينوس جوجي وإميل أمان: إن أغناطيوس خُلِعَ خلعاً. ٢٠

فوطيوس رئيس الكنيسة (٨٥٨)

وشاورت الحكومة وفاوضت الأساقفة فاتضح لها أن الأساقفة — أصدقاء أغناطيوس — رغبوا في تطبيق القانون؛ أي في دعوة المجمع القسطنطيني إلى الانعقاد لبحث القضية ويرفع إلى الفسيلفس أسماء ثلاثة أساقفة يرى فيهم اللياقة والكفاءة لينتقي الفسيلفس أفضلهم، فوافقت الحكومة على دعوة المجمع، وتوافد الآباء الأعضاء، ولكنهم كانوا قد تخالفوا فيما بينهم وتشاقوا في عهد أغناطيوس، فانقسموا إلى متطرفين يؤيدون أغناطيوس ومعتدلين يعارضونه كل المعارضة، ولدى اجتماعهم للبحث عن راعٍ صالح يخلف أغناطيوس تفرقت كلمتهم واضطرب حبلهم، ثم توافقوا على أن يكون الخلف من كبار رجال الدولة أصحاب الرأي والورع والتقوى، ولم يروا في عملهم هذا خروجاً كبيراً على القوانين والتقاليد، فطراسيوس ونيقيفوروس لم يكونا إكليريكين قبل إجماع الكلمة على انتخابهما، وهكذا فإن المجمع رفع إلى الفسيلفس أسماء ثلاثة، أحدهم أغناطيوسي متطرف، والآخر معتدل معارض، والثالث حيادي — وهو فوطيوس — رئيس مجلس الوزراء protoaskretis.

وأيد معظم الأساقفة من أتباع أغناطيوس المرشح الجديد؛ لأسباب، أهمها أنه كان أرثوذكسياً لا غش فيه، وأنه تحمل العذاب في سبيل الدفاع عن الدين القويم في أثناء حرب الأيقونات، وأنه كان أعلم أهل عصره، وأنه لم يتظاهر بالعداوة لأغناطيوس، وأنه كان يمتُّ بصلة النسب إلى ثيودورة الفسيلسة وإلى برداس في آن واحد.^{٢١} وكان فوطيوس كريم الأصل، يرجع في نسبه إلى أسرة يونانية قديمة تتصل بالأسرة المقدونية، وكان أبوه سرجيوس ابن أخي البطريرك طراسيوس، وكان سيافاً في القصر،

Amann. E., "Destitution d'Ignace," Fliche et Martin, op. cit., VI, 467; Jugie, M., Schisme ٢٠
.Byzantin, 105, 106, n. 1

Dvornik, F., Photian Schism, 50; Bury, J. B., Relationship of Photius to Empress ٢١
.Theodora, Eng. Hist. Rev., 1890, 252-258

وكانت أم فوطيوس إيرينة شقيقة لعديل الفسيلفس ثيوفيلوس، واشتهر والداه بمناصرة الرأي الأرثوذكسي واستشهدا لهذه الغاية، ونشأ فوطيوس في القسطنطينية وتلقى علومه فيها، ثم تبحر واستبحر فأصبح واسع الاطلاع غزير المواد متقناً لعلوم اللسان اليوناني مطلعاً على آدابه بصيراً بمذاهبه الفلسفية، وأحاط بسائر علوم زمانه كالفقه والطب والفلك. وكان جزيل الورع فاضلاً لطيفاً وديعاً محباً للسلام، ولدى وصوله إلى السدة البطريركية تزلع من علم اللاهوت وخاض عباب علم التفسير واستجلى غوامضه.

وأشهر آثاره الفكرية مجموعة الميريوبيبيلون Myriobiblon «ألوف الكتب»، وفيها منتخبات من مئات المؤلفات القديمة وتعليقات هامة عليها، وكتاب الليكسيكون Lexicon في علوم اللغة وكتاب الأمفيلوخية Amphilochia وفيه الأسئلة والأجوبة في مواضيع مختلفة، وله مقالات ورسائل تحفظ رأيه في بعض المشاكل التي أثرت في عهده،^{٢٢} ولا يختلف اثنان — فيما نعلم — في عبقرية فوطيوس وعظمته وسمو مطلبه وطهارته سيرته واستقامة عقيدته،^{٢٣} واستوظف فوطيوس فتنسّم أعلى المراتب فأصبح بروتوسباتاريوس «السياف الأول؛ أي رئيس رجال المعية»، وبروتوسيكيرتيس؛ أي السكرتير الأول، ومستشاراً، وأول عضو في المجلس الأعلى، وانتدب سفيراً إلى شرقنا. وعلم فوطيوس في جامعة القسطنطينية، وأصبح بيته داراً للعلم والأدب والحكمة يؤمه الأدباء والعلماء في كل يوم.

وعلا فوطيوس درجات الكهنوت بسرعة، فسيم في اليوم الأول متوحداً وفي اليوم الثاني أناغنوسطساً، وفي الثالث أيبودياكوناً وفي الرابع شماساً وفي الخامس قساً، وفي السادس أسقفاً فبطيررگا، ولم يرَ الروم أنثذ في هذه الترقية الشذوذ الذي نراه اليوم، فبولس الثالث سيم بطيررگا على القسطنطينية في السنة ٦٨٧ بهذه الطريقة نفسها، وكذلك طراسيوس في السنة ٧٨٤، ونيقيفوروس في السنة ٨٠٦. ومما يجدر قوله هنا أن رومة لم تمتنع عن الاعتراف بهؤلاء كما امتنعت عن الاعتراف بفوطيوس، وكان المتقدم

٢٢ Patrologia Graeca, Vols, 101–104; Hergenroither, J., Photius Patriach von Konstantinopel, 3 vols., Monumenta Graeca ad Photium Pertinentia; Papadopoulos-Kerameus, A., Monumenta Graeca et Latina ad Historiam Photoii Pertinentia, 2 Vols.;

.Amann, E. Photius, Dict. Theol Cath

.Ostogorosky, G., The Byzantine State (1956) 199 ٢٣

في شرطونية فوطيوس رئيس أساقفة سرقوسة غريغوريوس خصم أغناطيوس، ولكنه لم ينفرد بالشرطنة — كما يزعم الأب جوجي،^{٢٤} بل عاونه فيها أسقفان أغناطيوسيان آخران.^{٢٥}

وأدى «تقدم» غريغوريوس في شرطونية البطريرك الجديد إلى نفور أغناطيوس وخمسة أساقفة معه، ورغبت الحكومة في السلم والوثام، فأشارت على فوطيوس بالتسوية، فاشترط الأساقفة الخمسة على فوطيوس أن يجل زعيمهم أغناطيوس فيحسبه بطريركاً بريئاً من التهم الموجهة إليه، وأن يمتنع من التفوه بشيء ضده، وأن يمنع غيره عن ذلك أيضاً،^{٢٦} ويرى الأب جوجي أن فوطيوس وعد ألا يقبل في الشركة من يطعن بأغناطيوس،^{٢٧} وهذا توسع في تفسير النصوص لا تجيزه قواعد المصطلح.^{٢٨}

وهكذا فإن روح التضحية الشخصية وإنكار الذات، التي تجلت بتنازل أغناطيوس عن الكرسي، وبقبول فوطيوس بالشروط المفروضة؛ أنقذت الكنيسة القسطنطينية من الشقاق، فكتب فوطيوس إلى زميله بطريرك أنطاكية يبشره بحلول السلام والوثام،^{٢٩} ودون نيقيناس خبر انتهاء المشادة والمشاحنة.^{٣٠}

ولكن الأحقاد ظلت توغر الصدور في الأوساط السياسية وتستوقد الغيظ، فثيودورة وأعوانها كانوا لا يزالون يبطنون العداوة لمخائيل وبرداس وينصبون لهما الحبائل الخفية، وكان أغناطيوس لا يزال يعطف على ثيودورة وكذلك بعض الاستوديين فإنهم ظلوا حاقدين متممين مضميرين الحزازة والضغينة، ورأى فوطيوس أن يمنع الإكليروس عن مكاشفة الحكومة بالعداوة، فاتهمه الأغناطيوسيون بالخيانة ونكث العهد، واجتمعوا في كنيسة القديسة إيرينة ونادوا بأغناطيوس بطريركاً شرعياً وحرموا فوطيوس، فدعا فوطيوس المجمع القسطنطيني إلى كنيسة الرسل لبحث المشكلة الجديدة، فاعتبر الآباء

^{٢٤} Jugie, M., Schisme Byzantin, 107.

^{٢٥} .Mansi, Greek Acts, XVI, Col. 348, 352, 353; Dvornik, F., Photian Schism, 51, n. 4

^{٢٦} .Metrophanes of Smyrna, Mansi, XVI, Col, 416; Dvornik, F., Phot. Sch., 52-53

^{٢٧} .Jugie, M., Sch. Byz., 108, n. 2

^{٢٨} .IV Congrès Int. Byz; Actes 317

^{٢٩} .Valetta, J., Photii Epistolae, I, 145, 146

^{٣٠} .P. G., Vol. 105, Col. 512; Aristarchos, S., Photii Orationes et Homilae, I, 149-160

عمل أغناطيوس وأعوانه غير قانوني، وأكدوا اللجوء إلى خلعه إن هو قبل الرئاسة مرة ثانية، أو عاد إلى التجاوز والتطرف الذي كان قد أدى إلى الشغب والفوضى في الكنيسة،^{٣١} واشترك الأعناطيوسيون في أعمال هذا المجمع، ولكنهم لجئوا إلى التشويش، فقمعت الحكومة هذه المقاومة بالقوة، ونفت أغناطيوس ونقولاوس رئيس دير الاستوديون وغيرهما (٨٥٩).^{٣٢}

رسائل الجلوس (٨٦٠)

وقضى العرف بتوجيه رسائل الجلوس إلى سائر البطاركة لتتبع بالانتخاب الجديد وتتضمن اعترافاً بالإيمان المقدس،^{٣٣} وكان الإمبراطور نيقيفوروس قد منع البطريرك نيقيفوروس عن توجيه رسالة بالجلوس إلى بابا رومة؛ نظراً لإقدام حبر رومة على شق الإمبراطورية والاعتراف بإمبراطور غربي، ولم يرض الأباطرة محاربو الأيقونات عن إرسال هذه الرسائل إلى رومة؛ نظراً للاختلاف في موقف الكنيستين الرومانية والقسطنطينية من الأيقونات، وذهبت ثيودورة التقية وبتطيركها مثوذوس إلى أبعد من هذا، فامتنعا عن تبادل الرأي مع رومة قبل العودة إلى إكرام الأيقونات المقدسة.^{٣٤} واصطدم فوطيوس بامتناع الأعناطيوسيين عن الاعتراف بسلطته، فرأى من الحكمة أن يوجه رسائل الجلوس إلى كل من بابا رومة وبابا الإسكندرية وبتطيرك أنطاكية وبتطيرك أورشليم؛ راجياً أن يعينه اعتراف زملائه برسائلهم السلامية في تخفيف الأزمة في القسطنطينية، فكتب في ربيع السنة ٨٦٠ إلى حبر رومة نقولاوس الأول وإلى حبر الإسكندرية ميخائيل الأول وإلى حبر أورشليم ثيودوسيوس وإلى أيكونوموس كنيسة أنطاكية، وكان يتنازع الكرسي البطريركي في كنيستنا نقولاوس الأول البطريرك الشرعي وأفستاثيوس متروبوليت صور، ولعل هذا هو السبب الذي حدا بفوطيوس أن يرسل كتاب الجلوس باسم أيكونوموس الكنيسة الأنطاكية لا باسم البطريرك.

^{٣١} Metrophanes, Mansi, XVI, Col. 416; Zonaras, J., Commentaria, P. G., Vol. 137, Col.

1004 f

^{٣٢} .Dvornik, F., Phot. Sch. 55-65

^{٣٣} .Vancourt, R. "Patriarcats", Dict. Théol. Cath

^{٣٤} .Ostrogorski, G., Byz. State, 199-200

وجاء في رسالة الجلوس التي أرسلها فوطيوس إلى بطاركة الشرق — بعد الشكر لله على إحساناته وعلى نعمة الكهنوت ما معناه: «إني عندما أتأمل في سمو الرتبة الأسقفية وأنظر إلى الضعف البشري، ولا سيما حقارتي؛ يأخذني العجب وأحار في أمر أولئك الذي يقدمون على إثقال كاهلهم بهذا الحمل المرهق، أما أنا فيعجز لساني عن وصف الحزن الذي شملني لدى قبولي ذلك العبء الثقيل، إني لم أرتق السدة البطريركية إلا بعدما تنحى عنها سلفي، ولأني لم أجد سبيلاً للتخلُّص من تلك المسئولية الكبرى التي اضطرني إلى تحملها الكهنة والأساقفة، ولا سيما الفسيفس.»^{٣٥}

فأبواباً الآباء البطاركة ريثما ينجلي الموقف، ثم تلقوا رسالة من زميلهم الأكبر بابا رومة (٨٦١) أعلمهم فيها أنه لم يشترك في رسامة فوطيوس أو تنزيل أغناطيوس،^{٣٦} فازدادوا تريباً وباتوا ينتظرون تطور الموقف، ثم عاد فوطيوس فكتب إلى توما متروبوليت صور يسأله ما إذا كانت الكنيسة الأنطاكية تعترف به فأجابه بالنفي،^{٣٧} بيد أن أفستاثيوس منافس نقولاوس الأول عمد بعد حين إلى الاعتراف بفوطيوس؛ لعله يستعين بهذا الاعتراف على خصمه نقولاوس، فشكر فوطيوس وطلب إليه أن يقوم إلى القسطنطينية.^{٣٨}

البابا نقولاوس الأول (٨٥٨-٨٦٧)

وكان نقولاوس بابا رومة يهوى السياسة ويحب مزاولتها، وكانت مواهبه غير عادية ففاق سلفاءه القريبين من عهده علماً وعزماً وحزماً،^{٣٩} وعزَّز رئاسته في الغرب تعزيراً فنفذت كلمته في فرنسة وألمانية، وأخضع يوحنا رئيس أساقفة رابينة بعد مشادة عنيفة.^{٤٠}

^{٣٥} واللفظ لسيادة متروبوليت بيروت وجبيل كيرىوس فيليبوس، المسرة ١٩٣٧ ص ٢٧٧-٢٧٨.

.Grumel, V., Regestes, 465

.Mansi, XVI, Col. 168 ^{٣٦}

.Grumel, V., Reg. 471 ^{٣٧}

.Grumel, V., Reg. 472 ^{٣٨}

.Duchesne, L., Les Premiers Temps de l'Etat Pontifical, 115, 119 ^{٣٩}

.Amann, E., op. cit., 381-383 ^{٤٠}

وأراد نقولاووس أن يبلغ في الشرق إلى حيث لم تبلغ آمال أسلافه، فكتب إلى فوطيوس يأسف أنه ليس بإمكانه أن يعترف به فوراً، وأن اعترافه سيتوقف على التحقيق الذي سيجرى من قبله في القضية.^{٤١}

المجمع الأول الثاني (٨٦١)

وفي أثناء هذا كله استؤنفت محاربة الأيقونات وذر قرن الشقاق بين الأرثوذكسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة، وهب البولسيون والمانويون يشاغبون، فرأى الفسيلفس ومجلسه الأعلى والبطيريك الجديد أن يجمعوا مجمعاً مسكونياً، وكانت الدعوة إلى هذه المجمع من حق الأباطرة، وقد مارسوها منذ عهد قسطنطين الكبير،^{٤٢} فضمن الفسيلفس رسالته إلى نقولاووس دعوة إلى مجمع مسكوني يعقد في القسطنطينية للنظر في مشاكل كثيرة،^{٤٣} فقبل نقولاووس الدعوة واعترض على أعمال مجمع كنيسة الرسل، ثم اقترح إعادة النظر في قضية أغناطيوس أمام المجمع المسكوني، وبحضور ممثليه الأسقفين رادولدو وزخريا؛ ليتسنى له الاطلاع على الحقيقة والعمل بموجب القوانين المرعية الإجراء، وأشار — بعد هذا — إلى تعدي لاوون الأسوري على حقوق البطريركية الرومانية وطلب إعادة ما سلخ عنها، وشمل هذا الطلب أبرشيات كلابرية وصقلية وأيرية ومقدونية وتسالية وأخية وداقية وميسية وبريفاليتانية،^{٤٤} ويرى الأب إميل أمان أن اللوم في هذا التوسع في الطلب يجب أن يقع على أنسطاسيوس سكرتير البابا لا على نقولاووس نفسه.^{٤٥} والتأم المجمع في ربيع السنة ٨٦١ فأعلن بولس متروبوليت قيصرية قبدوقية في الجلسة الأولى أنه لا حاجة لإعادة النظر في قضية أغناطيوس؛ لأنه خلع لذنوب اقرتها، وأن كنيسة القسطنطينية تعتبر مشكلة أغناطيوس قضية مفروغاً منها، ولكن إكراماً للقديس بطرس وللأب المسكوني الأقدس نقولاووس لا مانع من النظر في هذه ثانية،^{٤٦} ومثل

^{٤١} Jaffé-Wattenbach, 2682, Epistolae, VI, 433

^{٤٢} Dvormik, F., De Potestate Civili in Conciliis Oecumenicis

^{٤٣} Dvornik, F., Photian Schism, 70-71

^{٤٤} Jaffé-Wattenbach, 2683; Epistolae, VI, 439

^{٤٥} Amann, E., Ep. Car., op. Cit., VI, 472, n. 1

^{٤٦} Dvornik, F., Ph. Sch., 78

أغناطيوس أمام المجمع وحقق معه في كيفية ارتقائه إلى الكرسي، وما إذا كان قد انتخب انتخاباً أو عيّن تعييناً، فأجاب أن امرأة رفعت طراسيوس قبله إلى الكرسي نفسه، فاعترض الفسيفس وقال: «بل قل إنه عيّن في عهد امرأة.» ثم امتنع أغناطيوس عن الحضور في الجلسة الثانية، وفي الجلسة الثالثة أكره على الحضور بأمر الفسيفس، ولما مثل أمام الآباء اعترض على صلاحية ممثلي البابا وسأل: «من هم القضاة الذين ينظرون في قضيتي؟» فأجابه الأسقفان الرومانيان: «هم نحن والمجمع المقدس.» فأجاب: إنه لا يرضى، وأنه سيطلب تدخل البابا، وفي الجلسة الرابعة استجوب المجمع — بناء على طلب ممثلي رومة — اثنين وسبعين شاهداً عن كيفية وصول أغناطيوس إلى الكرسي البطريركي، ثم اتخذ الآباء قراراً بخلع أغناطيوس والاعتراف بفوطيوس ووافقهم على ذلك ممثلاً رومة.^{٤٧}

وبحث المجمع مسألة الأيقونات فأوجب تكريمها، وقاوم فرق الهرطقة بأقوال الروح فاجتذب أكثرها إلى حظيرة المخلص، ووضع قوانين تتعلق بالأديرة والرهبان فحرّم تحويل المساكن إلى أديرة بدون موافقة الأساقفة، وأوجب على الملاكين أن يتنازلوا عن حقوقهم في ملكية هذه المساكن، ومنع المجمع شرطة الرهبان الذين لا يرغبون في الخضوع إلى رئيس معين، وأوجب الإقامة في الأديرة والابتعاد عن السكنى في المنازل الخصوصية، وفرض على كل راغب في الزهد والتقوى أن يتخلص من ممتلكاته قبل دخوله في الرهبنة، ومن أعمال هذا المجمع أن الآباء أقرّوا ألا يقوم بعد ذلك بطيريك من طبقة العوام أو الرهبان ما لم يتمرس في درجات الكهنوت درجة درجة ويتم المدة القانونية فيها.^{٤٨} وقد سُمي هذا المجمع الأول الثاني؛ لأنه عندما بحث أمر الأيقونات هجم محاربوها من الخارج وعطلوا جلساته بالقوة، ثم عاد إلى الانعقاد ثانية فسمي المجمع الأول الثاني.

نقولاووس وفوطيوس (٨٦١-٨٦٧)

وأرسل ميخائيل الثالث أعمال هذا المجمع الأول والثاني إلى البابا نقولاووس مع أحد كتّابه لاوون ومع ممثلي البابا، وزودهم بهدايا كنسية ورسالة منه إلى البابا، وكتب

^{٤٧} Ibid., 80-88; Amann, E., op. cit., 472-473.

^{٤٨} Mansi, XVI, Col. 536-548; Grumel, V., Reg. 466; Deusdedit, Collectio Canonum, (Ed. Glanvell), 604-610.

فوطيوس أيضًا رسالة مملوءة محبة ولطفًا، وبشر الممثلان سيدهما بما أحرزاه من نجاح في إعادة النظر في قضية أغناطيوس، وبما سجّلاه من نصر لرومة في التدخل في شئون كنيسة القسطنطينية، فارتاح نقولاووس لذلك ووافق على الدور الذي لعبه ممثلاه في المجمع الأول الثاني، ووكل إلى الأسقف رانولدو القيام بمهمة جديدة في بلاط الإفرنج في خريف السنة ٨٦٢، واستمر الأسقف زخريا في متابعة أعماله في رومة.^{٤٩}

ولكنه ساء نقولاووس أن ممثليه في المجمع الأول الثاني لم يسجلا أي تقدم في أمر الأبرشيات المسلوخة التي طالب بإعادتها إلى البطريركية الرومانية. وكان فوطيوس قد أشار في رسالته إلى نقولاووس إلى استعداده للاعتراف بحق رومة في هذه الأبرشيات، ولكنه أوضح أن الفسيفس عارض في ذلك، فاستأنس البابا بهذه الإشارات، ورأى أن يؤجل الاعتراف ببطريركية فوطيوس إلى أن ينال ما تمنى من السلطة على هذه الأبرشيات، وكتب إلى كل من ميخائيل وفوطيوس (٨ آذار سنة ٨٦٢) معلقًا اعترافه وموافقته إلى أن يتثبت من بعض الأمور، وكتب بالمعنى نفسه إلى زملائه بطاركة الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم،^{٥٠} ويشك الأب دفورك ما إذا كانت هذه الرسائل وصلت إلى هؤلاء البطاركة في حينها؛ لأن البابا أرسلها بطريق القسطنطينية.^{٥١}

ورأى ميخائيل وفوطيوس أن الثمن الذي حدده نقولاووس كان عاليًا، فصمتا صمتًا طويلًا، وباتا ينتظران تطور الظروف، واضطرب البابا وضاق صدره، وفيما هو ينتظر ورود الجواب أطل عليه وفد الأغناطيوسيين المتطرفين برئاسة ثيوغنوستوس Theognostos، وادعى هذا الوفد أنه يمثل أغناطيوس ويطالب بحقوقه وأغناطيوس براء من هذا كله،^{٥٢} فأصغى البابا إلى أقوال الوفد وظل ينتظر رد فوطيوس وميخائيل، ثم يئس فدعا أساقفته إلى مجمع في رومة في صيف السنة ٨٦٣، فاستمع الآباء إلى تقرير الأسقف زخريا عن أعمال المجمع الأول الثاني، وعن الدور الذي قام به في أثناء انعقاد هذا المجمع، فاعترف زخريا بأنه تجاوز صلاحياته فقطعه المجمع وامتنع عن الاعتراف برسامة فوطيوس. ثم قطع غريغوريوس، وأعلن أغناطيوس بطريركًا شرعيًا

.Dvornik, F., Phot. Sch., 91 ^{٤٩}

.Epist. VI, 440-442 ^{٥٠}

.Dvornik, F., op. cit. 95-96 ^{٥١}

.Dvornik, F., Ph. Sch., 96 ^{٥٢}

على القسطنطينية.^{٥٣} وأغرب ما في أخبار نقولاووس أنه عين زخريا بعد قطعه رئيسًا على دير القديس غريغوريوس، وهذا الدير كان آنئذٍ من أغنى أديار رومة وأهمها! ثم أعاده إلى سابق عهده في رئاسة الكهنوت وفي العمل الإداري الذي كان يقوم به قبل القطع،^{٥٤} أما رانولد فإنه رفض أن يمثل أمام الآباء في المجمع وأيد فوطيوس فوقع تحت الحرم.^{٥٥} ومضى برداس وفوطيوس في العمل معًا لصالح الإمبراطورية والكنيسة، فقضيا على مقاومة الأغناطيوسيين ووطدا الأمن في الداخل، ثم أحسنا السياسة في الخارج فحالفوا رستيسلاف أمير مورافية الكبرى، وهزما جيشًا بلغاريًا كان في طريقه إلى الحدود المورافية، وراب رستيسلاف أمر المرسلين الألمان الذين كانوا يخلطون بين الدين والسياسة في بلاده، فطلب مبشرين أرثوذكسيين يعلمون شعبه الدين القويم، فاحتار فوطيوس الأخوين قسطنطين ومثوذيوس لهذه الغاية، فقاما إلى مورافية في السنة ٨٦٤ وصنفا كتبًا دينية في اللغة الصقلية ونقلوا الإنجيل إليها وبشرا.

وجاء بوغوريس ملك البلغار بعد انهزامه أمام الروم سنة ٨٦٤ إلى القسطنطينية، فاعتمد على يد البطريرك فوطيوس، وسمي ميخائيل في المعمودية باسم أشيبنه ميخائيل الفسيلفس، وعين فوطيوس رئيس أساقفة لبلغارية وقسيسين ومعلمين، وكان نقولاووس قد طالب بمعظم الأراضي البلقانية مدعيًا أن خدمة شعوبها الروحية منوطةٌ بأسقف رومة — كما سبق وأشرنا — فجاء عمل فوطيوس مخالفًا لرغبته، فاشتدت الأزمة الرومانية البيزنطية تعقدًا.

وبعد أن سجلت القسطنطينية هذا النصر المبين في مورافية وبلغارية؛ رأى صاحبها ميخائيل الثالث أن يرد على نقولاووس، فكتب إليه في صيف السنة ٨٦٥ كتابًا مرًا جعل البابا أن يقول عنه إن كاتبه قد غمس قلمه في حلق ثعبان! فلام الفسيلفس البابا بادئ ذي بدء على قلة تقديره للتضحية التي قدمتها كنيسة القسطنطينية في سبيل السلم والوئام، فأبان له أن مشكلة أغناطيوس مسألة داخلية إدارية لا تمت إلى أمور العقيدة بصلة، وبالتالي فإنه لا يحق لرومة أن تتدخل فيها. وأضاف الفسيلفس: أنه على

^{٥٣} Epist. VI, 517–523

^{٥٤} Pat. Lat. Vol. 75, Col. 236

^{٥٥} Epist. VI, 561–562

الرغم من هذا فإن كنيسة القسطنطينية نزلت عند رغبة البابا، وسمحت بإعادة النظر في قضية أغناطيوس أمام ممثليه في المجمع، وأكد الفسيفس أن الموجب لدعوة هذين الممثلين إلى المجمع إنما كان للنظر في أمر الأيقونات، ثم اتهم الفسيفس ثيوغنوسطوس بالتحريض والمشغبة، وأمر البابا أن يرسل ثيوغنوسطوس وأعوانه إلى القسطنطينية للتحقيق، وهدد بإحضارهم بالقوة إذا اقتضى الأمر،^{٥٦} فغضب البابا لكرامته — وكان سريع الغضب — وكتب في الخامس والعشرين من أيلول سنة ٨٦٥ رسالة أصبحت فيما بعد موضوع اهتمام عند علماء الجدل،^{٥٧} وأهم ما جاء فيها: أن السيد له المجد هو الذي خص بطرس بهذه الصلاحيات الواسعة، وأن بطرس منحها خلفاءه من بعده، وأن رومة وحدها تفخر بإقامة بطرس وبولس فيها ووفاتها ضمن أسوارها، وأن بعد رومة تأتي الإسكندرية وأنطاكية، أما القسطنطينية فإنها اضطرت أن تستورد رفات أندراوس ولوقا وتيموثاوس، وأضاف البابا أن هذه الامتيازات التي تمتعت بها رومة تمنحها حق الإشراف على كنيسة القسطنطينية،^{٥٨} وذهب نقولاووس إلى أبعد من هذا فحصر في نفسه حق الدعوة إلى المجمع، فاصطدم بالعرف والتقليد الشرقيين اللذين جعلوا الدعوة لانعقاد المجمع من صلاحيات الإمبراطور وحده.

انبثاق الروح القدس

وفي السنة ٨٦٦ هجم لويس الألماني على بوغوريس البلغاري وغلبه، فطلب البابا نقولاووس إلى لويس أن يدفع بوغوريس إلى طلب معلمين روحيين من البابا، فبادر البابا إلى إرسال قسيسين إلى بلغارية، فطعن القسيسون الباباويون بفوطيوس وأعادوا معمودية من سبق أن اعتمدوا على يد قساوسة الروم، وقالوا بصوم السبت وفضلوا الأسبوع الأول من الصوم الكبير، وسمحوا بتناول الألبان وأكل الجبن فيه، وكرهوا البلغاريين بالقسوس المتزوجين زيجة شرعية، وعلموا أن الروح القدس منبثق من الآب والابن.^{٥٩}

^{٥٦} .Epist. VI, 457–479

^{٥٧} .Lammer, H., Papst Nikolaus I und die Byzantinische Staatskirche

^{٥٨} .Epist. VI, 474, 484

^{٥٩} .Lettre Encyclique de Photius, P. G., Vol 102, Col. 721–741; Grumel, V., Reg, 481

ولا يخفى أن كنيسة إسبانيا كانت قد بدأت تقول بانبثاق الروح القدس من الأب والابن منذ أواخر القرن السابع، وأن هذا القول كان قد شاع في بعض كنائس الغرب في النصف الثاني من القرن الثامن، ولكن كنيسة رومة كانت قد وازبت على القول بانبثاق الروح القدس من الأب فقط كما جاء في دستور نيقية، ولم تقبل إضافة العبارة «والابن» Filioque قبل القرن الحادي عشر، ولنا دليل واضح على هذا في موافقة البابا نقولاووس نفسه على الاعتراف بالإيمان الذي أورده فوطيوس في السنة ٨٦٠ في رسالة الجلوس؛ ففوطيوس قال في هذه الرسالة: «وبالروح القدس المنبثق من الأب».^{٦٠} ونقولاووس أكد في الثامن من آذار سنة ٨٦٢ أن اعتراف فوطيوس كان مستقيماً كل الاستقامة.^{٦١}

دعوة إلى مجمع مسكوني (٨٦٧)

ورأى الفسيفس في وصول اللاتين إلى بلغارية خطرًا على سلامة الدولة، ورأى فوطيوس في التعاليم خروجًا يجب بحثه في مجمع مسكوني، ورأى أيضًا في الرسائل التي وردت عليه من بعض الأوساط الإكليريكية الغربية تدمرًا من سلوك نقولاووس وسياسته ما يوجب دعوة الآباء إلى مجمع مسكوني، فوجه فوطيوس في السنة ٨٦٨ منشورًا إلى بطاركة الشرق وأساقفته جاء فيه: «إن إبليس لا يشبع من الشر، وإن رجالًا كانوا قد نبغوا في ظلام الغرب نزلوا في الآونة الأخيرة في بلغارية نزول الصاعقة، وقفزوا قفز الوحوش ودخلوا كرم الرب المغروس جديدًا، فرعوه وأبادوه بأرجلهم وأسنانهم، واحتالوا على البلغاريين فنقلوهم إلى صوم السبت، وفصلوا الأسبوع الأول من الصوم الكبير عن جسم الصوم وجذبوهم إلى شرب الألبان وأكل الجبن فيه والشراهة. وجعلوهم يمقتوا القسوس الأفاضل المتزوجين الزيجة الشرعية — كهنة الله الحقيقيين — ولم يخشوا أن يعيدوا ميرون الميرنين من القسوس، داعين أنفسهم أساقفة مدعين أن المسحة التي يتممها القسوس باطلة لا نفع لها، فإنهم يقولون: لا يجوز للكهنة أن يقدسوا المكملين بميرون؛ لأن هذه الشريعة خست برؤساء الكهنة، ولم يقفوا عند هذا الحد من مخالفة الشريعة، فإنهم شرعوا بوقاحة زائدة في نغل الدستور الشريف المقدس فعلموا بأن الروح

^{٦٠} P. G., Vol. 102 Col. 589

^{٦١} Epist. VI, 440

القدس ينبثق لا من الأب فقط، بل من الأب والابن، فمن ترى سمع من الكفرة أنفسهم قولاً مثل هذا، مَنْ مِنَ المسيحيين يطبق أن يُدخل في الثالث الأقدس علتين فيقول إن الأب علة الابن والروح ثم إن الابن علة الروح فيحل الرئاسة الواحدة الإلهية إلى اثنين، ويمزق تعليم المسيحيين في الله، فمن أين سمعت هذا ومن أي إنجيلي جاءك هذا الصوت؟ فربنا وإلهنا قال: الروح الذي من الأب ينبثق.»^{٦٢} ثم يوضح فوطيوس أن القول بأن الأب علة الابن والأب والابن معاً علة الروح؛ يوجب أن يكون الأب والابن والروح علة لأقنومٍ رابع، والأربعة لخامس إلى ما لا نهاية له، وأيضاً أن الانبثاق من الأب كاملٌ ولا حاجة إلى القول بأكثر منه؛ فإن كل ما يُقال في الثالث المتساوي في الطبيعة والجوهر إما أن يكون عامماً للثلاثة أو خاصاً بواحد منهم، فإن كان صدور الروح لا عامماً لهم ولا خاصاً بواحد منهم ينتج أنه ليس انبثاقٌ للروح في الثالث رئيس الحياة الكلي الكمال.^{٦٣}

واجتمع الآباء الشرقيون في القسطنطينية سنة ٨٦٧ واشتركوا في أعمال المجمع المنشود، وحكموا على البابا نقولاوس وقطعوه ونادوا بلويس الثاني إمبراطوراً،^{٦٤} وهذا جُلُّ ما يجوز قوله عن هذا المجمع، فأعماله ضائعةٌ ومعظم ما يقال عنه في بعض المراجع الغربية مأخوذٌ عن أعداء فوطيوس ومناظريه،^{٦٥} وهو بالتالي ناقص في العدالة لا يصلح وحده لإثبات الحقائق التاريخية، ولا يجوز — والحالة هذه — القول مع من قال: إن بطاركة الشرق لم يرسلوا نواباً عنهم، وإن فوطيوس نفسه «عين ثلاثة رهبان من أتباعه من الرعايا الأريدياء الموافقين لرأيه الفاسد لينوبوا عن البطاركة».^{٦٦} ولعل الأفضل أن نقول مع الأب إميل أمان: إن الأبوكريساريوس الثلاثة الموجودين في القسطنطينية أنشد لتمثيل البطاركة الشرقيين نابوا عن رؤسائهم في هذا المجمع.^{٦٧}

^{٦٢} P. G., Vol. 102 Col. 721–741. واللفظ العربي لجراسيموس متروبوليت بيروت الانشقاق، ج ١، ص ٤٨٢–٤٨٩.

^{٦٣} Jugie, M., De Processione Spiritus Sancti, Rome, 1936

^{٦٤} Dvornik, F., Phot. Cch. 120–121; Metrophanes, Mansi, XVI, Col. 417

^{٦٥} Liber Pontificalis (Duchesne), II, 178 ff; Anastasius, Mansi, XVI, Sessions VII–IX

^{٦٦} Hefelé–Leclercq, IV, 532

^{٦٧} Amann, E., Affaire de Photius, op. cit., VI, 481–482

رد نقولاووس

وخشي نقولاووس المناداة بلويس الثاني إمبراطورًا في المجمع، ولس خطرًا مدهمًا يهدد نفوذ الكنيسة الرومانية، وساءت حالتهُ الصحيةُ في صيف السنة ٨٦٧؛ فأمر بتوحيد الجُهود للرد على فوطيوس، وطلب — بصورة خصوصية — إلى عالم الكنيسة الغربية هنكمار Hincmar رئيس أساقفة ريمس أَنْ يُسَخَّرَ عُلُومُهُ التاريخيةَ لهذه الغاية، وظهرت ردودُ أهمُّها في تاريخ الكنيسة مصنف راترامنه Ratramne في الانبثاق،^{٦٨} وتوفي نقولاووس في الثالث عشر من تشرين الثاني سنة ٨٦٧ دون أن يعلم النتيجة.

انقلاب في القصر (٨٦٧)

وكان ميخائيل قد عطف على فارس مغوار استرعى نظره حينما نذل مهراً جامحاً، فأحبه وجعله أمير أخورة وهو باسيليوس مؤسس الأسرة المقدونية، وكان باسيليوس ذكياً نشيطاً قديرًا، ولكنه كان طموحًا ملاقًا، فما أن أصبح عالمًا بأحوال البلاط حتى أيد برداس ضد أخته ثيودورة، ثم أيد فوطيوس ليبعد عن الفلسف كاتم أسرار عاقلًا فاضلاً، ثم نصب لبرداس المكاييد وغدر به، وفي الرابع والعشرين من أيلول سنة ٨٦٧ هجم على ميخائيل نفسه وقتله في قصره.

ولم يرض جمهور الشعب عن ميخائيل ولم يفرح بالانقلاب سوى الزرق المتطرفين، فاضطر باسيليوس أن يداري هؤلاء ويداورهم، فأوعز إلى فوطيوس خصمهم أن يستعفي ففعل في اليوم الأول بعد الانقلاب، وفي الثالث من تشرين الثاني عاد أغناطيوس إلى الكرسي البطريركي،^{٦٩} وكان باسيليوس قد اشترك في أعمال المجمع الذي قطع نقولاووس فرأى من الحكمة أن يسرع في إعلام رومة بما تمَّ في بطيركية القسطنطينية.

وكانت السيادة في البحر المتوسط قد استقرت في يد المسلمين، وكان هؤلاء قد استقروا في صقلية وباري وترنتوم، وكانوا يغيرون من هذه القواعد على سواحل الأديرياتيك الشرقية وسواحل إيطالية الجنوبية فيرعبون سكانها ويعرقلون تجارتها،

Contra Graecorum Opposita Romanam Ecclesiam Infamantium Libri Quatuor, P. L.,^{٦٨}
.Vol. 121, Col. 225-346

^{٦٩} ولم يمسح فوطيوس الفلسف فسيلفًا، وإنما كان قد مسحه قيصرًا في أيام ميخائيل، فاكتفى باسيليوس بذلك ولم يجر مسكًا جديد. Dvornik, F., Phot. Sch. 132-137.

فأدى اندفاع باسيليوس في درء الخطر الإسلامي إلى تقرب من البابا وتعاون مع الإمبراطور الغربي لويس الثاني.

المجمع القسطنطيني التاسع (٨٦٩-٨٧٠)

ورغب الفسيفس الجديد في تسوية تعيد الوحدة إلى الصفوف في عاصمته، وعلمت رومة بهذه الرغبة، ولكنها توجست خوفاً مما جرى في مجمع السنة ٨٦٨ من تذامر الآباء الشرقيين في محاكمة بابا رومة وقطعه، وكان الآباء الغربيون قد عظموا الرئاسة ووقروها، فجعلوها فوق حكم البشر،^{٧٠} فتبنى أدرينانوس الثاني (٨٦٧-٨٧٢) وجهة نظر نقولاووس، ودعا الأساقفة إلى مجمع في كنيسة القديس بطرس في العاشر من حزيران سنة ٨٦٩،^{٧١} فرفض الآباء قرارات المجمعين القسطنطينيين اللذين عُقدتا في السنة ٨٥٣ والسنة ٨٦١ وحرموا فوطيوس وعضوا النظر عن هفوات الآباء الذين اشتركوا في أعمال مجمع السنة ٨٦٧، ولكنهم أوجبوا إبعادهم عن مراكزهم الإكليريكية، ووافقوا على اقتراح باسيليوس الذي قضى بعقد مجمع مسكوني في القسطنطينية، ولكنهم أوجبوا على هذا المجمع قبول قراراتهم هذه دون إعادة نظر.

وافتح المجمع أعماله في الخامس من تشرين الأول برئاسة بانس أحد كبار رجال البلاط،^{٧٢} وبحضور الوفد الروماني وممثلي البطاركة الشرقيين الثلاثة توما متروبوليت صور وإيليا كاتم سر البطريرك الأورشليمي والأرشدياكون يوسف نائب البطريرك الإسكندري،^{٧٣} واثنى عشر أسقفًا قسطنطينيًا، فلمس الرومانيون لمس اليد مبالغة ثيوغنوسطوس في أهمية الحزب الذي كان يؤيد أغناطيوس، ثم تكاثر عدد الأساقفة بنسبة تعاضم الضغط من القصر حتى بلغوا المائة في الجلسات الأخيرة، وعلى الرغم من توصيات المجمع الروماني بوجوب الاكتفاء بتصديق قراراته والابتعاد عن كل بحث في مواضيعها، فإن بانس أصر على استدعاء فوطيوس وأعوانه الإكليريكيين وعلى استماع ما يقولون في الدفاع عن أنفسهم، فاحتج الوفد الروماني على هذا الاستماع ثم وافق،

^{٧٠} "Prima Sedes a nemine judicatur".

^{٧١} Mansi, XVI, Col. 372 ff

^{٧٢} Dvornik, F., Phot. Sch. 147

^{٧٣} Hefelé-Leclercq, IV, 492 ff

فطلب فوطيوس للمثول ففعل، ثم طلب إليه أن يجيب عما وجّه إليه من انتقاد فرفض بعزة وأنفة، فقطع هو وجميع أتباعه وكسرت قرارات بطريركيته، وفرضت رومة طاعتها فرضاً، فجاء في القانون الثالث عشر أنه: «إن جسر أحد أن يتمثل بفوطيوس وديوسقوروس ويكتب كتابة، أو يقول قولاً يحطُّ من كرامة كرسي بطرس هامة الرسل فليكن محروماً مثلهما.»^{٧٤}

ولكن هذا الانتصار لم يدم إلا قليلاً، ففي غد اليوم نفسه الذي انتهت فيه أعمال هذا المجمع (٢٨ شباط سنة ٨٧٠) تقدم بوغوريس ملك البلغار بطلب إلى المجمع يرجو فيه البت فيما إذا كانت الكنيسة البلغارية تابعة لرومة أو للقسطنطينية، فعقد أعضاء المجمع اجتماعاً خاصاً لهذه الغاية، ووجد رُسل رومة أن باسيليوس وأغناطيوس لم يكونا أقلّ تمسكاً بالكنيسة البلغارية، وبوجوب دوام خضوعها لكرسي القسطنطينية من برداس وفوطيوس. وعلى الرغم من احتجاج رسل البابا فإن باسيليوس وممثلي بطاركة الشرق أقرّوا خضوع الكنيسة البلغارية لسلطة البطريرك المسكوني، وأسرع أغناطيوس فسام عليها رئيس أساقفة يونانياً يعاونه عشرة أساقفة يونانيين، واضطر الكهنة الرومانيون ورؤسائهم أن يغادروا بلغارية.

ويتضح مما تقدم أن موقف البطريركيات الشرقية في معضلة فوطيوس هذه كان مرتبطاً بموقف الفسيلفس، فالبطاركة قاوموا فوطيوس إرضاء لباسيليوس الفسيلفس لا اعترافاً «بسلطة» نقولاووس وأدريانوس أو امتثالاً لأوامرهما؛ فالكنيسة الشرقية كانت — ولا تزال — تعتبر المجمع المسكوني صاحب السلطة الأولى في الكنيسة، ورئيس الكهنة فيها لا يعلو عليه رئيسٌ من حيث درجة كهنوته، سوى المجمع (قانون الرسل). ولو كان الدافع لمقاومة فوطيوس انصياع هؤلاء البطاركة لأوامر رومة لَمَا خالفوها في قضية بلغارية في غد اليوم نفسه الذي وقعوا فيه قرارات مجمع القسطنطينية.

اضطهاد فوطيوس والإفراج عنه (٨٧٠-٨٧٣)

وأمر باسيليوس بنفي فوطيوس فأبعد إلى دير سكاابي في البوسفور، ووضع تحت رقابة فرقة من الجُند، واعتراه مرضٌ ثقيلٌ فلم يسمحوا بطبيب يعالجه أو صديق يعزيه، وعزّوه

^{٧٤} Ibid, 522

من الكُتُب والأوراق، ولم يسمحوا له بالكتابة إلا نادراً. وظل فوطيوس على هذه الحال ثلاث سنوات ونيف، ثم كتب رسالته المائتين والإحدى والثمانين إلى باسيليوس فقال:

لا أذكرك بالصدقة القديمة، ولا بالأقسام الرهيبة، ولا بمسحك وسيامتك قيصراً، ولا بالرباط الذي ربطنا به تبني ابنك الصالح؛ بل إنني أذكر بحقوق البشر؛ فملوك الأعاجم واليونان كانوا إذا حكموا بالموت نفذوا ولم يتركوا من حكموا عليهم أن يموتوا جوعاً وخنقاً بالعذاب. أما نحن فإننا نعيش عيشة أمر من الموت؛ فإننا قد حُرمتنا الأقارب والخُدّام والمعارف، ثم الكتب، وهذا — لعمري — أمرٌ جديدٌ، وقصاص غريب! وهل ترغبون أن لا نسمع كلام الرب؟ لا سمح الله أن تتم في عهدك اللعنة القائلة: «ويكون في تلك الأيام جوع خبز وجوع لاستماع كلمة الرب» ... فلا نطلب منك كرسيّاً ولا مجداً ولا سعادة ولا رفاهة، بل ما يسمح للمسجونين ... فلا تسمح بأن يضاف في ترجمة حياتك أن ملكاً موصوفاً بالحلم والرفقة أسلم إلى المنفى والجوع رئيس كهنة كان صديقاً له وشريكاً، وأنه فيما كان رئيس الكهنة يصلي من أجله دفعه إلى الموت.

المجمع القسطنطيني العاشر (٨٧٩-٨٨٠)

وحافظ الأساقفة والكهنة أصدقاء فوطيوس على عهودهم له ووفوا، فاضطر أغناطيوس أن يرسم غيرهم للقيام بالخدمات الروحية، فلم يلاق العدد الكافي من أصحاب اللاياقة، فكتب باسيليوس إلى أديانوس في ذلك ورجاه أن يعدل موقفه ممن رسم على يد فوطيوس فأبى،^{٧٥} وحذا حذو أديانوس خلفه يوحنا الثامن (٨٧٢-٨٨٢).^{٧٦} وأصبحت كنيسة القسطنطينية كنيستين أغناطيوسية وفوطيوسية،^{٧٧} وكان الجيش لا يزال يذكر انتصاراته على يد برداس وميخائيل ويعتز بها، فاضطر باسيليوس أن يتقرب من فوطيوس وأعوانه ومؤيديه، وأن يشركهم في الحكم.^{٧٨}

^{٧٥} Mansi, XVI, Col. 203, 204

^{٧٦} Dvornik, F., Ph. Sch. 155 ff

^{٧٧} P. G., Vol. 102, Col. 900, 757 f

^{٧٨} Dvornik, F., Ph. Sch., 162-163

فدعا الفسيفس البطريرك من منفاه في السنة ٨٧٣ وأكرمه إكرامًا عظيمًا، وطلب إليه أن يشرف على تهذيب أولاده قسطنطين وإسكندر ولاون،^{٧٩} ولا نعلم ما إذا كان هذا العفو شمل الأساقفة المنفيين، ولعله لم يشملهم، ولما عاد فوطيوس إلى العاصمة انصرف إلى مولاة أغناطيوس ضنًا بمصلحة الكنيسة، ولعله استسمحه ونال منه الصفح في السنة ٨٧٦، فإنه في كتابه عن الروح القدس يدعو قديسًا، وفي المجمع المسكوني الثامن صرح أنهما تعانقا متسالمين،^{٨٠} ويرى العلماء الباحثون أن أغناطيوس لم يعترض على شرطونية مناظره من الناحية الكنسية، وأنه اعتبره بطريركًا بعد المسألة، وأن فوطيوس مارس السلطة البطريركية في الأشهر القليلة التي سبقت وفاة أغناطيوس، وأن هذا وافق على عودة فوطيوس إلى الكرسي بعده.^{٨١} وتوفي أغناطيوس عن ثمانين عامًا في الثالث والعشرين من تشرين الأول سنة ٨٧٧، فاستلم فوطيوس عكاز الرئاسة في السادس والعشرين من الشهر نفسه.

وكتب فوطيوس في أواخر السنة ٨٧٧ إلى بطاركة الشرق رسائل الجلوس، ودعاهم إلى مجمع مسكوني يُعيد النظر في قرارات مجمع السنة ٨٦٩-٨٧٠، وينظر في أمر الانبثاق، وبات ينتظرُ رسائل السلام، فكتب ميخائيل الثاني الإسكندري يعرب عن فرحه وارتياحه، ويشكرُ الله على النعمة بارتقاء فوطيوس، وأكَّد أنَّ سَلَفَهُ لم يبنذ شركته قط، وكتب ثيودوسيوس الأورشليمي ينعي ما حلَّ بالمدينة المقدسة من خراب ويستنجد بفوطيوس وباسيليوس ثم يقول: «ومن لا يعترف بفوطيوس بطريركًا على المدينة الملكية فليكن محرومًا ولينزل من منصبه». وأظهر ثيودوسيوس الأول الأنطاكي غمَّهُ وأسَفَهُ على الحكم بمجمع السنة ٨٦٩ الذي وقعه توما باسم كنيسة أنطاكية، وطلب الصفح لثائبه وختم رسالته قائلاً: «ومن لا يعترف بفوطيوس بطريركًا يكون ملعونًا من الأب والابن والروح القدس». وأوفد البطاركة قوزمًا وباسيليوس وإيليا لينوبوا عنهم في المجمع المسكوني،^{٨٢} ويلاحظ هنا أن البطاركة لم ينتظروا تعليمات رومة وإرشاداتها قبل الإقدام على الاعتراف ببطريركية فوطيوس، وأنهم لعنوا من لا يعترف بها!

^{٧٩} P. G., Vol. 102, Col. 949, 952, 953

^{٨٠} Dvornik, F., Ph. Sch., 167; Vogt, A., Oraison Funèbre de Basil I, Orientalia Christiana,

.Vol. 27, pp. 62-49

^{٨١} Dvornik, F., Ph. Sch. 172

^{٨٢} Grumel, Reg. 509, 510; Hefelè-Leclerq, IV, 594-596

ثم كتب باسيليوس إلى يوحنا الثامن بابا رومة يُعلمه بارتقاء فوطيوس ويرجو الاعتراف به والاشتراك في مجمع مسكوني للتعاون في جعل الوضع في القسطنطينية قانونياً، وكتب فوطيوس كتاباً لطيفاً وأردفه برسائل السلام التي كانت قد وردت من البطاركة الشرقيين.^{٨٣}

وكان التيار الإسلامي يهدد إيطالية ورومة، وكانت آمال يوحنا الثامن في مساعدة فرنسية أو ألمانية قد خابت، فأكرم هذا البابا الوفد البيزنطي الذي حمل رسائل الجلوس، وأظهر ارتياحاً لِمَا تَمَّ في القسطنطينية، ووافق على رُجُوع فوطيوس إلى منصبه، وألغى المجمع السابقة التي عُقدت ضده، وطلب لقاء ذلك أن لا يتدخل فوطيوس في أبرشية البلغار، وألا يرتقي علماني بعد ذلك عرشاً أسقفياً، وأن يعتذر فوطيوس نفسه عما مضى أمام المجمع، وعين البابا الكردينال بطرس نائباً عنه وحمله رسائل إلى باسيليوس وفوطيوس، وبطاركة الشرق وأساقفة الكرسي القسطنطيني وإلى الأغاناطيوسيين وإلى النائين الرسولين الأسقفين أوجانس وبولس اللذين كانا قد أرسلوا إلى القسطنطينية قبل ارتقاء فوطيوس للبت في القضية البلغارية، والقضاء على البطريرك أغناطيوس إذا لم يرفع ولايته عن بلغارية، وأردف هذه كلها بكتاب التعليمات *Commonitorium*.^{٨٤}

ووصل الكردينال بطرس إلى القسطنطينية، فاشترك في المفاوضات التمهيدية التي كانت قد بدأت بين زميله الأسقفين أوجانس وبولس وبين البطريرك فوطيوس، واتفق الطرفان في جميع الأمور التمهيدية، ولم يَختلفا إلا في أمر اعتراف فوطيوس بخطئه أمام المجمع، فالبابا كان قد جعل هذا الاعتذار شرطاً أساسياً للاعتراف ببطريركية فوطيوس، وفوطيوس رأى أن ما قاله في مجمع السنة ٨٦٧ ضد نقولاووس جاء رداً على تدخل هذا الحبر في شئون كنيسة القسطنطينية الداخلية، وأنه إذا كان قد تجاوز حدود الدفاع عن النفس في ما قاله في هذا المجمع فإن ممثلي رومة تجاوزوا حدود القانون في الحكم عليه قبل التحقيق والتدقيق، وأضاف فوطيوس أنه اعتذر لأغناطيوس نفسه وتسالم معه، ورأى الوفد الروماني في تنازل فوطيوس وباسيليوس عن أبرشية البلغار، وفي استعداد

^{٨٣} Doelger, Reg, 497; Grumel, Reg. 513

^{٨٤} Jaffe-Wattenbach, 3271–3276; Mansi, XVII, Col. 468–473; Epist. VII, 188 ff

الفسيفس بالتعاون في صدّ المسلمين عن إيطاليا ورومة ما يبرر التراجع عن أمر الاعتذار موضوع البحث، فوافقوا على ذلك وتحملوا مسئولية هذا العمل تجاه الحبر الروماني.^{٨٥} والتأم المجمع في أوائل تشرين الثاني سنة ٨٧٩ في كنيسة الحكمة الإلهية مؤلفاً من ثلاثمائة وثلاثة وثمانين أسقفًا خاضعين لفوطيوس ما عدا نواب رومة والإسكندرية وأنطاكية وأورشليم، وتغيب الفسيفس عن الحضور بداعي الحزن على ابنه قسطنطين فترأس الجلسات فوطيوس نفسه،^{٨٦} وبعد تبادل السلام بين فوطيوس ونواب الكنائس الشقيقة ألقى خطبة الافتتاح زخريا متروبوليت خليدونية، فأوضح أسباب الاضطراب وذكر المصائب التي حلت بفوطيوس، ثم وجه كلامه إلى نواب رومة فقال: «لقد عقد هذا المجمع لأجلكم ولأجل كنيسة رومة المقدسة كي لا يقول المشاقون إنكم رؤساء القلاقل والاضطرابات، لقد حسم الخلاف بنعمة الله، وبسعي إمبراطورنا محب المسيح، وبصلوات بطيركنا اللائق للقداسة، وبالتفاهم الذي تم بين البطاركة الشرقيين الثلاثة، وبصلوات البابا يوحنا اللائق بالقداسة وتضرعاته.»^{٨٧} فأمن المجمع لكلامه، وقال الكردينال بطرس: «والبابا يوحنا يشارك فوطيوس في الرأي؛ ولهذا السبب أرسل له بدلة رئاسة الكهنوت.» ثم ختمت الجلسة بالدعاء لجميع البطاركة.

وفي الجلسة الثانية في الثالث عشر من تشرين الثاني قرئت رسائل البابا إلى الفسيفس وإلى فوطيوس، وقد اختلف العلماء مدة طويلة من الزمن في صحة نصها، فقال الأرثوذكسيون منهم بصحة النص اليوناني كما ورد في أعمال المجمع، وقال الغربيون بتشويه النص الأصلي وانهما فوطيوس نفسه بهذا التشويه واعتمدوا النصوص اللاتينية الباقية، ثم قضت العناية بأن ينبري لبحث هذه الرسائل وتدقيقها عدد من جلة علماء الكنيسة اللاتينية الشقيقة، نخص بالذكر منهم الأب إميل أمان مدير موسوعة اللاهوت الكاثوليكية، والأب فرنسيس دفورنيك أستاذ التاريخ الكنسي في جامعة براغ، والأبوين غرومل ولوران، ونظر هؤلاء العلماء في التفاوت بين النصين اليوناني واللاتيني فلم يثبت القول بالدس على فن النقد الحديث، وارتأى الأب أمان أن يكون الوفد البيزنطي قد اطلع على نصوص الرسائل الباباوية بعد إدراج أصلها في السجل، فلما لم يجدوها

^{٨٥} Dvornik, F. Ph. Sch. 180-181.

^{٨٦} Ibid., 189.

^{٨٧} Mansi, XVII, Col. 385 f.

موافقةً للتفاهم والاتحاد عرض أن تعدّل فعدّلت فحملها الكردينال بطرس معدلة إلى القسطنطينية فقرئت معدلة وضمت إلى أعمال المجمع بنصوصها المعدلة،^{٨٨} وعُني سيادة متروبوليت بيروت وجبيل كيريوس فيليبوس في السنة ١٩٣٧ بنقل خلاصة ما كان قد تمّ من هذه الأبحاث إلى العربية، فدبج بيراغ المحبة المسيحية سلسلة مقالات عنوانها: «هل زور فوطيوس رسائل البابا يوحنا الثامن»، ونشرها في أعداد مجلة المسرة لتلك السنة فأجاد وأفاد.

وبعد قراءة هذه الرسائل سأل الكردينال بطرس: هل يقبل المجمعُ فحواها؟ فأجاب المجمعُ أنه يقبل كل ما جاء فيها عن السلام وعن البطريرك، أما ما يتعلق منها بإرادة الفسيفس فالأمرُ فيها له، فقال الكردينال: لقد ورد في كتاب التعليمات الذي أحمل ألا يرسل الشرق بعد الآن أموفوريوناً إلى بلاد البلغار، فذكر فوطيوس ما كتبه إلى البابا نقولاووس وأكد أنه لم يشترطن لكنيسة البلغار أحدًا بعد عودته إلى الكرسي، ثم قال بروكوبيوس قيصرية: إننا نؤمل — برحمة الله ودعاء سيدنا ورئيس كهنتنا — أن تخضع الأممُ كلها لملوكنا المقامين من الله، وحينئذٍ يعينون لكل أبرشية بإلهام من الله، فأمن المجمع لكلامه، وقالوا: إن هذه المسألة ليست روحية بل مدنية، وإنهم لم يجتمعوا ليوزعوا أبرشيات، ثم طرح نواب رومة مسألةً أخرى، فقالوا: وكيف رقي فوطيوس إلى الكرسي قبل وصولهم؟ فأجاب الأساقفة إنه تمّ باتفاق الأساقفة واعتراف البطاركة كلهم، ثم سرد فوطيوس تاريخ بطريركيته مستهلاً بالقول: «إني لم أشته هذا الكرسي مطلقاً.» ثم ذكر انتخاب الأساقفة والكهنة وإلحاح الحكام عليه ثم عزله وشكره الله، وأكد أنه عاد إلى البلاط بدون وساطة، وأن أغناطيوس نفسه أقامه نائبًا بطريركيًا، وأنه لم يقبل عكاز الرعاية ثانية إلا بعد وفاة سلفه وضغط الفسيفس وإلحاح الكنيسة، فقال الأساقفة: «نعم كل هذا جرى تمامًا.» وقرئت رسائل البطاركة وسمع الأعضاء نص الحرم الذي وضعه البطريرك الإسكندري على من مثله في المجمع السابق، وعلموا أن توما متروبوليت صور ندم وطلب الصفح.

^{٨٨} Amann, E., *Affaire de Photius, Fliche et Martin*, VI, 492-493, n. 2; Jean VIII, *Dict. Théol. Cath.*, VIII, Col. 605 ff. Dvornik, F., *Ph. Sch.*, 182 ff.; *Legendes*, 324 ff.; Grumel, V., *Lettres de Jean VIII*, *Echos d'Orient*, 1940; Jugie, M., *Schisme Byzantin*, 120-130

وفي الجلسة الثالثة في التاسع عشر من تشرين الثاني قُرئت رسالة البابا يوحنا إلى بطاركة الشرق، وحُقق في أمر نُوَاب هؤلاء البطاركة الذين اشتركوا في مجمع السنة ٨٦٩، فتبين أنهم إنما مثلوا أمير العرب لا رؤساءهم.

وفي الجلسة الرابعة في الرابع والعشرين من كانون الأول تُلّيت رسائلٌ جديدةٌ من بطيركي أنطاكية وأورشليم، حملها باسيلوس متروبوليت مرتيوبوليس، فتبين منها أن اعتراف البطاركة لم يكن ضروريًا لوصول فوطيوس إلى كرسي الرئاسة،^{٨٩} وتلي كتاب البابا إلى الفسيلفس ونص الكومونيتوريوم فترك البت في قضية بلغارية إلى الفسيلفس، ولا سيما وأن يوحنا وفوطيوس أصبحا أخوين متفقين متحابين، وأعيد البحث في شرطونية العوام، فقاوم الأساقفة اقتراح رومة مقاومةً أشد من الأولى، وألغيت قرارات مجمع أريانوس ومجمع السنة ٨٦٩، وقرر المجمع اشتراك جميع الأساقفة في خدمة القديس في اليوم التالي يوم عيد الميلاد.^{٩٠}

وعاد المجمع إلى العمل في السادس والعشرين من كانون الثاني، سنة ٨٨٠، فأقر في جلسته هذه الخامسة أن يُعتبر المجمع النيقاوي الثاني مجمعًا مسكونيًا، وأن يُعرف بالمجمع المسكوني السابع، وأوفد المجمع ثلاثة من أعضائه إلى متروفانس متروبوليت أزمير لينقلوا إليه رغبة المجمع في اعترافه برئاسة فوطيوس، فاعتذر متروفانس بداعي المرض، فقرر المجمع قطعه من الشركة إلى أن يعترف بسلطة البطريرك، ثم سنَّ المجمع قوانينَ ثلاثة بناء على اقتراح الوفد الروماني، وقضى الأول أن يحرم فوطيوس من يحرمه يوحنا من رجال إكليروسه أو أبناء رعيته المقيمين في أوروبا وآسية وإفريقية، وأن يقابل يوحنا فوطيوس بالمثل، وأن التقدم الذي للكنيسة الرومانية يبقى على حاله بلا إحداث ولا تغيير إن في الحاضر والمستقبل،^{٩١} ومنع القانون الثاني الأساقفة — الذين لجئوا إلى الأديار رهبانًا — عن العودة إلى وظائفهم السابقة، ولعن المجمع في القانون الثالث كل علماني يجراً على ضرب أسقف.

ووقع بولس أسقف أنكونة أولًا، ثم أوجانس، فبطرس، ثم ممثلو البطاركة الشرقيين، ثم سائر أعضاء المجمع، وكان الفسيلفس لا يزال قابلاً في قصره، محزون الصدر لهيف

^{٨٩} Mansi, XVII, Col. 484.

^{٩٠} Mansi, XVII, Col. 475–492.

^{٩١} Ibid., Col. 497.

القلب على فقد قسطنطين، وكان لا بد من موافقته على قرارات المجمع؛ لتُصبح نافذة سارية المفعول، فأَم الأعضاء القصر في الثالث من آذار وخلا الفسيفس بالفود وبثمانية عشر متروبوليتاً وبالبطريك، وقضى العُرف بأن يعلن الآباء إيمانهم، فاقترح باسيليوس إضافة نص الدستور النيقاوي القسطنطيني إلى أعمال المجمع فوافق الرؤساء، فوقف بطرس رئيس الكتبة، وقال: إننا نحافظ على تعليم المسيح وأوامر الرسل وشرائع المجمع السبعة المسكونية وتعاليمها كما تسلمناها، ونرفض ما رفضوه ونقبل ما قبلوه، وعليه: فإننا نقبل بالقلب واللسان دستور الإيمان الواصل إلينا منهم منذ القديم، ونقرأه في كل مكان علناً ولا نحذف منه ولا نزيد عليه ولا نبدل فيه ولا نزيفه؛ لأن هذه كلها من أعمال المحال الخبيث، فالمجمع المقدس المسكوني الحالي يعانق بالشوق الإلهي وباستقامة الذهن دستور الإيمان القديم ويوقره، وعليه يؤسس ويبني حقيقة الخلاص ويهتف للجميع أن يرتثوا ويعلموا هكذا:

أؤمن بإله واحد أب ضابط الكل، خالق السماء والأرض كل ما يرى وما لا يرى، وبربٍّ واحدٍ يسوع المسيح ... إلخ، وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب المسجود له والمجد مع الأب والابن الناطق بالأنبياء ... إلخ.

فهكذا نعتقد وعلى هذا الاعتراف تعمدنا وبه طحنت كل هرطقة، وأما الذين يغيرونه أو يبدلونه أو يمسونه بكلمات غريبة أو بزيادة أو بنقص فبحسب حكم المجمع السابقة المسكونية، إن كانوا من الإنكليروس فليقطعوا قطعاً نهائياً، وإن كانوا من العوام فليحرموا بالأناثيمة.^{٩٢}

فقال الأساقفة: جميعنا هكذا نعتقد، وعلى هذا الاعتراف تعمدنا، وعليه أهلنا لدرجة الكهنوت، فالذين يعتقدون غير هذا الاعتقاد هم أعداء الله والحقيقة. وفي الثالث عشر من آذار اجتمع الأعضاء في كنيسة الحكمة الإلهية فتلي اعتراف الإيمان عليهم، فصدقوا عليه وعلى أعمال الجلسة السادسة، ونادى الجميع أن كل من لا يعترف برئاسة كهنوت فوطيوس لا ينظر مجد الله.

وأدت مشاحنات الانشقاق فيما بعد إلى التطرف في الجدل، فشاع في الأوساط اللاتينية الغربية أن أعمال الجلستين السادسة والسابعة مزورة، وأن فوطيوس نفسه

^{٩٢} Grumel, V., Reg 521.

زورها،^{٩٢} ثم قام الكردينال هرغنروتر Hergenrother وصارح زملاءه في الغرب بأنه ليس في محتويات هذه الأعمال ما لا يتفق وعرف الآباء، وأضاف أن تقاليد القصر في ذلك العهد قضت ببقاء الفسيلفس في قصره في حالة الحزن ستة أشهر كاملة،^{٩٤} والواقع أن الآباء كانوا قد ذبلوا أعمال كل مجمع مسكوني باعتراف بالإيمان سموه هوروسًا horos.^{٩٥} وأنهم اضطروا اضطرارًا في هذه المرة أن يجتمع رؤسأوهم بالفسيلفس في قصره أولًا ليقروا الهوروس وينالوا التصديق، وأن يجتمعوا جميعًا لتلاوة الهوروس والاعتراف به،^{٩٦} وليس في هذا الهوروس ما لا يتفق وتقليد الكنيسة الرومانية آنئذ؛ فإنها كانت لا تزال تقول بالانبثاق من الأب مخالفة بذلك كنائس إسبانيا وغالية.^{٩٧}

يوحنا الثامن والمجمع

ورضي يوحنا الثامن عن فوطيوس واعتبره بطريكًا شرعيًا على كنيسة القسطنطينية وابتهج لحُلُول السلام والوئام في هذه الكنيسة، وحرر إلى باسيليوس وفوطيوس بهذا المعنى،^{٩٨} وظل راضيًا حتى وفاته، ولم يقطع فوطيوس من الشركة مرة ثانية، ولم يقع أيُّ انشقاق آخر بين الكنيستين في أيامه،^{٩٩} وقد ضل بارونيوس وهرغنروتر وهفله وغيرهم من علماء الغرب عندما رأوا أن يوحنا الثامن لم يعترف بفوطيوس نهائيًا، ولم يؤيد حكم هذا المجمع، وأنه أرسل الكردينال مارينس إلى القسطنطينية للتثبت مما جرى، فلما أبلغه هذا أن فوطيوس زور رسائله عاد فحرمه حرماً عظيمًا،^{١٠٠} والسبب في

^{٩٢} Mansi, XVII, Col. 512

^{٩٤} Photius, II, 528–539

^{٩٥} Mansi, XI, Col. 638 f, XIII, Col. 376 f., XVI, Col. 179–184

^{٩٦} Dvornik, F., Phot. Sch., 194–196

^{٩٧} Grumel, V., Le Filioque au Concile Photien, Echos d'Orient, 1930, 257–264; Laurent, V., Le Cas de Photius, 396–415; Dvornik, F., Legendes de Constantin et de Méthode, 324 ff.; Amann, E., Affaire de Photius, Fliche et Martin, VI, 495–496; Jugie, M., Schisme Byzantin, 126–130

^{٩٨} Jaffé-Wattenbach, 3322, 3323; Epist. 227, 229

^{٩٩} Amann, E., Affaire Photius, op. cit., VI, 496–497; Dvornik, F., Ph. Sch., 202–236

^{١٠٠} Hergenrother, Photius, II, 553 ff

هذا التساقط في الضلال أن هؤلاء العلماء اعتمدوا مراجع مغرضة، أهمها مُلحق مجمع السنة ٨٦٩ الذي نشره لأول مرة الأب رادر اليسوعي سنة ١٦٠٤، ثم أدرج فيما بعد في مجموعة هاردوين ومانسي،^{١٠١} وواضع هذا الملحق عدو لفوطيوس، لا تُقبل شهادته بدون تجريح، وقد انفرد في الحرم الثاني، ولم يشر إليه أحدٌ غيره. ولنا في أقوال الثناء التي فاه بها فوطيوس مادحًا يوحنا بعد المجمع؛ ما يؤيد دوام المحبة والوفاق بين هذين الحبرين، فقد دعا فوطيوس يوحنا الثامن «قديسًا» في رسالة وجهها إلى رئيس أساقفة أكليا في السنة ٨٨٤، وجاء في كتاب فوطيوس عن الروح القدس ما معناه: «أما يوحنا فإنه خاصتي، ويحق لي أن أدعوه هكذا لأسباب كثيرة أهمها أنه انتصر لي أكثر من غيره، وهو قويٌّ بعقله وتَقْواه وبغضه للظلم والكفر، وهو خَلِيقٌ بأن يدير الشرائع المقدسة والشرائع السياسية، وأن يرد كل شيء إلى النظام، وهو الذي ثبت بواسطة نوابه قرارات المجمع فيما هو من قانون الإيمان.»^{١٠٢}

ولم يَحِدْ خلفاء يوحنا عن خطته هذه، ولم يقطع أحدُهم فوطيوس عن الشركة، وهو قولٌ يؤيدُهُ رجالُ الاختصاص وجمعون عليه، والشقاق الثاني وَهْمٌ قضى عليه العلم النزيه وَبَدَهُ التاريخُ الصحيح.

سنو فوطيوس الأخيرة (٨٨٦-٨٩٧)

وتُوفي باسيلوس الفسيلفس في السنة ٨٨٦، فخلفه ابنه لاوون السادس الملقب بالحكيم، (٨٨٦-٩١٢)، ولدى ارتقائه دَسَّ أعداء فوطيوس الوسوس وأقنعوا الفسيلفس الجديد أنَّ الواشيَ به لأبيه كان ثيودوروس الساحر، وأشركوا مع هذا بالتهمة فوطيوس نفسه، فعزل لاوون فوطيوس؛ إما لأنه صدق الوشاية، أو لأنه أحب أن يُجلس أخاه اسطفانوس بطيريركا، أو للأمرين معًا. ونفى لاوون فوطيوس إلى دير الأرموريين، ففضى البطيريرك العظيم سني حياته الأخيرة في المنفى بعيدًا عن أصدقائه معتزلاً، وتُوفي بعد ذلك بنحو عشر سنوات، ولا نعلم شيئًا عن هذه السنوات الأخيرة التي قضاها فوطيوس في الوحدة.

^{١٠١} Mansi, XVI, Col. 409 ff.

^{١٠٢} هل عاد فوطيوس إلى الكتلثة لسيادة متروبوليت بيروت وجبيل كيريس فيليبوس؟ مجلة المسرة سنة ١٩٣٨ ص ٧٥-٧٦، 380، 820، Vol. 102, Col. P. G.,

تطويبه

ولا نعلم بالضبط متى طوب فوطيوس، أو مَنْ طَوَّبَهُ، وليس في هذا النقص في المعلومات ما يدعو إلى التحدُّر والْتِيقُظ، فالتطويب في الكنيستين اليونانية واللاتينية كان لا يزال عملاً فردياً — في غالب الأحيان — ولم يكن منوطاً برئيس الكنيسة وحده، بل كان مباحاً لأي أسقف من الأساقفة أن يطوب من يراه لائقاً بالتطويب،^{١٠٢} وحَصُرَ تطويب فوطيوس بين السنتين ٩٦٦ و٩٩٨ وجعله في عهد البطريرك سيسينيون؛ هو اجتهادٌ — في حد ذاته — قام به الأب مرتينوس جوجي،^{١٠٤} وجل ما يجوز قوله هو أن اسم فوطيوس يرد مطوباً تطويباً كنسياً كاملاً لأول مرة في سينكساريون في دير الصليب الأقدس في القدس يعود إلى القرن العاشر أو الحادي عشر،^{١٠٥} وأنه بدأ يظهر في هذا الوقت نفسه أيضاً في سنكساريات القسطنطينية،^{١٠٦} ويرى الأب دفورنك أن بعض أتباع فوطيوس بدءوا بتطويبه بعد انتقاله بفترة وجيزة.^{١٠٧}

وبينما نرى سرجيوس والد فوطيوس مطوباً معترفاً homologetes تحت اليوم الثالث عشر من آذار؛ نجد فوطيوس نفسه مطوباً تحت السادس من شباط قديساً عجائبياً thaumatargos، وذلك في سينكساريون باريز رقم ١٢٩٤، والعجبية التي جرت على يده هي اندحار الروس أمام القسطنطينية في السنة ٨٦٠.

لنمدح الآن بأزهار النشائد قيثار الروح القدس اللاهج بالله، كوكب الكنيسة الباهر الضياء، المرشد الإلهي للمستقيمين للرأي، المقاوم للبدع، الكلي الثبات. ولنصرخ نحوه هاتفين: السلام عليك أيها القديس فوطيوس الكلي الإكرام.

أورولوغيون

.Dvornik, F., Phot, Sch., 389 ^{١٠٢}

.Culte de Photius dans l'Eglise Byzantine, Rev. Or. Chrét., 1923, 109 ff ^{١٠٤}

.Papadopoulos-Kerameus, Mon., II, 662 ^{١٠٥}

.Dvornik, F., Ph. Sch., 388-389 ^{١٠٦}

.Ibid. 388 ^{١٠٧}

الفصل التاسع

عَصْرُ الرُّومِ الذَّهَبِيِّ

٨٤٣-١٠٢٥

ضعف الدولة العباسية

واشتد نفوذ الأتراك في بغداد، وعلتْ أصوات الجواربي أمهات الأمراء، وثار العلويون مطالبين بالعرش، ونفر العرب من بني العباس، فتصرف طاهر بن الحسين وخلفاؤه في النفوس لمصلحتهم في خراسان، واستقل حسن بن زيد الديلم في طبرستان وجرجان، وتَغَلَّبَ الصفاريُّون في سجستان وغيرها، وأرادوا مهاجمة بغداد (٨٧٤)، واستطاع أفاق أن يُصبح سيد البصرة، وأن يَمُدَّ سُلْطانه إلى أبواب بغداد. وسلخ أحمد بن طولون التركي مصر والشام وأخذ يجمع الضرائب لحساب نفسه (٨٧٧)، واكتفت بغدادُ بتحريض بعض أمراء الشام عليه، ثم اعترفت دمشق بسلطة خمارويه بن أحمد بن طولون، فقضى على الأحزاب المعادية (٨٨٩) واتخذ دمشق قاعدة للملكه.

فتوحات باسيلوس الأول

واستغل باسيلوس الأول هذا الظرف لصالحه وصالح الروم فقام يحارب على طول الجبهة الإسلامية من شاطئ قيليقية حتى أرمينية وطرابزون، ونجح في دفع المسلمين إلى الوراء في حروب متتالية بين السنة ٨٧١ والسنة ٨٨٢، فاحتل الممرات الرئيسية عبر طوروس وقاتل البولسيين ودخل عاصمتهم تفريقية في السنة ٨٧٢ وذبح خريسوخيروس

صاحبها وعرض رأسه في موكب النصر في القسطنطينية، وفي السنة التالية احتل زبطرة وسميساط، وعند السنة ٨٧٧ كان قد احتل لؤلؤة وجميع ما وقع بين قيصرية ومرعش وأصبح سيد جبال طوروس بسلسلتها وممراتها. وسرّه أن الخليفة المعتمد اعترف في السنة ٨٨٥ بدولة أرمينية مستقلة بزعامة أشوت، فأسرع يعترف هو بدوره بالملك الجديد مؤكّداً أن أرمينية ستظلّ أعزّ حليفات الإمبراطورية.

وأدرك باسيلئوس خطورة الموقف في البحر المتوسط، فإن المسلمين كانوا قد استقروا في صقلية وجنوب إيطاليا، وكان قد تبين جلياً أن الأمراء اللومبارديين لا يقفون على الصمود في وجه المسلمين، وأن الإمبراطور الغربي لوييس الثاني كان قد أصبح ضعيفاً، وكان قد أمّ القسطنطينية وفدان؛ أحدهما يمثل لوييس الثاني والآخر يمثل البابا، ليحثا الفسيلفس على صيانة النصرانية، فهب باسيلئوس في السنة ٨٦٨ وأنفذ أسطولاً قوياً بقيادة نيقيطاس، وقدر النجاح لهذا القائد فأعاد النظام والأمن إلى بحر الأدرياتيك، وعادت مدن دلماتية إلى حوزة الفسيلفس، واعترفت دويلات الصرب والكروات بسيادة القسطنطينية. وضرب نصر السوري بوارج المسلمين ضربات أليمة في مياه إيطاليا الغربية، وأحرز نصراً كبيراً بالقرب من جزر ليبباري، فدخلت كابوا وسالرنو ونابولي وغيرها في حماية الروم، ودخل البابا يوحنا الثامن في حلف مع الروم، وجاءت السنة ٨٨٥ فأحرز القائد نيقيفوروس فوقاس انتصارات برية عديدة، تمكن بها من استعادة مقاطعات إيطاليا الجنوبية من يد المسلمين، فأنشأ في السنة ٨٨٦ ثيمة لانغوبردية وثيمة كلابرية، وقوت الكنيسة الأرثوذكسية أبرشياتها في هذه المنطقة عينها.

لاوون السادس (٨٨٦-٩١٢)

ولم يكن لاوون السادس «الحكيم» رجلَ حرب كوالده فلزم القصر واهتم بشئون السلم والعلم والدين، وسنعود إلى أثره في نظم الكنيسة فيما بعد، وكانت أقریطش قد أصبحت مأوى قرصان المسلمين وملجأهم، وقام لاوون الطرابلسي في السنة ٩٠٤ بهجوم جريء على القسطنطينية، ثم انثنى من تلقاء نفسه على تسالونيكية، وقدر له أن تكون خالية من الحامية فدخّلها عنوةً، وقتل ونهب، ثم سبى اثنين وعشرين ألفاً من الشبان والشابات، فباعهم في أسواق الرقيق في الخندق في أقریطش وفي طرابلس، فهب هيماريوس في السنة ٩٠٦ فانصر على المسلمين انتصاراً كبيراً، وتَشَجَّعَ وتقوى، فقاد في السنة ٩١٠ حملة

بحرية على أقریطش نفسها، فأخفق إخفاقًا كبيرًا، وفي السنة ٩٠١ سيطر المسلمون على مضيق مسينة، وفي السنة التالية تم استيلاؤهم على صقلية، فأعلن أمير القيروان أنه «سوف يخرب مدينة الشيخ الهرم بطرس نفسها».

قسطنطين السابع ورومانوس الأول (٩١٢-٩٥٩)

وتُوفي لاوون السادس في السنة ٩١٢، وكان قد جعل للدولة أباطرة ثلاثة: هو نفسه وأخاه ألكسندروس وقسطنطين السابع الأرجواني المولد، وكان قسطنطين لا يزال في السادسة من عمره، فتسلّم مقاليد الوصاية عمه ألكسندروس، ثم تُوفي هذا في السنة ٩١٣ بعد أن أقام مجلس وصاية برئاسة البطريرك، وفي السنة ٩١٩ احتلّ القائد رومانوس ليكابينوس البلاط، واستحوذ على شخص الفسيلفس الصغير وأزوجه من ابنته، وأعلن نفسه أبا الملك، ثم قيصرًا، ثم فسيلفسًا.

وكان الخلفاء العباسيون لا يزالون مغلوبين على أمرهم؛ لقلّة طاعة الجُند ولشدة نفوذ الخدم، ولدسائس أمهات الأمراء ووشاياتهن ومؤامراتهن، ولشغب الجُند على القادة وتنازُع هؤلاء السيادة، وكان أن شعر الولاة بضعف الخلفاء فانصرفوا إلى جمع المال، فعمد الخلفاء إلى اغتيال الولاة فكثرت العصيان واضطربت الأحوال.

وقبيل انتهاء الحرب البلغارية حطم الروم عمارة لاوون الطرابلسي في مياه لمنوس (٩٢٤) ونجا لاوون نفسه بأعجوبة! وما إن وضعت الحرب البلغارية أوزارها في السنة ٩٢٧ حتى بادر الروم إلى الهجوم وهبّ قائدُهم غرغون Courcouas إلى القتال في آسية الصغرى، فأحرز انتصارات متتالية، وتمكن من جعل دجلة والفرات الحد الفاصل بين الروم والعرب بدلًا من الهاليس، وعاون غرغون في هذه الحروب عددٌ من كبار الضباط قدّر لهم فيما بعد أن ينتصروا هم أيضًا كما انتصر غرغون نفسه، وأشهر هؤلاء ثيوفيلوس بن غرغون وبرداس فوقاس وابناه نيقيفوروس ولاوون، ففي السنة ٩٢٨ احتل الروم أرضروم وأخرجوا المسلمين من أرمينية، وفي السنة ٩٣٤ استولوا على ملاطية، ثم ناوهم سيفُ الدولة صاحب الموصل، وتمكن من إيقاف تقدّمهم، ولكنهم عادوا إلى الهجوم بين السنة ٩٤١ والسنة ٩٤٢، فاحتلوا دارا ونصيبين وميفارقين وقاربوا حلب، وفي السنة ٩٤٤ توج غرغون انتصاراته بأن نقل بموكب فخم «منديل السيد» الذي كان قد احتفظ به أبجر ملك الرها من هذه البلدة إلى القسطنطينية.

دولة الحمدانيين (٩٤٢-١٠٠٣)

ولم يقع أيُّ تمزيق جديد في جسم الدولة العباسية في أيام المعتضد (٨٩٢-٩٠٢) والمكتفي (٩٠٢-٩٠٨)، ولكن في عهد المقتدر (٩٠٨-٩٣٢) عادت الدولة إلى ما كانت عليه من التفكك، ثم أضع القاهر (٩٣٢-٩٣٤) والراضي (٩٣٤-٩٤٠) والمقتي (٩٤٠-٩٤٤) والمستكفي (٩٤٤-٩٤٦) آخر ولاياتهم، فاضمحت بذلك سلطة الخليفة الزمنية بكاملها.

وكان بين الطامعين في الملك والسلطان في أثناء هذا الانحلال بعض القبائل البدوية العربية، ولعل أشهر هؤلاء بنو تغلب؛ فإن كبيرهم الأمير عبد الله بن حمدان تَمَكَّنَ في السنة ٩٠٥ في عهد المكتفي من الاستئثار بالسلطة في الموصل ونواحيها، وتمكن ولداه حسن وعلي في السنة ٩٤٢ من انتزاع اللقبين ناصر الدولة الأول وسيف الدولة الثاني، وتَوَعَّلَ سيفُ الدولة في الجزيرة في السنة ٩٣٧، وفي السنة ٩٤٤ دخل حلب وأسس فيها دولة دامت حتى السنة ١٠٠٣، وبقي ناصرُ الدولة في الموصل يُسَكِّنُ الفتن في بغداد، بينما هَبَّ سيفُ الدولة يمتشق حسام الإسلام في وجه الروم، وما فتئ كذلك حتى أدركته المنية في السنة ٩٦٧.

ولما استقر سيف الدولة في حلب وجعلها عاصمة للملكه وقاعدة لأعماله الحربية تحوَّل القتالُ الرئيسيُّ بين الروم والمسلمين من جبهة أرمينية إلى خطٍّ جديد امتد من قليقية حتى ديار بكر، وانتقلت المبادرة في هذه الحروب إلى الروم. ويرى رجال الاختصاص أن انتصار الروم على المسلمين في القرن العاشر لم يكن نتيجة ضعف العباسيين فحسب، بل إنه نأتى عن تجديد عند الروم وتيقظ وتنشُّط، وأن هؤلاء — وإن اختلفوا في العنصر — فقد اتحدوا في الأرثوذكسية وفي المفاخرة بأمجاد ماضية، وشعروا بوجوب إعادة النظر في أنظمتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وبوجوب إتقان الجيش وتكميله؛ لِيَتَأَتَّى بالفائدة المطلوبة، فالروم في القرن العاشر في نظر هؤلاء كانوا في يقظة ونشاط لا في غفلة وانقسام.^١

وأثقل الحمدانيون كاهل العشائر الضاربة في الجزيرة بالضرائب، وبين هؤلاء بنو حبيب، وكان بنو حبيب تغالبة أيضًا، فشَقَّ عليهم الأمر، فانقبضوا ثم خرجوا

^١ Gelzer, H., Genesis der Byzantinischen Themenverfassung, 8; Canard, M., Dynastie, des Hamdanides, I, 718-719.

للقتال، فجرد عليهم ناصر الدولة في السنة ٩٣٥ فقهروهم، فعولوا على الرحيل فقاموا عشرة آلاف فارس بنسائهم وأولادهم وعبيدهم وقطعوا الحدود والتجئوا إلى الروم وعادوا إلى النصرانية دين الجدود، وحذا حذوهم غيرهم من عشائر الجزيرة.^٢

وفي السنة ٩٣٨ سجل سيف الدولة انتصاره الأول على الروم أمام حصن زياد فدخله عَنوَةً، ثم خرج منه يقاتل فأدركه الروم بين حصن زياد وحصن سلام، فدارت الدائرة على الروم — فيما يظهر — وتغنى أبو فراس بالنصر، وفي السنة ٩٣٩ أنفذ الروم حملة إلى القوقاس لتأديب الكرج؛ لأنهم امتنعوا عن غزو المسلمين على الرغم من كونهم أرثوذكسيين يدينون بدين الفسيلفس، فاستنجد الكرجُ الحمدانيين، فهبَّ سيف الدولة لمعونتهم وأجل الروم عن بلادهم، وفي الربيع التالي تَوَعَّلَ سيفُ الدولة في بلاد الروم فأصبح زعيمَ الجهاد الأكبر وعدو النصرانية عند الروم.

وشغلت سيفَ الدولة ما بين السنة ٩٤٠ والسنة ٩٤٤ مشاغلٌ في عاصمة الخلافة كان محورها السلطة العليا، فانقض الروم على قيليقية في خريف السنة ٩٤٠ ووصلوا إلى منطقة كفر توتة، ثم شغلوا في أوروبة فترجعوا. وعادوا في مطلع السنة ٩٤٢ فانطلقوا في سهول قيليقية حتى حدود سورية، ثم انقض غرغون في خريف هذه السنة نفسها على مقاطعة ديار بكر، فاستولى على ميفارقين — كما سبق وأشرنا — وكان ما كان من أمر المنديل.

وفي السنة ٩٤٤ دخل سيف الدولة حلب وحمص وانتزعاها من يد الإخشيديين، فانطلق الرومُ في منطقة مرعش ومنطقة بغراس حتى مداخل أنطاكية، فرد سيف الدولة بإغارة في منطقة عرابسوس، وجاءت السنة ٩٤٦ فتبادل الخصمان الأسرى عند لامس سلفكية. وفي ربيع السنة ٩٤٨ خرج الروم من ملاطية وسميساط واتجهوا نحو الجزيرة؛ ليستولوا على ممر الحدث مرعش، فصمد سيفُ الدولة في معركة جلباط الوارد ذكرها في إحدى قصائد أبي فراس، وفي الربيع التالي ٩٤٩ ظهر لاوون بن فوقاس أمام الحدث محاصرًا، فدخلها عَنوَةً ودك حصونها، واستولى الروم أيضًا على مرعش وقاتلوا عند أسوار طرسوس، وحملوا على جزيرة أقریطش، ولكن دون جدوى، وفي ربيع السنة ٩٥٠ قام سيف الدولة إلى الجزيرة يتفقد شئونها، فانقض لاوون بن فوقاس على شمال سورية حتى مداخل أنطاكية، وحاصر بوقة في سهل العمق، فهبَّ محمد بن ناصر الدولة لقتاله، ولكنه فشل فشلًا ذريعًا.

^٢ Canard, M., op. cit., I, 741-747

خرشنة والمصيبة (٩٥٠)

وعاد سيفُ الدولة إلى حلب يستعد للقتال، فجمع ثلاثين ألفاً، واصطحب ثلاثة من الشعراء؛ المتبّي وأبا فراس وأبا زهير المهلهل، ونهض إلى مرعش فملاطية، فاحتل صارخة وقتل وسبى وأحرق، وأراد العودة إلى حلب، ثم علم أنّ لاوون بن فوقاس قد حشد في منطقة خرشنة Charsianon فعاد إليه وأنزل به خسارة كبيرة، ثم اتجه نحو الجنوب، فصمد له الرومُ في درب الجوزات بين الألبستان والحدث، ومرّت طلائعُ سيف الدولة ولم يحرك الروم ساكنًا، ثم أقبل سيفُ الدولة فوجد الممر مقطوعًا، فأمطره الرومُ حجارةً وصخورًا وسهامًا، ثم لَحِقَ به الرومُ مرة ثانية وثالثة وأرهقوه، فتفرق عنه رجاله ففرَّ هاربًا نحو حلب، فعُرفت هذه الحرب بغزوة المصيبة.

يوحنا جيمسكي

وفي السنة ٩٥٨ بدت علاماتُ الضعف في مقاومة الدولة، وتسلمَّ قيادة الروم يوحنا جيمسكي Jean Tzimisces «يوحنا شمشيق»، فأحرز انتصاراتٍ متتاليةً في الجزيرة العليا، واحتل أكثر مدنها، ثم حاصر سميساط على الفُرات الأعلى وأنزل بسيف الدولة سلسلة من الهزائم، وبعد السنة ٩٦٠ أضاف الروم إلى ملكهم كل ما وقع شرقي الفُرات، جاعلين من هذه المناطق ثيمة الجزيرة.^٢

احتلال أقریطش (٩٦٠-٩٦١)

وكان لقسطنطين السابع ولدٌ اسمه رومانوس تزوج وهو ابن سبع عشرة سنة بابنة اسمها ثيوفانو، وكانت ثيوفانو تكره العيشة بين حماتها وبنات حميها، فأوعزت إلى زوجها رومانوس فدسَّ السم لوالده قسطنطين، وشرب منه جرعة فلم يعيش قسطنطين إلا سنة واحدة. وكان رومانوس الثاني منصبًا على الشهوات والملاهي، فاتكل على زوجته في إدارة الأمور وعلى رجل اسمه يوسف أبرينكاس Bringas، ولمس أبرينكاس ضعف العرب ورأى الظرف ملائمًا لإرجاع أقریطش إلى حوزة الروم، فأعد نيقيفوروس فوقاس

^٢ Philipson, A. E., Byzantinische Reich, 173

أسطولاً عظيماً وجيشاً كبيراً واقتحم الخندق، فدخلها عَنُوةً في ربيع السنة ٩٦١، ثم استولى على الجزيرة بأسرها، ونقل إليها جاليات يونانية وأرمنية، واستدعى نيقن مطانويتا القديس المبشر ليكرز فيها باسم المسيح وينصّر سكانها المسلمين.

مغارة الكحل (٩٦٠)

وأحب سيف الدولة أن يغتتم هذه الفرصة السانحة فجَهَّزَ ثلاثين ألفاً وقام بهم إلى خرشنة، فأسرع لاوون فوقاس إلى تلال طوروس يسد عليه طريق العودة، وكمن له عند ممر أندراسوس «مغارة الكحل» فهزمه فيه، وعظمت غنائم لاوون فأسرَ عدداً كبيراً من المسلمين، وأطلق سراح جميع مَنْ كان قد وقع في الأسر من الروم.^٤

عين زربا وحلب (٩٦٢)

ورأى نيقيفوروس أن يستغل الكارثة التي حلت بسيف الدولة فيفتتح قيليقية أكبر المعاقل البحرية الإسلامية بعد أقريطش وأقرب الطرق إلى سورية، فجال جولة موفقة في مطلع السنة ٩٦٢، واستولى في اثنين وعشرين يوماً على خمسين بلدةً أو حصناً، وعاد في أول الصوم الكبير إلى قبدوقية، وأعاد الكرة في الخريف فافتتح عين زربة، ولم يقوَ سيف الدولة على الصمود في وجهه عند ممرات الأمانوس فتدفقت جيوش نيقوفوروس إلى سهول سورية حتى منبج على الفرات، ثم حاصر نيقوفوروس حلب أحد عشر يوماً (٢٠-٣١ كانون الأول ٩٦٢) فاقتحم سورها، ولكنه لم يقوَ على القلعة، وعاد إلى القسطنطينية بغنائمٍ عظيمة، وعلم بوفاة رومانوس الثاني وهو في طريقه إلى العاصمة.

نيقيفوروس فوقاس (٩٦٢-٩٦٩)

وتوفي رومانوس الثاني إما مسموماً أو مسقوماً، فتسلمت زوجته ثيوفانو زمام الحكم بالوصاية على ولديها القاصرين باسيلوس وقسطنطين، وكانت تكره أبرينكاس وتحب نيقيفوروس فاستدعت نيقيفوروس من حلب، وسمح هذا لجنوده أن ينادوا به فسيلفناً

^٤ Canard, M., op. cit., I, 800-803

وهو في طريقه إلى العاصمة، فلما نهض إليها من قيصرية قامت ثورة ضد أبرينكاس ودخل نيقيفوروس العاصمة وتقبل التاج من يد البطريرك مشتركًا في الحكم مع القاصرين، وبعد شهر واحد تزوج من ثيوفانو الوصية الأرملة، ولما جاء إلى الكنيسة وطلب الدخول من الباب الملوكي اعترضه البطريرك بوليفكتوس بسبب زواجه من الثانية في حياة الأولى؛ خلافًا للناموس.

فتوحات الروم في سورية (٩٦٣-٩٦٩)

وكان نيقيفوروس جنديًا مدهشًا وتكتيكيًا قديرًا وقائدًا محنكًا، فأحبه الجنود وتعلقوا به، وكان زاهدًا قنوعًا قاسيًا متصلبًا، ولكنه كان — في الوقت نفسه — مُحبًا عطوفًا، فأصبح رجل الساعة بقوة إرادته وتمسُّكه بالسلطة، وحبه للدولة وإخلاصه لها. وأوقف الانقلاب في القسطنطينية الأعمال الحربية في قيليقية وسورية، فعاد سيف الدولة إلى حلب واستعاد عين زربا وغيرها في قيليقية، وحاصر ابن شمشيق مصيصة في صيف السنة ٩٦٣ ولم يستول عليها، وقام إلى أدنة فتحدها حاكم طرسوس فهزمه ابن شمشيق، ولكنه اضطر أن يُغادر قيليقية؛ لما حلَّ بها من قحط وجوع وأوبئة. وفي ربيع السنة ٩٦٤ تولى نيقيفوروس الفسيلفس نفسه قيادة جيوشه، فأنشأ قاعدة هامة للتموين في قيصرية قبدوقية، وزحف برجاله فاقتحم عين زربا وأدنة واستولى على أسوس عند مدخل سورية، وعاد إلى قبدوقية لتمضية فصل الشتاء. وفي السنة التالية عادت قيليقية بأسرها إلى الروم بعد أن كانت زهاء ثلاثة قرون قاعدة برية بحرية، تنقضُّ منها جيوشُ الإسلام وأساطيلُهُ على الإمبراطورية. وفي شتاء هذه السنة عينها احتل الروم قبرص أيضًا، وفي شتاء السنة ٩٦٦ أغار نيقيفوروس على الجزيرة فدخل دارا ونصيبين واستولى على الآجرة المقدسة «القرميذة» Karmidion التي كانت تحمل صورة السيد العجايبية، ثم انقض على أنطاكية في حملة إرهابية. وفي خريف السنة ٩٦٨ عاد الفسيلفس إلى الفتح، فحاصر ابن سيف الدولة في حلب، وقام بجيشه إلى حمص، فدخلها ثم انحدر منها إلى عرقة فطرطوس فجبله، وأبقى فيها حاميات من الروم، ثم ظهر أمام أنطاكية يُشدد الحصار عليها بإمرة ميخائيل بورجس البطريق ويرمم قلعة بغراس في طريق أنطاكية الإسكندرونة، وأقام ابن أخيه بطرس فوقاس قائدًا عامًا، وأوصاه بوجوب انتظاره وعدم اقتحام أنطاكية قبل عودته، وقام هو إلى القسطنطينية فدخلها بموكب نصر عظيم في مطلع السنة ٩٦٩.

وفي أثناء غيابه اتصل نصارى أنطاكية بقيادة الروم مؤكدين وقوع الفوضى في صفوف المسلمين، فاندفع البطريق وقام ببعض رجاله فتسلق الأسوار ودخل بعض الأبراج، وكاد يموت موتاً لولا وصول لاوون وإسعافه، وسقطت أنطاكية بيد الروم في الثامن والعشرين من تشرين الأول بعد أن بقيت إسلامية ثلاثة قرون ونيِّفاً. واشتد حماس الجند وألحوا بوجوب اقتحام حلب، وفعلوا، فسقطت في يدهم في كانون الأول من السنة نفسها، ووَقَّعَ صاحبها قرغويه معاهدةً مع الروم، اعترف فيها بسيادتهم وحمايتهم، واعترف الرومُ بولايته على حلب وولاية بكجور بعده على أن يعينوا أميراً عليها مَنْ يرونه لائقاً من أبناء حلب بعدهما، ومن شروط هذه المعاهدة أن يقيم في حلب ممثلٌ رسميٌّ للفيلسوف، وأن يدفع الحلبيون ديناراً عن كُلِّ ذكر في كل سنة، وأن يَمْتَنِعُوا عن جباية الجزية من النصارى، وأن يؤمِّنُوا طُرُقَ التجارة، وأن تُشرف لجنةٌ من الروم والحلبيين على جباية الكمارك.^٥

وعاد بطرس فوقاس إلى أنطاكية، وحقق في مقتل البطريك خريستوفوروس — الذي أشرنا إليه سابقاً — فحبس ابن مارك أياماً، ثم أخرجه إلى جسر باب البحر حيث طرحت جثة البطريك، وأمر به فُقَطَّعَ بالسيف عضواً عضواً ورُمي بكل ناحية قطعة، وأما ابنُ محمود وابن دعامة شريكاه في الجُرم فإنهما كانا قد حملا إلى سجن طرسوس وبقياً فيه مدة طويلة، ومات ابنُ محمود في الحبس وبقي ابن دعامة إلى أن جاء ميخائيل البورجي، فأحضره إلى أنطاكية وثقله بالحجارة وطرحه في النهر.^٦

يوحنا جيمسكي (٩٦٩-٩٧٩)

ولم ترَضْ ثيوفانو الفسيلسة عن حياتها الزوجية مع نيقيفوروس، وكان ابنُ أخته يوحنا جيمسكي جميل الصورة، لا يزال في الخامسة والأربعين من عمره فأحبته ثيوفانو، فأبعده نيقيفوروس، فأقنعت ثيوفانو زوجها فأرجعه إلى البلاط، وكانت مؤامرة بين ثيوفانو ويوحنا فدُبح نيقيفوروس ذبحاً في أواخر السنة ٩٦٩ ونُودي بيوحنا فسيلفساً بالاشتراك مع باسيلوس وقسطنطين القاصرين.

^٥ Schlumberger, G. Nicéphore, op. cit., 730-733; Canard, M., op. cit., I, 831-838. الزبدة

لكمال الدين بن العميد «مجموعة كناز، ص ٤١٩-٤٢٤».

^٦ Eutichius, Ann., II, (Yahya b. Said), 134-135

وكان يوحنا جيمسكي أو ابن شمشيق — كما عرفه العرب — شجاعًا بأسلاً متزنًا صبورًا لطيفًا كريمًا، وكان قد اشترك في معظم حروب نيقيفوروس فعرفه الجنودُ وأحبُّوه وتعلقوا به، فأعاد باسيلوس ليكابينوس إلى الإدارة المركزية وانصرف هو إلى السياسة والحرب.

ثيودوروس بطريك أنطاكية (٩٧٠-٩٧٦)

وكان الموقفُ السياسيُّ في سورية لا يزال حرجًا، فطلب الفسيلفس الجديد إلى البطريرك المسكوني بوليفكتوس ومجمعه المحلي أن ينتخبوا بطريركًا على أنطاكية وسائر المشرق؛ لأن هذا الكرسي الرسولي كان لا يزال شاغراً منذ قتل خريسطوفوروس، واقترح الفسيلفس انتخاب الراهب ثيودوروس فتم انتخابه في الثامن والعشرين من كانون الثاني سنة ٩٧٠، ولما وصل ثيودوروس الثاني إلى مركز رئاسته في أنطاكية خرج إلى كنيسة «أرشايا» وحمل جسد سلفه خريسطوفوروس إلى القسيان.^٧

دمشق تعترف بسيادة الروم (٩٧٥)

وأنهاى ابنُ شمشيق مشكلة الروس والبلغار، فعزم على إزالة خلافة بغداد، والاستيلاء على بيت المقدس، ولكن كان عليه قبلَ هذا وذاك أن يجابه دولةً فتية جديدة كانت قد قامت في مصر، فإن المعز لدين الله الخليفة الفاطمي الرابع كان قد سَيَّرَ جوهراً الروميَّ إلى مصر في السنة ٩٦٨، فافتتحها وأزال شعار الأسود العباسي وألبس الخطباء الأبيض، وفتح دمشق وأنفذ جيشًا إلى أنطاكية فحاصرها خمسة أشهر خلال السنة ٩٧٠-٩٧١، وكان الفسيلفس قد اكتفى بأن عينَ ميخائيل بورجس دوقًا على أنطاكية وجعلها صالحة للدفاع، وكان قد أنفذ في السنة ٩٧٣ الدومستيقوس الأرمني مليه Mleh إلى الجزيرة غازيًا، فاستولى هذا القائد على ملاطية، ولكنه ارتد أمام آمد، فاعتقل وأرسل إلى بغداد فتوفي فيها. وفي السنة ٩٧٤ قام الفسيلفس بنفسه قاصدًا بغداد، فدخل أرمينية وحالف ملكها أشوت، ثم استولى على آمد وأحرق ميفارقين، ودخل نصيبين وأدخل أمير الموصل الحمداني في طاعته، وتعرس عليه تموين جيشه، فعاد إلى القسطنطينية.

^٧ Eutichius, Ann., II, (Yahya b. Said), 138

عَصْرُ الرُّومِ الذَّهَبِي

وفي ربيع السنة ٩٧٥ انطلق ابنُ شمشيق من أنطاكية قاصداً أورشليم، وما إن أُطلَّ على دمشق حتى فاوضه حاكمُها، فاعترف بسيادة الفسيلفس وتقبل حامية مسيحية، ودفع جزية ستين ألف دينار في كل عام، وكتب بذلك كتاباً وأخذ فيه خُطوط الإشراف وقَدَّم جماعة منهم رهينة، ولما كانت قواُتُ الفاطميين قد التجأت إلى مُدُن الساحل قام الفسيلفس ابن شمشيق إلى الساحل قبل التوغُّل في الجنوب، فاحتل جبيل وبيروت وأسر أمير هذه المدينة نصر الخادم وحمله إلى بلاد الروم، ونزل على طرابلس فلم يتم له شيءٌ فيها، ثم استولى على بانياس وجبله وسلم كليب النصراني كاتب رقطاس حصن صهيون فصَيَّره الفسيلفس بطريقاً ثم «باسليقاً» على أنطاكية.^٨

أورشليم

وقام إلى طبرية فدخلها ثم قام إلى الناصرة فعف عنها احتراماً وإجلالاً وتسلق جبل الطور يمناً وتضرعاً، وتقبل هناك دخول أورشليم والرملة وعكة في الطاعة، وأرسل إليها عسكريين يقيمون فيها.^٩

باسيليوس الثاني (٩٧٦-١٠٢٥)

وتُوفي ابن شمشيق مسموماً، وكان باسيلوس وأخوه قسطنطين قد بلغا سن الرد أو ما يقرب منها، وكانا يهابان الخصي باسيلوس؛ لأنه كان قد تولى تربيتهما، وحدثته نفسه بالملك فأرجع أم الفسيلفسين ثيوفانو وعزل القائد الأعلى برداس اسكليروس وعيَّنه في وظيفة ثانوية في قيادة جيش الجزيرة، فذهب برداس واتحد مع أعداء باسيلوس الخصي، فكانت بينه وبين جيوش العاصمة مواقعُ هائلةٌ وحروب شديدة دامت أربع سنوات، ولجأ برداس إلى بغداد وطلب معونة الخليفة العباسي الطائع (٩٧٤-٩٩١).

^٨ Eutichius, Ann, II, (Yahya b. Said), 145-146

^٩ Laurier, E., Chronique de Matthieu d'Edesse, 16-24; Georges Hamartolus Continuator, ٩

أغابايوس بطريك أنطاكية (٩٧٧-٩٩٦)

وكان باسيليوس الفسيلفس قد استدعى ثيودوروس الثاني البطريرك الأنطاكي في بدء ثورة برداس، وأرسل إليه «شلندي» يقله إلى القسطنطينية بحرًا، فسار البطريرك ولما بلغ طرسوس نُوفي فيها، فبعث أهل أنطاكية «يلتمسون بطريركًا يكون عليهم ويتولى تدبيرهم»، فاستقر الأمر على أن يكتبوا إلى الفسيلفس بمن يقع اختيارهم عليهم، فاختاروا جماعة وكتبوا إلى الفسيلفس بهم، وطلبوا إلى أغابايوس أسقف حلب أن يحمل رسالتهم إلى الفسيلفس، فسألهم أغابايوس أن يضيفوا اسمه إلى جملة الأسماء فأجابوه إلى ذلك، فشخص بالكتاب إلى حضرة الفسيلفس وأنهى إليه حال أنطاكية وتمسك أهلها بطاعته، «وأعلمه أن الصواب يقضي بأن يكون لها بطريك يدبرها ويثبت أهلها على طاعته»، فكتب الفسيلفس إلى الماجيسترس في أنطاكية يستميله ويعدده بالإحسان إليه، ويضمن له ولاية أنطاكية مدة حياته، وأنه إذا تم ما استقر بينهما يكون أغابايوس بطريركًا على أنطاكية. وعاد أغابايوس إلى أنطاكية متنكرًا بزي راهب، ولما وصل إليها اجتمع بالماجيسطروس وقدم له كتاب الفسيلفس، فقبله، ودعا، وقطع اسم فوقاس الثائر، واعترف بأغابايوس بطريركًا على أنطاكية.

ولما استقر أمر أغابايوس كتب رسائلَ الجلوس، وبعث بواحدةٍ منها إلى إيليا البطريرك الإسكندري، وقرن بها «أمانته» ليُعلم منها أنه يقول بما اتفق عليه أصحابُ المجمع المسكونية السبعة. وطلب إليه أن يذكر اسمه في الذبيخة، فأنكر إيليا الإسكندري عليه فعله؛ لأنه ترك أبرشيته في حلب ليصير بطريركًا على أنطاكية فأصبح حاله «حال من تزوج ابنة ثم تركها وأخذ والدتها أو كمن طلق زوجته وتزوج غيرها»، وأكد إيليا أن درجات الكهنوت مُرتبةٌ على مثال طغمة الملائكة والنجوم والكواكب التي تلزم نظامها ومواضعها، وطلب محضراً من أهل أنطاكية وكهنتها وشيوخها يذكرون فيه واقع الحال، فَرَدَّ أغابايوس رداً طويلاً، وفق فيه بين التقليد الرسولي وبين كيفية وصوله إلى كرسي الرسولين في أنطاكية، وإليك نصُّه بالحرف — كما حفظه يحيى بن سعيد الأنطاكي في تاريخه:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتابي أيها الأب الروحاني الطاهر المشارك في الخدمة المساوي في الرتب، المتحد في الروحانية من الكرسي السليحي بمدينة الله الفائزة بفخر اسمه، المحفوظة

بتلميذه وأول رسله يوم السبت السابع من كانون الأول عن سلامة بيع الله المقدسة وأولادها قبلي وسلامتي من بعدهم، والحمد لله على ما مَنَّ وأولى، وهو المسئول أن يتم إسبال ستره على هذا الشعب وإكمال نعمته على هذه الأمة قبلي وقبلك، وقبل كل راعٍ استرعاه في كل موضع ارتضاه بمنه وكرمه.

وقد وصل كتابكُ أيها الأب الروحانيُّ الطاهرُ على يد أنبا يوحنا الراهب المنفذ من مسكنتنا إلى قدسك، وأحطت علمًا بمشتمله وسررت بأخبار سلامتك، وما استدلت عليه من الاستقامة قبلك، ثم طار بعد ذلك فكري وتعسف ذهني وذهل عقلي وتقطعت خواطري متأملًا ما كتبتَه ومتبحرًا ما أجبته، ولا أدري ما السبب الذي حملك على دفع غير مدفوع وإنكار غير منكر، والاحتجاج بما لا يسليح، وفعل ما لا يليق، وقد كان ينبغي إذ عرفت موضع ابتدائي وإيثاري للتبارك بمشاركتك وإنفاندي رسولي إليك في وقت كان يكاد أن يتعذر فيه عبور الطيور من جهتنا إلى جهتكم، فضلًا عن الرسل والكتب إلا كنت تكتب بما كتبت به دون أن تتحقق أنك فيه على حق لا ينحل وحجة لا تبطل وصواب لا ينكر، وقاعدة لا ينسب أهلها إلى هوى ولا غي ولا قصد ولا حال من الأحوال التي قدسك متبرئ منها ومرتفع عنها.

وأما أن تذكر — أيها الأب الروحاني — غمك بما صار إليه حالي وقلقك بما جرى عليه أمرى، وإيثارك الموت دون السماع بمثله، فهذا ما كان يليق؛ إذ كان لم يجر بحمد الله ها هنا أرايسيس ولا فساد مقالة ولا نقص سُنَّة ولا حالة غير معروفة، والذي جرى هو أمرٌ صغرٌ حالي عنه وبعد موضعي منه؛ لارتفاعه عني وقلة قيامي به وتفاوت نقص استحقاقي له، إلا أنه لم يكن مني ولا أتى بسعبي إلا ما اختاره أصحابي ورضي به شعبي وأمضاه رؤساء الدولة وعرفه علماء الملة في المدينة العظمى التي عليها يعول ومنها يقتبس.

وكيف يجوز أن يُنكر واحدٌ ما تجتمع عليه هذه الطبقة وترضى به هذه الأمة، وهو أمر مشهور عندنا مستعمل بيننا على قديم الزمان إلى حيث انتهينا. والذي ذكرته أيها الأب الروحاني في هذا الباب أنا أعلم أنك لم تذكره إلا لبُعد العهد بهذا الحال ببلدك، ولعدم الكتب التي تنبئ بمثله في ناحيتك، ولقلة من يستعملها ويقتبسها في موضعك للأحوال التي دفع إليها أهل تلك الديار، مما نسأل الله المعونة عليه، وإذا أنت رجعت إلى الفحص عن ذلك وجدته أمرًا

لم يبدأ منا ولا يتناهى فينا، وذلك أنك تجد القديس أفسطاثيوس بطيريك مدينتي هذه وقد نقله السينودس المقدس بنيقية من حلب إلى أنطاكية، ووجدت القديس ملاتيوس منقولاً من لاريسة إلى حلب ومن حلب إلى أنطاكية، وقد حضر السينودس الثانية في القسطنطينية ونقل القديس غريغوريوس الثالولوغس من نازينزو وكرسه على كرسيها، ووجدت أوذوكسيوس قد نقل من مرعش إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية، ووجدت أوسابيوس قد نقل من بيروت إلى نيقوميذية ومنها إلى القسطنطينية، ووجدت جماعة آخرين منقولين إلى مواضع عدة.

هذا بعد مار بطرس السليح الذي هو أساس البيعة ورأس الشريعة، ومقامه اثنتي عشرة سنة بأنطاكية وانتقاله بعد ذلك إلى رومية، وكفكك به من شاهد وتناهى بمن ذكرناه قليلاً من كثير قدوة يقتدى بها وأصلاً يرجع إليه، وإذا كان ذلك كذلك فقد عرفت منا أيها الأب الروحاني ما طلبته ووجدت ما ابتغيته؛ إذ كان التماسك في كتابك أن يوجد في هذا الباب أصل يرجع إليه وطريق تفسح لك في قبول الكسس ورفع الاسم، لا سيما مع علمك بأن هذا ليس هو ما تدعو إليه حاجة ضرورية، وإنما يُراد به اتحاد البيعة المقدسة بالروحانية، ومن طلب أن يتحد مع قدسك ويشارك خدمتك فليس يجوز أن تنفرد عنه بالحجج التي احتججت بها ويتضح حلها ويقوم البرهان بصحة غيرها.

من ذلك تشبيه هذا الأمر بمن تزوج ابنة ثم تركها وأخذ والدتها، وقد ارتفع الكهنوت الإلهي عن التشبيه بالتزويج البشري، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان إذا توفي أسقف وكان له أخ يستحق رئاسته لا يجوز له أن يرجع موضعه، كما لا يجوز للأخ أن يأخذ زوجة أخيه بعد وفاته، والتشبيه بمن طلق امرأة وأخذ غيرها يبعد أيضاً عما نحن فيه ولا يليق أن يشبه به، وإلا لم يكن بالجائز للمدينة أن يصير عليها غير أسقفين، كما لا يجوز للامراة أن تتزوج أكثر من زوجين. فأما قول السيد المسيح بأنه من طلق امرأته فقد جعلها أن تفجر، ومن تزوج مطلقة فإنه يفجر فلم يكن مقولاً عن الكهنوت، وإنما كان كلامه على اليهود لما حضروه مجربين له، فأراهم بعد طباعهم عما يوجبهم ناموس الطبع اللطيف والعقل الحصيف من المحافظة على الزوجة البشرية والتمسك بحبها لأجل أن الاثنين قد صاروا جسداً واحداً — كما قال الكتاب — حتى أظهر

عيوبهم وأحوجهم إلى أن قالوا: لقد كان أخيراً للرجل أن لا يتزوج بالكلية. وإن كان كذلك فأية مناسبة بين هذا المعنى وبين الكهنوت الإلهي التي هي درجاتُ تتراقى من الدون إلى التي فوقها. فأماً تشببه هذه الدرجات بطغمات الملائكة التي تحفظ كل طغمة منها موضعها ولا تتعداه إلى غيرها فهذا أيضاً مما لا يشبه في حال النقلة، وإلا لم يكن بالجائز للانغسطس أن يصير أيبوديakon ولا للأيبوديakon أن يصير تاماً، ولا للتام أن يصير قسيساً، ولا للقسيس أن ينتقل إلى ما فوق، فأماً تشببها بالنجوم فإن الكواكب لازمة نظامها ومواضعها، لا ينتقل أحدها إلى موضوع غيره، فهذا أيضاً لا يليق؛ لأن الكواكب أجرامٌ غيرُ ناطقة رتبَ الباري كل واحد منها في موضوعة وجعل طبيعته لا تتغير عن حالته، فأماً الإنسان فإنه جعله حيواناً ناطقاً متحرِّكاً من حال إلى حال ومن أمر إلى أمر، والخليق به أن يكون انتقاله إلى ما هو أشرفُ وحركته إلى ما هو أعلى، فمن هذا جاز أن ينتقل من ذكرنا نقله، وقد قامت الشواهدُ بهذا الحال. فأماً ما التمسته أيها الأب الروحاني من إحضار محضر المدينة الشريفة يذكر فيه كيف جرت هذه الحالة والرضى به فلم يجر بذلك رسمٌ، ولا فعلاً هذا من تقدمني فأفعله أنا بعده، ولولا تعذرُ الطريق في هذا الوقت إلى ما هناك لقد كان ذلك سهلاً، فأماً إنفاذ خطوط كهنة الكرسي وشيوخه بالرضى فهذا نريد أن يكون لو لم يتم الأمر، وحينئذٍ تكونُ الشبهةُ لاحقةً في مثل هذا، فأماً بعد تمامه ومضي سنة عليه فأنت تعلم أنه لو لم يحصل في الأول خطوطٌ ويقع إجماعٌ ورضى قبل التوجه إلى المدينة المتملكة لَمَا كان تم.

وكان بعد تمامه اضطرابٌ ولم يقع بعده سكون، ونحن كنيستنا — بحمد الله — واحدةً، والمشاركة فيها من كل جهة واقعةً، والمحبة بين أولادها تامةً وكاملة، وليس ها هنا خلف ولا انفراد ولا انشقاق ولا حال فيها شبهةٌ تحتاج إلى إنفاذ ما التمسته، وطلبة مثل هذه في غير موضعها تجري مجرى المعاينة، والإجابة إلى مثل ذلك نقصٌ وإيقاعٌ شبهة، فأماً الحق بالمودة الإلهية والأليقُ بالأحوال الروحانية أن تدع التماس ما لم تجر العادة بالتماسه، والاحتجاج بما قد بطلَ وبمثله الرجوع إلى الواجب في توكيد المودة وإتمام اتحاد الخدمة والمشاركة؛ حتى يزول الشك، ويرتفع سبب الفساد، ولا يقع في البيعة انشقاق. وأنت أيها الأب الروحاني تأتي في ذلك الواجب، وقد أردت إنفاذ البركة على ما جرى به الرسم والعادة، ولم تتأخر إلا لبعد الطريق وصعوبة الوقت،

وأنا أرصد الفرصة لإنفاذها وأراقبُ نفوذَ من يصلح لحملها وأنفذها وأتبارك بإصدارها، وإني في ذلك على الرسم الذي أنا قَلِقٌ لتأخره، وأنت أيها الأب الروحاني تأتي في قبولها عند وصولها ما جرت فيه العادة التي تتبع الروحانيات ولا ينقصها تأخرها ولا يزيد فيها تقدمها، مع إبهاجي بكتابك عاجلاً متضمناً من أخبارك واستقامة أحوال من قبلك ما أسر به، ومن حاجاتك ومهماتك ما أقوم فيه بواجب المودة والأخوة الروحانية والمشاركة — إن شاء الله. سلام ربنا وإلهنا يسوع المسيح يكون معك، وعندك حافظاً وموافقاً وكافياً ومشهداً من الآن وإلى كل أوان، وإلى دهر الدهارين، آمين.^{١٠}

ووصل هذا الكتاب إلى إيليا البطريرك الإسكندري، ووافق على مضمونه، وقبل أغاببوس في الشركة واعترف ببطريركيته، ويلاحظ هنا أن البطريرك الأنطاكي رأى في اعتراف زميله واجباً روحياً «لتوكيد المودة وإتمام اتحاد الخدمة والمشاركة؛ حتى يرتفع سبب الفساد، ولكي لا يقع في الكنيسة انشقاق»، ورأى هذا البطريرك أيضاً أن إرسال المحاضر بخطوط الكهنة والشيوخ أمرٌ لم يفعله من تقدمه من البطاركة، واكتفى بأن يكون إيمانه إيمان أصحاب المجامع المقدسة السبعة، وأن يكون شعبه راضياً، وأن يكون رؤساء الدولة قد وافقوا على اختياره، ويلاحظ أيضاً أن لا إشارة البتة في هذا الجدل حول الاعتراف بالبطريركية إلى موافقة رومة وحبها، وأن البطريرك الأنطاكي الجديد اعتزَّ بموافقة رؤساء الدولة في القسطنطينية «المدينة العظمى» ويعلم «علماء الملة» فيها.

حروب باسيليوس الثاني

وقدر لباسيليوس أن يصبح أعظم قوة وأطولَ باعاً في الحرب من أسلافه، فإنه تمكن بجده وسعيه ومقدرته في الإدارة والحرب من تجييش عددٍ من الرجال أكبر بكثيرٍ من أي عددٍ جندَه أسلافه، وحارب في وقت واحد في جبهات أربع في بلغارية وإيطالية وسورية والقوقاس.

وكان سعد الدولة الحمداني قد دخل حلب واستولى عليها، فحاول مراراً أن يتملص من الإتاوة التي كان بقجور قد قبل بدفعها إلى الروم، فأدّى هذا إلى إنفاذ حملاتٍ

^{١٠} Eutichius, Ann, II, (Yahya b. Said), 150–154.

ثلاث على حلب في السنوات ٩٨١ و ٩٨٣ و ٩٨٦، واضطر سعد الدولة أن يستنجد العزيز الفاطمي، فنشب خصامٌ بين الروم والفاطميين، ولمَّا كان باسيلوس منهمكًا في القضاء على ثورة البرداسين؛ اضطرَّ بدوره - في أواخر السنة ٩٨٧ - إلى أن يُصالح العزيز الفاطمي بمعاهدة كان من شروطها أن يذكر اسم العزيز في خطبة الجامع في القسطنطينية، وكان قد قام في القسطنطينية مسجد منذ القرن الثامن.

وتوفي سعد الدولة الحمداني في السنة ٩٩١، فطمع العزيزُّ بحلب، وحاصرها في السنة ٩٩٢، فاستجار لؤلؤ الوصي على ابن سعد الدولة باسيلوس الثاني، فأمر باسيلوس دوق أنطاكية ميخائيل بورجس أن يُقدِّمَ المعونة اللازمة، فظفر الفاطميون بجيشه في موقعة العاصي في الخامس عشر من أيلول سنة ٩٩٤، فرأى الفسيلفس أن يشرف بنفسه، فجمع جيشًا خاصًا وجعل لكل مقاتل بغلين وهبَّ بسرعة فائقة فقطع أسية الصغرى في ستة عشر يومًا، وفاجأ الفاطميين عند حلب، فتراجعوا عنها حتى أبواب دمشق.

يوحنا الخامس بطريك أنطاكية (٩٩٦-١٠٢٢)

وسخط باسيلوس على ميخائيل بورجس، وألزمه بيته، وولَّى على أنطاكية الدوق دميانوس دلاسانوس، وطلب إلى أغاببوس البطريرك أن «يكتب خطه بالزهد في رئاسة أنطاكية واعتزله عنها» فامتنع البطريرك، فجعل الفسيلفس للبطريرك ديرًا في القسطنطينية يعرف بالأفرنديو، وأمر أن يحمل إليه في كل سنة من دُخْلِ كنيسة أنطاكية أربعة وعشرين رطلًا من الدنانير «برسم نفقة مائتته»، فقبل البطريرك واستقال وتوفي بعد ذلك بسنة.^{١١}

«وصير» باسيلوس - عوضًا عن أغاببوس - بطريركًا من أهل القسطنطينية اسمه يوحنا، وهو الخامس في المراجع الأرثوذكسية والثالث في المراجع الغربية، وكان خرتوفيلاكسًا في كنيسة الحكمة الإلهية، وأمر الفسيلفس أن «ترتب» كنيسة القسيان في أنطاكية على مثال كنيسة الحكمة الإلهية.^{١٢}

^{١١} Eutichius, Ann. II, (Yahya b. Said), 177.

^{١٢} Ibid.

باسيليوس والحاكم

وتوفي العزيز الفاطمي، وتولى الحكم بعده الحاكم «بأمره» (٩٩٦-١٠٢١) فأُنزل بدوق أنطاكية داميانوس دلاسانوس في تموز السنة ٩٩٨ هزيمة كبيرة وخر داميانوس مقاتلاً، فاضطر باسيليوس أن يعود إلى سورية لينقذ الموقف، فدخل أنطاكية في العشرين من أيلول سنة ٩٩٩ واستولى على حمص في تشرين الأول من السنة نفسها، ثم قام إلى طرابلس وحاصرها وسير سريّةً إلى بيروت وجبيل فظفرت بالأسرى والغنائم، وعاد الفسيلفس إلى طرسوس لتمضية فصل الشتاء، وبينما هو يعد العدة في طرسوس لمتابعة الحرب ضد الفاطميين علم بوفاة داود ملك الكرج، وكان داود هذا قد أوصى بملكه إلى الفسيلفس، فقام الفسيلفس بجيشه إلى ملاطية، ثم عبر الفرات ودجلة فقدم أمراء الكرج خضوعهم وضم الفسيلفس دولة داود إلى الإمبراطورية وعاد إلى القسطنطينية، وترك هذا كله أثراً في نفس الحاكم الفاطمي فأسرع يفاوض في السلم وخصّ أورستئوس بطريك أورشليم بالمفاوضة، فقام هذا البطريك إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية، فكان صلح بين الدولتين لعشر سنوات.^{١٣}

ومما يروى أن يوحنا البطريك الأنطاكي فاض زميله أورستئوس في أثناء مروره في أنطاكية في أمر كنيسة الكرج، فتنازل له عن المال السنوي الذي كان يتناوله من كنيسة الكرج لصنع الميرون، واحتفظ بحقه في أن يذكر هو وحده في الذبتيخة، وفي أن يوفد إلى الكرج أكسرخوساً يتفقد أحوال الكنيسة فيها ويجمع دخل أوقاف الكرسي الأنطاكي منها.^{١٤}

المسيح هو الملك

وتنصرت الحكومة وفاخرت بنصرانيتها واعتزت، وأصبح السيد المخلص في نظر الحكومة والشعب هو الملك، وأصبح الإنجيلُ دستور الدولة، فكنت إذا قصدت القصر الملكي تقرأ على جدران بعض البنايات العبارة: «المسيح الفسيلفس» أو المسيح الإمبراطور، وقد تسمع وأنت في طريقك إلى القصر؛ جماعات يرتلون، فإذا ما اقتربوا منك وجدتهم جنوداً

^{١٣} Dolger, Reg., 788; Schlumberger, G., Epop., II, 201-208.

^{١٤} Echos d'Orient, 1934, 136.

عَصْرُ الرُّومِ الذَّهَبِي

حاملين الصليب عاليًا هاتفين: «المسيح المنتصر»، وإذا ما وصلت إلى مداخل القصر وجدت فوق العتبات أيقونات مقدسة تمثل المسيح مرتديًا لباس الملك متوجًا، وإذا دخلت ظننت أنك في كنيسة لا في قصر ملكي، فمن أيقونة للعدراء والدة الإله حامية العاصمة إلى ذخيرة تضم عود الصليب إلى أيقونة عجائبية تمثل السيد مصلوبًا، كان قد ظفر بها ابن شمشيق (يوحنا جيمسكي) في أثناء مروره في بيروت إلى زاوية مكرمة تحفظ حذاء السيد الذي وجده ابن شمشيق في جبيل إلى المنديل الذي كان لا يزال يحمل رسم وجه السيد، وقد احتفظت به الرها أكثر من تسعة قرون. وقد تقف قليلًا متأملًا مصليًا فيدخل القاعة رئيس أساقفة تتبعه حاشيته وقد جاء خصيصًا لتكريم هذه الآثار وتجديد التكريس.

وقد تكون أحد أعضاء الوفود الإسلامية المفاوضة، فيتاح لك الدخول إلى قاعة العرش، فتجد العرش عرشين أحدهما عليه الإنجيل الطاهر وهو عرش المسيح الملك، والثاني لنائبه على الأرض الفسيلفس، فإذا قابلت العرش الأول أو مررت من أمامه رسمت شارة الصليب بالأصابع الثلاثة وانحنت إكرامًا وإجلالًا، وقد تكون أحد القضاة الزائرين فيدفعك اهتمامك بالقضاء إلى الوقوف في دار العدل لاستماع المرافعة وصدور الأحكام، فتذكر هناك أيضًا بأن الملك للسيد له المجد، فالقوانين والأحكام تستهل «باسم سيدنا يسوع المسيح»، وقد تكون تاجرًا تضطرك الظروف إلى زيارة أحد المصارف لتقبض تحويلًا ماليًا معينًا فتتقد الدراهم والدنانير، فتجد رسم السيد المسيح على أحد الوجوهين.^{١٥}

وقد تكون عدوًا محاربًا في الجزيرة أو في سورية، فتعد جيش الروم بعدد معين من الصلبان، وقد تمتنع في قلعة شيزر كما فعل ابن كراديس في السنة ٩٩٩، ثم تلتمس الأمان من ملك الروم وتشرط شروطًا فيجيبك إلى ذلك وينفذ إليك صليبه،^{١٦} وقد تقع الهدن بين الروم والمسلمين، فينفذ ملك الروم صليبيًا من ذهب مرصعًا «أمانًا لعدوه ووفاء بالشرط».^{١٧}

^{١٥} Guerdan, R., *Grandeurs et Misères de Byzance*, (Paris, 1954), 1-5; Ensslin, W., *Emperor and Imperial Administration, Byzantium*, (Oxford 1953), 273 ff.

^{١٦} Eutichius, *Ann.*, II, (Yahya b. Said) 183

^{١٧} زبدة الحلب لابن النديم، ص ٦٦.

الفسيلفس نائب المسيح

ولَمَّا كَانَ الْمَلِكُ الْحَقِيقِيُّ رُوحًا غَيْرَ مَنْظُورٍ أَصْبَحَ الْمَلِكُ الْمَلْمُوسُ رَمَزَ الْمَلِكِ السَّيِّدِ وَنَائِبَهُ عَلَى الْأَرْضِ؛ ثَوْبَهُ ثَوْبُ الْأَيْقُونَاتِ، وَتَاجَهُ وَصُولَجَانَهُ مَشْرِفَانِ بِالصَّلِيبِ الْمُقَدَّسِ، وَلَمَّا كَانَتْ ثِيَابُهُ هَذِهِ هَبَّةً رِبَانِيَةً حَمَلَهَا الْمَلَائِكَةُ إِلَى قَسْطَنْطِينِ الْكَبِيرِ أَصْبَحَ الْمَلِكُ الْوَحِيدَ اللَّائِقَ بِحِفْظِهَا هُوَ الْكَنِيسَةُ، وَأَمْسَى قَصْرَ الْفَسِيلْفَسِ مِنْ حَيْثُ التَّخْطِيطِ وَهَنْدَسَةُ الْبِنَاءِ وَتَزْيِينِ الزَّوَايَا وَالْقُبَبِ وَالْجِدْرَانِ؛ أَشْبَهَ بِالْكَنِيسَةِ مِنْ أَيِّ بِنَاءٍ آخَرَ، وَأَمْسَتْ أَبْوَابُ قَاعَةِ الْعَرْشِ تُفْتَحُ وَتُغْلَقُ فِي أَوْقَاتٍ مَعِينَةٍ كَأَبْوَابِ الْأَيْقُونَسَاسِ فِي الْكَنِيسَةِ، وَقَامَ الْعَرْشُ فِي حَنِيَّةٍ كَعَرْشِ الْأَسْقَفِ فِي الْكَنِيسَةِ، وَقَضَتْ هَذِهِ الصَّلَاةُ بَيْنَ الْفَسِيلْفَسِ وَبَيْنَ السَّيِّدِ الرَّوْحِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ أَنْ يَظْهَرَ الْفَسِيلْفَسُ ظَهُورًا عَلَى عَرْشِهِ فِي الْاسْتَقْبَالَاتِ الرَّمِيَّةِ دُونَ أَيِّ كَلَامٍ أَوْ تَبَادُلِ أَفْكَارٍ، وَتَغْرَدُ الطَّيُورُ الذَّهَبِيَّةُ، وَتَزَارُ الْأَسْوَدُ الْمُصْطَنَعَةُ، وَيَسْجُدُ الْحَاضِرُونَ ثَلَاثَ سَجْدَاتٍ، وَمَا هِيَ إِلَّا لِحِظَةٍ حَتَّى يَرْتَفِعَ الْفَسِيلْفَسُ بِعَرْشِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ فَيَخْتَفِي، وَإِذَا قَضَتْ الظُّرُوفُ أَنْ يَسْتَقْبَلَ الْفَسِيلْفَسُ فِي بَاسِيلِيكَةِ الْمَنِيُورَةِ جَلَسَ عَلَى عَرْشِهِ الذَّهَبِيِّ صَامِتًا مَسْبِلَ الْجَفْنَيْنِ، فَإِذَا مَا رَغِبَ فِي شَيْءٍ رَفَعَ جَفْنِيهِ وَنَظَرَ إِلَى رَئِيسِ الْخَصِيَانِ، فَتُصَدَّرُ إِشَارَةٌ عَنْ هَذَا فَيَتِمُّ تَنْفِيزُ الْأَمْرِ الصَّادِرِ دُونَ كَلَامٍ، وَتَنْتَهِي الْمَقَابَلَةُ عِنْدَمَا يَرَسُمُ الْفَسِيلْفَسُ شَارَةَ الصَّلِيبِ فَيُخْرِجُ الزَّائِرُونَ مَتَرَاجِعِينَ خَاشِعِينَ، وَقَضَتْ نِيَابَةُ الْمَسِيحِ عَلَى الْفَسِيلْفَسِ بِأَنْ يَشْتَرِكَ مَعَ الْبَطْرِيْرِكِ فِي مَآرَسَةِ بَعْضِ الطَّقُوسِ الدِّينِيَّةِ، فَيُخْرِجُ الْاِثْنَانِ إِلَى الشَّوَارِعِ بِسَحَابَةٍ مِنَ الْبُحُورِ وَمَوْكَبٍ كَبِيرٍ، وَيَرْكَبُ الْبَطْرِيْرِكُ حَمَارًا أَبْيَضًا وَيَمْتَطِي الْفَسِيلْفَسُ جَوَادًا عَرَبِيًّا فَيُزَوَّرَانِ فِي كُلِّ يَوْمٍ جَمْعَةً كَنِيسَةً السَّيِّدَةِ حَامِيَةَ الْعَاصِمَةِ، وَفِي يَوْمِ الْخَمِيسِ الْكَبِيرِ يَتَفَقَّدَانِ الْعَجْرَةَ فِي الْمَآوِي، فَيَغْسَلُ الْفَسِيلْفَسُ أَرْجُلَ هَؤُلَاءِ وَيَقْبَلُهَا مَذْكَرًا بِمَا فَعَلَ السَّيِّدُ لَهُ الْمَجْدُ.

وجاء في كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته (٩٠٣) أنه إذا خرج الفسيلفس إلى كنيسة الحكمة الإلهية مشى أمامه اثنا عشر بطريقاً وحمل هو بيده حقاً من ذهب فيه تراب، فإذا مشى خطوتين وقف ونظر إلى التراب وقبله وبكى، وما يزال يسير كذلك حتى ينتهي إلى باب الكنيسة، فيقدم رجل شيخ طشتاً وأبريقاً من ذهب، فيغسل الفسيلفس يده ويقول لوزيره: إني بريء من دماء الناس كلهم، ويخلع ثيابه التي عليه على وزيره ويأخذ دواة بيلاطس ويجعلها في رقبة الوزير ويقول له: دن بالحق كما دان بيلاطس.^{١٨}

^{١٨} الأعلاق النفيسة لابن رسته، ص ١٢٣-١٢٦.

وإذا دخل الفسيلفس الكنيسة ليصلي استوى على عرش خاص واعتبر ممسوحًا من الله لينوب عن المسيح في الأرض، واستحق التناول بيده من المائدة المقدسة، ولكنه لم يرأس الكنيسة كما توهم البعض.

وكان على الفسيلفس أن يراعي هذا التقليد في حياته الخصوصية، فكان كلما انتهى من الطعام كسر الخبز وشرب الخمر، وإذا ما جلس إلى المائدة جلس حواليه اثنا عشر شخصًا، وعند كثرة الضيوف كانت تُقام اثنتا عشرة مائدة، وفي ليلة عيد الميلاد كان عليه أن يدعو أفقر الفقراء؛ لتناول الطعام معه، فالكل إخوان في المسيح. وكان يضيء غرفة نومه صليب وعدد من الكواكب، وكان يطل عليه من فسيفساء الجدران باسيلْيوس الأول المقدوني وعائلته وفي أيديهم الأناجيل!

ولما كان الفسيلفس نائب المسيح على الأرض كانت إرادته مطلقة، وكان هو مصدر السلطة، فكان هو يسن الشرائع ويلغيها، ويعين القضاة والوزراء ويعزلهم، ويوافق على انتخاب البطريرك، وكانت سلطته مسكونية تشمل العالم بأسره فلا تقف عند حد جغرافي أو سياسي، ولا يحق لمعترض أن يعترض عليها، وأصبح البطريرك الجالس إلى يمينه بطريركًا مسكونيًا أيضًا له حَقُّ التقدُّم على سائر البطارقة بعد بطريرك رومة. وضافت — لا بل تضاءلت — صلاحيات مجلس الشيوخ مصدر السلطة في رومة القديمة، فأضحى في هذين القرنين متفرجًا يشاهد الحوادث الجسام دون أن يكون له رأيٌّ فيها، وبات الرُّزُقُ والخضر في جملة المتفرجين لا مجالس لهم ولا صلاحيات، واستبدلوا أهازيج القتال بتراتيل الصلاة، يأتَمرون بإشارة البروتوبسالطي بدلًا من سيف القائد المغوار.

الفسيلفس والكنيسة

والدولة والكنيسة عند الروم شخص واحد؛ فالفسيلفس يتسلط على الجسم والبطريرك على الروح، ولا دولة بدون كنيسة ولا كنيسة بدون دولة،^{١٩} فالآباء رأوا في شخص قسطنطين الكبير حاميًا داعمًا، فمنحوه لقب «الساوي للرسول» Isapostolos، ولم يتنازل أحدٌ من خلفائه عن هذه المنحة، ونادى أعضاء الجامع المسكونية مرارًا بالفسيلفس

^{١٩} Epanagoge, II-III; Treitinger, O., Ostromische Kaiser, 158-159

حبراً أعظم Pontifex Maximus، ومن هنا نشأت - في الأرجح - هذه الامتيازات الروحية التي تمتع بها ملوك الروم في داخل الكنيسة كمنح ولي العهد إكليل الإكليروس، والسماح للفسيلفس بالدفاع في أثناء مسحه فسيلفساً كأنه شماس، ودخوله إلى الهيكل من الباب الملوكي، وتناوله الذبيحة بيده على المائدة المقدسة،^{٢٠} واضطر الفسيلفس في بعض الأحيان أن يتخذ موقفاً معيناً من بعض المشاكل العقائدية والإدارية الكنسية، فكان يلجأ في مثل هذه الظروف إلى دعوة المجمع المحلية أو المسكونية، فيرعاها بعنايته وينفذ قراراتها، وتطرف بعضهم ففرض الحل فرضاً كما فعل هرقل عندما تبنى القول بالمشيئة الواحدة، والفسالسة مُحاربي الأيقونات.^{٢١}

وتدخل بعض الفسالسة للمحافظة على النظام وتنفيذ قرارات المجمع، فقضى أحد قوانين يوستينيانوس الكبير (٥٣٥) بأن يحافظ هو على شرف الكهنوت فيقول كلمته في انتقاء الكهنة والأساقفة،^{٢٢} وتدخل بعضهم أيضاً فقرر بعض الأعياد الكنسية، فيوستينوس الأول (٥١٨-٥٢٧) هو الذي عمم الاحتفال بعيد الميلاد في الخامس والعشرين من كانون الأول، ويوستينيانوس الكبير هو الذي ثبت عيد دخول المسيح إلى الهيكل في الثامن من شباط،^{٢٣} وموريقيوس هو الذي حدد الخامس عشر من آب عيداً لانتقال السيدة العذراء،^{٢٤} ويعود الفضل في الاحتفاء بعيد النبي إلياس في العشرين من تموز إلى باسيليوس الأول (٨٦٧-٨٨٦) فإنه كان شديد التعلق به والتوسل إليه،^{٢٥} وفي السنة ١١٦٦ جعل عمانوئيل كومنينوس الأعياد نوعين؛ منها ما تجب البطالة فيه طوال النهار، ومنها ما تنتهي البطالة فيه عند الانتهاء من خدمة القديس.^{٢٦}

ولم تنفرد كنائسنا بهذا التدخل في شؤونها؛ فقد تعرضت كنيسة رومة أيضاً إلى مثل هذا التدخل من فسالسة الشرق وأباطرة الغرب، وهو أمرٌ معروفٌ يُجمع عليه جميع

^{٢٠} Bréhier, L., Institutions, 432.

^{٢١} Ibid., 432-435.

^{٢٢} Linginthat, Z., Nov, Just., 16 Mars, 535.

^{٢٣} Leclercq, H., Dict. Aech, Chrét., XII, 910-916, XIV, 1720.

^{٢٤} Dolger, Reg., 147.

^{٢٥} Theophanes Cont, V, 8.

^{٢٦} Dolger, Reg., 1466.

المؤرخين، وكما ناضلت كنيسة رومة في سبيل استقلالها كذلك فعلت كنائسنا، أولم ينصح البطريرك نيقولاووس إلى الفسيلفس لاوون السادس ألا يكون عثرة في سبيل الكنيسة، وأن يتصرف بما يشرف مركزه العالي، ثم لما أَصَرَ الفسيلفس على موقفه أَلَمَ يمنعه البطريرك من الدخول إلى الكنيسة، والبطريرك بوليفكتوس أَلَمَ يعترض نيقيفوروس فوقاس عندما حاول الدخول من الباب الملوكي؛ لأنه تزوج من الثانية في حياة الأولى خلافاً للناموس، ثم أَلَمَ يمنع هذا البطريرك نفسه يوحنا جيمسكي من الدخول إلى الكنيسة إلا بعد أن يقوم بشروطٍ معينة، وباسيليوس البطريرك أَلَمَ يرفض المثل أمام مجلس القضاء الأعلى مصرّاً على المحاكمة أمام مجمع مسكوني، وهل ننسى ما جاء في الأبناغونة بفضل فوطيوس العظيم، فالفسيلفس — بموجب هذه المجموعة — مسئولٌ عن الجسم فقط، أما الروح فإنها برعاية البطريرك صورة المسيح على الأرض، وهذا البطريرك لا تمس كرامته، ولا يُعتدى عليه، ولا يغيب عن البال أنه كان على الفسيلفس أن يتسلم تاجه من يد هذا البطريرك، وأن يعلن موقفه من بعض الشؤون الهامة إلى البطريرك قبل التتويج، وكان لهذا البطريرك سلطةً روحيةً على الفسيلفس؛ لأنه راعي النفوس، ومنها نفس الفسيلفس، ولأنه كان عراب الأمراء، وكان هو الذي يعلن شرعية ولادتهم.^{٢٧}

وليس من العلم بشيء أن نماشي الأب مرتينوس جوجي فنلوم الكنيسة الأرثوذكسية لخضوعها إلى الفسيلفس جاعلين من هذا الخضوع نظاماً قضى بأن يكون الفسيلفس هو البطريرك Césaropapisme.^{٢٨} وأن نضرب — في الوقت نفسه — عرض الحائط برأي كبار رجال الاختصاص أمثال أوستروغورسكي وفزيلييف وغريغوار وديل، وغيرهم.^{٢٩}

الإنجيل دستور الدولة

وقضت هذه الفلسفة الدينية السياسية بأن يُعترف عند الروم بقدسية الإنجيل الطاهر ووجوب تطبيق أحكامه، فأصبحت دولتهم ديموقراطية في تساوي أبنائها مطلقة مستبدة

^{٢٧} Dolger, Reg., 823; Grumel, Reg. I, 830.

^{٢٨} Jugie, M., Schisme Byzantin, 3-10.

^{٢٩} Ostrogorsky, G., The Byzantine State, 214-215, 217-219 n. 1; Grégoire H., The Byzantine Church, Byzantium, 129-130; Diehl, C., Problèmes de l'Histoire Byzantine, 59-61.

في تنفيذ مبادئ الإنجيل الشريف، ولم يبق فيها أيُّ تفوقٍ نظري لطبقة على سواها، وأصبح بإمكان أَوْضَع الرجال أن يتسَمَّ أعلى المراتب، أولم يكن لاوون الأول لَحَامًا ويوستينوس الأول راعيًا للخنازير وفوقاس قائد مائة ولاوون الثالث شحاذًا متسولًا وباسيليوس الأول فلاحًا ورومانوس ليكابينوس أفاقًا؟ أولم يُنعت قسطنطين الخامس بالزبلي وميخائيل الثالث بالسكير وميخائيل الخامس بالقلفاط؛ أي نَقَالَ البضائع؟ والفسيلسات ألم تكن إحداهن خزرية وأخرى مغنية وغيرها مروضة للدببة؟ أولم يكن عددٌ كبيرٌ منهن بنات موظفين عاديين؟!

وعملًا بتعاليم الإنجيل المقدس ترفع الفسيلفس عن الشموخ والتكبر فدعا إلى مائدته البؤساء والمتشردين، وفتح بابه لجميع الرعايا من عباد الله يلجونه أنى شاءوا، واشتدت عنايته وعناية البطريرك أيضًا بالمرضى والمصابين والعجز، فكثرت المآوي والمياتم ولا سيما المستشفيات، وأشهر هذه المؤسسات دير الإله القوي Pantocrator الذي أنشأه يوحنا كومنينوس (١١١٨-١١٤٣) في عاصمة ملكه، وفيه مستشفَى للرجال وآخر للنساء وثالث للأمراض المعدية، وكان يؤمه طبيبٌ أستاذ وعقاقيري ورهط من الطلبة، وكان يفاخر الأستاذ الطبيب بطريقته الخصوصية في تنظيف أدوات الجراحة وتطهيرها.^{٢٠}

وساوى الروم بين الرجل والمرأة، فكان للنساء شأنٌ كبيرٌ في الحياة الاجتماعية، وشاطرن أزواجهن السلطة في كثير من الأحيان، وشاركت الفسيلسة زوجها حق السيادة وسبقته إلى تقبل طاعة الشعب وولائه، وكان الشعب لدى خروجها من الكنيسة يهتف لها: «أهلًا بالأوغسطة المحمية من الله، أهلًا بلبسة الأرجوان، أهلًا بمحبة الكل.» ولم تكن هذه الديموقراطية وليدة نضج سياسيٍّ أو فلسفي، ولكنها تأتت بطبيعة الحال عن تَقَبُّل الإنجيل وتقبيله واتخاذه دستورًا للدولة، فالدافع نفسه الذي جعل من الفسيلفس نائبًا للمسيح على الأرض أدى إلى السعي لجعل المجتمع الأرضي مماثلًا قدر المستطاع للمجتمع الرباني، ومن هنا هذه القسوة في العقوبات عند الروم: في قطع يدي المزور وحرق المرتشي، فالقانونُ إلهي والخروج عليه خطيئةٌ تستوجب نار جهنم!

Oeconomus, L., Les Oeuvres d'Assistance et les Hôpitaux Byzantins; Codellas, S., The ^{٢٠}
.Pantocrator, Bull, Hist. Med., 1942, 392-410

البطريك

وجارت الكنيسةُ الدولةَ في نَظْمِها، فكانت الكنيسةُ واحدةً كما كانت الإمبراطوريةُ واحدةً جامعةً، وكما جاز للإمبراطورية أن يكون لها إمبراطوران أو أكثر في آنٍ واحد، كذلك جاز للكنيسة أن تخضع لأكثر من رأس واحد،^{٣١} وتقبَّلَ المجمع المسكوني الثاني (٣٨١) هذه النظرية، فأوجب في قانونه الثاني على الأساقفة ألا يتعدى أحدُهم على الكنائس التي تقع خارج حدود أبرشيته، وأقر في قانونه الثالث أن يكون التقدُّم «في الكرامة» لأسقف القسطنطينية بعد أسقف رومة «لكونها رومة الجديدة»،^{٣٢} ثم أقر المجمع المسكوني الرابع في قانونه الثامن والعشرين هذا التقدُّم في الكرامة لأسقف القسطنطينية بعد أسقف رومة،^{٣٣} ثم جاء يوستينيانوس الكبير يشترع فتعرف إلى بطاركة خمسة: بطاركة رومة والقسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية وأورشليم، واعتبرهم أساس النظام والسلطة في الكنيسة الواحدة الجامعة.^{٣٤}

الشرطنة

وهو لفظ يوناني Cherotonia ومعناها الانتخاب، وكان البطريك يُنتخب انتخاباً، فقد قضى قانون يوستينيانوس بأن ينتخب الإكليروس ووجهاء العاصمة ثلاثة فينتقي الأسقف المرطن؛ أي أسقف هرقلية أفضل هؤلاء للسدة البطريركية،^{٣٥} ثم حرَّم المجمعان النيقاوي (٧٨٧) في قانونه الثالث والقسطنطيني (٨٧٠) في قانونه الثاني عشر سيامة بطريك ينفرد أمير بانتقائه، كما حرما تدخل الشعب في الانتخاب، وأصبح انتخاب البطريك بعد هذا محصوراً في مطارنة الكرسي، وتوجب على جميع المطارنة أن يشتركوا في هذا الانتخاب، ثم جاء في كتاب التشريعات لقسطنطين السابع (٩١٢-٩٥٩) أن المطارنة ينتخبون ثلاثة ينتقي الفسيلفس أحدَهم، وأنه إذا لم يرص عن الثلاثة جاز

^{٣١} Bréhier, L., Institutions, 447

^{٣٢} Mansi, III, 559

^{٣٣} Mansi, VII, 428-429

^{٣٤} Lingenthal, Nov., Just., 109, 123, 131

^{٣٥} Lingenthal, Nov., Just., 174

له أن ينتقي رابعًا يقبل به المطارنة،^{٣٦} وبقي الحال على هذا المنوال حتى آخر أيام الإمبراطورية: المجمع ينتخب والفيلسوف يرقى.^{٣٧}

التنصيب والتولية

وكان التنصيب يتم على درجتين: إعلان اسم المنتخب Menouma وحفلة التنصيب Prozlesis، وكان الفيلسوف يدعو أعضاء مجلس الشيوخ والمطارنة وعددًا كبيرًا من سائر رجال الإكليروس إلى القصر ليقول: «إن النعمة الإلهية وقدرتنا المستمدة منها تعلنان ترقية فلان إلى رتبة بطريرك القسطنطينية.»^{٣٨} وعندئذٍ يظهر البطريرك المنتخب ليتقبل تهاني الشيوخ والمطارنة، ثم يصار إلى تنصيبه بطريركًا في الأحد التالي في كنيسة الحكمة الإلهية. فيترأس حفلة التنصيب متروبوليت هرقلية، ويقدم له الفيلسوف العكاز والمنذية والصليب،^{٣٩} ويدعى بعد هذا صاحب القداسة ويخاطبه المطارنة بالعبارة: «أيها السيد الفائق القداسة»، ويوقع هكذا: «بنعمة الله أسقف القسطنطينية رومة الجديدة والبطريرك المسكوني.»^{٤٠}

الانتقاء

وحرمت مجامع نيقية (٣٢٦) وأنطاكية (٣٤١) وسرديقة (٣٤٧) تنقل الأساقفة من كرسي إلى كرسي، فتعذر على أساقفة الكرسي القسطنطيني أن يَنْبَوْا السدة البطريركية. والواقع أنه لم يرق هذه السدة من أساقفة الكرسي القسطنطيني سوى ستة بين القرن السادس والقرن الثاني عشر، وسوى أحد عشر بين السنة ١١٦٩ والسنة ١٤٤٠. وهكذا فإن انتقاء البطاركة كان يتم — في غالب الأحيان — من بين الكهنة والرهبان، وأثر

^{٣٦} Vogt, A., Livre des Cérémonies, II, 14, (1040–1048)

^{٣٧} Codinus, LV, 20 (101–102), Symeon de Thessalonique, 224

^{٣٨} Vogt, A., op. cit., II, 14, (1044)

^{٣٩} Ibid., II, 14 (1040–1048) 38 (1177)

^{٤٠} Bréhier, L., Investiture des Patriarches de Constantinople, Misc, Merca, III, 3658, ff.;

Laurent, Byzantion, 1929, 629–631

الأساقفة المنتخبون أعضاء السنودوس كهنة كنيسة الحكمة الإلهية على سواهم، فرقوا في القرون الأربعة بين السنة ٣٧٩ والسنة ٧٠٥ ثمانية عشر كاهناً من كهنة هذه الكنيسة إلى السدة البطريركية وسبعة من كنائس القسطنطينية الأخرى وثلاثة عشر كاهناً من كنائس آسية الصغرى وأنطاكية وأسقفاً واحداً وعلمايين اثنين وثلاثة رهبان. وتخرج معظم هؤلاء من مدارس القسطنطينية أو أثينة أو الإسكندرية أو أنطاكية، فتحلوا بالعلم العالي وبسعة الاطلاع، وما بين السنة ٧٠٥ والسنة ١٢٠٤ رقي السدة القسطنطينية خمسة وأربعون راهباً وخمسة عشر كاهن رعية، وسبعة علمانيين وستة أساقفة.^{٤١}

صلاحيات البطريرك

والبطريرك بموجب الأبناغوغة (٨٨٤-٨٨٦) معلم الكنيسة الأكبر ومفسر عقيدتها الأوحد، وهو صاحب السلطة الإكليريكية العليا، ينظر في ما يستأنف إليه من القرارات فيبرمها أو يلغيها، وتمتع بموجب نص الأبناغوغة بحق الستافروبيغية؛ أي بالسلطة المباشرة على كل ما يفرز فيه صليبيه في جميع الأبرشيات الخاضعة لسلطته الروحية، فزاد هذا الامتياز نفوذه ودخله في آن واحد،^{٤٢} وكانت قراراته thespismata نافذة مَرعيةً الإجراء في جميع أنحاء الإمبراطورية، وكانت تصدر في ظاهرها عنه وحده، ولكنه قلماً أقدم عليها بدون موافقة لجنة السنودوس. وكان البطريرك يدعو السنودوس بكامله إلى الانعقاد للنظر في المسائل الهامة كإعداد اعتراف بالإيمان أو النظر في قضية عقائدية أو اتخاذ إجراء إداري هام،^{٤٣} فلما عظم أمره وكثرت مشاغله وتنوعت؛ نشأ حوله — في أواخر القرن الخامس أو أوائل السادس — سنودوس دائم، شمل مطارنة الأبرشيات القريبة من القسطنطينية، وعرف بالسنودوس الإنذموسى Endemousa، وظل السنودوس الأكبر الذي شمل جميع المطارنة هو المرجع الأخير في المشاكل الهامة، وعند تأزم الأمور كان البطريرك يدعو إلى الاشتراك في أعمال المجمع الأكبر وجهاء الشعب وأعضاء مجلس

^{٤١} Bréhier, L., Institutions, 482-486.

^{٤٢} Lingenthal, Nov. Leon VI 31 ff.; Mitard, Mélanges Diehl, I, 220.

^{٤٣} Grumel, Reg., 805, 839.

الشيوخ، فيتحول السنودوس إلى «مجمع عام» يمثل أكبر كبراء الكنيسة القسطنطينية من إكليريكيين وعلمايين.^{٤٤}

وظل البطريرك صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في أمور الليتورجية، فكان هو وحده يقر الأعياد الجديدة، ويعدّل التقويم الكنسي، ويشرف على ممارسة الأسرار؛ بيد أن واجبه الأكبر قضى بالسهر على انضباط الإكليريكيين وتقديمهم بالأنظمة المرعية الإجراء، فكان عليه أن يقمع الفساد ويؤدب العصاة والمعاندين، وكان يستند في تنفيذ أحكامه إلى تعاؤن وثيق مع السلطات الزمنية، وإلى امتيازات خصه بها العرف والقانون، وأهم هذه أنه كان له حق الإشراف على انتخاب الأساقفة وحق الامتناع عن الاعتراف بقانونية الانتخاب، فكان الأسقف المنتخب يظل أسقفًا منتخبًا إلى أن ينال من يد البطريرك الأوموفوريون Omophorion رمز السلطة الروحية.^{٤٥}

وكان التشريع في الأحوال الشخصية لا يزال محصورًا كغيره من أنواع التشريع في يد الإمبراطور، وكان شغل لاوون السادس (٨٨٦-٩١٢) الشاغل أن يكون له ولدٌ ذكرٌ يخلفه على العرش، وماتت زوجته فتزوج ثانية، ثم ثالثة، ثم رابعة، غير مكترث بنصوص القانون الذي سنّه هو نفسه، فكانت مشادة بينه وبين البطريرك أدت إلى نزول هذا عن كرسيه، ولكنها لم تنته عند هذا الحد، فالكنيسة أصرت على شجب الفسيلفس وتوصلت في السنة ٩٢٠ إلى إصدار قرار أسمته كتاب الاتحاد Tomos Enouseous منعت فيه الزيجة الرابعة منعا قطعياً، وحرمت على المتجاسر عليها الدخول إلى الكنيسة، ونعتت الزيجة الثالثة بالدناسة ومنعتها على الذين لهم أولاد، والذين يزيد عمرهم على الأربعين، ووضعت المتزوجين الزيجة الثالثة تحت قصاص الابتعاد عن المناولة خمس سنوات،^{٤٦} فانتمرت بذلك انتصاراً باهراً، وبدأت تنتزع حق التشريع في أمور الزواج والأحوال الشخصية من يد الفسيلفس والسلطات الزمنية، ثم جاء البطريرك أليكسيوس الأستودي (١٠٣٨) فلم يسمح بالزواج في درجة القربى السابعة إلا بعد الندامة والتوبة،^{٤٧} وتبعه

Acte Synodal de Georges Xiphilin, 1191, éd. Papadopoulos kerameus, Byz. Zeit., 1902, ^{٤٤} .75 ff

Chrysanthos, Hist. of the Church of Trebizonde, 178; Concile de Constantinople, 870, ^{٤٥} .Canon 12; Monnier, H., Les Nouvelles de Léon le Sage, 34-35

.Grumel, Reg, 669 ^{٤٦}

.Grumel, Reg, 844, 845, 847 ^{٤٧}

البطريك ميخائيل كيولاريوس (١٠٤٣-١٠٥٩) فحرم هذه الزيجة تحريمًا،^{٤٨} وأصبح التشريع في أمور الزواج بعد هذا حقًا من حقوق الكنيسة.^{٤٩}

البطريكية

وقام القصر البطريكي Patriarchéion إلى جانب كاتدرائية العاصمة كنيسة الحكمة الإلهية، وأطلَّ بواجهته الجميلة على الفوروم الأوغسطيني، وحَوَى في طابقه السفلي مكتبة البطريكية وقاعتَي المحاكمة السكريتون العظمى والصغرى وقاعة السندوس، وكان يربط هذا القصر بكنيسة الحكمة الإلهية من جهته الخلفية ممرٌ يؤدي إلى منابر الوعظ والإرشاد.

ولم تختلف الإدارة البطريكية في أوائل عهدها عن إدارات المطرانيات، فتألَّفت من إكليريكين يعاونون الأسقف في القيام بواجباته الطقسية وفي قضاء حاجات الشعب الخاضع لسلطته، ثم تطورت ظروفُ أسقف القسطنطينية، فأصبح بطريركًا ثم بطريركًا مسكونيًا، فتنوعت الواجبات وتعددت، وكثُر عددُ الموظفين وتفاوتوا في الأهمية، فأصبحوا طبقات. ويقدر العلماء عدد الإكليريكين في البطريكية القسطنطينية في هذا العهد الذي نحن بصده بحوالي خمسمائة، كما يرجحون أنَّ عدد كبار الموظفين لم يتجاوز الخمسة والأربعين موظفًا، ويرون أن أهم هؤلاء كانوا خمسة: السنكلوس والإيكونوموس والسكيلاريوس والسكيفوفيلاكس والخرتوفيلاكس.

أما السنكلوس Sugkellos فإنه كان في البدء أمين سر البطريك، وموضع ثقته فيه ومعاونه الأول في الإدارة، وعظم أمره فاعتبر — في غالب الأحيان — وريث البطريك وخليفته، فرقي السدة البطريكية بين عهد يوحنا القبدوقي (٥١٨) وعهد ميخائيل كيولاريوس (١٠٤٣) ثلاثة عشر سنكلوسًا،^{٥٠} وتدخل الإمبراطور بانتقاء السنكلوس، وتمت ترقِيته إلى منصبه في قصر الإمبراطور،^{٥١} ومنح مرتبة خصوصية في

^{٤٨} Lambros, Byz. Zeit., 1896, 565

^{٤٩} Brehier, L., Institutions, 492

^{٥٠} Athenagoras, Ann. Soc. Etudes Byz., IV, 1928, 9-10

^{٥١} Constantin VII, Ceremoniis, éd, Reiske, II, 5

التشريعات الإمبراطورية، وتقدم على المطارنة^{٥٢} وعهد إليه بمهام سياسية،^{٥٣} فأصبح رجل الإمبراطور في البطريركية، ثم تطورت الظروف، فمنح الإمبراطور هذا اللقب المطارنة المقربين، فنشأت مشادةً بينهم وبين زملائهم الذين لم يحملوا هذا اللقب؛ انتهت بشغب يوم عيد العنصرة في كنيسة الحكمة الإلهية في السنة ١٠٢٩، فظهر عندئذٍ لقب البروتوسنكلوس.^{٥٤}

وعُني الأيكونوموس Oikonomos بتدبير مصالح البطريركية المادية، وكان عليه أن يفتش الأوقاف ويَجْبِي دَخْلَهَا، وكانت هذه الأوقاف كثيرةً متنوعة، منها الأراضي الزراعية والقرى والأديرة، وتَوَجَّبَ على الأيكونوموس أن يتسلم المعونات السنوية من صندوق الدولة، وأن يُشرف على إنفاقها.^{٥٥}

وسكيلاريوس الإمبراطور هو حارس السكليون Sakellion أي أمين الصندوق، أما سكيلاريوس البطريرك فإنه كان ناظر الأديرة وحافظ النظام فيها.^{٥٦}

وحفظ السكيفوفيلاكس Skeuophylax الأواني المقدسة والبدلات الحبرية وكتب الخدمة المقدسة، وأعد كل ما لزم لخدمة القداس، ومن هنا اهتمامه بالقمح والخمر والزيت والشمع وما نتج عن ذلك من مشاكل، ولا يخفى ما وصلت إليه الأواني المقدسة من ترصيع وتزيين وتجميل وما حوته البدلات الحبرية من جواهر.^{٥٧}

ويُستدلُّ من أعمال الجامع أن الخرتوفيلاكس Chartophylax كان في القرنين السادس والسابع مدير محفوظات البطريركية وأمين مكتبتها،^{٥٨} ثم أصبح في القرن التاسع أكبر كبراء البطريركية وأقرب المقربين إلى البطريرك، يحل محله عند الحاجة

^{٥٢} Athenagoras, op. cit., 12–14.

^{٥٣} Ibid., 25 ff.

^{٥٤} Grumel, Les Metropolitans Syncelles, Et. Byz., 1945, 92 ff.; Athenagoras, op. cit., IV, 31 ff.

^{٥٥} Grumel, Reg. 768–769, 772, 774; Dolger, Reg., 1956; Codinus, ps., Officialibus, éd. Will, I, 23.

^{٥٦} Codinus, ps., Officialibus, I, 25–26; Siméon de Thessalonique, Sacri ord., 242 (461).

^{٥٧} Codinus, op. cit., I, 25–26; Siméon de Thess., op. cit., 242 (461); Athenagoras, op. cit., IV, 4–5.

^{٥٨} Dvornik, Légendes 53; Mansi, VIII, Col. 1035, X, Col. 1000, XI, Col. 214–216.

وينفذ القانون باسمه،^{٥٩} ونراه في القرن الحادي عشر مسيطراً على جميع أعمال البطريركية مقدماً على المطارنة في التشريعات الملكية؛ «لأنه فم البطريرك ويمينه»،^{٦٠} وشملت المحفوظات التي تولى حفظها القوانين الملكية والأحكام البطريركية واعترافات الأساقفة بالإيمان وأعمال المجامع المسكونية والمحلية ولوائح الأساقفة. وكانت هذه الأوراق جميعها تختم بخاتم البطريرك وتوقع بتوقيع الخرتوفيلاكس. وقضى الواجب أن يعنى الخرتوفيلاكس بجميع الكتب الكنسية والمحافظة على سلامتها، ومنع كل دس فيها ومقابلتها عند الاقتضاء بغيرها وترجمتها،^{٦١} وتنوعت أعماله الإدارية واتسعت صلاحياته، فكان عليه أن يحقق في كل ترقية إكليريكية قبل السماح بها، وكان عليه أيضاً أن يشرف على انتخابات الأساقفة، وأن يراقب جميع كهنة القسطنطينية ورهبانها، وكان يجلس للنظر في سلوك الإكليريكيين فارضاً الندامة والتوبة ومهدداً بالقطع إذا قضت الظروف بذلك، وكان يفصل في دعاوى الزواج والطلاق. وكان عليه — بالإضافة إلى هذا كله — أن يَفُضَّ جميع الرسائل الموجهة إلى البطريرك المسكوني، وأن يقترح أجوبتها، ولم يستثن من هذه سوى رسائل البابا والبطاركة.^{٦٢}

وشملت الحاشية البطريركية موظفين آخرين أبرزهم أمر السكليون؛ أي السجن البطريركي، وله حق الإشراف على كنائس القسطنطينية والرفرندياريوس Referendarius ناقل رسائل البطريرك إلى القصر الملكي والمنذاتون Mondaton معلى الطقوس اليومية، والأيبوميمنسكون Hypomimneskon معادل الميستيكوس في القصر والأيرومنمون Hieromnemon المشرف على فرز الأصوات في الانتخابات الواقف وراء البطريرك يوم التتويج، وأساتذة المدرسة البطريركية وأمين الإنجيل والواعظ ومفسر الأسفار المقدسة، ومن هؤلاء الموظفين الكاتاستاسيوس المراقب العام في الخدمة الإلهية والبروتوباباس معاون البطريرك في الهيكل، والبروتوبيسالتيس المرتل الأول والنوميكوس مدير الموسيقى.

^{٥٩} Fortescue, Dict, Arch. Chrét. III, Col. 1015.

^{٦٠} Dolger, Reg., 1175; Nicole, Byz. Zeit, 1894, 19.

^{٦١} Beurlier, Bull. Soc. Aniiq. Fr., 1895, 92-93; Balsamon, Meditations, P. G., Vol. 104, Col.

.1083

^{٦٢} Fortescue, op. cit. Col. 1017; Grumel, Reg., Preface, XII.

الأساقفة

وبينهم المطارنة في مراكز ولايات الدولة ورؤساء الأساقفة في مناطقهم المستقلة والأساقفة في المدن وأمهات القرى، وكان البرديوت «الإكليريكي الزائر» قد حلَّ محلَّ الخوراسقف. وقضت قوانين يوستينانوس بأن ينتخب الأسقف انتخابًا، وبأن يشترك في هذا الانتخاب إكليروس الأبرشية ووجهاء المركز، فيتفقون على ثلاثة ينتقي الأسقف المرطن أليقهم، وكان هذا الأسقف المرطن إما متروبوليت الولاية أو البطريرك أو ممثله. وقضت هذه القوانين أيضًا بأن يكون المرشح قد أكمل الخامسة والثلاثين من العمر، وأن لا يكون قد تزوج مرتين، وألا تكون زوجته قد ترملت من قبل،^{٦٣} وجاز انتخاب العلمانيين لهذه الدرجة شرط التدرُّج في مدة من الزمن لا تقل عن ثلاثة أشهر،^{٦٤} وتوجَّب على المرشح أن يكون عالمًا مطلقًا، وأن يتَمَكَّن من الإجابة عن الأسئلة التي يوجهها إليه الأسقف المرطن.^{٦٥} وأوجب الآباء في مجمع نيقية الثاني على المرشح لدرجة الأسقفية أن يُعيد المزامير عن ظهر القلب،^{٦٦} وحُرمت السيمونية تحريمًا واعتُبر العاطي والآخذ مشتركين في الجرم.^{٦٧}

وظل هذا التشريع نافذًا طوال قرون متتالية، فقد ورد بتمامه في بروخيرون باسيليوس الأول (٨٧٨)،^{٦٨} وجُلُّ ما أُضيف إليه أن آباء مجمع نيقية الثاني أوجبوا خلع الأسقف الذي يصل إلى كرسيه بتدخل علماني،^{٦٩} وأن آباء المجمع الخامس السادس حرّموا العيشة الزوجية، وأوجبوا على كل إكليريكي متزوج يصل إلى رتبة الأسقفية أن يبتعد عن زوجته فيدخلها ديرًا بعيدًا عن مركز عمله.^{٧٠} وألغى لاوون السادس القانون

^{٦٣} Nov. Jus. 6 (535), 123 (546).

^{٦٤} Nov. Jus. 123 (546).

^{٦٥} Nov. Jus. 6,8.

^{٦٦} Mansi, XIII, Col. 417-418.

^{٦٧} Nov. Jus. 6, 9.

^{٦٨} Prochiron de Basile, éd, Lingenthal, 28, 155-160; Vast, H., le Cardinal Bessarion, 272.

^{٦٩} Mansi, XIII, Col. 419-422.

^{٧٠} Mansi, XI, Col. 945-948, 965.

الذي منع انتخاب أسقف أبي ولد شرعي وسمح للأساقفة بإعالة ذويهم المعوزين،^{٧١} وحرّم وصول عبد آبق إلى الكرسي وأوجب إعادته إلى سيده.^{٧٢}

وحاول الأباطرة التّدخّل في الانتخابات، وتدخلوا، ولكن الكنيسة قاومتهم مقاومة عنيفة، فالبطريك تراسيوس حارب تدخّل الفسيلفس في السنة ٧٩٠ في انتخاب أسقف أماستريس ولم يعترف إلا بمرشح الشعب والإكليروس،^{٧٣} وكان نيقيفوروس فوقاس قد أصدرَ قانونًا قضى بوجوب موافقة الفسيلفس على ترشيح الأسقف، فهبّ بوليفاكثوس البطريك يحاول إلغاء هذا القانون، فاستغل ظروف يوحنا جيمسكي وأكرهه على الإلغاء،^{٧٤} وفي السنة ١٠٧١ ألغى السنودوس انتخاب أسقف برناسوس بعد أن ثبت تدخّل الفسيلفس.^{٧٥}

ولم يحصر القانون حق الترشيح، بل أباحه لجميع الإكليريكين على السواء،^{٧٦} ولكن ظروف الإكليريكين المقربين من البطريك والمطارنة عاوتهم على الوصول إلى الكرسي الأسقفيّ أكثر من غيرهم، وكاد التشريع ينحصر بعد أوائل القرن الثامن برؤساء الأديار وكبار الرهبان، ثم قدمت السلطات الروحية شمامسة الكرسي البطريكي ومُتخرّجي المدرسة البطريكية وأساتذتها على غيرهم، فتميز رهط من الأساقفة بعلمهم وثقافتهم أمثال يوحنا مفروبوس أسقف أفخايتة وثيوفيلاكثوس أسقف أوخريدة وأفستاثيوس أسقف ثسالونيكية، ولم يقتصر في الترشيح على الرهبان إلا بعد القرن الرابع عشر.^{٧٧}

واجبات الأساقفة وامتيازاتهم

وقضى القانونُ والعرفُ والتقليد على الأسقف بأن يكون نبيل النفس حُرّ الخلال محمود السمائل، وقورًا محترمًا، وأن يخضع لرئيسه متروبوليت الولاية، وأن يبقى في أبرشيته

٧١ .Léon VI, Nov. ed, Lingenthal, 16-17; Monier, H., Les Nov. de Léon le Sage, 173

٧٢ .Monier, H., op. cit., 66

٧٣ .Vie de Saint Georges d'Amastris, 15-20

٧٤ .Dolger, Reg. 723, 726; Schlumberger, G., Epopée, III, 16-17

٧٥ .Kougeas, Melanges Sp. Lambros, 574-579

٧٦ .Nov. Jus., 6 (535)

٧٧ .Bréhier, L., Institutions, 511-512

فلا يبرحها إلا لضرورة، وأن يكرس وقته للوعظ والإرشاد، وألا يطمع في المال ويجمعه لنفسه. وكان مطلق السلطة في المسائل الإكليريكية،^{٧٨} معفى من معظم الضرائب غير خاضع لسلطة الوالدين،^{٧٩} لا يطلب للشهادة أمام المحاكم إلا بإذن الفسيلفس،^{٨٠} وكان حُرَّ التصرف بأمواله الشخصية التي توفرت لديه قبل السيامة، أما دخله بعد السيامة فإنه اعتبر مالاً كنسياً لا يجوز إنفاقه بصورة شخصية،^{٨١} وحرّم على الأسقف تعاطي الأعمال المدنية كجباية الضرائب وتصفية الثروات وقبول الوصاية،^{٨٢} ولكنه توجّب عليه الإشراف على اقتصاديات الأسقفية والمؤسسات الخيرية الخاضعة له.^{٨٣}

الكهنة

وظل هؤلاء متزوجين — كما جرت العادة من قبل — وحرمت القوانين انفصالهم عن زوجاتهم، وأجيز لهم في أواخر القرن التاسع الزواج حتى نهاية السنة الثانية بعد الرسامة، ثم جاء لاوون السادس فأبطل هذا التوسع.^{٨٤}

واحتفظت كنيستنا بالشماسات قرونًا طويلاً، وفرضت عليهن شروط بولس الرسول في رسالته الأولى إلى تيموثاوس: «لا تكتتب في عداد الأرامل إلا التي لها ستون سنة على الأقل، ولم تتزوج إلا مرة واحدة، ويشهد لها بالأعمال الصالحة بأن تكون قد أحسنت تربية أولادها وأضافت الغرباء وغسلت أقدام القديسين وأمدت المتضايقين وسعت في كل عمل صالح.» (٥: ٩-١٠)، ولكنهن بقين غير إكليريكيات لا يحق لهن الوعظ أو ممارسة الأعمال الكهنوتية، واكتفين بمعاونة الكهنة فكن يرأسن تعميد النساء ويعلمن الموعوظات ويراقبن النساء المؤمنات في الغوناكيون *gunaikeion* (مد النساء) في أثناء القدّاس الإلهي، وكُنَّ أيضًا يتفقدن المرضى والمصابين، وكان قانونُ يوستينيانوس قد

^{٧٨} Epanagoge Basilii, VIII, 1 (77); Vogat. A., Basile I, 273

^{٧٩} Prochiron de Basile éd. Lingenthal, XXVI, 78 (145)

^{٨٠} Barhebraeus, III, 1

^{٨١} Prochiron de Basile, XXIV, 1 (133)

^{٨٢} Epanagoge Basilii, IX, 1

^{٨٣} Ibid., IX, 9

^{٨٤} Nov. Léon VI, éd. Lingenthal, 3, 79; Monier, H., Nov. de Leon, 24

قضى بعد قبولهن بهذه الدرجة قبل الخمسين، وبوجوب محافظتهن على الآداب والوقار، فإذا ما أجمعت بالنذر فحذن عن السيرة الحسنة أو تزوجن عُوقِبْنَ بالموت،^{٨٥} ثم لَطَّفَ هذا القانون في عهد باسيلْيوس الأول وقبلن شماسات في الأربعين من العمر،^{٨٦} وما فتئن يعملن في حقل الرب حتى القرن الثالث عشر، وزالت الحاجةُ إلى تعميم النسوة، وأصبحن كلهن معمَّدات في الصغر، فزال السببُ الرئيسي لوجود الشماسات وانقطعت أخبارهن.^{٨٧} وكانت القوانينُ المدنية والكنسية قد ميزت الكهنة بما يزيدهم وقارًا واحترامًا؛ باللباس واللباس الخصوصي وشارة الصليب على القلنسوة لكبرائهم في ثسالونيكية، وبصيانتهن وعدم الاعتداء عليهم وبإعفائهم من بعض الضرائب، ومن السخرة والخدمة العسكرية، ويحصر النظر في دعاويهم أمام محاكم الأساقفة. وكان قد أبيض لهم العمل لتأمين الرزق، فمنعهم لاوون السادس من معاطاة المحاماة وغيرها من الأعمال المدنية، وحرَّم عليهم العمل بالأجور كإدارة الأملاك.^{٨٨}

الرهبان

ولعب الرهبان دورًا هامًا في الكنيسة والدولة، ولم ينتموا — بادئ ذي بدء — إلى طغمة الإكليروس، وإنما اعتُبروا علمانيين مربوطين بنذر وجب القيام به على أكمل وجه بإشراف الأساقفة، ثم تدرج بعضهم في سلم الكهنوت وبقي معظمهم علمانيين، فعرف الإكليريكيون منهم بالرهبان المقدسين hieromoiens. ثم تكاثر هؤلاء المقدسون فعظم شأنهم، وما فتئوا يتقدمون حتى احتكروا الكرسي الأسقفية.

وعرف الروم نوعين من الترهّب: الشرقي والباسيلي، وتَمَيَّزَ التَّرهُّبُ الشرقيُّ بالتأمل والانفراد، فكان الراهب منفردًا منعزلًا monos monomakos يعيش في صومعة مقفلة egkleistoi أو على عمود stulites أو على شجرة dendrites. وجاء القديس باخوميوس في القرن الرابع فجمع هؤلاء الزهد حول دير معين يعيشون فيه مجتمعين، وتكتل

^{٨٥} Nov. Jus., 6 (535), 123 (546).

^{٨٦} Vogt, A., Basil I, 279-280.

^{٨٧} Balsamon, P. G., Vol. 137, Col. 442, Vol. 138, Col. 987; Blastares, P. G., Vol. 119, Col.

.1272

^{٨٨} Nov. Leon, 86; Spulber, C., Etudes de Droit Byzantin, Nov. 86, 288

النسك في فلسطين، فعاشوا في صوامعَ قريبة، واشتركوا في مائدة واحدة وصلاة واحدة مرة في الأسبوع،^{٨٩} أما الطريقة الباسيلية فإنها تميزت بالعيشة المشتركة والعمل المشترك والطاعة، ووافقت هذه الطريقة ظروفَ المناطق اليونانية في آسيا وأوروبا فانتشرت انتشارًا واسعًا، وقامت الصوامعُ والأديارُ في كُلِّ مكان، وأشهرها أديرةُ جبل القديس أوكسندوريوس وجبل أوليمبوس في بيثينية وجبل آثوس في شبه جزيرة خلقيزية وجبل الميتورة في ثسالية.

وحدد القديس باسيليوس ساعات الصلاة والدرس والعمل والأكل والنوم وعين نوع اللباس وتفصيله، واكتفى بعدد محدود من الرهبان في الدير الواحد ونهى عن الكثرة، وصعب الخروج من الدير والدخول إليه، وأوجب الطاعة الكاملة للرئيس. وأقبل الناس على الترهّب جماعات واندفعوا في سبيل الرهبنة وانفردوا في تأسيس الأديار فأحدثوا بلبله وتشويشًا، فاتخذ المجمع المسكوني الخلقيدوني (٤٥١) قراراتٍ منعت تأسيس الأديار قبل موافقة الأسقف صاحب العلاقة، وأوجب إقامة الرهبان في الأديار وعدم خروجهم منها بدون إذن الأسقف، كما أوضحت أن واجب الرهبان الأول هو الصوم والصلاة في الأديرة، وحرمت على العبد تقديم النذر بدون موافقة سيده، كما منعت الزواج بعد تقديم النذر.

وجاء يوستينيانوس (٥٢٧-٥٦٥) فاشترع قوانينَ اعترف بها بقدسية الحياة الرهبانية، ثم اتخذ من مبادئ القديس باسيليوس الكبير وقرارات المجمع أساسًا للتنظيم، فمنع إنشاء الأديرة في أية أبرشية قبل موافقة أسقف هذه الأبرشية وبركته،^{٩٠} وأوجب إحاطة الدير بسور ومراقبة بابه،^{٩١} وحرّم بعد ذلك انطلاق الرهبان «التائهين» الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر مستعطين خبزهم اليومي، وأبعد أديرة الراهبات عن أديرة الرهبان وفرق بين الأسكيتيرية asketeria أديرة التائبات وأديرة الرهبان،^{٩٢} وجعل على كل دير رئيسًا بلقب أيغومينس hegoumenos، ومعناه المدير أو أرشمندريت

Besse, dom, Les Diverses Sortes de Moines en Orient avant le Concile de Chalcédoine, ^{٨٩}

.Rev. Hist. Relig., vol. 40, 159 ff.; Jerphanion, G., La Voix des Monuments, II, 111 ff

.N. J., 67 (538) ^{٩٠}

.N. J. 5 (535) ^{٩١}

.C. J., I, 3, 43 (529) ^{٩٢}

archimandrites ومعناه حارس الحظيرة،^{٩٣} ومنح الراهبات حق انتخاب هذا الرئيس، وأوجب خضوعهم للتفتيش، فكان على البطريرك أن يُوفد أكسرخوسًا لهذه الغاية مسلحًا بالتعليمات البطريركية الـ Entalma.^{٩٤}

ولم يتعرضُ يوستينيانوس لنُظْم الرهبان الداخلية، فكان على المؤسس أن يذكر أھمَّها في تيبكيون Typikon التأسيس، وكان للرئيس والأسقف حق الإضافة والتعديل، وواظب الرهبانُ منذ عهد القديس باسيليوس الكبير على صلوات الساعات السبع بما فيها من صلوات الميسونوكتيكون Mesonuktikon وصلوات الأورثروس Orthros، وكان من حسن حظ كنيستنا أن أوجب القديس سابا بالتببكيون تقدُّم اللغة اليونانية على السريانية والعربية، فأكره الرهبان السريان والعرب أن يشتركوا في ليتورجية الكنيسة الكُبرى بعد إقامة الصلاة بلغتهم في الكنائس الصُغرى، فظلت كنيستنا — بفضل هذا التدبير — على صلة وثيقة بكنائس اليونان واللاتين، وتسنى لها متابعة الفكر الكنسي الجامعي والاشترك فيه، وقضى هذا التيبكيون أيضًا بأن يكون الأيغومينس يونانيًا، أو في الأرجح مهلنًا يُجيد اللغة اليونانية.^{٩٥}

ودافع الرهبانُ دفاع الأبطال عن الأيقونات، فذاقوا الأمرين في عهد قسطنطين الخامس (٧٤٠-٧٧٥)، ثم انتصروا فعادوا إلى سابق عزمهم وسطوتهم، فحاول البطريرك القسطنطيني نيقيفوروس الأول (٨٠٦-٨١٥) أن يحد من غلوائهم، ثم جاء الفسيلفس نيقيفوروس فوقاس (٩٦٣-٩٦٩)، فمنع إنشاء الأديرة الجديدة وتوسيع القديمة، ولكن الفسيلفس باسيليوس الثاني (٩٧٦-١٠٢٥) ألغى هذه الأحكام، فعاد الرهبان إلى سابق عهدهم.

القديس ثيودوروس الأستودي (٧٥٩-٨٢٦)

وأدى هذا التضيقُ الشديدُ على الرهبان إلى تفكيرٍ جدِّي في الرهبة والترهب، وقام في الجبل المقدس نفسه في جبل أوليمبوس من دعا إلى الإصلاح والتجدد، فظهر — بادئ ذي بدء — القديس يوانيكوس الكبير الذي اشتهر بالفضيلة والتقوى، وأسس في

^{٩٣} Dict. Arch. Chrél., I, Col. 2739

^{٩٤} N. J. 133 (539)

^{٩٥} Dimitrijevsckij Travavx de l'Academie de Kiev, 1890; Kurtz, Byz. Zeit., 1894, 168-170;

Laures Palestiniennes, Dict. Arch. Chrét. IX, 1966-1976

أوليمبوس ثلاثة أديار كانت حياته المثلية فيها أكبر رادع عن الشر وأشدّ دافع للخير، وهو الذي علمنا أن نقول: «الأب رجائي والابن ملجائي والروح القدس وقائي، أيها الثالث القدوس المجد لك.»^{٩٦}

وظهر أيضًا ثيودوروس المعترف الأستودي، أبصر النور في القسطنطينية في السنة ٧٥٩، ونال حظًا وافراً من التربية الصالحة والعلوم الفلسفية، ثم عافت نفسه الدنيا وما فيها في الثانية والعشرين من عمره، فلجأ وجماعة من رفاقه إلى عقار له في السكوديون في جبل أوليمبوس، ووضع نفسه ورفاقه تحت تصرف خاله القديس أفلاطون الذي كان قد سبقه إلى العزلة والتأمل في دير السكوديون، ونذر ثيودوروس نفسه فبهر أقرانه بالتقوى والصلاح والمحافظة على التقليد الرهباني، فرقاه البطريرك تراسيوس في السنة ٧٨٤ إلى رتبة الكهنوت. وألمّ بخاله مرضً عضالً، فأوصى بانتخابه رئيساً على دير السكوديون، فأصبح هيغوميناً في السنة ٧٩٤.٩٧

وقام ثيودوروس بأعباء الرئاسة بجدّ ونشاط وغيره وتّفانٍ، فقدس نفسه قبل تقديس غيره واحترم القوانين ليحترمها غيرُهُ، فسطعت الحياة الرهبانية في السكوديون بكل سناها، وكان خطير النفس رفيع الأهواء فصبا إلى إصلاح كامل يشمل الحياة الاجتماعية بأسرها، فطالب بتطبيق المبادئ المسيحية في جميع النواحي، وقال باستقلال الكنيسة وحرّيتها في انتخاب أساقفتها، وأوجب مكافحة السيمونية، وخلص من رشا للوصول إلى الكرسي، ومحاربة من لم يحترم الأيقونات ومن غالط في العقيدة وأنب كل تهتك دنس.^{٩٨}

واتخذ ثيودوروس موقفاً حازماً من الفسيلفس قسطنطين السادس؛ لتشبّهه في تطبيق امرأته الشرعية ثيودورة، فنفي إلى تسالونيكية هو ورهبانه في السنة ٧٩٥، ثم أعادته إيرنية في السنة ٧٩٧، ثم ألقى المسلمون البلاد وظهرت ثلاثُ جيوشهم في بيثينية، فرحل ثيودوروس وجماعته في السنة ٧٩٩، واستقروا في دير الستوديبوس Stoudios

^{٩٦} Van Den Gheyn, Acta Sanct. Boll. Nov., 325–371.

^{٩٧} Vie de Saint Théodore, P. G. Vol. 99, Col. 236–241, 248–249; Dvornik, F., Legendes,

.115; Marin, Saint Théodore, 24–25.

^{٩٨} Berhier, L., Institutions, 541.

في القسطنطينية،^{٩٩} فأَمَ الرهبان هذا الدير من كل حذب وصوب حتى فاق عدُّهم الألف،^{١٠٠} ولم ينعم ثيودوروس براحة البال طويلاً؛ فإن لاون الخامس الأرمني (٨١٣-٨٢٠) أثار على الكنيسة والرهبان حرباً أليمة سبقت الإشارة إليها، واضطهد هذا الفسيفس ثيودوروس ورهبانه بأنواع منوعة من الإهانة والسجن والنفي، ومات لاون فقضى ثيودوروس البقية الباقية من حياته في ديريه مطمئناً متفرغاً للإرشاد والإصلاح، وردد بيسوع شيخاً طاعناً سنة ٨٢٦.

وقسم ثيودوروس العمل الرهباني إلى دوائر معينة، وأقام على رأس كل دائرة قيماً جعله مسئولاً عن عمله فيها، وحدد ثيودوروس الواجبات في هذه الدوائر المختلفة ونظمها نظماً؛ ليسهل على الرهبان حفظها. ثم اشترع قانون عقوبات لمن خالف هذه القوانين، ودعا الرهبان إلى اجتماعٍ عامٍّ ثلاث مرات في الأسبوع ليعظهم في التقوى والطاعة وضبط النفس والاندفاع في سبيل العمل المشترك، ودونت هذه الإصلاحات في مصنفاته، ولا سيما الكاتيكسيسيس Katekesis الصغير بعظاته المائة والأربع والثلاثين،^{١٠١} والكاتيكسيسيس الكبير بأقسامه الثلاثة وعظاته السبع والسبعين،^{١٠٢} وقد خُذَّ شخصيته في رسالته إلى تلميذه نقولاوس، فلتراجع قبل غيرها،^{١٠٣} وأما التيبكيون الذي يُعزى إلى القديس ثيودوروس فإنه في الحقيقة تطبيقٌ معدل الأنظمة الأستودية في أديرة مختلفة.^{١٠٤}

وتتجلى مبادئ ثيودوروس في تيبكيون دير الإفرنجيتيس Evergestis الذي أُنشئ في القسطنطينية في أوائل القرن الحادي عشر، فقد حدد هذا التيبكيون كيفية الترتيل والتكريس والتطهير، وبين ساعات الصلاة في الليل والنهار وأوجب إقامة القداس الإلهي يومياً. وأجاز المناولة ثلاث مرات في الأسبوع للرهبان المقدمين ومرة واحدة في

Delahaye, H., Stoudion-Studios, Analecta Bollandiana, 1934, 64; Janin, Les Eglises du ^{٩٩}
.Précurseur a Const., Echos d'Or., 1938, 319

.Delahaye, H., Byz. Monasticism, Byzantium. 148-149 ^{١٠٠}

Théodore le Studite, P. G., Vol. 99, Col. 509-688; Van Der Vost, La Petite Catéchèse ^{١٠١}
.de Saint Théodore, Anal. Boll., 1914, 31

Gardner, Alice, Theodore of Studium, His Life and Times, 78 ff; Cozza Luzi, Nava ^{١٠٢}
.Patrum Bibliotheca, IX, 1-217

.Gardner, A., op. cit., 71-74 ^{١٠٣}

.P. G., Vol. 99, Col. 1703-1720 ^{١٠٤}

الأسبوع لسائر الرهبان. وأوجب الاعتراف قبل المناولة وحصر حَقَّ استماع الاعتراف برئيس الدير وحده، وقضى عليه بوجوب الإصغاء مرتين في النهار: في الصباح وبعد العشاء. وسلطة الرئيس بموجب هذا التبييكون واسعة مطلقاً، وعلى الرهبان أن يحترموا هذا الرئيس ويطيعوه طاعة تامة، وهو يعين رؤساء الدوائر دونه، وأهم هؤلاء الأيكونوموس Oeconomus وهو القهرمان ويمين الرئيس وقد خلفه في الرئاسة، وهناك السكيفوفيلاكس Skeuophylax وهو أمين الكنيسة والذوخاريوس Dochiarios وهو أمين الصندوق وضابط اللوازم والإبيستيمونارخوس Epistemonarchos وهو الناظر المحافظ على النظام والترابيزاريوس Trapezarios وهو مدير المائدة ورئيس الطهارة والخبازين، وعلى الرهبنة أن تحتفل بعيد تأسيسها وبذكرى المحسنين إليها، وعليها أيضاً أن تؤوي المسافرين والمرضى، فتنزلهم عندها وتُعنى بهم.^{١٠٥}

Delahaye, H., Byz. Monasticism, Byzantium. 150-152, Vréhier, L., Institutions, 542- ١٠٥

الفاطميون والكنيسة

٩٦٩-١٠٥٤

الشيعة

وكانت شيعةً علي لا تزال تتطلّب الخلافة له ولنسله، وترى أنهم أحق بها، وكان الخلفاء العباسيون يحذرونهم ويراقبونهم وينكرون بهم فلا يرجع الشيعة عن مطالبهم ولا يُغَيَّر الخلفاء سياستهم. وكان العباسيون أقدَرَ على تتبُّع الشيعة من الأمويين؛ لأنهم كانوا أعرَفَ بالعلويين وأساليبيهم؛ فقد خالطوهم وحالفوهم للعمل ضد الأمويين، وكان كلما قام خليفةً عباسي قام داعٍ علوي يدعو إلى نفسه ثم يقاتل فيقتل، وقد يكشف أمره قبل الخُرُوج فيُحبس أن يُسم. ولم يُجدِ عطف المأمون على الشيعة ولم يدم نفعه؛ فالمتوكل تحامل عليهم فأعاد الاضطهاد سنة ٨٥٠، وهدم قبر علي في النجف وحرث قبر الحسين في كربلاء.

وأدى هذا الاضطهاد المستمر إلى التكتّم فاتخذت الشيعة مبدأ التقية بحيث أخفت ميولها اتقاء للضرر، وحصرت الشيعة الخلافة في علي وابنه الحسن ثم الحسين (٦٨٠) ثم علي زين العابدين (٧١٢) فمحمد الباقر (٧٣١) فجعفر الصادق (٧٦٥)، فموسى الكاظم (٧٩٩) فعلي الرضا (٨١٨) فمحمد الجواد (٨٣٥) فعلي الهادي (٨٦٨) فالحسن العسكري (٨٧٤) فمحمد المنتظر. وهو في حالة غيبة موقنة حي لا يموت، وقد تغيب في

كهف في جامع سامرا سنة ٨٧٨، هو المهدي الذي سيظهر فيحكم العالم قاطبة، ويكون ظهوره فاتحة عصر يسبق نهاية العالم، وهو الإمام المدبر «قائم الزمان»^١.

الإسماعيلية

وكان جعفر الصادق قد عين ابنه إسماعيل خلفاً له، ولكنه عاد فعين ابنه الثاني موسى الكاظم، ووافقت أكثرية الشيعة على هذا التغيير، ولكن بعضهم ظلوا تابعين لإسماعيل، فلما مات في السنة ٧٦٠ أصبح عندهم الإمام المهدي المستور، ولما كان إسماعيل هو الإمام السابع عُرف هؤلاء بالسبعية أيضاً.

ثم راجت النظريات الفلسفية اليونانية، واشتد الاحتكاك بالمانوية والمجوسية، فأخذ الإسماعيليون عن فيثاغوروس وأفلوطين وغيرهما، واعتبروا العدد سبعة مقدساً وجعلوا التجليات سبعة: الله والعقل والنفس، والمادة الأصلية والفضاء والزمن، وعالم الأرضين والبشر. وقالوا بسبعة أنبياء مشترعين «ناطقين»: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم محمد التام ابن إسماعيل. وقالوا أيضاً بسبعة أبناء صامتين بين كل نبيين ناطقين، وأول هؤلاء الأساس ومنهم إسماعيل وهارون وبطرس وعلي، وجاء بعد هؤلاء زعماء الدعاية وأحدهم «حجة» فالمبشرون «الدعاة»، وقالوا أيضاً بتأويل القرآن فرأوا المعنى الحقيقي مستوراً بالمعنى الظاهري، ومن تعاليمهم تناسخ الأرواح وحلول الإلهية في إسماعيل وانتظار «رجعته» مهدياً. وجعلوا المريدين المتدرجين سبعة طبقات أيضاً؛ ناسجين على منوال اليونان والمانويين.

وأشهر رجالهم في القرن التاسع عبد الله بن ميمون القداح، وهو الذي أكمل نظامهم الديني السياسي، جعل البصرة أولاً مقره ثم انتقل إلى سلمية في شرق حماة، ومنها أنفذ الدعاة إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي ليبثوا روح الشك في العقائد الراجحة ويوجهوا الانتباه إلى المهدي المنتظر.

^١ أصل الشيعة وأصولها، للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء «صيда ١٩٣٦»، والعقيدة والشريعة في الإسلام لأغناطيوس غولديزير، تعريب محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر (القاهرة ١٩٤٦)، وتاريخ العرب، للدكتور فيليب حتي.

القرامطة والألفة

وقبل وفاة عبد الله بن ميمون في السنة ٨٧٤ للميلاد لمع بين أتباعه حمدان قَرَمَط، وكان من غُلاة الدُّعاة، فابتنى لنفسه مَقَرًّا «دار الهجرة» في جوار الكوفة في السنة ٨٩٠، واستغل العداوة المزمنة بين الفلاحين وأبناء البادية، وجعل لمنظمته أرزاقًا جارية «مشاركة» مستمدة من تبرعات المريدين. وأباح حمدان الاشتراكية «الألفة» في الأموال، وشدد على المساواة وجعل للعمال والصناع مراسيم تقربهم من نقابات العصر الحديث. وفي الرسالة الثامنة من رسائل إخوان الصفا وصف لهذه النقابات الإسلامية القديمة فليراجع في محله. ويرى العلامة المستشرق الإفرنسي ماسينيون صلةً بين حركة حمدان قرمط وبين الماسونية وغيرها من الجمعيات السرية التي بدأت تظهر في الغرب بعد ذلك بقليل.

وساهم القرامطية في ثورة الزنج في البصرة (٨٦٨-٨٨٣)، وأسسوا دولة لهم في الأحساء (٨٩٩)، واحتلوا مكة (٩٣٠) وحملوا الحجر الأسود منها إلى هجر، ولجأ بعضهم إلى سلمية مقر إخوانهم الإسماعيليين في شمال سورية، وشنوا منها الغارات على مَنْ جاورهم من أهل هذه البلاد، وبلغوا بفتنتهم وقلقلهم خراسان واليمن.^٢

الفاطميون

ولمع بين دُعاة الإسماعيليين في أواخر القرن التاسع رجلٌ من أهل صنعاء اليمن، اسمه أبو عبد الله الحسين، فرحل إلى شمال إفريقية وبث دعوته في صفوف البربر ولا سيما في مزاب بني كتامة، وكانت آنئذٍ خاضعة لدولة الأغالبة، ولاقى أبو عبد الله نجاحًا، فغادر سعيد بن حسين زعيم الإسماعيليين سلمية متخفيًا إلى شمال إفريقية، وقال سعيد: إنه من ذرية فاطمة من نسل الحسين وإسماعيل،^٣ وسجن سعيد في سجلماسة بأمر زيادة الأغلبي (٩٠٣-٩٠٩) فأنقذه أبو عبد الله الحسين بثورة قضت على دولة الأغالبة، ونودي بسعيد أميرًا فعُرف بالإمام عبيد الله المهدي حفيد فاطمة من نسل الحسين وإسماعيل.

^٢ Karmatians, Encyc. of Islam; de Goeje, Mémoire Sur les Carmathes; Goldziher, I., Stre- itschrift gegen die Batinijja Sekte.

^٣ تاريخ العرب للدكتور فيليب، حتى ص ٧٣١-٧٣٢.

وحكم المهدي (٩٠٩-٩٣٤) من الرقادة وقتل أبا عبد الله الحسين وبسط سلطانه حتى حدود مصر، ثم احتل الإسكندرية في السنة ٩١٤، وأنشأ لنفسه عاصمة جديدة على الساحل التونسي إلى الجنوب الشرقي من القيروان وأطلق عليها اسمه فعُرِفَت بالمهدية. ثم خلفه القائم (٩٣٤-٩٤٥) فالمنصور (٩٤٥-٩٥٢) فالمعز (٩٥٢-٩٧٥). وفي عهد هذا الأخير عَظُمَ شأنُ الأُسُطُولِ الفاطمي، فغزا سواحلَ إسبانيا في السنة ٩٥٥، وبعد ذلك بثلاث سنوات تقدم الجيش غربًا حتى بلغ المحيط الأطلسي. وفي السنة ٩٦٩ استولى الفاطميون على مصر وقضوا على سلطة الإخشيديين، وكان بطل هذه الفتوحات جوهرًا الصقلي الرومي، وكان هذا نصرانيًّا وُلِدَ في صقلية وجاء منها إلى القيروان رقيقًا.

ولم يكتفِ جوهر بفتح مصر، بل عمل على مَدِّ نفوذِ الفاطميين إلى بلاد الشام فأنفذ قائده جعفر بن فلاح لمقاتلة الإخشيديين في فلسطين وسورية، فالتقى الخصمان في الرملة في أيلول السنة ٩٦٩، وكان الحسنُ الإخشيدي على رأس جيوش المقاومة فوقع أسيرًا، وتتابع انتصارات الفاطميين ففتحوا طبرية، وضرب جعفر عقيل وفزارة ومرة وغيرها من قبائل البدو بعضها ببعض وقصد دمشق فثار أهلها على الإخشيديين فانهمزوا عنها، وذلك بعد شهر واحد من معركة الرملة، فاتخذ الفاطميون دمشق قاعدة لهم، وانطلقوا شمالًا وغربًا فاستولوا على الساحل حتى طرابلس، ولكنهم انهزموا أمام الروم في أنطاكية. وأقيمت الخطبة للمعز لدين الله الفاطمي في دمشق، في أول جمعة من شهر محرم سنة ٣٥٩ للهجرة؛ أي في التاسع عشر من تشرين الثاني سنة ٩٦٩، وحذف اسم الخليفة العباسي المطيع.

وتولى القرامطة بعد خروج عبيد الله المهدي من سلمية زعامة جميع طوائف الإسماعيلية فيها وحواليها، فلما أصبح عبيد الله أمام الفاطميين تدخل في شئون سلمية فأيدته بعضُ القرامطة فيها وقاومه غيرهم، ورأى الموالون — وعلى رأسهم أبناء أبي طاهر — أن تنضوي طائفتُهُم تحت لواء الفاطميين، ورأى المعسكر الثاني — وفي طليعتهم أحمد بن أبي سعيد وإخوته — أن يوجهوا السياسة توجيهًا يعود بالنفع على القرامطة أنفسهم، وتوفي صديق الفاطميين في السنة ٩٤٤، ولم يترك من الأبناء من يصلح للحكم والزعامة، فتولى الاستقلاليون دفة السياسة وما فتئوا حتى وصول الفاطميين إلى سورية. وتُوِّفِيَ المعزُّ في أواخر السنة ٩٧٥، وخلفه ابنه «العزيز بالله» أبو منصور نزار، ولبت في الخلافة إحدى وعشرين سنة، ومال إلى اصطناع الموالِي، ولم يعتمد على المغاربة إلا قليلًا، وانتقى مواليه من الأتراك والصقالبة، فولى بنجوتكين التركي القيادة وولاية

دمشق، وولى وفيًا الصقلي على عكة، «وبشارة» الإخشيدى على طبرية وجهاتها. ومن هنا القول «بلاد بشارة» حتى يومنا هذا، فأدى هذا الانتقاء إلى كثير من الحسد والنزاع بين الأتراك والمغاربة.

العزیز والنصارى (٩٧٥-٩٩٦)

ولم يحصر العزیز الحكم بالمسلمين دون سواهم، فولى عيسى بن نسطوريوس النصراني الوزارة، وجعل أبا الفتح منصور النصراني طبيبه وأنزله منزلة سامية في الدولة،^٤ وكثر عدد الذميين - من النصارى واليهود - في الدواوين ومناصب الحكم واستأثروا بشيء كثير من السلطة والنفوذ، وجاء لأبي صالح الأرمني أن الخلفاء الفاطميين كانوا يشجعون إقامة الكنائس والأديار، بل ربما تولوا إقامتها بأنفسهم.^٥

وكانت زوجة العزیز وأم ست الملك جارية رومية أرثوذكسية، وكان لها في أيام زوجها نفوذٌ عظيمٌ في الدولة، كانت ابنتها ست الملك حازمة عاقلة بصيرة في الأمور، فأحبها العزیز وأصغى إليها واستمع إلى نصحها، فكان لها أثرٌ ظاهرٌ في توجيه سياسته نحو النصارى. وكان لست الملك خالان رفعهما العزیزُ بتدخله في شئون الكنيسة إلى الذروة، فجعل أحدهما أورشطوريوس بطريركًا على أورشليم (٩٨٤-١٠٠٥) والآخر أرسانيوس متروبوليتًا على القاهرة ثم بطريركًا على الإسكندرية.^٦

السياسة الفاطمية الدينية

وقامت دولة الفاطميين على الدعوة الشيعية، فكان خلفاؤها أئمة أحفادًا لعلي وفاطمة، وتحدرت إمامتهم من إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وحرصوا كل الحرص على هذه الصفة. ولما استقروا بمصر والشام اعتمدوا الدعاية السرية لتأييد دعوتهم؛ لأنهم لم يجدوا في هذين القطرين ما وجدوه في المغرب مهديًا خصبًا لدعوتهم.

^٤ مختصر الدول لابن العربي، ص ٣١٦.

^٥ تاريخ الأديار والكنائس ٣٩ و٤١، نقلًا عن كتاب الحاكم بأمر الله، لعبد الله عنان، ص ٣٧.

^٦ تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ١٦٤ و١٦٥ و١٨٥ و٢٩٨، وتاريخ المكين ابن العميد (لیدن ١٦٢٥)، ص ٢٤٧، والخطط للمقرئبي، ج ٤، ص ٣٩٨.

.Gay, J., Italie Méridionale, 362

واتخذت دعوتهم المذهبية صبغة رسمية، فانتظمت في القصر نفسه وفي الجامع الأزهر، وتولى بثها بنو النعمان بقراءة علوم آل البيت والتفقه فيها، وكان عظماء الدولة يشاركونهم في بعض الأحيان فيقرءون هذه العلوم ويشرحونها. وكانت هناك دعاية أخرى تُحاط بالتحفظ والتكتم ويُشرف عليها زعيمٌ كبيرٌ يدعى داعي الدعاة. وكانت هذه الدعوة تجري في تسع مراتب، يعرضها الدعاة بالتعاقب وفقاً لاستعداد المرید وأهليته، فلا يصل إلى درجتها العليا إلا من كان موضع الثقة، فالدين في المرتبة الأولى أمرٌ مكتوم وانصراف الناس عن الأئمة هو أصل الشر والخلاف في الإسلام. وليس دين محمد ما تعرفه الكافة، وإنما هو سر الله المكتوم لا يطيق حمله إلا ملك مُقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن اصطفاه الله.

وإذا آنس داعي قبلاً انتقل بالمرید إلى المرتبة الثانية، فأكد أن الله لم يرض في إقامة حقه إلا أن يؤخذ عن أئمة معينين، ويقول داعي في المرتبة الثالثة: إن هؤلاء الأئمة سبعة؛ علي والحسن والحسين وزين العابدين ومحمد وجعفر وإسماعيل، وهو القائم صاحب الزمان، وابنه محمد صاحب العلم المستور ودعائه هم الوارثون لعلمه. وكان يُقال في المرتبة الرابعة إن الأنبياء الناطقين بالأمور الناسخين للشرائع سبعة أيضاً، وإنه لا بد لكل منهم من صاحب يأخذ عنه دعوته ويحفظها على أمته، ويكون لهذا ظهير في حياته يخلفه بعد وفاته، ويسير كل مستخلف على هذا المنوال إلى أن يأتي منهم سبعة، ويُقال لهؤلاء: «السبعة الصامتون»، فإذا انقضى هؤلاء السبعة يبدأ دور ثانٍ من الأئمة يفتتحه بني ناطق ينسخ شريعة من مضى، وأول النطق آدم وظهيره أو سوسه شيت، وثاني النطق نوح وظهيره سام، وثالثهم إبراهيم الخليل وظهيره ابنه إسماعيل، ورابعهم موسى وظهيره هارون، وخامسهم عيسى وظهيره شمعون الصفا، وسادسهم محمد وظهيره علي وهو أول السبعة الصمت، وجاء بعده ستة صمتوا على الشريعة الإسلامية.

وسابع النطق هو قائم الزمان محمد بن إسماعيل بن جعفر، وكان يلقي على المرید في المرتبة الخامسة أنه لا بد مع كل إمام قائم من حجج اثني عشر متفرقين في الأرض، ويدعو داعي في المرتبة السادسة إلى أن الشرائع رموز لها معانٍ مستترة، تختلف عن نصوصها الظاهرة، وأن منطق العقل هو المعول عليه في هذه الأمور، فيتعرف المرید إلى أفلاطون وأرسطو وفيتاغوروس وغيرهم.

وجاء في المرتبة السابعة أن صاحب الشريعة لا يستغني من نفسه، ولا بدُّ له من صاحب يعبر عنه؛ ليكون أحدهما الأصل والآخر يصدر عنه.

وجاء في الثامنة أن مدبر الوجود والصادر عنه إنما هو تقدم السابق على اللاحق تقدم العلة على المعلول، وأن الأعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصدر الثاني، فالسابق لا اسم له ولا صفة ولا يعبر عنه ولا يحدد، فلا يُقال هو موجودٌ ولا معدومٌ، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز. والتالي يلحق بمنزلة السابق، ومعجزات الأنبياء تكون تارة رموزًا يعقلها العالمون، وتارة تكون بإفصاحٍ يعرفه كل الناس، والقرآن والقيامة والثواب والعقاب معناها غير ما يفهمه الكافة، وهي حدوث أدوار تقع عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها، وفي الدعوة التاسعة الأخيرة كان المدعو ينتقل إلى الفلسفة وما رواء الطبيعة فيعلم أن ما ذُكر من الحدوث والأصول إنما هي رموزٌ إلى معاني المبادئ وتقلب الجواهر، وأن الوحي إنما هو صفاء النفس ويعبر عنه بكلام الله، وأنه ليس على العارف المستتير أن يعمل به، وأن الأنبياء أصحاب الشرائع إنما وُجدوا لسياسة العامة، وأن الفلاسفة أنبياء الخاصة.^٧

الحاكم بأمره (٩٩٦-١٠٢١)

«وَجِدَ» في الرابع عشر من آب سنة ٩٨٥، وتولى الخلافة بعد العزيز وهو لا يزال في الحادية عشرة من عمره، وطوى مرحلة الحداثة في الخامسة عشرة، وما أن بلغ أشده حتى أصبح «مبسوطاً الجسم مهيب الطلعة، له عينان كبيرتان سوداوان تمتازهما زرقة، ونظرات حادة مروعة كمنظرات الأسد لا يستطيع الإنسان صبراً عليها، وله صوتٌ قويٌّ مرعبٌ يحمل الروح إلى سامعيه»^٨، وكان منذ حدثته يؤثر العمل المضني على مجال اللهو واللعب، وظل طوال حياته عفيفاً زاهداً «لم يمد يده قط إلى الأخذ من مال أحد، بل كان له وجودٌ عظيم وعطايا جزيلة»^٩. وكان إذا أمر بأحد من الوجهاء الأغنياء وهب تركته، أو

^٧ الخطط للمقرزي، ج ٢، ص ٢٢٧-٢٣٣، وقد نقلها إلى اللغات الأوروبية عددٌ من المستشرقين بينهم دي ساسي في مقدمة كتابه الشهير عن الدرور.

^٨ أخبار الدولة المنقطعة للعزيز جمال الدين، نقلًا عن كتاب الحاكم لعبد الله عنان، ص ٥١، وتاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ٢٢١.

^٩ المرجع نفسه ٢٠٦.

ضمها إلى صندوق الدولة، وكان زاهدًا متقشفًا يحتقر الرسوم والألقاب الفخمة، يرتدي ثيابًا بسيطة من الصوف الأبيض، ويتعمم بفوطة، ويحتذي حذاء ساذجًا ويركب فرسًا بلا زينة أو حمارًا، ولا يصحبه من الحشم سوى بضعة من الركابية، ولم ينقطع عن الاتصال بالشعب وقضاء ما استطاع من حوائجهم، وربما حمل إليهم بنفسه السجلات والمراسيم المطلوبة.^{١٠}

وجاء في كتاب عمدة العارفين للشيخ محمد شرف الدين الأشرفاني «أن سيرة الحاكم كانت من أعجب السير وأغربها يأمر بشيء ثم ينهى عنه، وكانت أموره متضادة؛ لأن كان عنده شجاعة وإقدام وجبن وإحجام، يبخل بالقليل ويعطي الجزيل، وذلك لحكمة في ذاته». وعُنِيَ بالدعاية للمذهب، فحارب الفسق والدعارة والخمر والخمارين، وحرّم دخول الحمام بلا مئزر، وحرّم على النساء التزيّن والتبرّج وكشف الوجه في الطريق وعاقب كثيرين.^{١١} ولم يرَ الحاكم في النصارى مادة للمذهب الذي دعا إليه، فشجّعهم على النزوح إلى أراضي الروم في أنطاكية وشمال سورية، وهدمت كنيسة القيامة في عهده في أيلول السنة ١٠٠٩، وهدمت الكنيسة المريمية في دمشق.^{١٢}

حمزة بن علي

وظهر في القاهرة — في الثلاثين من أيار سنة ١٠١٧ — حمزة بن علي بن أحمد الزوزني، وكان فارسياً أبصر النور في زوزن، ثم هاجر إلى مصر وانضاف إلى المقامات الربانية، «واشتهر بخدمة الحاكم قبل التجريد وبعد التجريد، فأضيفت النذر ودعاتهم إليه، واستمرّ في مصر حتى حُلَّت الثامنة وأربعمئة فكشف التوحيد في أول يوم من المحرم (٣٠ أيار سنة ١٠١٧)، ودعا الخلائق إلى التوحيد، وكانت دعوته تخييراً لا تكليفاً».^{١٣} فصدر سجلُّ بإبطال السجلات التي صدرت من قبل في حق النصارى واليهود ورفع الفروض التي ضربت عليهم، وأطلق الحرية لهم في إعادة الكنائس وعودة من

^{١٠} الخطط للمقريزي، ج ٤، ص ٧٢-٧٣، وتاريخ يحيى الأنطاكي، ص ٢٠٥ و ٢١٧-٢١٨.

^{١١} يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ٢١٨ و ٢١٩ و ١٨٦.

^{١٢} المرجع نفسه، ١٩٥ و ١٩٦.

^{١٣} عمدة العارفين، ص ٤٤-٤٧.

أسلم منهم إلى النصرانية، وقد حفظ لنا يحيى بن سعيد الأنطاكي نص سجلين بهذا المعنى أحدهما موجّه إلى رئيس دير طور سينا الأنبا سليمان، والآخر إلى نيقيفوروس بطريرك أورشليم وخلف ثيوفيلوس، وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر أمير المؤمنين بكتابة هذا المنشور لينقيفور بطريرك بيت المقدس، بما رآه من إجابة رغبته وإطلاق بغيته من صيانتته وحياطته، والذي عنه وعن أهل الذمة من نحلته وتمكينهم من صلواتهم على رسومهم في افتراقهم واجتماعهم، وترك الاعتراض لمن يصلي منهم في عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة وخربتها على اختلاف رأيه ومذهبه ومفارقته في دينه وعقيدته، وإقامة ما يلزمه في حدود ديانتته وحفظ المواضع الباقية في قبضته داخل البلد وخارجه، والديارات وبيت لحم ولد وما يرسم هذه المواضع من الدور المنضوية إليها، والمنع من نقض المصلبات بها والاعتراض لأحباسها المطلقة لها ومن هدم جداراتها وسائر أبنيتها، إحساناً من أمير المؤمنين إليهم ودفع الأذى عنهم وعن كافتهم وحفظاً لذمة الإسلام فيهم، فمن قرأه أو قرئ من الأولياء والولادة ومتولي هذه النواحي وكافة الجهات وسائر المتصرفين في الأعمال والمستخدمين على سائر منازلهم وتفاوت درجاتهم، واستمرار خدمتهم أو تعاقب نظرهم في هذا الوقت وما يليه؛ فليعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه ويعمل عليه وبحسبه، وليحذر من تعدّي حده ومخالفته حكمه ويتجنب مباينة نصه ومجانبة شرحه، وليقر هذا المنشور في يده حجة لمودعه يستعين بها على نيل طلبته وإدراك بغيته — إن شاء الله تعالى.^{١٤}

الدروز في أبرشيات أنطاكية

وانتشرت هذه الدعوة في الأوساط الإسلامية في أبرشيات أنطاكية، ولا سيما في ربوع لبنان الشرقي فالغربي، ثم اضطهد أتباعها في كل مكان فنزحوا إلى سورية ولبنان وآثروا السكُنَى مع المسيحيين، وتعاونوا معهم في المحافظة على الراحة والأمن والطمأنينة، وعلى حرية المعتقد والعبادة.

^{١٤} تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ٢٣٠-٢٣١.

اسم الكنيسة ولقبها

وعاب اليعاقبة المصريون تيموثاوس البطريك الإسكندري (٤٦٠-٤٨٢) بقوله قول الملك في المجمع الخلقيدوني (٤٥١)، فأطلقوا عليه لقب البطريك الملكي، وسما أتباعه ملكيين تعبيراً وتقبيحاً، ويقول المؤرخ إيفاغريوس — وهو من أعيان القرن السادس: إن هذا التعبير جاء أولاً باليونانية مشتقاً من اللفظ فسيلفس؛ أي الملك،^{١٥} وظلت اللغة اليونانية حتى القرن السادس لغة جميع النصارى الشرقيين، ثم أحل الأقباط القبطية محلها في مصر، واليعاقبة السريانية في سورية والجزيرة، فنقل هؤلاء التعبير اليوناني «فاسيليكوس» إلى السريانية باللفظ «ملكايا» نسبة إلى ملكا، وعُربت هذه التسمية فأصبحت ملكائية.^{١٦}

وتناصر الناس وتكتلوا حول العقيدة الدينية، وانتظمت الحكومات على هذا الأساس نفسه، فظن الخلفاء الأمويون والعباسيون بأبناء الكنيسة الجامعة، فاتهمهم بالتجسس للروم والتعاون معهم. وقربوا الأقباط في مصر واليعاقبة والنساطرة في سورية والجزيرة وما بين النهرين، فعيروا أبناء الكنيسة الجامعة باللفظ نفسه الذي أطلقه عليهم هؤلاء المونوفيسيون، وأصبح التعبير لقباً رسمياً في جميع الأوساط الحكومية الرسمية^{١٧} فحمله المؤمنون وتناقلوه.

ولكن أبناء الكنيسة الجامعة لم يتناسوا ولم يتنازلوا عن اللفظين أرثوذكسي وكاثوليكي للتعبير عن صحة العقيدة وجامعية الكنيسة، فالإيمان الذي أقره المجمع المسكوني السادس هو في نظر البطريك أفتيخيوس المؤرخ «الأمانة المستقيمة الأرثوذكسية النقية التي بلا عيب»،^{١٨} وكنيسة أبي جبلة في مصر هي «كنيسة أهل الملة الجامعة»،^{١٩} والمريمية التي أمر الحاكم بهدمها في دمشق هي «كنيسة السيدة الكاثوليكي»،^{٢٠} وهذه

^{١٥} Evagrius, P. G., Vol. 86, Col. 2532; Duchesne, L., Eglises Séparées, 52, Hist. Anc. de l'Eglise, III, 486, n. 2.

^{١٦} الروم الملكيون في الإسلام لحبيب زيات، ص ٢-٣. اطلب أيضاً المباحث الجلية في الليتورجيات الشرقية والغربية للبطريك أفرام الرحماني، ص ٤٧٣.

^{١٧} الروم الملكيون لحبيب الزيات، ص ٣-٩.

^{١٨} تاريخ سعيد بن بطريق، ج ٢، ص ٣٥.

^{١٩} يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ٩٥.

^{٢٠} المرجع نفسه، ص ١٩٥.

المصادر التي نعلم أنها تعتمد أُولَى بثقتنا من حيث العدالة والضبط في الموضوع الذي نبث من أقوال الأقباط واليعاقبة والمسلمين التي استشفح بها حبيب الزيات في كتابه «الروم الملكيون»، وكنيستنا كانت وظلت ولا تزال وستبقى الكنيسة الجامعة المقدسة الرسولية، وهي كانت وظلت ولا تزال وستبقى أرثوذكسية في عقيدتها كاثوليكية في جامعيتها، وليس من العلم بشيء أن نقول مع الزيات إننا اخترنا اللقب «أرثوذكس» عند انفصال إخواننا الروم الكاثوليك عنا سنة ١٧٢٤.

أنطاكية والقسطنطينية ورومة

وكان نزاع حول احترام الأيقونات المقدسة — كما سبق وأشرنا — وناضلتُ كنيسة أنطاكية في سبيل إكرام الأيقونات واحترامها، فخالفتُ بذلك الموقفَ الرسمي في القسطنطينية، فشفح موقفها عند هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي، وضعفت ريبته فيها فرخص لها بالرجوع إلى حقوقها، وسمح بإقامة بطارتها في أنطاكية مدينة الله، ولكنه لم يسمح — فيما يظهر — بذكر بطاركة القسطنطينية في الذبتيخة الأنطاكية، وبقي الحال على هذا المنوال حتى قُلت هيبَةُ الخلافة وعُظُم شأنُ الإمبراطورية الشرقية، ففي السنة ٩٣٧-٩٣٨ تهادن الرومُ والمسلمون فوجه ثيوفيلكتوس بطريك القسطنطينية رسولاً إلى أفتيخيوس بطريك الإسكندرية وإلى ثيودوسيوس بطريك أنطاكية وخريستوذولس بطريك أورشليم؛ يسألهم أن يذكروا اسمه في صلواتهم وقُدَّاستهم، فأجابوه إلى ما سأل «وهذا كان قد انقطع من وقت خلافة بني أمية».^{٢١}

ولم يمنع الخلفاء الأمويون والعباسيون ذكر بطريك رومة في الذبتيخات الأنطاكية والأورشليمية والإسكندرية، ولكن صلة هذه الكنائس بكنيسة رومة تضاءلت ثم انقطعت، فقد جاء ليحيى بن سعيد الأنطاكي أن البطريرك الإسكندري أفتيخيوس ذكر في تاريخه أسماء بطاركة رومة، «من بطرس رأس الحواريين إلى أغابيوس البطريرك الذي عاصر المجمع السادس في القسطنطينية». ولعله يشير إلى أغاتون الذي تولى السدة الرومانية من السنة ٦٧٨ إلى السنة ٦٨٢، وقال أفتيخيوس: إنه «لم يقع له» بعد هذا التاريخ أسماء بطاركة رومة «ولا شيء من أخبارهم». ثم يفيد يحيى بن سعيد أنه

^{٢١} يحيى بن سعيد أيضاً، ص ٩٣.

«لم يزل أغاثون هذا يذكر في الذبتيخات الشرقية منذ اجتمع المجمع السادس (٦٨١) إلى بعد وفاة سعيد بن بطريق بطريك الإسكندرية (٩٣٣-٩٤٠) بمدة طويلة لا يعرف مقدارها، وأنه ذكر بعده اسم بطريك على رومة يدعى بنديكتوس»، ولعله بنديكتوس الثالث (٨٥٥-٨٥٨)، ويضيف يحيى بن سعيد: «ولم يزل اسم بنديكتوس مذكورًا في الذبتيخية إلى سنة نيف وتسعين وثلاثمائة للهجرة (٩٩٩-١٠٠٠)، وقد كان صير بعد بناديكطس هذا بطاركة عدة إلا لم يرفع لأحد منهم في بلاد مصر والشام اسم ولا ذكر، واقتصروا على اسم بناذكطس المتوفى، وفي زماننا هذا صيروا عليها بطريركًا يسمى يوحنا (يوحنا العشرون ١٠٢٤-١٠٣٣) ورفعوا اسمه وأسقطوا اسم بناذكطس، فهذا هو السبب المانع من تدوين أسمائهم والعدز في الاضطراب عن ذكرهم».^{٢٢}

وفي هذا كله ما يكفي للقول بتضاؤل الصلة وانقطاعها - في الأرجح - بين كنيسة رومة وشقيقاتها كنائس الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم، منذ أواخر القرن السابع حتى أوائل القرن الحادي عشر، فإذا جهل بطاركة هذه الكنائس طوال قرون ثلاثة أسماء بطاركة رومة، ولم يذكروا في ذبتيخاتهم سوى أغاثون الثاني وبنديكتوس الثالث؛ فأى شيء علموه عن رومة وكنيستها!

لغة كنيسة أنطاكية

وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في جميع الكنائس شرقًا وغربًا حتى القرن الثالث بعد الميلاد، ثم انفردت رومة باللاتينية، وخرج النساطرة واليعاقبة والأقباط في القرن الخامس فبدأت القبطية تحل محل اليونانية في مصر والسريانية في سورية والجزيرة في الكنائس التي انفصلت عن الكنيسة الجامعة، وظلت اليونانية تحتل مرتبة مرموقة في الكنيسة القبطية في مصر حتى القرن الثاني عشر للميلاد، فقد جاء في سير البطاركة أنه «لما أُقيم البطريرك أبا مقارة في السنة ١١٠٣ وقدس في الكنيسة المعلقة بالسيدة في مصر قرى تقليده على الأنبل يونانيًا وقبطيًا وعربيًا».^{٢٣} وجاء لابن العَسَّال في مقدمة كتابه تصحيح الإنجيل «أن القبط لما زال ملكهم وملكت عليهم الروم تكلموا بالرومي أيضًا».

^{٢٢} تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ٩٢.

^{٢٣} سير البطاركة مخطوط باريس رقم ٢٠٠-٢٠١، ص ٣٠٢.

ودليله أن قداستهم إلى اليوم (١٢٥٣) يوجد فيها الكثير من الألفاظ الرومية، فلما غلبت اللغة العربية على القبط لم يَبْقَ منهم من يعرف القبطية أو الرومية إلا القليل.^{٢٤} وكانت كنيسة أنطاكية قد نشأت يونانية في لُغَتِها هليانية في ثقافتها، أممية في اتجاهها ورسالتها، وكان كبار آبائها قد كتبوا باليونانية فجعّلوا تراث كنيستهم يونانياً أيضاً، وكانت سلطة هذه الكنيسة قد اتسعت فشملت بلداناً يونانية اللغة — كما سبق وأشرنا — فظَلَّت اللغة اليونانية لغة هذه الكنيسة الرسمية، وظل أساقفتها وبطاركتها يُجيدون هذه اللغة طوال القرون الإسلامية العربية وحتى هذا العصر الذي نحن بصده، وقد مرَّ بنا كيف استعان الخليفة المعتصم (٨٣٣-٨٤٢) بالبطيريك أيوب بطيريك أنطاكية فحمله معه إلى حصار أنقرة، وكيف أن هذا البطيريك «كان يخاطب الروم بالرومية».^{٢٥}

الطقس البيزنطي

وكتبت معظم الأناجيل وجميع الرسائل باليونانية ودون أقدم الآباء وأعلمهم بهذه اللغة عيها، فأصبحت اليونانية لغة المسيحيين المقدسة — ولا تزال — وصلّى الأنطاكيون بها منذ تأسيس كنيستهم، ولكنهم لم يمنعوا استعمال اللغات المحلية في القرى والمزارع التي لم تفهم اليونانية، وسمحوا بقراءة الأسفار مترجمة في أثناء الاحتفالات الدينية من اليونانية إلى اللغات المحلية، فكانت هذه الترجمة من جملة الأعمال التي قام بها الأناغوستوس،^{٢٦} وتبلورت — مع مرور الزمن — خدمةً روحيةً دينيةً، نُسبت إلى يعقوب أخي الرب، وترجمت إلى السريانية؛^{٢٧} لتسهيل العبادة على من كان يجهل اللغة اليونانية، ولا مجال للقول مع غبطة البطيريك أغناطيوس يعقوب السرياني: إن الليتورجية المنسوبة إلى القديس يعقوب دونت أولاً بالسريانية، ثم تناقلتها كنائس اليونان والرومان؛^{٢٨} لأننا

^{٢٤} كتاب الإنجيل المقدس، مخطوط أكسفورد هانت ١١٨.

^{٢٥} سعيد بن البطريق، ج ٢، ص ٦٠.

^{٢٦} Justinus, Apolog., I, 47.

^{٢٧} Dalmais, I. H., La Liturgie, Initiation Théologique, I, 119; Bardy et Bréheter, Expansion

.Chrétienne, Fliche et Martin, op. cit., IV. 547.

^{٢٨} الكنيسة السريانية الأرثوذكسية لسويروس يعقوب «متروبوليت بيروت ودمشق وتوابهما للسريان»، ص ٤ (بيروت ١٩٥٧).

لا نعلم «بالضبط» الطقس الذي اتبعه يعقوب وسائر الرسل والتلاميذ، ولعله كان آنئذٍ أَقْرَبَ بكثيرٍ إلى طُقُوس اليهود من هذا الذي ننسبه إلى أخي الرب.^{٢٩}

انفصل اليعاقبة في منتصف القرن الخامس، ونشط آباؤهم وعلمائهم لنقل الأدب الكنسي من اليونانية إلى السريانية، واستمر آباؤنا وعلمائنا في كنيستنا الأنطاكية الجامعة يصلون باليونانية والسريانية بموجب ما نسميه خدمة يعقوب أخي الرب، ولا نعلم بالضبط مدى انتشار هاتين اللغتين في كنائسنا المحلية، ولا يجوز القول مع مَنْ يُريد التفرقة بيننا وبين شقيقاتنا الكنائس اليونانية أن لغة كنيستنا في طقوسها كانت سريانية لمجرد العثور على عدد من كتب الخدمة باللغة السريانية، فهؤلاء الذين يريدون التفرقة أحصوا الباقي من هذه الكتب المخطوطة بالسريانية «وأهملا» إحصاء ما تبقى منها باليونانية، وهو أمرٌ لا يُجيزه العلم ولا تُقرُّه «المحبة المسيحية».

وقال آباؤنا بكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية، فلم يفرقوا في تنظيم الطقوس بين سريانيٍّ ويونانيٍّ أو بين أنطاكي وإسكندري وقسطنطيني، بل إنهم استحسنا الأحرار واستظرفوا الأطراف، فلعب أبناء الكنائس الشرقية الثلاث دوراً هاماً في تطور الطقس القسطنطيني، أولم يكن رومانوس المرتل حمصياً بيروتياً قبل أن يغرد في كنائس القسطنطينية؟ وقانون الفصح المجيد الذي يعد من أجمل صلوات الخدمة القسطنطينية هو مَنْ نَظَمَ يوحنا الدمشقي وتلحينه، والأوكتيوخوس بكامله — كما تبنته كنيسة القسطنطينية — يحمل هو أيضاً طابع هذا القديس الأنطاكي الدمشقي «دفاق الذهب»، والقديس أندراوس الذي نلمس أثره في عددٍ لا يُستهانُ به من قوانين الخدمة البيزنطية هو فلسطيني، وصفرونيوس العظيم واضع خدمة الأبيفانية كان دمشقي المولد أنطاكي الكنيسة قبل أن يتبوا السدة البطريركية الأورشليمية،^{٣٠} والقديس كيرلس الذي خلد اسمه بصلوات جمعة الآلام كان مصرياً قبل أن يُصبح بطريرك الإسكندرية، وهكذا، فإن الطقس البيزنطي الذي وصفنا تطوره في فصل سابق كان نتيجة عملٍ تعاونيٍّ لم تنفرد به كنيسة القسطنطينية دون سواها.

Dom Cabrot, La Prière des Premiers Chrétiens; Cullmann, Le Culte dans l'Eglise ^{٢٩}

.Primitive

Vailhé, A. A., Sophrone le Sophiste et Sophrone le Patriarche, Rev. Or. Chrét., 1903, ^{٣٠}
356–370; Puniet. Dom Pierre, La Fête de l'Epiphanie, Rassegna Gregoriana, 1906, 497–

.514

ويرى العلماء الباحثون أن هذا التعاون في «الإخراج» بين أنطاكية والقسطنطينية؛ أدى إلى تَسَرُّب الطقس البيزنطي في أبرشيات أنطاكية منذ أن تم تَبَلُّوْرُهُ في القرن السابع، وأنه شاع واكتسح الموقف فيها مع عودة الروم إلى الحُكم في شمال سورية في القرنين العاشر والحادي عشر، وأنه لم يصبح إجبارياً قبل القرن الثالث عشر — كما سيجيء في حينه.^{٣١}

البطاركة

وهناك تفاوتٌ كبيرٌ في عدد البطاركة الذين تَوَلَّوْا رئاسة كنيستنا في هذا العصر بين لائحة البطريرك قسطنديوس القسطنطيني وبين نصوص يحيى بن سعيد الأنطاكي المؤرخ المعاصر، وهناك أيضاً فرقٌ ظاهرٌ في عدد سني الرئاسة في ترقيم البطاركة، ولعله من الضروري أن نُثَبِّت هذه الفروقات وفي الجدولين التاليين:

لائحة يحيى بن سعيد		لائحة قسطنديوس	
١٠٢٢-٩٩٣	يوحنا	١٠٠٠-٩٩٥	يوحنا الخامس
١٠٣١-١٠٢٥	نقولووس	١٠٠٢-١٠٠٠	نقولووس الثالث
١٠٣٣-١٠٣٢	إيليا	١٠١٠-١٠٠٣	إلياس الثاني
	ثيودوروس الثاني (جرجس)	١٠١٥-١٠١٠	ثيودوروس الثاني
١٠٤٢-١٠٣٤	سينوذيكون	١٠٢٢-١٠١٥	مكاربيوس الفاضل
	باسيليوس الثاني	١٠٢٨-١٠٢٣	الفثيريوس التقى
١٠٥٦-١٠٥٢؟	بطرس الثالث	١٠٥١-١٠٢٨	بطرس الثالث

Charon, C., Hist. des Patriarcats Melkites, III, 9-24; Salaville, S., Les Liturgies Orientales; ^{٣١} Raes, A., Introductio in Liturgiam Orientalem, Rome, 1947; Hanssens, M., Institutiones .Liturgicae de Ritibus Orientalibus, Rome, 1932

ولا بدّ من تَقْدِيم رواية يحيى بن سعيد الأنطاكي على رواية البطريرك قسطنديوس؛ لأنّ الأول راوٍ معاصر انتقل من الإسكندرية إلى أنطاكية وأقام فيها، والثاني مؤرِّخ متأخر من أعيان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولكن ليس هذا كل ما في الأمر؛ فالبطريرك قسطنديوس اعتمد وثائق بطريركية القسطنطينية ونقل عنها، فلا بدّ — والحالة هذه — من إثبات روايته إلى أن يقوم من أبناء كنيستنا مَنْ يُدقق هذا الأمر ويثبت الحقيقة. ويوحنا الخامس — عندنا — هو يوحنا الثالث؛ بموجب ترتيب لوكيان والمؤرخين الغربيين، ونقولاً ووس الثالث هو الثاني عندهم، أما ثيودوروس فإنه كان يُعرف بجرجس لاسكارس قبل وصوله إلى السدة البطريركية، ومن هنا ورود اسمه أحياناً البطريرك جرجس، وجاء في سينوديكون «أحد الإيمان القويم»، بعد ثيودوروس الثاني باسيليوس الثاني فبطرس الثالث.

يوحنا الخامس (٩٩٣-١٠٢٢)

وتدخل أغابوس في السياسة — كما سبق وأشرنا — فأغضب الفسيلفس، واضطرَّ أن يتنازل عن السدة الأنطاكية، فخلفه في السنة ٩٩٣ خرتوفيلاكس الكنيسة الكبرى كنيسة الحكمة الإلهية يوحنا الخامس. ويفيد يحيى بن سعيد الأنطاكي أن باسيليوس الفسيلفس حَضَّ البطريرك الجديد على إصلاح كنيسة القسيان في أنطاكية على طراز كنيسة الحكمة الإلهية في القسطنطينية، ثم يضيف أن أغابوس تُوِّفي في أيلول السنة ٩٩٤، ولا يذكر شيئاً عن عودته عن التنازل قبل وفاته وعن تنازل خلفه عن أي امتياز تمتعت به كنيسة أنطاكية لقاء بقاءه على السدة البطريركية،^{٢٢} والإشارة هنا إلى ما أورده نيقون الراهب من أن يوحنا تنازل عن استقلال مطارنة الكرسي الأنطاكي في انتخاب بطريركهم، وأنه وضع أمر انتقاء البطريرك الأنطاكي في يد البطريرك المسكوني، والراهب نيقون تنسك مدة من الزمن في النصف الثاني من القرن الحادي عشر في دير القديس سمعان العمودي.^{٢٣}

^{٢٢} يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ١٧٧.

^{٢٣} Vailhé, A. A., Echos d'Orient, 1933, 283. Crumel, V., Patriarches Grecs d'Antioche du Nom de Jean, Echos d'Orient, 1933, 283-284.

وَقَدَّرَ ليوحنا الخامس أن يُعاصر الحاكم بأمره الفاطمي، وأن يتلقى ضرباته المؤلمة في الأبرشيات الأنطاكية الجنوبية، وقد سبقت الإشارة إليها في القسم الأول من هذا الفصل، ولكن قَدَّرَ له أيضًا أن يرى تراجع الحاكم عن تضيقه بعد ظهور حمزة بن علي وقيامه بالدعوة الدرزية.

وماشى يوحنا الخامس ملوك الروم في عصرهم الذهبي، فسعى معهم لإعادة المجد التالذ، ففاوض أورستئوس البطريرك الأورشليمي في أثناء مروره في أنطاكية في السنة ١٠٠٠ في ما كان قد تنازل عنه ثيوفيلاكثوس بن قنبرة البطريرك الأنطاكي إلى زميله الأورشليمي في القرن الثامن من حقوق الأنطاكية على كنيسة الكرج، فاتفق الطرفان على إعادة ذكر البطريرك الأنطاكي في الذبتيخة الكرجية، وعلى حق هذا البطريرك في إرسال إكسرخوس إلى الكرج يتفقد شئونهم الروحية، ويتولى جباية الأموال من الأوقاف الأنطاكية في بلاد الكرج.^{٣٤}

وفي السنة ١٠٠٤ اختلف النصارى في مصر في حساب عيد الفصح لاختلاف اليهود في حسابهم، فجعل البعض فصح اليهود يوم السبت في الخامس من نيسان، وقال آخرون: إنه يوافق يوم الأحد في السادس من الشهر نفسه، فكتب أرسانيوس بطريرك الإسكندرية إلى أهل أورشليم بما صَحَّ عنده جاعلاً فِصْحَ النصارى يوم الأحد في السادس من نيسان، «فكتب أهل الشام إلى مصر يتعارفون منهم ما اتفقوا عليه، فلما وصلت كُتِبَ أرسانيوس عيدَ جميع النصارى في يوم الأحد في السادس من نيسان إلا قومًا من اليعاقبة من أهل صعيد مصر؛ فإنهم فصحو يوم الأحد الذي يليه.»^{٣٥}

الحاكم وسر الأفاخرستية

وجدد الحاكم في رمضان السنة ٤٠١؛ أي في أيار السنة ١٠١١ منع الناس عن صنع النبيذ وشربه سرًا وجهرًا، وكسّر ما عند الناس منه من الجرار والدنان، وحذّر على النصارى تقديمه «في سائر مملكته» ومنعه في قرابينهم، فقرّبوا عوضًا عنه ماء نقع فيه زبيب أو عود الكرم!^{٣٦}

^{٣٤} Vailhé. A. A., op. cit., Echos d'Orient. 1934, 136

^{٣٥} يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ١٩٢-١٩٣.

^{٣٦} المرجع نفسه، ص ٢٠٠.

الإعتراف ببطيركية نيقيفوروس

وفي السنة ١٠٢١ انتهى حُكم الحاكم، ونودي بابنه الظاهر، فعادت السيدة ست الملك إلى سابق عِزّها، فأوفدت نيقيفوروس بطيريك أورشليم إلى القسطنطينية ليعلم باسيليوس «بعودة الكنائس وتجديد كنيسة القيامة المُقدّسة وسائر البيع في جميع بلاد مصر والشام، ورجوع أوقافها إليها واستقامة أُمور النصارى»، ويرجوه السماح بالاتجار بين البلدين، والشروع في «المسألة والمواذعة»، فاستكشف أفسثاثيوس البطريرك المسكوني من نيقيفوروس «أمانته»، فأوضحها فألفاها البطريرك المسكوني أرثوذكسية، فأطلع الفسيلفس برفع اسم نيقيفوروس في القسطنطينية وأنطاكية على ما كان عليه قبل وصوله، وتُوفِّيت ست الملك فعاد نيقيفوروس إلى أنطاكية ومنها إلى طرابلس في أيار السنة ١٠٢٤. ٣٧

نقولاووس الثالث (١٠٢٥-١٠٣١)

وتُوفي يوحنا الخامس البطريرك الأنطاكي في السنة ١٠٢٢ فخلا كرسيه ثلاث سنين ونصف السنة، ثم انتُخب نقولاووس رئيس دير الأستوديون بطيريكًا على أنطاكية وصُلي عليه في القسطنطينية يوم الأحد سابع عشر كانون الآخر سنة ١٠٢٥، فأقام في الرئاسة خمس سنين وثمانية أشهر وواحدًا وعشرين يومًا. ٣٨

ورقي إلى رومانوس أريعروس الثالث (١٠٢٨-١٠٣٤) أن لليعقوبيين بطيريكًا يُسمى يوحنا يقيم في بلد مرعش يُسمى ببطيريك أنطاكية ويسيم مطارنة وأساقفة للمُدُن، فأنفذ أشخصه وأشخص معه ستة من مطارنته وأساقفته، وتقدم إلى ألكسيوس بطيريك القسطنطينية في أن يحضرهم بمشهد ممن اتفق عنده من المطارنة والأساقفة الأرثوذكسين، ويخاطبه في الرجوع عن اعتقاده والإعتراف بالسبعة الجامع المقدسة وقبول من قبلته ودفع من دفعته، واستدعى نقولاووس بطيريك أنطاكية للحضور معه ومشاركته في الخطاب له؛ لأنه كان يومئذٍ بالقسطنطينية، فأبى ذلك الأرطوقي وجرى بين ألكسيوس البطريرك وبين من اجتمع معه من أصحابه خطابٌ في هذه المعاني. ولم

٣٧ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ٢٤٣-٢٤٤.

٣٨ المرجع نفسه، ص ٢٤٤، وكتابنا الروم، ج ٢، ص ٦٤، ومجموعة دولغر، رقم ٨٢٤.

يذعن يوحنا بطريرك اليعاقبة للانثناء عن رأيه، واجتمع خلقٌ من العوامِّ وهُمُوا بالإيقاع به فدفَعوا عنه، ولما أيس الملك من عودته عن اعتقاده نفاه إلى كفريا بالمغرب، واعترف من الستة الأساقفة والمطارنة المشخصين معه ثلاثة، وثبت ثلاثة على ما هم عليه فحبسوا في الحبس، ومات يوحنا هذا بعد ثلاث سنين من نفيه وأقام اليعاقبة لهم بعد موته بطريركًا غيره، فلما عرف رومانوس الملك حاله أنفذ من يحضره، فهرب إلى ديار بكر من بلاد الإسلام.^{٣٩}

أبجر والمسيح

وفي تشرين الأول من السنة ١٠٣١ استولى الروم على الرها، فسار صاحبها سليمان بن الكرجي إلى حضرة رومانوس في القسطنطينية، وحمل معه كتاب أبجر إلى السيد المسيح وجواب السيد له، «وكان كل واحد منهما في ورقة طومار مكتوبين بالسرياني»، وخرج الملك وألكسيوس البطريرك وجميع أهل المملكة لاستقبالهما، وتسلمهما الملك بخشوع وخضوع تعظيمًا لكتاب السيد المسيح، وأضافهما إلى الآثار المقدسة التي في بلاط الملك، وعُني رومانوس الملك بترجمتهما إلى اليوناني، وترجمهما إلى العربي الناقل الذي تولى نقلهما إلى اليوناني على هيئتهما ونصهما.

وهذه هي نسخة رسالة أبجر ملك مدينة الرها إلى ربنا وإلهنا يسوع المسيح:

من أبجر الأسود إلى يسوع المسيح الطيب الصالح الظاهر في أرض أورشليم، سيدي سلام عليك، سمعت عنك وعن الأشفية التي تصنع أنك تبرئ بغير أدوية ولا عقاقير، بل بالقول فقط تبصر العميان وتشفى الرَّمَمَى وتسمع الخرس والصرم وتطهر البرص وتخرج الشياطين والأرواح النجسة بكلمتك وتقيم الموتى. فلما سمعت عنك يا سيدي ذلك تعجبت بالمعجزات الباهرة التي تصنع وقررت في نفسي، وحملت أمرك على إحدى الحالتين أنك إما تكون الله الذي ينزل من السموات فتفعل هذه أو ابن الله؛ ولذلك أكاتبتك لتصير إليَّ لأسجد لقدسك، ولكي تشفي لي مرضًا ما كما آمنت، وبلغني أيضًا أن اليهود يتبرمون بك ويضطهدونك ويطلبون هلاكك والهزؤ بك، ولي مدينة واحدة

^{٣٩} يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ٢٥٢.

صغيرة حسنة جداً، وهي تكفيننا لنسكنها بهدوء وسلامة معاً، فالأمر أمر منك يا سيدي، والسلام عليك.

نسخة رسالة السيد المسيح إلى أبجر ملك الرها:

امض فقل لصاحبك الذي أنفذك: طوباك يا أبجر إذ آمنت بي ولم ترني؛ لأنه مكتوبٌ من جهتي أن الذين يروني لا يؤمنون بي والذين لم يروني سوف يؤمنون بي، وكتبت إليّ أن أصير إليك فالأمر الذي بسببه أرسلت من لدن الآب إلى ههنا من الآن قد حضر وأصعد إلى الآب الذي أرسلني، فإذا صعدت أنفذت إليك واحداً من تلاميذي والمرض الذي بك هو يشفي ولسائر من لك يرد إلى الحياة الأبدية، وبلدك فليكن مباركاً أبداً، والعدو أيضاً فلا يتسلط عليك ولا عليه إلى الدهر، والسلام عليك.^{٤٠}

إلياس الثاني (١٠٣٢-١٠٣٣)

وفي يوم السبت الكبير، في أول نيسان سنة ١٠٣٢ «صلى على إلياس الراهب النيقوميدي بطيريركا على أنطاكية»، فأقام سنة وخمسة أشهر وثمانية أيام وتَنَبَّحَ.^{٤١} وصدرت أوامر الظاهر الفاطمي بترك الفساد وحفظ مجاورة الروم، ووافق الروم على المهادنة، واتفق الطرفان على أن ينفذ الظاهر رسولاً يجتمع برسول رومانوس في ناحية أنطرطوس «آخر حد الروم وأول بلد المسلمين»، واشترط رومانوس على الظاهر ثلاث شرائط:

إحداها: «أن يعمر الملك كنيسة القيامة ببيت المقدس ويجدها من ماله ويصير بطيريركا على بيت المقدس، وأن تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب التي في بلاد الظاهر.»

والشريطة الثانية: ألا يتعرض الظاهر لحلب.

والشريطة الثالثة: ألا يساعد صاحب صقلية.

^{٤٠} يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ٢٦٣-٢٦٤.

^{٤١} المرجع نفسه، ص ٢٦٥.

وأرسل نصر بن صالح بن مرداش صاحب حلب مال الهدنة إلى رومانوس وشعر القديس يوحنا المعمدان، وكان هذا الشعر في سالف الزمان في كنيسة حمص فنقل منها إلى كنيسة القلعة في حلب «إشفاقاً عليه من أخذ الروم له عند ترددهم إلى حمص»، وبقي هناك إلى أن خرج منصور بن لؤلؤ من حلب، فاستعاده نصر بن صالح وتقرَّب به إلى رومانوس، فأضافه إلى الآثار المقدسة التي في بلاط الملك.^{٤٢}

ثيودوروس الثاني (١٠٣٤-١٠٤٢)

وفي يوم الأحد الأول من الصيام الكبير صَيَّرَ جرجس لاسكارس بطريركاً على أنطاكية، وصُلِّيَ عليه في القسطنطينية، وسُمِّيَ ثيودوروس، فأقام في الرئاسة ثماني سنين وستة أشهر وواحدًا وعشرين يوماً وتَنَيَّحَ،^{٤٣} ونفذ ثيودوروس الاتفاق الذي تم في عهد يوحنا الخامس حول كنيسة الكرج، فأرسل بموجب شهادة نيقون الراهب إكسرخوساً إلى بلاد الكرج ليعاقب ويصلح.^{٤٤}

باسيليوس الثاني

ولا نعلم شيئاً عن باسيليوس الثاني، ونجهل أخبار مكاريوس الفاضل والفثيريوس الصالح.

بطرس الثالث (١٠٥٢-١٠٥٦)

أبصر النور في أنطاكية ونشأ وترعرع فيها، ثم طلب العلم في القسطنطينية فأحاط به «كله»، والتحق بالبلاط الملكي فأصبح سكرتير رومانوس الثالث، ثم قدم النذر والتحق بكنيسة الحكمة الإلهية فأُسندت إليه وظائف أهمُّها وظيفة سكيوفيلاكس الكنيسة، فكان من الطبيعي أن يُقدِّم على غيره وأن يُرَقَّى إلى رتبة البطريركية.

^{٤٢} المرجع نفسه أيضاً، ص ٢٧٠ و٢٦٩.

^{٤٣} يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ٢٧٢.

^{٤٤} Vaillhé, A. A., Echos d'Orient, 1934, 138.

وكان بطرس الثالث ورعاً تقياً واثقاً بالله معتمداً عليه، وكانت أمه قد نقلت إليه خبر النور البهي الذي أحاط بها يوم ولادته، وما طَنَّ في أذنها من أصوات سماوية تنبئ بالمستقبل الباهر، فنشأ بطرس متوكلاً على الله مستلهماً رُوحه عاملاً بمشيئته على الأرض كما في السماء، ومما زاده حماساً وغيره أن السيدة العذراء والدة الإله تراءت لقسطنطين التاسع (١٠٤٢-١٠٥٤) وأومأت له بترقية بطرس إلى السدة البطريركية ففعل.

وتسلم بطرس عكاز الرعاية وانطلق يعمل في حقل الرب، فوجه رسالة الجلوس إلى كل من زميله بطريك الإسكندرية وبطريك أورشليم، معلناً تبوأه العرش البطريركي، مبيناً إيمانه القويم راجياً ذكره في الذبيخة،^{٤٥} وأسف على انقطاع الصلة بين كنيسته وكنيسة رومة مدة طويلة — كما سبق وأشرنا — فكتب إلى لاوون التاسع مثلها على هذا الانقطاع متسائلاً عن سبب ابتعاد خليفة بطرس العظيم عن جسم الكنائس وانقطاع صوته من مجامعها، وامتناعه عن المساهمة في حل مشاكلها الإكليريكية، مبيناً الفائدة التي تنجم عن مثل هذا التعاون من حيث التوجيه الأخوي الرسولي. ورجا بطرس زميله الروماني أن يصرح بإيمانه؛ ليتمكن من ذكر اسمه في الذبيخة؛ إذ لا يجوز الاعتماد على ماضي رومة القويم والافتراض قبل إعمال النظر بأن إيمانه خالٍ من الخطأ. ثم ذكر البطريرك الأنطاكي إيمانه بوضوح، ولكنه تحاشى البحث في قضية الانبثاق، وعافت الأقدار هذه الرسالة فلم تصل إلى رومة إلا بعد مرور سنتين على صدورها، فكتب بطرس رسالة ثانية أقصر من الأولى، فحذف معظم ما جاء في مقدمة رسالته الأولى، وأكد تعلُّقه بدستور نيقية وقرارات المجامع المسكونية السبعة، ولعن من لعن من الهرطقة.^{٤٦}

وأجاب كل من بطريك الإسكندرية وأورشليم برسالة سلام، وردَّ لاوون التاسع على رسالة بطرس الأول برسالة سلام أيضاً، ولكنه أكد بوضوح تقدُّم رومة وعصمة السدة البطريركية، وأوضح أن كنيسة رومة أم الكنائس وأن محكمتها أعلى المحاكم، ثم نبه زميله الأنطاكي على تلبُّد غيوم الهم والشقاق في الشرق، وحثه على الدفاع عن حقوق الكرسي الأنطاكي،^{٤٧} وتسلم بطرس هذا الرد، ولكنه لم يتمكن من قراءته؛ لأنه

^{٤٥} Michel, A., Humbert und Keroullarios, II, 437-452.

^{٤٦} Michel, A., op. cit. II, 446-448. Jugie, M., Schisme Byzantin, 222-221, n. 1.

^{٤٧} P. L., Vol. 143, Col. 769-773; Michel, A., op. cit., II, 458-475.

كُتِبَ باللاتينية فطلب إلى الرسول الإفرنجي الذي حمله إليه أن يستنسخه له، ففعل فأرسل بطرس النسخة إلى ميخائيل كيرولايوس بطريرك القسطنطينية ليأمر بترجمتها إلى اليونانية،^{٤٨} وذكر بطرس زميله الروماني في ذبتيخة أنطاكية وحذا حذوه بطريرك أورشليم وطريرك الإسكندرية.

الشماس عبد الله بن الفضل الأنطاكي

ولم في أفق الكنيسة في القرن الحادي عشر الشماس عبد الله بن الفضل الأنطاكي، فخدم بالتأليف والتعريب، واشتهر بصورة خصوصية بحسن تعبيره في تفسير الكتب الدينية، وبسلامة ذوقه في اختيار المؤلفات اليونانية وتعريبها، وتنافس أبناء الكنيسة باستنساخ مؤلفاته ومعرباته، وكان بارعًا بالعربية واليونانية والسريانية وعرب عن الاثنتين وألف بالعربية واليونانية.^{٤٩}

وأهم مصنفاته كتابُ المصاييح، وهو يشتمل على كلام الحكماء والأنبياء والرسل القديسين بوجه تبويبيًا لطيفًا، وأكثر من الأمثلة الكتابية وأقوال الفلاسفة، وله أيضًا كتابُ المنفعة وهو مختصرٌ ومطولٌ، ويبحث في العقائد في الخالق وجوهره ووحدة طبيعته وتثليث أقانيمه في المنطق والفلسفة والجدل والفقه، وله كذلك كتاب الروضة في الفضائل، وهو منتخبٌ من أقوال الكتب المقدسة والقديسين ورجال اللاهوت. وكتاب تفسير ستة أيام الخليقة للذهبي الفم عربي عن اليونانية، وتفسير إنجيل متى ويوحنا للذهبي الفم أيضًا. وعرب عن السريانية كتابًا للأباء الأبرار أنطونيوس وأرسينيوس ويوحنا أقليمس وإسحاق وفيلوكسينس، وعرب عن اليونانية كتاب البرهان في تثبيت الإيمان للقديس صفرونيوس الأورشليمي، وعرب له أيضًا أحاديث الآباء القديسين والرهبان، ومن آثار هذا العلامة كتاب مجموع الأمان في إبانة غلط اليعاقبة والناسطرة وميامر غريغوريوس النزيانزي، وميدح القديسين نقولاوس وأندراوس الأقریطشي.^{٥٠}

^{٤٨} P. G., Vol. 120, Col. 813.

^{٤٩} مقدمة كتاب النحلة للبطيريك مكاريوس الحلبي.

^{٥٠} النعمة، ج ١، ص ١٦ و ٢٢٥ و ٧٢٦.

أنطاكية والبنديقية

وفي أواخر السنة ١٠٥٣ تلقى بطرس الثالث رسالة من دومينكوس رئيس أساقفة أكويلية جاء فيها أن القساوسة البنادقة في الشرق يشكون الصعوبات التي يلقونها عند ممارستهم سر الأفخارستية بالفطير، وأن هؤلاء القساوسة خاضعون لرئيس أساقفة يستمد البركة من القديس مرقس ويتمتع بقلب بطريك،^{٥١} فأجابه بطرس الثالث جوابًا لطيفًا، ولكنه لم يسكت عن اللقب الذي ادعى به دومينيكيوس فقال: «لقد نشأت بين الكتب ودرست العلوم المقدسة منذ الطفولية وإلى سن الشيخوخة، ولا أزال مواظبًا على مطالعتها، ومع ذلك ما تعلمت ولا سمعت أن رئيس أكويلية يُسمى بطريركًا؛ لأن النعمة الإلهية دبرت أن يكون في كل العالم خمسة بطاركة وهم الروماني والقسطنطيني والإسكندري والأنطاكي والأورشليمي، ومن هؤلاء الخمسة البطريرك الذي يسمى بطريركًا على وجه الحقيقة هو البطريرك الأنطاكي، فالروماني والإسكندري يتمتعان بلقب بابا والقسطنطيني والأورشليمي رئيسا أساقفة، وكيف نستطيع أن نقيم بطريركًا سادسًا ما دام الجسد ليست فيه حاسة سادسة، وما دامت هنالك أبرشيات أعظم من أيونريتك يديرها مطارنة ورؤساء أساقفة كبلاد البلغار وخراسان وسائر الشرق، ولم يُدعَ أحد منهم بلقب بطريك؟»

ثم يشير بطرس الثالث إلى رسالة الجلوس التي وجهها إلى البابا الروماني مع الحجاج، ويقول: إنه لم يتلقَ جوابًا عنها، وإنه مرسل صورة عنها ليقدمها دومينكوس إلى البابا، حتى إذا رضي البابا بفحواها «اتحد الجميع بنفس واحدة ليقدموا لله جميعًا ضحية واحدة»، ويعرض بطرس بعد هذا إلى مسألة الفطير فيقول: إن شكوى الغربيين من أن بطريك القسطنطينية يُشيع عنهم إشاعات رديئة ويقطعهم من شركة الكنيسة؛ هي باطلة؛ لأنه يعرف — حق المعرفة — أنكم أرثوذكسيون، تؤمنون مثلنا بالثالوث القدوس وبسرِّ التجسّد، ولكنه يأسف أنكم تخالفون البطاركة الأربعة في تقديم الذبيحة الغير الدموية.^{٥٢}

^{٥١} P. G., Vol. 120, Col. 751–756

^{٥٢} P. G., Vol. 120, Col. 757; Jugie, M., op. cit., 222–223

أنطاكية والقسطنطينية

ولم يرض بطرس الثالث من تدخُّل بطريرك القسطنطينية في شئون بطريركية أنطاكية، فاحتج بشدة على ترقية شماس أنطاكي في القسطنطينية بدون موافقة رئيسه الأنطاكي،^{٥٣} وعلى توسيع النفوذ القسطنطيني في الولايات الأرمنية، مبيناً أن هذه الولايات كانت لسلطة أنطاكية الروحية لا القسطنطينية، ورأى في إلحاح البطريرك ميخائيل القسطنطيني على توحيد الطقوس سياسةً غير مجدية لانتشار السريانية والعربية في بعض أبرشيات أنطاكية، ولخضوع هذه الأبرشيات عينها للسلطات الإسلامية.^{٥٤}

^{٥٣} Grumel, V., Patriarcat d'Antioche, Echos d'Orient, 1934, 140-141.

^{٥٤} Runciman, S., Eastern Schism, 64-65.

بدء الانشقاق العظيم

١٠٥٤

نفوذ الألمان في رومة

وعني أوثون الأول الملك الألماني (٩٣٦-٩٧٣) بشئون دولته فأدار دفة الحكم بحذق ومهارة، وأخضع رجال الإقطاع فيها، وكبح جماح الصقالبة، وصد هجمات المجر، وقام في السنة ٩٦٢ على رأس جيش ألماني إلى إيطاليا، فدخل رومة وأكره أسقفها يوحنا الثاني عشر على تتويجه إمبراطورًا، فأسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي دامت حتى السنة ١٨٠٦.

وأدى تدخّل أوثون في شئون رومة إلى تطاحن في داخلها دام أربعين سنة بين عمال الألمان وبين أسرة كرسنتيوس صديقة الروم ومن شدّ أزرها من الأشراف الرومان،^١ وشغل الشرق الروم عن إيطاليا وشئونها فتوطد نفوذ الألمان في رومة، وتسربت إليها آراؤهم في الإصلاح والعقيدة.

^١ Gay. J., Italie Meridionale, 218-228

تدعيم سلطة البابا

وطالب المؤمنون في الغرب بإصلاح الكنيسة، وعلا صوتهم في مقاطعة لورين، فأوجبوا انضباط الإكليروس وترفعهم عن السيمونية وعن الزواج، واستعانوا بالسلطات المدنية الألمانية، فرحبت بطلبهم ورأت في إصلاح الإكليروس أداة فعالة لتوسيع سلطانها وفرض احترامها، فصممت هذه السلطات على الاحتفاظ برومة وتدعيم سلطة أسقفها للوصول إلى الانضباط المنشود، وطالب رهبان كلوني في فرنسة برفع مستوى الرهبان والرهبانية فلم يلقوا من السلطات المحلية إلا التثبيط والإحباط، فلجئوا إلى أسقف رومة ووضعوا مقدرات رهبانيتهم بين يديه، فأجمع المصلحون على تدعيم سلطة البابا والمطالبة بحقوقه وصلاحياته التاريخية.^٢

مشكلة الانبثاق

وكانت كنيسة رومة قد قالت بانبثاق الروح القدس من الأب كما علم الآباء الأطهار في نيقية والقسطنطينية، فلما سيطر الألمان على رومة نقلوا إليها القول بالانبثاق من الأب والابن، فأثاروا بذلك مشكلة الفيليوكوي Filioque، وهو لفظ لاتيني معناه: «ومن الابن»، وتفصيل ذلك أن النزاع بين الإسبانين الكاثوليكين والقوط الغربيين الأريوسيين جعل الكاثوليكين في إسبانيا يصرون على القول بالانبثاق من الأب والابن، وعلى إدخال ذلك في دستور الإيمان الأثناسيوسي الذي أقر في إسبانيا في السنة ٦٣٣، فلما تقبلوا الدستور النيقاوي بعد ذلك بقليل استمسكوا بالعبارة «ومن الابن» وأضافوها إلى هذا الدستور. ويقول بعض العلماء: إنهم أدخلوا هذه العبارة في مجمع طوليدو الأول سنة ٤٠٠، ولكنه قولٌ ضعيف،^٣ ثم تَسَرَّبَ هذا القول من إسبانيا إلى بلاط كارلوس الكبير، فلقي في شخص هذا الزعيم مُدافعًا مخلصًا عنه، ومن هنا — في الأرجح — قبوله في مجمع فرانكفورت سنة ٧٩٤ وانتقاد البطريرك تراسيوس القسطنطيني لقوله «بواسطة الابن» Per Filium،^٤ وحاول كارلوس إقناع رومة بالقول «ومن الابن» ولكنه لم يفلح، وفي

^٢ Dumas, A., Les Eglises Monastiques, Fliche et Martin, VII, 293-367

^٣ Palmieri, A., Filioque, Dict. Théol. Cath., II, Col. 2309 ff

^٤ Hefelé-Leclercq, Hist. des Conciles, III, 1061-1091

السنة ٨٠٨ كتب توما الأول بطريرك أورشليم إلى لاوون الثالث بابا رومة يلفت نظره إلى المشادة التي نشأت بين رهبان القديس سابا والرهبان الإفرنج على جبل الزيتون حول القول بالانبثاق من الآب والابن، فكتب لاوون بدوره إلى كارلوس الكبير ممول رهبان الإفرنج على جبل الزيتون؛ يقترح نذب العبارة «ومن الابن»؛ لأن القول بها يشكّل — في حد ذاته — خروجاً على الدستور الذي يقول به جمهور المؤمنين^٥، وأمر لاوون الثالث بنقش دستور الإيمان على لوحات الفضة؛ لتعليقها في كنيسة القديس بطرس، فإذا به يتفق — كل الاتفاق — ودستور نيقية، ويخلو من العبارة: «ومن الابن»،^٦ ثم شاع القول بالفيلوكوي في القرن التاسع في جميع كنائس ألمانية ولورين ومعظم كنائس فرنسة، أما كنيسة باريز فإنها ثابرت على القول النيقاوي قرنين آخرين^٧، ونقل بعض الإكليركيين الألمان القول بالفيلوكوي إلى رومة، فقبله البابا فورموسوس (٨٩١-٨٩٦)، وأمر به في بلغارية فلفت بذلك نظر فوطيوس العظيم وأدى إلى احتجازه — كما سبق وأوضحنا — وجاء التدخّل الألماني في رومة في النصف الثاني من القرن العاشر، فجَرَ وراءه قولاً جريئاً واضحاً بالفيلوكوي.

والكلام في الانبثاق عقيدة تنطوي عليها النصوص المسيحية المقدسة؛ فقد جاء في بشارة يوحنا الحبيب في الفصل الخامس عشر والآية السادسة والعشرين: «ومتى جاء المعزي الذي أرسله إليكم من لدن الآب روح الحق الذي من الآب ينبثق.» وجاء أيضاً في الفصل السادس عشر من هذه البشارة نفسها وفي الآية الرابعة عشرة عن روح الحق: «إنه سيمجدي؛ لأنه يأخذ مما لي.» وجاء لبولس في رسالته إلى أهل غلاطية في الفصل الرابع والعدد السادس: «والدليل على أنكم أبناء كون الله أرسل في قلوبنا روح ابنه.»

وظهرت بدعة أريوس فأكد الآباء المجتمعون في نيقية في المجمع المسكوني الأول (٣٢٥) أن المسيح ابن الله الوحيد مولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر الذي به كان كل شيء، وقال مقدونيوس بخلق الروح القدس فاجتمع الآباء في القسطنطينية في السنة ٣٨١

P. L., Vol. 129, Col. 1257-1260; P. G., Vol. 94, Col. 205-208; Hefelé-Leclercq, op. cit., °

.III, 1127, 1131

.Liber Pontificalis (Duchesne), II, 26 ٦

.Alexander of Hales, Summa Theologica, I, 218 ٧

وقالوا: «وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والابن مسجود له وممجد.» ليؤكدوا لاهوت الروح القدس ومساواته بالابن ووحدة المصدر، وانتشرت الأريوسية في أوروبا الشمالية الغربية بانتشار البرابرة، فقال الآباء في إسبانيا بالنبثاق الروح القدس من الآب والابن ليؤكدوا مساواة الابن بالآب.

وبحث دفاق الذهب الدمشقي الأنطاكي هذا الموضوع في النصف الأول من القرن الثامن، فأكد أن الروح القدس هو روح الآب وروح الابن أيضاً،^٨ وكرر آباؤنا المجتمعون في نيقية في المجمع المسكوني السابع (٧٨٧) القول بالدستور النيقاوي القسطنطيني، وأثبتوه في أعمال المجمع، معترفين بالانبثاق من الآب، ووجهوا الرسائل إلى البطاركة الشرقيين، وبحثوا هذا الموضوع، وفسروا فقالوا بالانبثاق من الآب «بالابن»، Per Filium،^٩ dia Iyoun.

وعلى الرغم من هذا كله فإننا لا نزال — شرقيين وغربيين — متفقين على إثبات وحدانية الثالوث الأقدس إثباتاً تاماً كاملاً صريحاً، وعلى تأكيد شخصية كل من الأقانيم وعلى التساوي بينهم وعلى وحدة الجوهر.

اتصال واحتكاك

واختلف المؤمنون في أمر الانبثاق وتعارضت آراؤهم، ولكنهم ظلوا أبناء كنيسة واحدة جامعة مقدسة، ولم تتفرق وحدتهم ولم تنتقض عقدهم، ثم استولى الروم على جزيرة كريت في السنة ٩٦١ وعلى قبرص في السنة ٩٦٥، وعادوا إلى أنطاكية في السنة ٩٦٩، ودخلت فلسطين في حوزة العزيز المتساهل المتسامح، ولم يطل عهد الحاكم فخلت مياه المتوسط الشرقي من قرصنة المسلمين وتسهلت سبب الاتصال بالشرق، فتوافد التجار الإيطاليون إلى الجزر والسواحل وأقاموا فيها، وبسط الفسالة نفوذهم على البلقان، وعظم أمرهم فهاهم الصقالبة والبلغاريون، وتفتحت أمام الحجاج طرق برية قليلة النفقة، خالية من عراقيل الحدود، فتدفقوا زرافات زرافات، وزاروا القسطنطينية؛ للتبرك بذخائرها والاستراحة فيها قبل متابعة السفر إلى الأراضي المقدسة،^{١٠} وأنشأ الفسالة في

^٨ .De Fide Orth., I, 8, P. G., Vol. 94, Col. 832; Lossky, V., Théologie, 60

^٩ .Mansi, XII, 1122

^{١٠} .Runciman, S., Hist. of the Crusades, I, 38 ff

هذا العصر حَرَسَهُم الإفرنجي، فازداد عدد الغربيين المقيمين في القسطنطينية ومرافق الإمبراطورية وجزرها، وكَثُرَ عددُ المتجولين في أراضيها من الدانوب في أقصى الشمال حتى مداخل طرابلس وحمص ودمشق، ولم تَخُلْ إيطاليا نفسها من تجار الروم ورهبانهم وعمالهم، ولا سيما جنوبها. وأشهر رهبان الروم فيها في هذا العصر القديس نيولوس ويوحنا فيلاغاثوس.^{١١}

البطريك أفستاثيوس والبابا يوحنا التاسع عشر

ورافق هذا التطور في العلاقات بين فرعي الكنيسة الجامعة اهتمامٌ شديدٌ في الحج والحجاج في الأوساط الرهبانية في الغرب، ولا سيما رهبانية كلوني، وكان الاهتمامُ في توطيد سلطة أسقف رومة من أبرز النقاط في برنامج هذه الرهبانية، وهبَّ أفرادها للتبشير به والدعاية له في كُلِّ مكان وزمان، فأقضوا بذلك مضجعَ البطريك المسكوني، ولا سيما في الأبرشيات الخمس الإيطالية الخاضعة له.

فبحث البطريك المسكوني هذه القضية مع الفيلسوف باسيلوس الثاني، واتفق الكبيران على الكتابة إلى يوحنا التاسع عشر في هذا الموضوع، فعرض أفستاثيوس في السنة ١٠٢٤ حلاً على زميله الروماني قضى بالاعتراف بتقدم رومة في الكرامة والاحترام وبعدم تدخلها في شئون القسطنطينية الداخلية وسائر الأبرشيات الشرقية الداخلة في حوزة الإمبراطورية، والمقصود هنا — بنوعٍ خصوصي — شئون الأبرشيات الإيطالية الخمس. ولا يجوز القول في هذا العرض أكثر مما تقدم؛ لأن النص اليوناني مفقود، ولأنه لم يبق عنه سوى الترجمة اللاتينية كما رواها رادولف غلابير،^{١٢} فوافق يوحنا التاسع عشر،^{١٣} ولكن رئيس دير القديس بنينوس في ديجون اعترض باسم رهبانيته على تمزيق سلطة هامة الرسل، وكتب بذلك كتاباً شديد اللهجة إلى يوحنا التاسع عشر، فترجع هذا البابا عما اعترف به، فلم يُذكر اسمه في ذبتيخة القسطنطينية ولم يرد في سينوذيكون السنة ١٠٢٥،^{١٤} ومن هنا قول المؤرخ الألماني المعاصر: «إنه في السنة ١٠٢٨

^{١١} P. G., Vol. 120; Gay, J., Italie Meridionale, 391–395

^{١٢} Radulf Glaber, P. L., Vol. 142, Col. 671; Michel, A., op. cit., I, 25

^{١٣} Jugie M., schisme oriental, 168–169

^{١٤} Michel, A., op. cit. I, 25

خرجت الكنيسة الشرقية عن طاعة البابا.»^{١٥} وهو كلامٌ مضللٌ، ينقصه شيءٌ كثيرٌ من الضبط والتدقيق، ويكذبه سيرُ الحوادث بعد السنة ١٠٢٤، وجُلُّ ما حدث أن الإكليركيين الكبيرين عادا إلى ما كانا عليه من المقاطعة في الذبتيخة، أما كنائس اللاتين فإنها ظلت مفتوحةً في القسطنطينية وسواها من مُدن الشرق، وظلَّ اللاتينيون أيضًا يتعبدون في كنائس الروم وكذلك تابع الديرُ اللاتينيُّ أعماله في جبل آتوس،^{١٦} بيدَ أن ظروفَ الحال أصبحت قابلةً للاشتعالِ سهلةً للاهتَاب، فجاءتها شرارةٌ قويةٌ من عالم السياسة.

أزمة سياسية في إيطاليا

وكان جنوبُ إيطاليا لا يزالُ في قبضة الروم، وكان هذا الجنوبُ يشملُ إمارتين لومبارديتين: إمارة ساليرنون وإمارة كابوة وبنيفنتوم، وكان يدخلُ في هذا الجنوبُ أيضًا ثلاثُ مُدن حرة هي غايطة وأمالفي ونابولي وولاية كالابرية اليونانية وولاية أبولية أو لانغوباردية، وكانت هذه يونانيةً في مدنها لومبارديةً لاتينيةً في ريفها، ولم تحاول كنيسة القسطنطينية التدخلُ في شئون الكنائس الرومانية القائمة في الإماراتين وفي المدن الحرة، ولكنها لم تَرَضَ عن تطلُّع اللاتين في أبولية إلى ما وراء الحدود إلى رومة القريبة.^{١٧} وفي السنة ١٠٢٠ ثار ميلو Melo على الروم في أبولية، واستعان بعددٍ من الفرسان النورمنديين المرتزقة، وقضى الرومُ على هذه الثورة المحلية، ولكنهم تركوا النورمنديين يستقرون في أبولية ويستدعون إليها عددًا كبيرًا من أصدقائهم وذويهم من شمال فرنسا، وفي السنة ١٠٤٠ طمع النورمنديون في الحكم فأخذوا يدوخون جنوب إيطاليا بزعامة أسرة هوتفيل Hautevilles الشهيرة، وتدخلت ألمانيا في شئون رومة مرة أخرى في شخص إمبراطورها هنريكوس الثالث، فزار هذا الإمبراطور رومة في السنة ١٠٤٦ وخلع باباواتها الثلاثة دفعةً واحدةً، وأجلس على سدةها إقليمس الثاني ثم دماسوس، وفي السنة ١٠٤٨ — وبعد وفاة هذين الحبرين — جاء بأسقف تول برونو اللوريني، فأجلسه على العرش البطرسي باسم لاوون التاسع (١٠٤٩-١٠٥٤)، وشغلت هنريكوس مشاغلُ في ألمانيا، فعاد إليها تاركًا أمور إيطاليا إلى لاوون، يُديرها ويدبرها بحكمته.

^{١٥} Chronica S. Petri Erphordensis moderna, Nonumenta Germ. Hist. Vol. 30, P. 407

^{١٦} Leib, B., Rome, Kiev et Byzance, 82-83, 100-101

^{١٧} Gay, J., Italie Meridionale, 414-429

رومة تتحدى القسطنطينية

وزار الإمبراطور الألماني في أثناء وجوده في رومة جنوب إيطاليا، فقوى النورمنديين؛ بأن اعترف بحقهم الشرعي في الأماكن التي كانوا قد سَطَوْا عليها، وارتاح لاوون — بادئ ذي بدء — إلى نشاط النورمنديين في جنوب إيطاليا؛ لأن نشاطهم عزَّزَ سُلْطته الروحية، وأفسح له المجال للصمود في وجه التوسُّع اليوناني، ولا سيما في أبرشية أوترانتو التي كان قد أنشأها نيقيفوروس فوقاس في النصف الثاني من القرن العاشر، ولكنه لم يُقدم على إلغاء الطقس البيزنطي،^{١٨} ثم اضطرب لاوون عندما بدأ النورمنديون يدخون المقاطعات اللومباردية ويقتربون من حدود رومة، وكان هنريكوس لا يزال منهمكًا في أمور ألمانيا فتقرب لاوون من الروم للقضاء على نفوذ النورمنديين، ولكنه أراد أن يظلَّ محتفظًا بما جَنَاهُ من توسُّع النفوذ النورمندي، فحاول الجمع بين نقيضين وأمسى تقرُّبه من الروم استفزازًا لسلطاتهم الروحية، فأخفق في ميدان السياسة، ووقع في يد النورمنديين أسيرًا (١٠٥٣) ونفر زميله القسطنطيني فجرَّ الكنيسة الجامعة إلى شقاق أليم.

موقف القسطنطينية

وكان قسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٢-١٠٥٥) فسيلفَسًا طائشًا خاملاً مستهترًا مسرفًا مبددًا، إلى أن حَلَّ به فالج أَعده عن كل حركة، ولكنه كان صافي القلب بشوشًا بعيدًا عن الحقد والتكبر يجذب القلوب بلطفه وخِفَّة رُوحه،^{١٩} وكان رومانوس إسكليروس أخو خلية هذا الفسيلفس يكره القائد الكبير جورج منياكيس، فاستدعى قسطنطين هذا القائد من إيطاليا وأبعده، فثار القائد ونادى به جنوده فسيلفَسًا. وشملت حركته جنوب إيطاليا فقاومه فيها أرجيروس بن ميلو اللومباردي الكبير، وعند انتهاء أمر منياكيس استدعى الفسيلفس هذا اللومباردي الصديق، وشمله بعطفه وأولاه ثِقته، وفي السنة ١٠٥١ عينه مجيستروسًا ودوقًا على إيطاليا الجنوبية، فأثار بذلك سخط الأوساط المحافظة في القسطنطينية؛ لأن أرجيروس كان لومبارديَّ العنصر لاتينيَّ المذهب،

^{١٨} Epist. ad Michaellem Constantinopol, tanum, P. L., Vol. 143, Col. 764; Jugie, M., Schisme

.Byzantin, 189, n. 1.; Ostrogorsky, G., Byzantine State, 296

^{١٩} Psellos, Chronographia, I, 133-134; Diehl, C. Figures Byzantines, I, 273-276

وكان كيرولايوس البطريك في طليعة هؤلاء المحافظين الساخطين،^{٢٠} ووافق أرجيروس المجيستروس لاوون التاسع على سياسته في جنوب إيطاليا، ودخل معه في حلفٍ نجهُلٍ شروطه، فزاد في وجس المحافظين في العاصمة وأقضى مضجَعهم.

البطريك ميخائيل الأول (١٠٤٣-١٠٥٨)

وتحدّر هذا البطريك المسكوني كيرولايوس من أسرة شريفة مثلت مرارًا في مجلس الشيوخ، والتحق بسلك الإدارة المدنية وتدخل في السياسة، ولعله تزعم حركة الانقلاب في السنة ١٠٤٠ التي استهدفت إنزال ميخائيل الرابع عن عرشه، ولعله طمع في هذا العرش آنئذٍ — كما جاء في بعض المراجع الأولية —^{٢١} ويروى أيضًا أنه لدى إخفاقه في هذه الحركة؛ طلب العزلة ثم قدم النذر عن إخلاص وتقوى ولبس الإسكيم،^{٢٢} ولدى وصول قسطنطين التاسع إلى العرش عاد كيرولايوس إلى الاهتمام بالبلاد وشئونه، فاستمال الفسيلفس وكسب ثقته، وأصبح أشدّ الناس أثرًا في نفسه، ثم عينه البطريك أليكسيوس الأستودي بروتوسينكيلوسًا فأصبح هو البطريك المنتظر، وتوفي البطريك أليكسيوس في العشرين من شهر شباط سنة ١٠٤٣، فخلفه في السدة بعد شهر من الزمن كيرولايوس باسم ميخائيل الأول.

وكان ميخائيل الأول إداريًا قديرًا صارمًا قاسيًا ينقصه دهاء فوطيوس وتوقد ذهنه، وكان عزيز الجانب لا يناله طالب ولا يطمع فيه طامع، ولم يكن ذاك العالم اللاهوتي المؤرخ الذي وجدته القسطنطينية في شخص فوطيوس، ولكنه شابه فوطيوس في اعتزازه باليونان وتعلقه بطقوسهم، وكان رفيع الأهواء بعيد المهمة، فتبنى برنامج سلفه أفستاثيوس وحاول — قدر المستطاع — تحقيقه، فكان هو المقدم على بطاركة الشرق وزعيم الكنيسة الشرقية، فأوجب توحيد الطقوس والقوانين وتدخل في شئون الكنائس الشرقية غير الأرثوذكسية؛ محاولًا إنقاذها من الضلال وإرجاعها إلى حظيرة الكنيسة الجامعة. وخص الكنيسة الأرمنية بعنايته، وكانت هذه الكنيسة قد انفصلت عن الكنيسة الجامعة بعد المجمع الخلقيدوني فقالت مع اليعاقبة بطبيعة واحدة وخالفت

^{٢٠} Gay, J., op. cit., 450, 472.

^{٢١} Skylitzès (Cedrenus), 106.

^{٢٢} Amann, E., Rome et Const., op. cit., 138.

الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية، فأكلت الدم وصامت السبت وبدأت الصوم في الأحد السبعيني الثالث قبل الصوم الكبير، واستعملت الفطير في سر الأفخارستية، فبحث ميخائيل هذا الأمر مع الفسيلفس واستدعى كبير الكنيسة الأرمنية أنثذ الكاثوليكوس بطرس إلى القسطنطينية للتفاهم والاتحاد، فجاء بطرس في السنة ١٠٤٩، ولقي حفاوةً كبيرة وإكرامًا من السلطات الزمنية والروحية.^{٢٣}

الكنائس اللاتينية في القسطنطينية (١٠٥٢)

وبينما كان البطريرك المسكوني وحاشيته وأصدقائه وأعوانه يضطرمون بهذا الروح الوثاب، وهذه الخلال الأرثوذكسية النقية؛ كان بريد إيطالية يحمل إلى العاصمة الشرقية بين آونة وأخرى أبناء التوسّع اللاتيني في الأبرشيات الإيطالية الأرثوذكسية، وضغط النورمنديين على الكنائس الأرثوذكسية التي كانت قد دخلت في حوزتهم. ومما زاد في الطين بلة أن أرجيروس ممثل الروم في إيطالية كان يُجادل البطريرك المسكوني في أمر الفطير، ويدافع عن وجهة نظر اللاتين، فلما قاربت السنة ١٠٥٢ نهايتها أوجب البطريرك المسكوني على جميع الكنائس اللاتينية في القسطنطينية ممارسة الأسرار والطقوس بموجب التقليد اليوناني الأرثوذكسي، فامتنعت هذه الكنائس، فأمر البطريرك بإغلاقها،^{٢٤} وليس من العلم أن نقول مع بعض المؤرخين إن نيقيفوروس أحد رهبان البطريركية المسكونية أخذ القربان المحفوظ في كنيسة لاتينية ورمى به إلى الأرض وداسه؛ زاعماً أنه غير مقدّس، فهو قولٌ ينفردُ به هومبرتو وينقصه الشيء الكثير من العدالة والضبط.

رسالة لاوون أخريدة

وفي ربيع السنة التالية ١٠٥٣ كتب لاوون متروبوليت أخريدة ورئيس أساقفة بلغارية إلى السينكلوس يوحنا أسقف تراني في جنوب إيطالية، ونائب البطريرك المسكوني فيها، يوجبُ تَجَنُّبَ البدع الغربية؛ كاستعمال الفطير وصوم السبت وأكل الدم، والمخنوق، وغير ذلك، ويوضح وجوه الخطأ فيها، ثم يرجو إطلاع أساقفة الإفرنج على مضمون رسالته،

^{٢٣} Every, G., The Byzantine Patriarchate, 166

^{٢٤} Leon IX, Epist. 19, 29, P. L., Vol. 143, Col. 158, 164; Humbert, Brevis et Succincta, P. L.,

.Vol. 163, Col. 1002; Amann, E. op. cit., VII, 140; Jugie, M., op. cit. 189–190

ويؤدُّ لو أن البابا الجزيل الاحترام يحيط علمًا بها أيضًا،^{٢٥} وجاءت لهجة لاوون قاسية عنيفة كقوله: «من يصوم السبت ويقدم على الفطير ليس يهوديًا ولا وثنيًا ولا مسيحيًا، وإنما هو شبيهٌ بجلد النمر المرقط.» فأثارت الكره والحقد والشقاق. ووصلت رسالة لاوون في أتعس الأوقات؛ فالنورمنديون كانوا قد قَصَّوا على مقاومة أرجيروس في شباط السنة ١٠٥٣، وكانوا قد أسروا البابا لاوون التاسع في حزيران السنة نفسها وأجبروه على الإقامة في بنيفنتوم، وشاء سكرتير هذا الباب هومبرتو مورموتيه Humbert de Mourmoutiers كاردينال سيلفة كانديدا Silva Candida أن يتصل بسيدة، فأذن له النورمنديون بذلك، فرأى أن يذهب أولاً إلى أبولية؛ ليتصل بأرجيروس فمرَّ بمدينة تراني، واتصل بأسقفها، فأطلعه هذا على الرسالة التي وجَّهها إليه لاوون أخريدة، فقرأها ونقلها إلى اللاتينية، وتوجه إلى بنيفنتوم فأطلع سيده عليها، ويرى رجال الاختصاص أن هومبرتو أساء الترجمة، وأنه كان يكره اليونانيين وكنيستهم، فأهمل ودس فجاءت ترجمته أشدَّ عنفًا وأسوأ أثرًا من الأصل اليوناني. ومن دسائسه أنه أضاف اسم البطريرك المسكوني إلى الرسالة، فجعلها تصدر عنه وعن رئيس أساقفة بلغاريا، ومن هنا قول البطريرك المسكوني إلى بطريرك أنطاكية إنه لم يخاطب البابا، ولم يكتب إلى أي أسقف في الغرب في موضوع الفطير، وأن اللاتينيين «فضوليون قليلو التَّبَصُّر يحبون الكذب».^{٢٦} وكان لاوون التاسع لا يزال يجهل اليونانية، فاعتمد ترجمة هومبرتو واستشاط غيظًا، وأمر بالرد عليها.

رد لاوون التاسع

وأمر البابا بالرد على رسالة لاوون أخريدة برسالتين توجَّه إحداهما إلى «الأسقفين» ميخائيل القسطنطينية ولاوون أخريدة، وتُترك الثانية بدون عنوان وترد التهم الموجهة إلى الكنيسة اللاتينية.^{٢٧}

^{٢٥} Epistola ad Ioannem Episcopum Tranensem, P. G., Vol. 120, Col. 836 ff; Michel, A., op. cit., II, 282–291.

^{٢٦} Jugie, M., Schisme Byzantin, 193, n. 1.; Runciman, S., Eastern Schism, 42–43.

^{٢٧} Leon IX, Epistola ad Michaellem Constantinopolitanum, P. L., Vol. 143, Col. 744–769;

Adversus Graecorum Calumnias, P. L., Vol. 143, Col. 931–974; Michel, A., op. cit., I, 43–

وأعد هومبرتو هاتين الرسالتين^{٢٨} فاستهل الأولى بالرغبة في السلام، ولكنه ملأها بعبارات الصلف والترفع والاستمساك بالرئاسة، وهدد بامتيازات رومة، واعتبر «الأسقفين ميخائيل ولاون» أحمقين؛ لأنهما تجاسراً فحكماً على السدة الرسولية التي لا يستطيع أحد من المائتين أن يحاكمها. ولكي يؤيد هذه السلطة ذكر منحة قسطنطين إلى سيليفستروس، ورأى فيها أمراً إلهياً مصدقاً من المجمع المسكوني الأول، ونصح إلى هذين «الأسقفين» أن يندم كل منهما على ما فعل، وأن يرجع عن الطريق التي مشى فيها؛ لئلا يصبح في الآخرة من جملة المسحوبين بذنب التنين الذي جر ثلث كواكب السماء. وضم هومبرتو إلى هذه الرسالة نسخة عن منحة قسطنطين «لكي لا يرتاب أحد في أن سيادة رومة على الأرض لم تؤسس على الخرافات والخزعبلات، وإنما صدرت عن قسطنطين نفسه الذي رأى أن خضوع صاحب السلطات السماوية للسلطات الأرضية غير لائق»! والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو أن منحة قسطنطين هذه التي احتج هومبرتو ولاون بها هي وثيقة مزورة صنفت في القرن الثامن لتدعيم سلطة رومة، وهو أمر يجمع عليه رجال الاختصاص من كاثوليكين غربيين وبروتستانتين وأرثوذكسيين.^{٢٩}

توسط السنكلوس

ولس الستراتيجوس أرجيروس درجة الإساءة التي شعر بها البابا لاون لدى اطلاعه على رسالة لاون أخريدة، فاتصل بالسنكلوس يوحنا أسقف تراني وبحث تطورات الموقف معه، فرأى الاثنان معاً أن المصلحتين السياسية والدينية تقضيان بتلافي الأمر وتدارك الخطر قبل وقوعه، فقام يوحنا إلى القسطنطينية وأكد للبطريك المسكوني أن البابا رجلٌ نجيبٌ فاضلٌ عاقلٌ، وأن التعاون معه ضروري لمصلحة الروم في إيطاليا. وكان البطريك شديد الثقة بالسنكلوس، لا يشك في ولاءه، فكتب إلى زميله الروماني كتاباً رقيقاً أوضح فيه رغبته في الوثام والاتفاق، ورجاه أن يذكر اسمه في ذبتيخة رومة مقابل

^{٢٨} Michel, A., Ibid.; Jugie, M., op. cit., 194

^{٢٩} أيضاً رأي ملاتيوس رئيس أساقفة أثينة ورأي جراسيموس متروبوليت بيروت في كتابه تاريخ الانشقاق ج٣، ص ٨٠-٨١.

ذكر البابا في ذبتيخة القسطنطينية، ولكنه حيا زميله الروماني أخواً لا أباً ووقع بصفته بطريركاً مسكونياً.

وكتب الفسيلفس أيضاً كلاماً لطيفاً دعا به الحبر الروماني إلى التعاون المخلص في الحقل السياسي، وقد ضاع نصُّ هاتين الرسالتين، ولم يبقَ منهما سوى ما جاء عنهما في ردِّ البابا، وما أشار إليه البطريرك المسكوني في رسائله إلى بطرس الثالث بطريرك أنطاكية. وعاد هومبرتو — فيما يظهر — إلى الدسِّ والإفساد؛ فإنه جعل البطريرك المسكوني يقول بأنه يقابل ذكر اسمه في ذبتيخة رومة بذكر اسم البابا في جميع كنائس العالم *in toto orbe terrarum*. ولعل البطريرك استعمل اللفظ اليوناني «المسكوني» بمعناه البيزنطي؛ أي في جميع كنائس الإمبراطورية، فهال البابا هذا الكلام بلفظه اللاتيني وأضرَمَ غيظه، وكان قد أضعفه المرضُ فوكل أمر الرد إلى هومبرتو، وليته لم يفعل!

الكردينال هومبرتو

وكان الكاردينال هومبرتو يمين البابا ورئيس أركانهِ على شيءٍ من العلم والثقافة، وبعض الشيء من التقوى، ولكنه كان ضيق الخلق جافي الطبع، شديد التصلب صفيق الوجه، لا يندى له جبين. وكان يكره اليونانيين، فجاء وفي رأسه خطة وعزم على الذهاب بنفسه إلى القسطنطينية حاملاً رد البابا، فأعد باسم سيده رسالة إلى الفسيلفس شكا فيها البطريرك وأخبر بسوء فعله وأنذر بالمقابلة بالمثل وخوف من العواقب، وأعلم بقيام وفد باباويٍّ إلى القسطنطينية وطلب تسهيل مهمته، وكتب رسالة أخرى إلى البطريرك المسكوني أكد فيها أولوية رومة وسيادتها، ولام البطريرك على التلقُّب بالمسكوني، وشكَّ في قانونية انتخابه، وأنكر عليه تطاوله على حقوق كنائس الإسكندرية وأنطاكية، وأنبّه على تطفله وانتقاده الطقس اللاتيني، ولا سيما التقديس على الفطير، ورجا الله أن يجده ممثلو البابا الذاهبون إلى القسطنطينية في التوبة والندامة!^{٢٠}

Léon IX, Epist., P. L., Vol. 143, Col. 773–781; Runciman, S., Eastern Schism, 44; Jugie, ٢٠
M., Schisme Byzantin, 196, n. 1

الوفد البابوي المفاوض

وتألف الوفدُ المفاوضُ من الكردينال الأسقف هومبرتو والشماس فريديريكوس اللوريني حافظ الختم وبطرس رئيس أساقفة أمالفيس، وسهل النورمنديون المفاوضة، فدعا لاوون التاسع إلى مجمع محلي في باري في صيف السنة ١٠٥٣، فتشاور الآباء اللاتينيون في أمر الانبثاق من الأب والابن، وزوّدوا الوفد بما يجادلون به،^{٣١} وفي مطلع السنة ١٠٥٤ قام الوفدُ إلى أبولية للاتصال بأرجيروس المجيستروس والإصغاء إلى إرشاداته، فنصح إليهم أرجيروس أن يتصلوا بأخصام البطريرك المسكوني في القسطنطينية، وأن يتعاونوا معهم في السعي لدى الفسيفلس لإحباط مشاريع البطريرك المسكوني وإبطالها، فجاء رأيه سخيلاً فاسداً؛ لأن البطريرك ميخائيل الأول كان قد غيّر في وجوه أخصامه في القسطنطينية وأصبح لا يباري ولا يماذي في سياسة العاصمة، والتبس على هومبرتو وجه الصواب، فأخذ بهذا الرأي الطائش، وقاطع منْ رغب في مفاوضته قبل الاتصال به.^{٣٢}

هومبرتو في القسطنطينية (١٠٥٤)

ووصل الوفدُ المفاوضُ إلى عاصمة الرُّوم في أواخر آذار، أو أوائل نيسان سنة ١٠٥٤، وعملاً برأي أرجيروس العاشر أهمل الوفد البطريرك، واتصل بالفسيفلس أولاً، فخالف العرف الكنسي، ثم عزّج على البطريركية، فاستقبله البطريرك في قاعة التسجيل يُحيط به رهطٌ من المطارنة وكبار الموظفين الإكليريكين، وقضى العرفُ المسيحيُّ بأن يدخل الكردينال الأسقف على البطريرك المسكوني متواضع النفس خافض الجناح متحياً عن مقاعد الكبر، ولكن هومبرتو أقبل شامخ الأنف رافع الرأس سموذاً. وقضى البروتوكول البطريركي بأن يجلس الأسقف بعد المطارنة، فجاوز هومبرتو قدره وتعدّى حدّه وامتنع عن الجلوس، ثم نصب صدره ومطّ حاجبيه ودفع برسالة لاوون التاسع دفعاً وسماً بنفسه، ثم خرج أزهى من الغراب، فاعتبر البطريرك هذا العملَ وقاحةً وخرقاً لحجاب الحشمة.^{٣٣}

^{٣١} Michel, A., op. cit., I, 97-111.

^{٣٢} Gay, J., Italie Meridionale, 409; Runciman, S., op. cit., 44-45.

^{٣٣} Epist. Cerularii ad Petrum Antiochenum, P. G., Vol. 120, Col. 785-788.

ثم قرأ البطريرك رسالة البابا ودَقَّقَ في ختمها، فَرَابَهُ أَمْرُهَا واعتبرها مِنْ وَحْيٍ أرجيروس خصمه، فامتنع عن الاعترافِ بِصِلَاحِيَةِ الوَفْدِ المفاوِضِ، وأبَى أَنْ يَشْتَرِكَ مع أَعْضَائِهِ، وتُوَفِّيَ لاون التاسع في الثالث عشر من نيسان سنة ١٠٥٤، وشغَر الكرسِي الروماني سنة كاملة ولم يرق فيكتورْيوس الثاني السدة قبل الثالث من نيسان سنة ١٠٥٥، وعلم البطريرك هذا كله^{٢٤} فنام عن أمر هومبرتو وتركه رهن الطوارق.

ولكنَّ هومبرتو أسهر قلبه واستوقد غضبه وراح يتحرَّق ويتلهَّب، فعكف على ملفه وقَلَّب أوراقه فوجد فيه الردين الأولين على رسالة لاون أخريدة، وعثر أيضًا على رسالة كانت قد وردت على رومة من أورشليم وفيها ما يؤيد رومة في بعض طقوسها، فأعاد النظر في نصوص هذه الرسائل «وهذبها» ونقلها إلى اليونانية وأتحف الروم برد على لاون أخريدة أفرغ فيه ذنوبًا وذنوبًا،^{٢٥} فهبَّ الراهب نيكيتا ستيثاتوس الأستودي فصنف رسالة في حق اللاتين،^{٢٦} وطعن في حالة العزوبة المفروضة على الكهنة عندهم، وفي ممارسة القداس العادي في أثناء الصوم على الرغم من تحريمه في القانون الثاني والخمسين من قوانين مجمع ترولي، ولكنه لم يرَ في هذا كله هرطقة، بل انحرافًا عن التعليم الرسولي، وسمى كنيسة رومة «عين المسكونة كلها».^{٢٧}

فعاد الكردينال إلى طيشه وخلق جلاباب الحياء، فأوسع نيكيتا شتمًا وسبابًا وجعله سافلًا وحمارًا وزانيًا ورئيس الهراتقة،^{٢٨} واحتج لدى الفسيلفس، وأصرَّ على الاعتذار متخذًا لنفسه صفة القاضي الروماني الذي جاء ليصدر حكمًا مبرمًا لا المفاوض بالسلام والمحبة، «فاعتبر الكرسِي القسطنطيني العظيم أسقفية متمردة خاضعة لبطريركية رومة، وعامل صاحبها معاملة مرعوس مذنب، يجب عليه التماس الصفح من رئيسه الكريم، وظن أن ميل الفسيلفس نحوه لأسباب سياسية يكفي لقهَر البطريرك والشعب».^{٢٩} وسال

^{٢٤} Ibid. Col. 784 A

^{٢٥} P. L., Vol. 143, Col. 951 ff

^{٢٦} P. G., Vol. 120, Col. 1012–1022; P. L., 143, Col. 973–984; Demetracopoulos, A., Biblioth.

^{٢٧} Ecc. I. 18–36; Milhel, A. Humbert und Kéroullarios, II, 322–342

^{٢٨} Jugie, M., op. cit., 200–202

^{٢٩} Contra Nicetam, P. L., Vol. 143, Col. 983–985, Jugie, M., op. cit., 202–203

^{٣٠} الاجتهاد في سبيل الاتحاد للمرسلين البولسيين، ص ٢٠.

لعابه من فمه فأثار مشكلة الانبثاق، وادعى أن اليونانيين حذفوا من دستور الإيمان النيقاوي القسطنطيني العبارة «ومن الابن»! فأساء التصرف وكشف جهله، واضطر الفيلسوف أن يطلب إليه أن شرح ذلك كتابةً، ففعل وقدم مذكرة خطيةً بهذا المعنى قبل الرابع والعشرين من حزيران سنة ١٠٥٤، وقد عثر على نسخة قديمة عنها العلامة الألماني ميشال، ونشرها في مؤلفه عن هومبرتو وكيرولاريوس،^{٤٠} وحاول الفيلسوف جهده للتقريب بين الطرفين، ولكن البطريك أصر على مجانية هومبرتو، وأوجب دعوة مجمع مسكوني للبت في أمر الانبثاق، فازورَّ الكردينال وانقبض ولجأ إلى الحرمان والتحریم.

حرم هومبرتو

وفي السادس عشر من تموز سنة ١٠٥٤ دخل الوفد البابوي إلى كنيسة الحكمة الإلهية والقداس قائم فيها، واتجهوا نحو الهيكل، فالمائدة، ورفعوا الإنجيل الطاهر ووضعوا حرمًا تحته بحضور الإكليروس والبطريك، ثم نفضوا غبار أرجلهم وخرجوا قائلين: «الرب يحكم في ما بيننا وبينكم.»^{٤١} ومكثوا يومين في القسطنطينية ثم غادروها حاملين الهدايا — حسب العادة! «فجاء عملهم أقرب إلى التمثيل المسرحي منه إلى عمل كنسي.»^{٤٢} والأمر الذي يؤسف له هو نص الحرم ولهجته؛ فقد نسب الكردينال إلى البطريك المسكوني سلسلة من التهم والهراطقات الخيالية؛ فقد جاء في هذا الحرم عن البطريك ميخائيل الأول أنه ذاك الذي يزعم أنه بطريك. وجاء عن المؤمنين أنهم تبعوا جنونَ هذا الذي يزعم أنه بطريك، وأنهم كالغيلاسيين يُرَقُّون الخصيان إلى درجة الكهنوت الأسقفية وكالآريوسيين يُجددون عماد اللاتين، وكالدوناتيين ينكرون وجود كنيسة المسيح خارجًا عنهم، وكالنيقولايويين يزوجون الكهنة بعد رسامتهم، وكالسافاريين يلعنون شريعة موسى، وكأعداء الروح القدس حذفوا من قانون الإيمان العبارة والابن، وكالمانيين يقولون بأن الخمير حيٌّ ذو نفس، كالناصريين لا يعمدون ولو في خطر الموت من كان في حالة من الأحوال التي تسمى نجاسة في شريعة موسى، وأنهم يرفضون تقديم القربان لمن يخلق لحيته، إلى ما هنالك من الافتراءات التي لا أساس لها.

^{٤٠} Michel. A., Humbert und Keroullarios, I, 97-111.

^{٤١} Brevis et Succincta Commemoratio, 3, P. L., Vol. 143. Col. 1001-1002.

^{٤٢} الاجتهاد في سبيل الاتحاد، ص ٢١.

وجاء في الحرم أخيراً أن ميخائيل الأول أَعْلَقَ كَنَائِسَ اللاتين واضطهدهم، ومنع المندوبين من إقامة القُدَّاس، وأنه بإنزاله الحرم ببعض اللاتين تَجَرَّأَ على حرم الكرسي الرسولي نفسه، وانتهى الحرم هكذا: «ميخائيل الحديث في الإكليروس الذي يحمل — بلا حَقُّ — لقب بطريرك الذي اتخذ اللباس الرهباني بعامل الخوف البشري فقط، ومعه لاوون الذي يَزْعُمُ أنه أسقف أخريدة ونيقيفوروس كاتب ميخائيل الذي انتهك حرمة القدسيات، فداس برجليه ذبيحة اللاتين، وكل الذين يتبعونهم في ضلالتهم المذكورة وتجاسراتهم المتعطرسة، كل هؤلاء فليسقطوا تحت اللعنة «ما ران أنا» مع السيمونيين والفالاسيين والآريوسيين والدوناتيين، والنيقولويين والسافاريين وأعداء الروح القدس والمانيين والناصرين، وجميع الهرطقة، لا بل مع الشيطان وملائكته ما لم يتوبوا، آمين آمين آمين!»^{٤٢}

وخرج هومبرتو من كنيسة الحكمة الإلهية، وخرج شريكاه أيضاً، فلَحِقَ بهم شماس أرثوذكسي حاملاً الحرم بيده راجياً استرجاعه، فأبوا فرمى بالحرم إلى أرض الشارع، ثم التقط الحرم ورفع إلى البطريرك فأمر بترجمته، فنقله إلى اليونانية كل من البروتوسبتاريوس كوزما وبيروس الروماني والراهب يوحنا الإسباني.

البطريرك والفسيفس

ووقف البطريرك على الترجمة اليونانية، فاتصل بالفسيفس وأَطْلَعَهُ عليها، وكان قسطنطين قد وَدَّعَ ضيوفَه بقبلة السلام والمحبة، فلما اطلع على مضمون الحرم اشتعل غضباً وكاد يخرج من ثيابه، ثم رجعت أُنَاتُهُ وخشي أن يكون البطريرك قد بالغ في الأمر فأرسل من لحق بالوفد الروماني، وطلب نسخة عن الأصل اللاتيني، ولدى اطلاعه على هذا الأصل وضح الأمر وبان الذنب؛ فأرسل الفسيفس يأمر الوفد بالعودة إلى القسطنطينية والمثول أمام السنودوس المقدس، فأبوا وتابعوا السير.

ولم يلبث خبرُ الحرم أن ظهر وشاع في العاصمة، فاضطربت به الألسنة وسار على الأفواه، ففار فائر الشعب وثار تآثره وبات يرعد من الغضب، فخشي قسطنطين سوء

^{٤٢} واللفظ العربي مأخوذاً عن الاجتهاد في سبيل الاتحاد، ص ٢١-٢٢. راجع أيضاً تاريخ الانشقاق لجراسيموس متروبوليت بيروت، ج ٢، ص ٨٦-٨٩.
Jugie, M., Schisme Byzantin, 203-208.

العاقبة، فأمر بمعاقبة الوسطاء بين الوفد وبين الأوساط الرسمية، وألقى القبض على أقرباء أرجيروس وزجهم في السجن، ثم أمر بإحراق الحرم علناً، وكتب بهذا كله إلى البطريك المسكوني، هكذا:

أيها السيد الجزيل القداسة

إن دولتي قد دقت في الأمر الذي حصل، فوجدت أصل الشر ناشئاً عن المترجم وعن أرجيروس، أما غرباء الجنس فإنهم مرسلون من آخرين، ولا نستطيع أن نعمل معهم شيئاً، وأما المسيبون فقد ضربوا، ثم إننا أرسلناهم إلى قداستك ليؤدب بهم آخرون، أما «الورقة» فمن بعد حرمها وحرَم الذين أشاروا بها والذين أصدروها والذين كتبوها والذين لهم أقلُّ علم بها، فلتحرقُ أمام الجميع. وقد أمرت دولتي بسجن الفيستارثيس صهر أرجيروس وابنه الفيستاريوس؛ ليقبلا فيه تحت الشدة بحسب استحقاقهما.^{٤٤}

السيميومة

ودعا البطريك المجمع المقدس إلى النظر في قضية هومبرتو، فالتأم المجمع في العشرين من تموز بحضور رُسل الفسيلفس الثلاثة الذين حملوا رسالته إلى البطريك، فلعن المجمع الحرم وواضعيه وكل من عاون في إعداده، وأبى البطريك إحراق الحرم؛ لأنه رغب في «أن يبقى شهادة على العار الأبدي والذنب الدائم اللذين لحقا بأولئك الذين جدفوا على إلهنا مثل هذا التجديف».^{٤٥}

وفي الرابع والعشرين من الشهر نفسه عاد المجمع إلى الانعقاد، فجلس في كنيسة الحكمة الإلهية في المكان المعين للموعوظين، واتخذ قراراً رسمياً في قضية هومبرتو عُرف بالسيميومة Semeiouma أي الحاشية وقرئ على المؤمنين في الوقت نفسه الذي أفسح لتلاوة قرارات المجمع المسكوني الخامس، وكانت العادة قد جرت بقراءة هذه القرارات في مثل ذلك اليوم (٢٤ تموز) من كل عام.

^{٤٤} وقد جاء هذا النص تابعاً لنص القرار المجعي، واللفظ العربي لجراسيموس متروبوليت بيروت:

الانشقاق، ج ٢، ص ٩٩.

^{٤٥} P. G., Vol. 120, Col 748 B

لقد جاء الآن رجال أردياء الإيمان وكرهون، رجال نبغوا من الظلام؛ لأنهم أولاد المغرب ودخلوا هذه المدينة الحسنة الإيمان المحفوظة من الله، التي تتدفق منها ينباعُ الرأي القويم، فتجري إلى أقاصي المسكونة لتسقي النفوس بالعقيدة الحسنة، وقفز هؤلاء الرجال وشرعوا يُفسدون التعليم الصحيح، وتمادوا فوضعوا صكًا على المائدة السرية مائدة كنيسة الله العظمى، وبه وضعونا وكنيسة الله الأرثوذكسية وسائر الأرثوذكسية تحت الحرم؛ لأننا نريد أن نواظب على الإيمان الحسن ونعيش على استقامة الرأي، وقد طعنوا فينا ببعض المطاعن، وبأننا لا نطيق أن نطلق لحانا فنحول صورة الإنسان الطبيعية إلى صورة غير طبيعية مثلهم، وبأننا لا نرتاب في أمر تناول الأسرار من قساوسة متزوجين، وبأننا لم نرغب في الدس في الدستور الشريف المقدس وفي تزويره بأراء غييلة وأقوال دخيلة، فلم نقل مثلهم: إن الروح القدس ينبثق من الأب والابن بل من الأب.

وقد تظاهروا بأنهم جاءوا من رومة وأوفدوا من البابا، والصحيح أنهم جاءوا من تلقاء أنفسهم وبإرشادات أرجيروس الغشاشة، ولفقوا تحارير وادعوا أنها صادرة عن البابا، وقد كشفنا هذا التزوير بتدقيق الأختام وأمور أخرى، وجاء الصك بأحرف إيطالية ووضعه هؤلاء الأردياء أولًا على مائدة كنيسة الله العظمى بحضور سبعة أيبودياكونة القسم الثاني، فرفضه الأيبودياكونة ورموه عن المائدة الإلهية وقالوا لواضعيه أن يأخذه فامتنعوا، ثم تناقلته الأيادي فأخذته حشمتنا وحفظته؛ كي لا تنشر التجاديف التي فيه، ثم إننا دعونا من يُجيد الترجمة وسمحنا بنقل الصك إلى اليونانية، فتبين منه أن كل من يُقاوم إيمان السدة الرومانية وذبيحتها فليكن أناثيمًا وليدع خميرًا وضدًا جديدًا للمسيح، فأعلنت حشمتنا هذا الأمر للملكنا صاحب القدره والقداسة، فأرسل يستدعيهم إلى المدينة العظمى؛ لأنهم كانوا قد سافروا قبل ذلك بيوم واحد، فعادوا ولكنهم لم يُريدوا أن يحضروا أماننا، ولا أن يواجهوا المجمع العظيم المقدس ويجيبوا عما فاضت به بطونهم من الكفر، ولم يرض ملكنا العظيم أن يُجبرهم على ذلك؛ لأنهم يتقلدون رتبة السفارة — بحسب الظاهر — ولكن بما أنه لا يليق أيضًا ولا يحق أن تبقى هذه السفاهة بلا

قصاصٍ فقد دَبَّرَ الملك علاجًا ناجعًا، وأرسل إلى حقارتنا كتابًا شريفًا محترمًا،
وهذه صورته بالحرف الواحد.^{٤٦}

البطريك المسكوني وسائر البطارقة

وسارع ميخائيل إلى الاتصال بزملائه البطارقة الشرقيين لإطلاعهم على واقع الحال،
وَحَثَّهم على اتخاذ موقف مماثل لموقفه، فحرر رسالتين إلى بطرس الثالث بطريك
أنطاكية، وكتب الأولى فور انتهائه من إصدار السيميومة فذكر أعمال هومبرتو باختصار
وبيّن موقفه منها، ولا سيما من قضية الفيليوكوي ووعده بإرسال نسخة عن حرم
هومبرتو، ورجا زميله الأنطاكي أن يتصل بزميله الأورشليمي والإسكندري، ويحضهما
على الدفاع عن الأرثوذكسية،^{٤٧} ثم عاد إلى الكتابة فأسهب وتكلم في موقف الكنيسة
اليونانية الأرثوذكسية من الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية، ومما قاله ما معناه:
«ولما علمت ما كان يَتَحَلَّى به البابا الذي تُوفي من فضائل؛ كتبتُ إليه كتابة مسهبة
بوجوب الاتفاق على نقاط الاختلاف في الإيمان، وكنتُ أرجو أن أستميل البابا للتعاون
مع الإفرنج ضد النورمنديين في إيطاليا».

ودفعتُ بهذه الرسالة ورسالة من القيصر إلى البستياروس ليسلمها أمينة وينقل
الجواب عنها. فلما وصل هذا الرسول إلى إيطاليا اتصل بأرجيروس فخدعه وأخذ الرسائل
منه؛ مدعيًا أنه بإمكانه أن يُقدِّمها للبابا بسرعة أكثر منه، وأخذ أرجيروس الدراهم
الملوكية المرسلة إلى البابا وتَصَرَّفَ بها لمنفعته الشخصية، ودعا إليه تابعيه وبينهم واحدٌ
كان أسقفًا على مدينة أملفينا فطرد من كنيستها لأسباب شرعية، وبينهم أيضًا الكردينال
هومبرت له اسم رئيس أساقفة فقط ولم تكن أبرشيته معروفة، أما الثالث فإن أرجيروس
لقبه كانكيلاريوس الكنيسة الرومانية ليحمله برجًا حصينًا لمقاصده.

ثم فتح أرجيروس رسالتي وكتب إليَّ جوابًا متسترًا تحت اسم البابا، ثم جعل
هؤلاء الثلاثة يحملون هذا الجواب إلى القسطنطينية، ولَمَّا وصلوا إلى هنا حضروا أولًا

^{٤٦} وهو ما ورد نصه قبل هذه السيميومة. اطلب أيضًا: P. G., Vol. 120, Col. 736-748 jugie, M., op. cit., 212-213.

^{٤٧} P. G., Vol. 120. Col. 815-820

أمام القيصر بعنفوان غريب، ثم زاد هذا العنفوان حين جاءوا إليّ، فإنهم لم يقولوا لي كلمة واحدة، ولم يحنوا رأسهم، ولم يسلموا السلام العادي، ولم يرضوا بالجلوس بعد المطارنة، وما لي وللقول عن نفسي فإنهم دخلوا على القيصر حاملين بأيديهم الصليبان والعكاكيز، واكتفوا بأن سلموني الرسالة المختومة وابتعدوا.

ولاحظت الرسالة قبل فضها فرأيت ختمها مزورًا، أما فحواها فإنه كان مملوءًا بمالقة وخبثًا؛ لأنه شمل جميع المواضيع التي كان أرجيروس قد ذاكروني بها يوم كان في القسطنطينية ولا سيما موضوع الفطير، وكنت قد اضطررت إلى حرمة أربع مرات، وإني مرسل إليك نسخة عن رسالتي إلى البابا، وترجمة يونانية لجوابه الذي حمله إليّ أولئك الكفرة لكي تعلم الحقيقة حق علمها.

ثم إن خبثهم ظهر بجلاء بعد حضور رئيس أساقفة تراني فإنه كشف لنا كل شيء، فإذا به يتفق وما كنت قد سردته للقيصر.

ولام ميخائيل زميله الأنطاكي فراجعته بذكر اسم لاوون التاسع في الذبيتيخة مؤكدًا أن أسماء الباباوات حذفت من ذبيتيخات الكنائس بعد البابا فيجيليوس، وطعن في استعمال الفطير في كنائس اللاتين وفي أمور أخرى انحرفوا بها عن التسليم الأبوي القديم، وخالفوا القوانين المسنونة، ولا سيما أكل المخنوق والدم وحفظ صوم السبت بدلًا من الأربعاء. ومنع زواج الكهنة، والسماح بالزيجة بين الأقرباء، والتعميد بغطسة واحدة، والزيادة على دستور الإيمان، والقول بالانبثاق من الآب والابن والخاتم الذي يلبسه أساقفتهم وخروجهم في الحروب كالعسكر وهرق الدم لهلاك النفوس، وأضاف ميخائيل أن الذين يرسلون من الغرب يسعون لبث تعاليمهم المنحرفة ويكرهون الناس على قبولها.^{٤٨}

أنطاكية تذكر بالمحبة

وقال بطرس الثالث بطريك أنطاكية قول سلفائه بطاركة أنطاكية بالبنترائية؛ أي برئاسة البطريركيات الخمس على الكنيسة، وصارح رومة بذلك في رسالة الجلوس التي وجهها إلى لاوون التاسع حين تسلم عكاز الرعاية، وكرر هذا القول في رده

^{٤٨} P. G., Vol. 120. Col. 789-793

على دومينيكوس رئيس أساقفة أكويلية. وقد سبقت الإشارة إلى هاتين الرسالتين في بحث سابق، واعتبر بطرس زميله الروماني مقدماً على البطاركة عملاً بقرارات المجمع المسكونية، وأوضح لميخائيل البطريك المسكوني أن موقفه من ذكر البابا في الذبيخة لا يتفق والواقع، فأكد أنه يذكر أن اسم البابا كان مكتوباً في ذبيخة أنطاكية في عهد بطريكها يوحنا، وأنه عندما زار القسطنطينية قبل أربعين سنة سمع اسم البابا يوحنا يُذكر مع أسماء سائر البطاركة.

ورأى بطرس الثالث أن أضاليل رومة التي ذكرها ميخائيل ثلاثة: منها ما يجب تجنبه، ومنها ما يجب إصلاحه، ومنها ما يجب السكوت عنه؛ «لأنه ماذا يهمننا إذا كان الأساقفة اللاتينيون يطلقون لحاهم ويلبسون الخواتم، ألا نقص نحن شيئاً من شعر قمة الرأس إكراماً لبطرس ونلبس ألبسة مذهبة، ولا حرج فيما يتعلق بالأطعمة واللحوم غير الطاهرة؛ لأن رهباننا يفعلون ذلك، ولا يجب أن يكره الإنسان شيئاً مما خلقه الله، بل يجب أن يقبل كل شيء بالشكر.»

أما «الشر العظيم الذي استحق الأناثيما» في نظر البطريك الأنطاكي فإنه كان تلك الإضافة إلى نص الدستور المقدس؛ أي القول بالفيليوكوي، ولكنه رأى أنه من الواجب «أن ننظر بانتباه إلى الطوية الصالحة، فإن لم يكن الإيمان على خطر فعلينا — حينئذٍ — أن نُرجع السلام والمحبة على غيرهما؛ لأن الغربيين إخوتنا وإن كانوا يخطئون أحياناً كثيرة بسبب توخّشهم وجهالتهم. ولا يجوز أن نطلب من البربر الكمال الذي عندنا نحن الذين منذ نعومة الأظفار ننشأ في مطالعة الكتب المقدسة، ويكفي أن يحفظ الغربيون التعليم القديم في الثالوث القدوس وسر التجسد.»

ولم يستحسن بطرس الثالث منع القسوس المتزوجين عن مسك القدسات، ولم يرض أيضاً عن عدم حفظ الأصوام كما حفظها هو، وأسهب في الكلام عن الفطير، ومما قاله في هذا الموضوع ما يلي: «إن من يقدم الفطير يقدم جسداً ميتاً لا حياً، وإن من يأكل الفطير لا يستفيد من المسيح.»

وأنتهى بطرس ردهً على ميخائيل قائلاً: «فإن كنت تكتفي بالتشبهت في موضوعي دستور الإيمان وزواج الكهنة فقط فحسناً تفعل، وأما ما بقي فيمكنك غض النظر عنه، وعلينا أن لا نكون سريعين في تصديق الوشائيات، وأنت ستكتب حسب الواجب إلى البابا الجديد بعد انتخابه، وربما يجيبك بأن المطاعن كاذبة، ومن يستطيع أن يصدق أنهم لا يكرمون الذخائر وهم يفتخرون بأنّ عندهم جسدي بطرس وبولس، وكيف لا

يحترمون الأيقونات ما دام البابا وَقَّعَ على قرارات المجمع السابع المسكوني ولعن محاربي الأيقونات.»

«وبناء عليه أترامى على أقدامك وَأَتَضَّرَّحُ إليك أن تتساهل أكثر مما فعلت؛ لكي لا تكون وأنت راغب في إقامة الساقط قد جعلت سقوطه أكثر ثقلًا، وأنا أظن أن هؤلاء إذا أصلحوا زيادتهم في دستور الإيمان فلا يبقى لنا شيء نطلبه، بل يُمكننا أن نغض النظر عن مسألة الفطير، فأتضرع إليك ألا نطلب كل شيء لكي لا نخسر كل شيء.»^{٤٩}

أهمية الحرم والسيميومة

ولم يشتمل الحرم الكنيسة الأرثوذكسية بأسرها، وإنما أُطلق ضد بطريك واحد من بطاركتها، وعدد معين من رجال إكليروسها، وأعلن بعد وفاة لاوون التاسع وقبل وصول خلفه فيكتوروس الثاني إلى السدة الرومانية، ولا يجوز القول إن لاوون وافق مسبقًا على القرارات الخطيرة التي تتضمنها هذا الحرم، ولم يصدق أحدًا من الباباوات التابعين محتوياته،^{٥٠} ولم تشمل السيميومة الكنيسة اللاتينية ولم تذكر أحدًا من رؤسائها، وإنما نظمت في حق هومبرتو ورفيقيه «لتسجل خجلًا أبدياً للذين تجرءوا فجدفوا على الله». ولا أساس — فيما يظهر — لما جاء في تاريخ العقيدة لجاورجيوس الميثوختي، من أن ميخائيل الأول أذاع — بعد أن تسلم جواب بطرس الثالث — منشورًا بطريكياً عامًا، أعلن فيه اضمحلال تفوق رومة ووصوله المقام الأول بين البطاركة،^{٥١} ولا يخفى أن جاورجيوس هذا من أعيان القرن الرابع عشر، وأنه بالتالي بعيد جدًا عن الحادث الذي يروى، وقُلَّ الأمر نفسه عما جاء في مصنفات ميخائيل بلاستارس وجاورجيوس فرانجيس اللذين ادَّعيا بأن ميخائيل الأول ترأس مجمعًا عامًا في السنة ١٠٥٧، وأن هذا المجمع «حرم اللاتين وبتريكهم.» فالتفتيش الذي جرى بأمر الفسيلفس أليكسيوس في السنة ١٠٨٩ في سجلات البطريركية المسكونية وأوراقها لم يُظهر للوجود أي قرار اتخذته كنيسة القسطنطينية لإقصاء عن كنيسة رومة.^{٥٢}

^{٤٩} P. G., Vol. 120, Col. 796–816; Runciman, S., op. cit., 65–66; Jugie, M., op. cit., 225–229

^{٥٠} Jugie, M., Schisme Byzantin, 230

^{٥١} Metochite, G., Hist. Dog., Nova Patrum Bibliotheca (Mai), VIII

^{٥٢} Laurent, V., Notes Critiques, Echos d'Orient, 1932, 104; Jugie, M., op. cit., 242

والحرم والسيميومة في نظرنا عرض من أعراض علة زممنة كانت ولا تزال تنتاب الكنيسة الجامعة بفرعيها اليوناني واللاتيني حتى يومنا هذا؛ فكنيسة رومة ما فتئت منذ القرون الأولى تُطالب بالسلطة العليا على جميع الكنائس في الغرب وفي الشرق، وكنائس الشرق ما فتئت منذ القرون الأولى أيضًا ترد هذا الطلب مؤكدة تساوي الرسل والأساقفة والبطاركة مبينة أن السلطات العليا في الكنيسة الجامعة هي في يد المجمع المسكوني، وأن المجمع المسكونية أجمعت على هذا الأمر، وأن شرائع الإمبراطورية الرومانية، ولا سيما قوانين يوستينيانوس أثبتت هذا التساوي بشكل لا يحتمل الشك.

وليس من العلم أو الإنصاف بشيء أن نقول مع إخواننا الغربيين إن ميخائيل الأول أراد الانشقاق ومهد له السبيل ودبر التدابير للوصول إليه، ودفَع لاونون البلغاري وغيره إلى العمل والظهور واختبأ هو وراء هؤلاء؛ ليوُجد منفذًا عند اللزوم يستطيع الخروج منه عند تأزم الحال. نقول: ليس من العلم أو الإنصاف أن نقول هذا القول وننسى مطلب رومة التاريخي وإقدامها على تزوير منحة قسطنطين واستعمال هذا المزور في السنة ١٠٥٤، واندفاع لورين وكلوني في سبيل تدعيم سلطة أسقف رومة، وانتشار الرهبان اللاتين في أبرشيات إيطالية الجنوبية الأرثوذكسية الخمس؛ للدعاية لكنيسة رومة وطقوسها. فالمبادرة في سير الحوادث التي أدت إلى أزمة السنة ١٠٥٤ جاءت من الغرب لا من الشرق، وموقف ميخائيل الأول — على ماأخذه — كان موقفًا دفاعيًا لا هجومياً.

وليس من المسيح بشيء أن نفتش مع الأب مرتينوس جوجي الصعودي والأب إيف كونغار الدومينيكاني وغيرهما من الآباء الغربيين العلماء^{٥٢} عن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى الانفصال في الكنيسة الجامعة، فنجدها عرقية وثقافية وحكومية وسياسية، وننسى أن جميع هذه الأسباب توفرت في القرون الأولى ولم ينتج عنها مثل هذا الانشقاق. ونحن نرى أن الذين مهدوا لهذا الانشقاق في الشرق وفي الغرب معًا لم يفسحوا المجال لعمل الروح القدس، فخلت قلوبهم من المحبة المسيحية التي تتأني وترفق، ولا تحسد ولا تتباهى ولا تنتفخ ولا تأتي قباحة ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالظلم، بل تفرح بالحق وتتغاضى عن كل شيء وتصبر على كل

^{٥٢} Jugie, M., Schisme Byzantin, 3-45; Congar, Y., Après Neuf Cents Ans, Proche-Orient .Chrétien, 1954, 3-25; Amann, E., Rome et Constantinople, Fliche et Martin, VII, 111-125

كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الثاني)

شيء، وإنهم لم يصلوا بحرارة وانكسار قلب وانسحاق نفس «من أجل ثبات كنائس الله المقدسة واتحاد الكل»!

أُنر بصيرتي وافتح فمي لأهذُّ بأقوالك وأفهم وصاياك وأعمل بمشيئتك، وأرنب لك باعتراف القلب وأشيد لاسمك القدوس، أي الآب والابن والروح القدس، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين، أمين.

الفصل الثاني عشر

صَدَى الانشقاق

١٠٥٤-١٠٩٨

في أنطاكية

وتولى السدة الأنطاكية بعد بطرس الثالث البطاركة يوحنا السادس فاميليانوس فثيودوسيوس الثاني فنيقيفوروس فيوحنا السابع،^١ وجاء في السينوذيكون بعد بطرس كل من ثيودوسيوس فنيقيفوروس فيوحنا، وجاء في مجموعة لوكيان تحت الرقم المتسلسل ٩٦ ثيودوسيوس الثالث ثم باسيلوس الثاني ٩٧، ثم بطرس الثالث ٩٨ فثيودوسيوس الثالث ٩٩ فاميليانوس ١٠٠ فنيقيفوروس ١٠١ فيوحنا الرابع ١٠٢.

وتختلف هذه المراجع في تعيين سني الرئاسة، ولكنها تتقارب في تحديد بداية عهد يُوحَنَّا السابع (الرابع في المراجع الغربية)، ويرى رجال الاختصاص أن رئاسة يوحنا السادس امتدت من السنة ١٠٥٦ حتى السنة ١٠٥٧، وأن ثيودوسيوس الثاني تولى من السنة ١٠٥٧ حتى السنة ١٠٥٩، وأن رئاسة أميليانوس انتهت في السنة ١٠٧٩، وأن نيقيفوروس جاء بين أميليانوس وبين يوحنا السابع، وأن هذا رقي العرش البطريركي في حوالي السنة ١٠٨٨.^٢

^١ Constantius, op. cit., 172-173

^٢ Grumel, V., Patriarches d'Antioche, Echos d'Orient, 1934; Grumel, V. Patriarches Grecs d'Antioche, du Nom de Jean, Echos d'Orient, 1933

وقضى التقليد الكنسي بالقول بتساوي البطارقة الخمسة في السلطة وبعدم تدخل أحدهم في شئون غيره المحلية،^٢ وأعلن بطرس الثالث هذا الموقف قبل حوادث السنة ١٠٥٤ وبعدها، وكان ثيودوسيوس الثاني خريزوفرجيس صديق ميخائيل الأول كيرولاريوس، فلا عجب إذا امتنع هو وخلفاؤه في هذه الفترة عن توجيه رسائل الجلوس إلى رومة وعن ذكر أحبارها في الذبتيخة الأنطاكية، ولكنهم لم يذهبوا إلى أبعد من هذا ولم يتخذوا فيما يظهر أي قرار مجمعي بشأن مشكلة هومبرتو وحرمه، وهو ما يُجمع عليه كبارُ الثقات في تاريخ الروم،^٤ وجاء في سيرة القديس جاورجيوس الأثونيتي أن ثيودوسيوس الثاني البطريرك الأنطاكي هدد ملك الكرج في نزاعٍ نشب بينهما حول حقوق الكرسي الأنطاكي بأخبار البطارقة «الأربعة» بسوء فعله.^٥

في أورشليم

واتخذ بطارقة الكرسي الأورشليمي الموقف نفسه الذي وقفه بطارقة الكرسي الأنطاكي، وتأثروا بالعوامل نفسها التي دفعت زملاءهم، فقالوا بتساوي البطارقة الخمسة في السلطة، ووقفوا إلى جانب بطريك القسطنطينية، فامتنعوا عن إرسال رسائل الجلوس إلى رومة، وعن ذكر أحبارها في الذبتيخية، وكتب سمعان الثاني بطريك أورشليم رسالة في هذه الفترة عينها في موضوع الخلاف بين رومة والكنائس الشرقية، أبان فيها بوضوح عدم موافقته على زيارة الفيليكوي واعتراضه على استعمال الفطير،^٦ وقد أوضح العلامة الألماني ميشال أمر هذه الرسالة، فأزاح عنها حجاب الريب الذي أسدله زميله لايب، وأكد أن هذه الرسالة هي من قلم البطريرك سمعان وتعود إلى القرن الحادي عشر.^٧

^٢ Jugie, M., op. cit., 219–229

^٤ Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 338–339; Bréhier, L., Schisme Oriental, 232–241; Ostrogorsky, G., Byz. State, 297; Amann, E., Rome et const., Fliche et Martin, VII, 150

^٥ Grumel, V., Patriarches d'Antioche, Echos d'Orient, 1934, 142–144

^٦ Leib, B., Deux Inédits Byzantins, Orientalia Christiana, IX, 85–107

^٧ Michel, A., Amalfi und Jerusalem im Griechischen Kirchenstriet (Orientalia Christiana No. 121), 34–47; Runciman, S., Eastern Schism, 75, n. 3

وقد سبقت الإشارةُ إلى الاضطهاد الذي أُنزَلَه الحاكمُ بأمره الفاطمي بالمسيحيين ومعايهم في الربع الأول من القرن الحادي عشر، ولم يكن من ينجد كنيسة أورشليم ويقيها من عثرتها سوى ملوك الروم؛ فقسطنطين التاسع هو نفسه جدد كنيسة القيامة بعد تدميرها.

ونرى بطاركة أورشليم يكتفون بما اكتفى به زملاؤهم في أنطاكية؛ ففي السنة ١٠٦٤ تَوَجَّهَ عددٌ من أساقفة الغرب يتقدمهم سيغفريد رئيس أساقفة ماينز وعدد من الأشراف وغيرهم؛ إلى زيارة الأماكن المقدسة، ومروا بالقسطنطينية فأكرمهم قسطنطين العاشر وزاروا كنيسة الحكمة الإلهية، ولدى وصولهم إلى المدينة المقدسة خرج صفرونيوس البطريرك الأورشليمي بنفسه لملاقاتهم ومعه الإكليروس والشعب بالمباخر والشموع وأدخلهم باحتفاء عظيم كنيسة القبر المقدس،^٨ وهو أمر ذو بال في موقف رجال الدين في الغرب والشرق معاً من حرم هوميرتو وسيميوما المجمع القسطنطيني.

في الإسكندرية

ونكاد لا نعلم شيئاً عن كنيسة الإسكندرية في هذه الفترة، ولا نعلم اسم البطريرك الذي جلس على كرسي مرقس سنة ١٠٥٤، ولا يجوزُ التكهنُ عند سكوت المصادر الأولية، وأن لا أدري لمن العلم!

يوحنا متروبوليت كيف

ودخلت كنيسة رومة في نزاع داخلي حول الخلافة، فادعى إقليمس الثالث حَقَّ تولي السدة ثلاثين عاماً (١٠٧٠-١١٠٠)، فخاصم كلاً من غريغوريوس السابع وفيكنتوريوس الثاني وأوربانوس الثاني، وحوالي السنة ١٠٨٠. وفي عهد غريغوريوس السابع كتب إقليمس الثالث رسالة إلى يوحنا الثاني متروبوليت كيف؛ راجياً تدخله في القسطنطينية للاعتراف به بطريركاً وبابا على رومة، وكانت كنيسة روسية لا تزال خاضعة لرتاسة البطريرك المسكوني، وكان يوحنا الثاني رئيسها متروبوليت كيف يونانياً يمت بصلة إلى

٨. Annales Aitahenses Majores (M. B. SS. XX); Lambert de Hersfeld, M. G. SS., V. 168-169

الشاعر البيزنطي ثيودوروس بروذوموس، فكتب يوحنا الثاني إلى إقليمس الثالث بأسف لانحراف رومة عن قرارات المجامع المسكونية السبعة في أمر الفطير والصوم والمعمودية والفيلوكوي، ونصح إلى أقليمس أن يرسل من يمثله إلى القسطنطينية؛ ليعلن انسجامه مع التقليد القويم،^٩ وبعد ذلك بقليل كتب إلى يوحنا أحد أبنائه الروحيين؛ راجياً تبيانَ موقف المؤمن الروسي من الوثنيين واليهود واللاتين، فأجابه المتروبوليت يوحنا بأنه لا يجوز التناوُلُ مع مَنْ يقدر على الفطير، أو مع أولئك الذين لا يطبقون قرارات المجامع المسكونية في الصوم، ولكنه أجاز الاشتراك مع هؤلاء في الأعياد إذا أدى عدم الاشتراك إلى العداوة والحقد، لم يشجع التزاوج مع اللاتين.^{١٠}

ثيوفيللاكتوس متروبوليت أخريدة

وفي السنة ١٠٩٠ كتب الشماس نيقولاوس القسطنطيني إلى ثيوفيللاكتوس متروبوليت أخريدة يسأل رأيه في أخطاء اللاتين، وكان ثيوفيللاكتوس أعلم علماء زمانه درس على بسلوس في جامعة القسطنطينية، وعُنِيَ في تهذيب ميخائيل السابع ابن قسطنطين، ثم اضطر أن يقبل التسقف على كنيسة أخريدة، تنفيذاً لرغبة صديقه البطريرك المسكوني نيقيفوروس الثالث، وقيامًا بواجب أرثوذكسي كبير؛ نظراً للمشادة حول تبعية كنيسة بلغارية، وساءه تطرّف الشماس نيقولاوس، فكتب إليه يُوجب الاعتدال والمحبة. وأكد أن الاختلاف في الصوم وفي الزواج وفي المعمودية لا يُشكل خطأً مهماً، وقال: إنه من المضحك أن نُقاطع اللاتين؛ لأن إكليروسهم يطلق اللحى ويلبس الخواتم ويرتدي الأثواب الحريرية الملونة، ولم يَرَ في عدم زواج الكهنة خطيئةً مميتةً، كما أنه لم يجد في الأسفار المقدّسة وقرارات المجامع السبعة ما يمنع التقديس على الفطير، وآله جداً أن يستمر الرومُ في التفتيش عن أخطاء غيرهم وألا يعترفوا بإمكانية وقوعهم في مثل هذه الأخطاء.

Pavlay, A., Essai Critique Sur l'Ancienne Polémique Gréco-Russe Contre les Latins, ^٩

.168-186; Leib, B., Rome, Kiev et Byzance, 32-37

Canonic Answers to the Monk James, Goetz, Kirchenrechtliche und Kulturgeschichte ^{١٠}

Denkmaler Altrusslands, 98 ff.; Golubunsky, E. E., Hist. of Russian Church, I, 820-828;

.Jugie, M., op. cit., 236-238

ولكن ثيوفيلاكْتوس خشي أن يؤدي ادعاء رومة بالسلطة على جميع الكنائس واستمساكها بهذا الادعاء وخروجها عن قرارات المجامع المسكونية بإضافة الفيليوكوي إلى الدستور المقدس؛ نقول: خشي ثيوفيلاكْتوس أن يؤدي هذا كله إلى انشقاق أليم، وعزى هذا العلامة قول اللاتين بالانبيثاق من الأب والابن إلى فقر في الاصطلاحات اللاهوتية اللاتينية، وأبان أنَّ اللفظ اللاتيني للتعبير عن الانبيثاق يشمل أربعة معانٍ يعبر عنها اليونان بأربعة ألفاظ مختلفة، فإذا شاء اللاتين أن يحتفظوا بالفيليوكوي لأغراض تفسيرية داخلية فلا مانع، شرط أن يذكروا دائماً أنَّ هذا اللفظ لم يرد في الدستور المقدس الذي يقول به جمهور المؤمنين.^{١١}

ورأى ثيوفيلاكْتوس لمناسبة أخرى أنَّ ادعاء رومة بصحة قول ما لمجرد صدور هذا القول عن أسقفها في ظرف رسمي؛ ادعاءً مردود «ولو تكلم البابا بصوت بطرس وهزَّ مفاتيح السماء في وجوهنا». وأضاف أنه من الهزء ببطرس أن نستند إلى السلطة المستمدة منه لنعلن عقيدة لم تقرها مجامع الكنيسة.^{١٢}

ويتضح ممَّا تقدَّم أن ثيوفيلاكْتوس لم ير الكنيسة الجامعة منشقةً في السنة ١٠٩٠، ولكنه خشي ادعاء رومة بالسلطة وقولها بالفيليوكوي، ورجا ألا تتدخل الكنائس في شئون بعضها الداخلية.

نهاية ميخائيل الأول

وتوفي قسطنطين التاسع بعد صدور السيميومة بخمسة أشهر؛ أي في الحادي عشر من كانون الثاني سنة ١٠٥٥ فنُودي بالعقب الوحيد الباقي من الأسرة المقدونية بثيودورة ابنة قسطنطين الثامن الصغرى، وكانت قد مضت معظم حياتها في الدير، فنشأت تقيَّة فظةً بقدر ما كانت أختها زوية متيمةً بالحب، ورأى البطريرك ميخائيل أنَّ تتزوج؛ فتشرك معها في الحكم مَنْ كان أهلاً لذلك، ولا سيما وأنها كانت قد ناهزت السبعين، ورأى الخصيان حولها غير ذلك، فحكمت ثيودورة وحدها. وفي صيف السنة ١٠٥٧ أشرفت الفسيلسة على الموت فاتخذت ميخائيل استراتيوتيكوس خليفةً لها وتبنته قبل

^{١١} .De Iis in quibus Latini Accusantur, P. G., Vol. 126, Col. 221 ff

^{١٢} .Ibid. Col. 241; Runciman, s., Eastern Schism, 71-74

وفاتها، ودام حكم ميخائيل السادس سنة وعشرة أيام، واشتد في أثناءه النزاع بين العسكريين والخصيان، وتَفَجَّرَ الخصامُ يوم عيد الفصح في الثلاثين من آذار سنة ١٠٥٨، وكانت مؤامرة وتدخل البطريك ميخائيل، فأرسل وفدًا من المطارنة يُشيرون على ميخائيل السادس بالتنازل، فسأل الفسيلفس المطارنة ماذا تعطونني بدل المملكة؟ فقالوا: ملكوت السماوات، فرمى شعار الملك والتجأ إلى الدير وتُوِّفِّي بعد ذلك بقليل، فوصل إلى عرش رومة الجديدة زعيمُ العسكريين إسحاق كومنينوس.

وكافأ إسحاق البطريك، فمنحه حقَّ انتقاء أيكونوموس كنيسة الحكمة الإلهية وسكيفوفيلاكسها، وكان ميخائيل الأول قد طلب ذلك من ثيودورة وميخائيل فلم يفلح، وظنَّ البطريك أنه سيتمكن من إرشاد الفسيلفس الجديد وتوجيهه، ولكن إسحاق استنقل هذا الإرشادَ فَنَشَأَ شيءٌ من الكُرْه بين الاثنين ما لبث أن تحول إلى عدا، فهدد البطريك الفسيلفس واحتذى الحذاء الأرجواني؛ مدعيًا أن الاحتذاء بالأرجواني حقٌّ من حقوق السدة البطريكية، وكان الإقدام على الاحتذاء بالأرجواني في عُرْف الروم آنئذٍ أول دليل على الطمع في السلطة العليا.

وفي الثامن من تشرين الثاني سنة ١٠٥٨ حين كان البطريك متوجهًا ليخدم القداس في دير الملائكة ألقى الفسيلفس القبض عليه ونفاه مع أولاد أخيه إلى جزيرة إيمبروس، فهاج الشعبُ فاستحضر الفسيلفس البطريك وجمع مجمعًا وطلب محاكمته؛ لأنه عطف على راهبين كانا يتعاطيان الشعوذة، ولأنه كان يقرأ أشعار الشعراء وقت الخدمة، ولأنه أيضًا ثار على الفسيلفس السابق، والتزم البطريك الصمت وقام في النهاية وسامح الفسيلفس والقضاة، ودعا للشعب ولأعدائه وسقط ميتًا وهو يقول: السلام لجميعكم مشيرًا بيده اليمنى إشارة البركة، فأمر الفسيلفس بدفنه بحفاوة فائقة، واشترك بنفسه في تشييع الجثمان، ورقى الكرسي المسكوني بعده قسطنطين الثالث ليخوندي (١٠٥٩-١٠٦٣).

رومة تدعو إلى الوثام (١٠٥٧-١٠٦١)

وأدى إقصاء ميخائيل الأول عن العمل في حقل السياسة إلى تقريب أرجيروس والإصغاء إليه، ففُتحت كنائس اللاتين في القسطنطينية بعد إغلاقها، وأرسل وفد إلى ألمانيا؛ ليفاوض

هنريكوس الثالث في أمر التعاون في إيطاليا الجنوبية، ووضع حد لمطامع النورمنديين فيها،^{١٣} وكتب البابا فيكتوروس الثاني (١٠٥٥-١٠٥٧) إلى الفسيلة ثيودورة بألفٍ العباراتِ وأزقَّها، راجياً تخفيضَ الضرائبِ عن الحُجاجِ الغربيين الساعين إلى أورشليم بالتوبة وانسحاق النفس،^{١٤} وما كاد البابا اسطفانوس التاسع (١٠٥٧-١٠٥٨) يعلم بخلع ميخائيل الأول حتى بادر يتعاون مع الروم في السياسة ويوفد إلى القسطنطينية ديسيديريوس؛ ليعالج الوضع الكنسي، وقام هذا الوفدُ من رومة قاصداً القسطنطينية، ولدى وُصوله إلى باري علم بوفاة البابا (كانون الثاني، سنة ١٠٥٨) فعاد إلى رومة.^{١٥} ونهج البابا نيقولاوس الثاني (١٠٥٩-١٠٦١) نهجاً معادياً، فصالح النورمنديين في أمانيس سنة ١٠٥٩، واعترف بسلطة زعيمهم غيسكار على أبولية وكلايرية والإمارات اللومباردية، شرط أن يعترف هذا بدوره بسيادة الحبر الروماني على هذه المقاطعات جميعها،^{١٦} فأتار عملهُ هذا حنق الروم وأضرم غيظهم، فتعاون قسطنطين العاشر الفسيلفس مع الإمبراطورة الوصية الغربية، فدفعوا كاذلوس أسقف بارمة للمطالبة بالسدة الرومانية، وخشي البابا الجديد ألكسندروس الثاني (١٠٦١-١٠٧٣) هذا التعاون بين البلاطين الشرقي والغربي، فانتهز فرصة وصول الفسيلفس ميخائيل السابع إلى العرش (١٠٧١-١٠٧٨)، فأرسل وفداً إلى القسطنطينية في السنة ١٠٧٢ برئاسة بطرس أسقف أناغني للتهنئة والتبريك ولمعالجة التباعد بين الكنيستين،^{١٧} وكان الرأي الغريغوري في سلطة أسقف رومة قد بدأ يفعم الجو في رومة فلم ير البطريرك المسكوني يوحنا الثامن (أكسفيلينوس) مجالاً للفتاهم على هذا الأساس، ورأى ميخائيل بسلوس كبير البلاط رأي البطريرك، فماتل الاثنان، وسوّفاً، وأجّلا البحث في موضوع الاتحاد إلى أمد غير معين.^{١٨}

.Gay, J., *Italie Méridionale* 508-509; Chalandon, F., *Domination Normande*, I, 160 ^{١٣}

.P. L., Vol. 149, Col. 961-962; Runciman, S., *Eastern Schism*, 56, n. 2 ^{١٤}

.Leo of Ostia, *Chron, Monast, Casinensis*, M. G. H. S., VIII, 702-703 ^{١٥}

.Gay, J., op. cit., 516-519; Chalandon, F., op. cit., I, 170-172 ^{١٦}

.Bruno of Segni, *Vita S. Petri Ananiensis*, *Acta Sanctorum Bollandiana*, Aug. 3, 230 ^{١٧}

.Salaville, "Jean Xiphilin" *Dict. Theol. Cath.*, XV, Col. 3618-3620 ^{١٨}

البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣-١٠٨٥)

وتُوِّفِّي طغرل بك زعيم الأتراك السلاجقة في السنة ١٠٦٢، فخلفه السلطان ألب أرسلان، واستولى على أني الأرمنية في السنة ١٠٦٤ وذبح ونفى، ثم قام إلى الرها فصده عنها دوق أنطاكية في السنة ١٠٦٥، وفي ربيع السنة ١٠٦٧ هاجم ألب أرسلان الروم من الشرق والجنوب في آن واحد، فدخل جيشه البونط وقيليقية، ووصلت طلائعُه إلى قيصرية قبدوقية فخرَّبَتْهَا، واستولى رومانوس الرابع على عرش الروم (١٠٦٨-١٠٧١)، وقاد إلى الميدان كُلَّ رَجُلٍ استطاع أن يجنده في أوروبا وآسية، وانتصر على السلاجقة في سورية الشمالية عند منبج (١٠٦٩) وحرر غلاطية. ثم عاد السلاجقة إلى الهجوم فقام رومانوس إلى الجبهة، ولدى وصوله إلى منزيكرت (ملاذكرد) على الفرات الأعلى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام جيوش من السلاجقة، فكانت موقعة ملاذكرد الشهيرة في آب السنة ١٠٧١، وجرح رومانوس وسقط عن حصانه ووقع أسيراً.

وتولى ميخائيل السابع عرش القسطنطينية (١٠٧١-١٠٧٨) وترامى إليه أن النورمنديين يُعدون العدة للتوسع في البلقان، فكتب إلى غريغوريوس السابع بابا رومة يطلب المعونة في ردع هؤلاء واعدًا بالسعي لإعادة العلاقات بين الكنيستين إلى ما كانت عليه قبل الانشقاق، وأرسل وفدًا إلى رومة للمفاوضة على هذا الأساس، فوافق البابا وأقنع غيسكار زعيم النورمنديين بوجوب التعاون مع الروم، وذهب إلى أبعد من هذا فأزوج هيلانة بنت غيسكار من قسطنطين بن ميخائيل وولي عهده، وأعلن أنه مستعد للقيام بنفسه إلى القسطنطينية على رأس خمسين ألفًا لصد الأتراك السلاجقة وجمع مجمع يحل جميع المشاكل الدينية، فحشي الروم حَلَّ هذه القضايا في جو عسكري، وماطلوا وسوَّفُوا طوال السنة ١٠٧٤، ونشبت مشاكُلٌ في إيطالية، شغلت غريغوريوس، أهُمُّهَا مطامعُ غيسكار النورمندي نفسه.^{١٩}

وفي السنة ١٠٧٦ شهر غريغوريوس رأيه في الباباوية والكنيسة بقرار رسمي عُرف بالديكتاتوس Dictatus Papae، واستقل بهذا الرأي وانفرد به دون إخوانه البطاركة

Anna Comuena, Alexiad, I, 10, 12; Reg. Greg., II, 31, 37; Fliche, A., Grégoire VII, Fliche ^{١٩}
et Martin, VIII, 74-75; Runciman, S., op. cit., 58-59

الأربعة ودون عرضه على مجمع مسكوني فَبَاعَدَ بين الكنائس وانحرف عنها فَرَادَ الشقاق اتساعاً، وتألّف الديكتاتوس من سبعة وعشرين بنداً:

- (١) أن الكنيسة الرومانية وحدها مُقَامَةٌ من الله.
- (٢) أن الحبر الروماني وحده يستحق لقب المسكوني.
- (٣) وهو وحده يستطيع عَزَلَ الأساقفة وحلَّهم.
- (٤) يتقدم نائبه سائر الأساقفة في المجمع، ولو كان دونهم رتبة، وهو وحده يُصدر أحكام العزل.
- (٥) يستطيع البابا عزل الغائبين.
- (٦) ولا تجوز السكنى تحت سقف واحد مع مَنْ يحرمه البابا.
- (٧) وهو وحده يسن شرائع جديدة، مراعيًا في ذلك الظروف. وهو وحده يضم الرعايا الجدد ويحول جماعة من الرهبان إلى رهبنة. ويقسم الأبرشيات الغنية ويضم الأبرشيات الفقيرة.
- (٨) وهو وحده يلبس شارارات الملك.
- (٩) وهو الرجل الوحيد الذي يُقَبَّلُ الأمراءِ رجله.
- (١٠) وهو الوحيد الذي يجب ذكر اسمه في جميع الكنائس.
- (١١) واسمه فريدٌ في العالم.
- (١٢) وهو وحده يَعزل الأباطرة.
- (١٣) ويجوز له — عند الضرورة — أن ينقل أسقفًا من كرسيٍّ إلى آخر.
- (١٤) ويجوز له — عندما يشاء — أن يشرطن أي إكليركي من أية كنيسة.
- (١٥) ومن يشرطنه البابا يحق له أن يدير شؤون كنيسة أخرى، ولكن لا يجوز له أن يسام من أسقف آخر إلى رتبة أعلى.
- (١٦) ولا يصبح مجمعًا من المجمع عامًّا بدون أمره.
- (١٧) ليس هناك أي نص قانوني خارج سلطته.
- (١٨) حكمه لا يُرفض، وهو وحده يقدر أن يرفض أحكام الجميع.
- (١٩) لا يجوز لأحد أن يُحاكمه.
- (٢٠) لا يجوز لأحد أن يُنكر حكم الكرسي الرسولي.
- (٢١) يجب رَفْعُ كل الاختلافات الهامة في كل كنيسة إليه.

(٢٢) أن الكنيسة الرومانية لم تغلط أبدًا، وهي بموجب شهادة الأسفار المقدسة لن تغلط البتة.

(٢٣) أن الحبر الروماني متى كانت شرطونيته قانونية؛ يُصبح قديسًا باستحقاقات القديس بطرس، كما قال القديس أينوديوس أسقف باقية وآباء آخرون، وكما جاء في قرارات البابا سيماخوس السعيد ذكْرُهُ.

(٢٤) يستطيع الرعايا أن يشكوا ساداتهم بإذنه وأمره.

(٢٥) يستطيع قطع الأساقفة والصفح عنهم بدون دعوة مجمع.

(٢٦) من لا يوافق الكنيسة الرومانية لا يكون ابن الكنيسة الجامعة.

(٢٧) يستطيع البابا أن يحرر رعايا الأشرار من يمين الولاء لهم.^{٢٠}

وبينما كان السلاجقة يزدادون قوة وتقدمًا في أراضي الروم كان كُلُّ قائدٍ من قادة الروم العسكريين ينادي بنفسه فسيلفسًا، وكان أهم هؤلاء القادة الطامعين نيقيفوروس بوتانياتس، وقبل هذا في صفوفه عددًا كبيرًا من الأتراك السلاجقة، وكان ميخائيل السابع خوارًا مترددًا بعيدًا عن الجيش لا يرغب في الحرب والقتال، فتَدَخَّلَ الشعبُ في العاصمة لوضع حدٍّ لهذه الفوضى، واهتم رجال الدين للأمر نفسه، فنادى إميليانوس بطريرك أنطاكية — الذي كان آنئذٍ في العاصمة — بنيقيفوروس فسيلفسًا،^{٢١} ونزل ميخائيل السابع عن العرش ولبس ثوب الرهبنة وتَوَيْفَى. وأكره نيقيفوروس الكنة النورمندية هيلانة على الإقامة في دير (١٠٧٨)، فغضب لميخائيل السابع ولهيلانة كُلُّ الموجودين في رومة آنئذٍ ميخائيل سابعًا، ووافق غريغوريوس السابع على هذا الدجل والاحتفال، وسوَّغ لغيسكار الدفاع عن حقوق الفسيلفس الدجال وحرَم نيقيفوروس الثالث، وشغلت الروم مشاغل داخلية هامة فلم يعيئوا بهذا الحرم، ثم استقرت أُمُورهم وتولى الأريكة أليكسيوس كومنينوس (١٠٨١)، فتسرع البابا وعاد فرشق أليكسيوس نفسه بحرم ثقيل وشاطر النورمنديين المسئولية في هجوم على البلقان بدأ في السنة

Peitz, W., Das, Original register Gregors VII, 265 ff.; Blaul, O., Studien zum Register^{٢٠}

Gregors VII, 5. Sonderuntersuchung, Der Dictatus Papae, II, 55, a, 29 ff; Hofmann, K., Der

.Dictatus Papae, Paderborn, 1933

.Bréhier, L., Byzance, 275–287^{٢١}

١٠٨١، ٢٢ فغضب أليكسيوس لكرامته وكرامة الكنيسة وكان تقيًا غيورًا فأمر بإقفال كنائس اللاتين مستثنياً كنائس حلفائه البنادقة، وتعاون مع إمبراطور الغرب هنريكوس الرابع عدو غريغوريوس، ولكنه لم يؤيد مرشح هنريكوس للكرسي البابوي أقليمس الثالث، واستمرت المشادة بين القسطنطينية ورومة حتى وفاة غريغوريوس السابع في السنة ١٠٨٥، وتولى السدة الرومانية فيكتوروريوس الثالث (١٠٨٦-١٠٨٧) فلم يخفض من غلواء غريغوريوس ولم ينته عما كان فيه.

أوربانوس وأليكسيوس

وفي السنة ١٠٨٨ رقي كرسي رومة الرسولي أوربانوس الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩)، وكان شديد الرأي حسن التدبير تقيًا مُحبًا غيورًا، فلوى العنان وردَّ الجَماح وواصل وأحسن الصلة، وكان أليكسيوس مهذبًا مثقفًا متضلِّعًا من الفلسفة واللاهوت شديد التمسك «بالعبادة الحسنة الأرثوذكسية»، ولكنه كان دمث الأخلاق سلسًا يُوثر السياسة على العنف، وكان قد نجح في صد النورمنديين عن مطامعهم في البلقان، وأنزل في الثوار الماناويين والبقشناغ الهزيمة تلو الهزيمة. وكان البطريرك المسكوني نيقولاوس الثالث النحوي (١٠٨٤-١١١١) عالمًا كبيرًا وراهبًا بارًا وديعًا تقيًا، فأوفد أوربانوس لدى وصوله إلى السدة الرومانية الكردينال الشماس روجه والأب نيقولاوس إلى القسطنطينية حاملين رسالة إلى الفسيفس ملؤها المحبة والرجاء بأن يصار إلى فتح ما غلق من كنائس اللاتين، والسماح لهؤلاء بالتقديس على الفطير، فرضي الفسيفس وأصدر خريسوبولونًا دعا فيه أوربانوس إلى القسطنطينية للاشتراك في مجمع يبحث قضية الفطير ويحلها، ووافق البابا وأجاب بالقبول وبدأ يعد العدة للقيام إلى القسطنطينية لحل المشاكل الراهنة.

واشتدت معارضة إقليمس الثالث وتفاقم شرها، فاضطر أوربانوس أن يبقى في إيطاليا ليرقب تطوُّر الحوادث عن كثب، ولكنه أرسل وفدًا ثانيًا إلى القسطنطينية في السنة ١٠٨٩ ليمثله في المجمع المقترح، ولدى وصول هذا الوفد أعلن رئيسه رفع الحرم عن أليكسيوس، فقابل الفسيفس هذه البادرة الطيبة بالطلب إلى البطريرك نيقولاوس الثالث ومجمعه الدائم أن يذكروا اسم أوربانوس في ذبتيخة كنيسة الحكمة الإلهية،

٢٢ Chalandon, F., Règne d'Alexis Comnène, 62-65; Runciman, S., op. cit., 60, n. 1

فأمسك البطريرك مشيرًا إلى بعض الاختلافات القانونية القائمة بين الكنيستين، ولكن أليكسيوس أوجب الرضوخ ولا سيما بعد أن تبين له أن محفوظات البطريركية كانت خالية من أي قرار رسمي يفصل الكنيستين الشقيقتين، فوافق البطريرك ومجمعه على اقتراح الفسيلفس وطلبوا إلى أوربانوس أن يحضر بنفسه جلسات المجمع المنتظر، أو أن يرسل من ينوب عنه لهذه الغاية، وأن يبين اعترافه بالإيمان حسب العادة.

وكتب نيقولاووس الثالث إلى أوربانوس الثاني كتابًا نفى فيه أن يكون قد منع اللاتين في القسطنطينية عن ممارسة طقوسهم بحرية، وأكد أن هذا الخبر مجرد افتراء، ثم أشار بلطف ولباقة إلى تأخر أوربانوس عن إعلامه بانتخابه وعن إرسال الاعتراف بالإيمان، وخالف فوطيوس في أنه دعا أوربانوس أخًا لا أبًا كما فعل فوطيوس، وأكد المساواة بين البطاركة وأوجب العمل بمقررات مجمع ترولي المسكوني.^{٢٣}

وكان أوربانوس سهل الأخلاق سلس الطباع ظريفًا كيِّسًا لبقًا، فتغاضى عن بعض ما جاء في كتاب نيقولاووس، ولا سيما اعتباره أخًا لا أبًا، ولم يرسل اعترافًا بالإيمان كي لا يُثير قضية الفيليوكوي، ولم يذكر اسمه في ذبيتيخة الحكمة الإلهية، ولكن المياه عادت إلى مجاريها إلى ما كانت عليه قبل السنة ١٠٥٤، وحل الوفاق والوئام محل التراشق والتخاصم.^{٢٤}

^{٢٣} Holtzmann, W., Unionsverhandlungen Zwischen Kaiser Alexios I und Papst Urban II im Jahre 1089, Byz. Zeit., 1928, 38-67; Grumel, V., Jerusalem entre Rome et Byzance, Echos d'Orient, 1939, 104-117

^{٢٤} Runciman, S., op. cit., 62; Jugie, M., op. cit. 241-243

الحروب الصليبية

١٠٩٨-١٢٠٤

الخطر التركي

وانطلق الأتراك السلاجقة من فدادف آسية الوسطى، ثم قُدر لزعيمهم طغرل بك (الأمير الصقر) أن يفرض نفسه في السنة ١٠٥٥ على الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وأن يبطن الخلافة العباسية بالسلطة السلجوقية، ثم أن يستبدل الإمبراطورية العربية بإمبراطورية تركية، ثم أن يأخذ على عاتقه الصمود في وجه الروم والحرب ضدهم، وكان العرب قد كَفُّوا عن هذه الحرب منذ زمن بعيد.

ولقيت طبيعة الأتراك المحاربة مجالاً فسيحاً للفتح، فسقطت أرمينية في يد الأتراك في السنة ١٠٦٤، واكتسح ألب أرسلان (الأسد المظفر) الموقف في موقعة ملاذكرد في السنة ١٠٧١ وأسر الفسيلفس رومانوس وشتت جيشه.

وكان هذا الاندحار من أسوأ الكوارث؛ لأن البلقان كانت قد أصبحت صقلبية واليونان كانت قد خلت من السكان وافتقرت، ولأن آسية الصغرى وحدها كانت معقل الروح الهلينية؛ فمنها كان الفسيلفس يجمع جيوشه، وفيها كان يجد أكبر قواده وأنشط ضباطه.

واحتل الأتراك ما بين السنة ١٠٧٨ والسنة ١٠٨١ مدناً داخلية كأيقونية، وثنغورا متطرفة كأزمير وسبحوا خيولهم في ممرها وارتقبوا الفرص للعبور إلى تراقية وأوروبا، وأسوأ ما كان في الأمر أن هذا الفتح الجديد لم يقتصر على السياسة والسلطة، بل

تعداهما إلى استملاك الأرض فحل القروي التركي محل القروي اليوناني فأضاعت الهلينية قواعدها ومكانتها.^١

وتوفي ألب أرسلان بطعنة خنجرٍ في السنة ١٠٧٢ وخلفه ابنه ملكشاه، واستمر ازدهار الدولة الفتية بفضل الخوجه حسن نظام الملك، ثم خَرَّ نظام الملك صريعاً في السنة ١٠٩١ على يد الحشاشين، ولحق به ملكشاه، فاضمحت عظمة الدولة السلجوقية وتفككت وأواصرها، ولكن سيل السلاجقة ظلَّ يتدفق على آسية الصغرى، وظل خطرهم يحرق بدولة الروم ويهددها بالانهيار.^٢

مجمع بياتشنزا (١٠٩٥)

وكان إقليمس الثالث لا يزال يطالب بالسدة الرومانية، وكان الإمبراطور هنريكوس الرابع لا يزال يدعمه، فرأى البابا أوربانوس الثاني أن يجمع مجمعاً للنظر في هذا الشقاق، فدعا الأساقفة إلى الاجتماع في بياتشنزا Piacenza في آذار السنة ١٠٩٥ لمعالجة الانشقاق .contra schismaticos

وكان أوربانوس لا يزال يولي الكنيسة الجامعة اهتمامه فيرعاها بعناية، وكانت اتصالاته بالقسطنطينية قد لطفت الجو وقربت القلوب، وكان أليكسيوس الفسيلفس يوالي اتصالاته بهذا الحبر الصالح، وينقل إليه مخاوفه من تفاقم الشر في آسية الصغرى وتزايد عدد الأتراك فيها وانتشارهم في سهولها ووديانها.

وبعد وفاة ملكشاه تنازع أولاده محمود وبركياروق ومحمد وسنجر السلطة، فعمت الفوضى العراق وسورية وفلسطين، وانطلق رعاك التركمان وأمثالهم يقتلون وينهبون، وكانوا يدخلون الكنائس في أثناء الصلوات ويضجون، وقد يجلسون على الموائد المقدسة ويهينون الكهنة ويرتكبون كل ما اقتضاه طبعهم! وقد يخربون بعض الكنائس وقد يحولون بعضها إلى مساجد،^٣ وشاهد الحجاج الغربيون هذه الأعمال وخبروها بأنفسهم،

^١ رصيد التاريخ لرينه غروسه، ج٢، ص١٠٦-١٠٩.

^٢ Zettersteen, K. V., "Suleiman ben Qutulumsh" Enc. of Islam

^٣ Michel le Syrien, Chron., III, 182; William of Tyre, Hist. Rer, I, 8; Grousset, R., Hist. des

.Croisades, I, 2; Cahen, C., Syrie du Nord 199

واضطروا في بعض الأحيان أن يقاتلوا للوصول إلى القبر المقدس،^٤ وكان ملكشاه قد أمر أخاه تتش أن يطرد الفاطميين من أورشليم وسائر فلسطين ففعل، فثار أهلها على السلاجقة فكانت مذبحه قبة الصخرة (١٠٧٦)، فعاد الفاطميون إلى النزاع، فأصبحت أورشليم هدفاً للنزاع مستمر بين الأتراك السلاجقة وبين الفاطميين، وأقطع تتش أورشليم ليمينه أرتق بن أكساب، فلما توفي أرتق (١٠٩١) تنازع السلطة ابناه سقمان وغازي فحلّ ضيق شديد بالنصارى، فاضطر البطريرك سمعان الأورشليمي أن يفرّ إلى قبرص مع كبار رجال الإكليروس،^٥ وعاد الحجاج إلى بلدانهم وشكوا، وأصغى رهبان كلوني إلى هذه الشكاوي فرفعوها بدورهم إلى المقامات العالية إلى رومة نفسها.

ووافق اجتماع الأساقفة في بياتشنا وصول لجنة عسكرية بيزنطية إلى إيطالية لتشويق المسيحيين وحضهم على الدخول في خدمة الفسيلفس للذود عن الكنيسة والصمود في وجه الأتراك السلاجقة، وعلم أوريانوس بقدمهم، فدعاهم إلى بياتشنا ليخطبوا في الآباء المجتمعين وبيّنوا لهم الخطر الذي يهدد الكنيسة في الشرق، ووصلت اللجنة إلى بياتشنا وارتقى أعضاؤها منبر المجمع، فنقلوا إلى الأساقفة ما كان يُعانيه النصارى من ضيق واضطهاد، وما كان يحدث بالنصرانية من خطر، فأعارهم الأساقفة أذاناً صاغية ووعوا كلامهم فخشعت أبصارهم وخفقت قلوبهم خشية ورقة.^٦

وكان القديس أوغوسطينوس قد أجاز الجهاد في سبيل الله،^٧ فتبعه البابا لاوون الرابع (٨٤٧-٨٥٥) فأكد الثواب لمن يسقط مدافعاً عن الكنيسة،^٨ وجاء يوحنا الثامن (٨٧٢-٨٨٢) فاعتبر المجاهدين شهداء،^٩ وأباح البابا نيقولاوس الأول (٨٥٨-٨٦٧) حمل السلاح في وجه الكفرة لكل من أخطأ ووقع تحت الحرم،^{١٠} ولم يعبأ الآباء الغربيون

Alphandery, P. La Chrétienté et l'Idée de Croisade, 27; Joranson, E., The Great German Pilgrimage of 1064-1065; Vita Lietberti, Achery, Spicilegium, IX, 706-712

.Grousset, R., Hist. des Crois. I, Introd., 47; Runciman, S. Hist. of Crousades, I, 78 °

Bernold of Constance, a. 1095, 161; Hefelé-Leclercq, Hist. des Conciles, V, 394-395; ٦

.Munro, D. C., Did Aléxius Ask for Aid at Piacenza; Amer. Hist. Rev., XXVII, 731-733

.De Civitate Dei, P. L., Vol. 41, Col. 35 ٧

.Mansi, Concilia, Vol. XIV, p. 888 ^

.Epist., P. L., Vol. 126, Col. 696, 717, 816 ٩

.Epist., Mon. Germ. Hist., VI, 658 ١٠

باجتهاد باسيليوس الكبير وامتناعه عن مناولة المحاربين ثلاث سنوات متتالية،^{١١} فحضوا المؤمنين على حمل السلاح في وجه المسلمين، ومنح البابا ألكسندروس الثاني الغفران (١٠٦١-١٠٧٣) لجميع المجاهدين في إسبانيا،^{١٢} وشجّع غريغوريوس السابع في السنة ١٠٨٠ حملة غوي جوفروا على إسبانيا، وحذا حذوه أوربانوس الثاني فحضر حجاج القبر المقدس على استبدال الحج بالعمل المثمر لتحرير إسبانيا من المسلمين وإعادة بنائها.^{١٣}

وهكذا فإنه عندما دعا الوفد البيزنطي الآباء إلى التعاون في سبيل الدفاع عن الكنيسة الجامعة في الشرق كانت فكرة الحرب المقدسة قد ظهرت إلى حيز الوجود في الغرب، وكانت الكنيسة الغربية قد باركتها ونشطتها، فوقع نداء الشرق في نفس أوربانوس الكبيرة موقعًا جليلاً، وأطرق يُفكر فمرت مواقف أسلافه أمام عينيه مرور البرق، فصمم أن يُقدم للمسيحية في الشرق أكثر بكثير مما طلب وفد أليكسيوس الفسيلفس.^{١٤}

مجمع كليرمون (١٠٩٥)

كان من المقرر عقد مجمع في كليرمون Clermont الفرنسية للنظر في شئون كنيسة فرنسا وغير ذلك من الأمور الروحية، فقام أوربانوس الثاني إلى فرنسا بلاده الأم في آخر صيف السنة ١٠٩٥، فاستقبله مواطنوه بمنتهى الحفاوة والإجلال، وزار جنوب فرنسا منظمًا مصلحًا موبخًا ومادحًا، وأصغى إلى ما قاله رهبان كلوني عن شئون الحج والحجاج، ولعله اتصل بريمون كونت تولوز. ثم قام إلى كليرمون فوصلها في تشرين الثاني وعقد فيها مجمعًا بين الثامن عشر والثامن والعشرين من هذا الشهر نفسه، فحرم الملك فيليب لعة الزنى وقطع أسقف كامبري لعة السيمونية وأعاد النظر في حدود أبرشية ليون. ثم خصص جلسة السابع والعشرين لبيان هام وأباح الحضور

^{١١} Epist., P. G. Vol. 32. Col. 681

^{١٢} Fliche, A.m Europe Occidentale, 551-552

^{١٣} Riant, P., Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades, 68-69

^{١٤} Chalandon, F., Hist. de la Première Croisade, 20-37; Runciman, S., Hist. of the Crasades

I, 88-92; Hagenmeyer, H., Der Brief des Kaisers Alexios an dem Grafen Robert, Byz. Zeit.,

.VI, 1-32

للجمهور، فأقبل المؤمنون زرافات زرافات، وأقيم للبابا منصة خارج الكاتدرائية، وكان أوربانوس جليلاً وقوراً وخطيباً مفوهًا، فذكر الأتراك السلاجقة وما ارتكبه من الفضائح في الشرق، وأظهر قدسية أورشليم وأوجب المحافظة عليها وتأمين وصول الحجاج إليها، وحض الأغنياء والفقراء على الجهاد في سبيل الله، وأكد الغفران للشهداء المجاهدين،^{١٥} فلاق كلامه أذاناً مُصغية وقلوباً دامية فهتف الناس *Deus le volt*، ومعناه هذا ما يريده الله، وأعلن أوربانوس حماية الكنيسة لعائلات المجاهدين وأملاكهم، وأوجب حمل شارة الصليب بقماش أحمر على كتف المجاهد أو صدره، وجعل القسطنطينية ملتقى المجاهدين وحدد موعد الانطلاق من الغرب فجعله يوم عيد انتقال العذراء، الخامس عشر من آب سنة ١٠٩٦.

وكان الأسقف أديمار Adhemar راعي أبرشية لوبوي Lepuy أول الصليبيين؛ فإنه ما كاد أوربانوس ينتهي من ندائه في كليرمون حتى تقدم الأسقف منه فجثى أمامه ونذر نفسه للخدمة المقدسة، وتبعه في ذلك مئات المؤمنين، ثم تلا الجميع صلاة الاعتراف.^{١٧} وأراد أوربانوس العظيم أن يجعل الحملة كنسية، فعين أديمار قائداً أعلى وزعيماً أوحده وخوله البتّ في جميع الاختلافات التي قد تنشأ بين الصليبيين، وكان أديمار شريفاً من أشراف فرنسا يُجيد الخطابة ويحسن السياسة، هادئاً لطيفاً، واسع الأفق بعيد النظر،^{١٨} وكان قد حج قبل عشر سنوات فأضاف إلى مؤهلاته العامة خبرةً في أمور الشرق ومعرفةً لسكانه، وأعلن أوربانوس في كليرمون أيضاً موقفه من كنائس الشرق، فأوجب إعادة جميع أوقافها إليها واحترام جميع حقوقها،^{١٩} ويرى بعض رجال الاختصاص أن البابا اعتبر منذ اللحظة الأولى جميع ما قد يتم من فتوحات في الأراضي المقدسة فتحاً باباويًا.^{٢٠}

^{١٥} Fulcher of Chartres, I, 130–138; Robert the monk, I, 727–729; Munro. D. C., Speech of Urban II at Clermont. Amer. Hist. Rev., XI, 231 ff

^{١٦} Chalandon, F., op. cit., 44–46; Runciman, S., op. cit., I, 106–109; Grousset, R., op. cit., I, 2–5

^{١٧} Robert the Monk, I, 15–16

^{١٨} Chevalier, U., Cartulaire de Saint-Chaffre, 13–14, 139, 161–163

^{١٩} Hefelé-Leclercq, op. cit., V, 339; Chalandon, F., op. cit., 44–46

^{٢٠} Grousset, R., op. cit., I, 4

جيوش خمسة

وجاب بطرس الناسك الفرنسي البلاد، وخطب في الناس وحضهم على الحرب المقدسة، وكان حاد الذكاء قوي الإرادة طلق اللسان ضئيل الجسم طويل اللحية براق العينين، وكان يرتدي الصوف الخشن ويركب حمارًا حقيرًا كاشف الرأس حافي القدمين، فقبل بحماس شديد، والتف حوله أُلوفٌ من المحاربين،^{٢١} وجاء موسم السنة ١٠٩٦ جيدًا، فتفاعل الناس خيرًا واعتبروه رُصًا ربانيًا، وتساقطت النيازك بكثرة فاعتبرها أسقف ليزيو Leiseux إشارة سماوية تنبئ بزحف الجماهير على الأراضي المقدسة.^{٢٢}

وكان كبار الملوك آنئذٍ على خلاف مع البابا فلم يشترك أحد منهم في الحملة الصليبية الأولى، وشاء فيليب ملك فرنسا ألا يُحرم من شرف الانتماء إلى هذا العمل المقدس، فأوعز إلى أخيه أمير فرمنداو Hugues de Vermandois أن يحمل شارة الصليب، ففعل، وتألّف جيش من أهل اللورين ورينانية وشمال فرنسا بقيادة غودفروا ده بويون Godefroy de Bouillon وأخويه أوستاش الثالث كونت بولونية Eustace de Bologne وبودوان (بردويل) Baudouin، وتزعم روبرير أمير الفلمنك Robert de Flandre وروبير دوق نورمندية واسطفانوس كونت بلوا؛ جيشًا آخر، وقاد ريمون الرابع كونت تولوز وسان جيل Toulouse et Saint-Gilles جيشًا رابعًا، والتفّ حول بوهموند بن غيسكار النورمندي فرسان نورمنديون وإيطاليون، وعاون بوهموند ابن عمته تنكريد.^{٢٣}

موقف الروم

وقضت المحبة الجامعة التي كانت تتقد في فؤاد أوريانوس بجمع الشمل في القسطنطينية والانطلاق منها لتحرير الكنائس الشرقية، وتأمين الحجّ والمحافظة على حُرمة القبر المقدس وسائر الآثار والعشائر النصرانية.

وفي تموز السنة ١٠٩٦ وصلت إلى البلقان طلائعُ بطرس الناسك ناهبةً مُقتلةً مخربة، ثم تكاثرت الجموع فتقدموا نحو القسطنطينية، فرحب بهم الفسيلفس أليكسيوس

^{٢١} Hagenniayer, H., Peter der Eremit, 127–151; Chalandon, F., op. cit 57–59

^{٢٢} Orderic Vitalis, III, 461–462

^{٢٣} Runciman, S., op. cit., I, 142–171

وأكرمهم، واستقبل بطرس الناسك وأوضح له وجوب الانضباط واحترام حقوق السكان، وكانت جُمُوع بطرس قد أقامت خارج أسوار المدينة فعاثوا في الضواحي فسادًا وخرقوا حرمة الكنائس، فرأى أليكسيوس أن يُجابهم بجيرانه الأتراك عبر البوسفور لعلهم يفقهون، وما أن حطت رحالهم في آسية حتى هاجموا الأتراك فبدد هؤلاء شملهم، فارعوا وكفوا عن القبيح ورضوا أن يعودوا إلى ضواحي القسطنطينية عزلاً.

وقذف البحر إلى شاطئ أبيروس في صيف هذه السنة نفسها أحا ملك فرنسة هوغ ده فرمندوا، فوقع في أيدي الروم ونقل إلى القسطنطينية، فأحاطه أليكسيوس بشيء كثير من الإكرام والاحترام، ورأى فيه خيرَ وسيط بينه وبين زعماء الصليبيين، وزاد في إكرامه فتعلق الأمير الإفرنسي بالفيلسوف وبايعه على الطاعة والولاء.

ثم جاء في كانون الأول غودفروا ده بويون، وكان أليكسيوس قد سمع بشجاعته وثرائه فأكرمه، ولكن غودفروا امتنع عن مبايعة الفيلسوف، فتوترت العلاقات بين الاثنين، ثم قلت المئونة لدى جموع غودفروا خارج أسوار العاصمة فلجئوا إلى العنف وأرادوا اقتحام أحد مداخل القسطنطينية، فصدَّهم الروم بالقوة وتغلبوا عليهم فأخذوا إلى السكنية، ودعا أليكسيوس الزعيم الصليبي الممتنع إلى مأدبة أقيمت في القصر على شرفه، فبايع غودفروا الفيلسوف على الطاعة والولاء ومضى في نيسان السنة ١٠٩٧ بجموعه إلى آسية.

وأطل بوهيموند النورمندي الإيطالي في ربيع السنة ١٠٩٧ فأعلن فور وصوله استعداده لمبايعة الفيلسوف، وأكد رغبته في التعاون مع الروم إلى أقصى الحدود. وكان بوهيموند قد حارب أليكسيوس في ألبانية وفي اليونان فاعتور علاقته مع الروم في بادئ الأمر شيء من الحذر والبرودة، ولكن شخصيته الجذابة ومواهبه الكبيرة ونجاحه في التظاهر بالصدق والإخلاص؛ عاونت على إزالة هذا الحذر وذلك الفتور. وزال الشك وتفاهم الكبريان، فاغتبط بوهيموند وطلب أن يدخل في خدمة الفيلسوف ويتولى قيادة جيوشه، فأجابه أليكسيوس أن كل آتٍ قريب، وأنه بانتظار ذلك سيقطعه أراضي فسيحة في منطقة أنطاكية.^{٢٤}

وجاء روبير ده فلاندر فدخل في طاعة الفيلسوف، أما ريمون دوسان جيل فإنه وصل مستاءً مكدراً غير مستعد للدخول في طاعة الروم، فأقنعه بوهيموند، ففعل،

^{٢٤} Anne Comnène, Alexiade, II, 224-226, 234.

وأصبح من أخلص أصدقاء أليكسيوس وأشدهم وفاء له، وأعجب أليكسيوس بحكمة هذا القومس واتزانه وصدقه واستقامته، أما تنكريد الصقلي فإنه لم يرض أن يمر بالقسطنطينية أو أن يُقسم يمين الولاء لسيدها، وأعلن أن هذا القسم لا يفرض عليه إلا نحو سيده بوهيموند.^{٢٥}

وتمكن أليكسيوس — بصبره ودهائه ولطفه وكرمه — من التوصل إلى تفاهم تام مع زعماء الصليبيين، ويرى بعض رجال الاختصاص أن الطرفين وقعا معاهدة في منتصف أيار سنة ١٠٩٧ قضت بأن يرفع الفسيلفس علم الصليب، وأن يضع تحت تصرف الزعماء الصليبيين فرقة محاربة، وأن يحمي طريقهم في أثناء مرورهم مقابل دخول هؤلاء في طاعته وإعادة جميع الأراضي البيزنطية إليه التي وقعت بين نيقية وأنطاكية.^{٢٦} وقام الصليبيون من القسطنطينية وحاصروا نيقية، فسقطت في يدهم فأعادوها إلى أليكسيوس الفسيلفس، ثم اتجهوا جنوبًا مذللين الصعاب في قلب دولة السلاجقة، متعاونين في ذلك مع فرقة بيزنطية بقيادة تتيكيوس Tatikius، وجهز أليكسيوس حملة برية بحرية بقيادة يوحنا دوقاس، فاستولى على أفسس وساردس وأزمير وأضالية، وقام الفسيلفس بنفسه فأخضع جميع بيثينية، وغلب قلج أرسلان وتقوض ملكه واستعاد أليكسيوس قلب أسية الصغرى وشواطئها الغربية،^{٢٧} ونفذ كل من الطرفين ما نص عليه الاتفاق وساد الحب والوثام، وقام أليكسيوس على رأس جيش قوي ليلتحق بالصليبيين، ولكن بودوان استأثر بالرها وجهاتها ولم يُعدها إلى الفسيلفس.

أنطاكية

وبينما كان بودوان يُوطدُ فَتَحَه في الرها وما جاورها كانت الحملة الرئيسية تتجه نحو أنطاكية أَمْنَع مُدُن سورية الشمالية وأغرقها شرقًا بالنصرانية، وكان سليمان بن قطلمش قد استولى عليها خلسة في أوائل السنة ١٠٨٥، فلما انتحر في السنة ١٠٨٦ استولى عليها ملكشاه وأقطعها أحد أمرائه ياغي سيان، وتهافت المسلمون إلى سُكْنَاهَا، ولكنهم

^{٢٥} Diehl, C., Europe Orientale, 19–21.

^{٢٦} Hagenmeyer, H., Epist. et Chart. ad Hist. Primi Belli Sacri, XII, 154; Chalandon, F., Alexis

.Comnène, 188

^{٢٧} .Anne Comnène, Alexiade, III, 3–27

ظلوا أقليةً ضئيلة بالنسبة إلى اليونان والأرمن والعرب المسيحيين،^{٢٨} ولما شاعت أخبارُ الصليبيين وتواردتُ أنباءُ انتصاراتهم في آسية الصغرى؛ تَحَصَّنَ ياغي سيان، وانخر كثيرًا من المثونة والسلاح، ودخل المدينة كثيرون من القرى المجاورة.

وانطلق الصليبيون من مرعش في السادس عشر من تشرين الأول سنة ١٠٩٧ فاستولوا على عزاز ومعراتا وأرتاح، وفي العشرين من الشهر نفسه وصلوا إلى جسر الجديد فوجدوه محصنًا مشحونًا بالرجال فاستولوا على بُرْجِيَه عُنُوَة بقيادة الأسقف أديمار نفسه، وغنموا «خيلاً وجمالاً وبغالاً وحميراً محملة حنطة»،^{٢٩} وكانت قد أرسلت من حلب لتموين ياغي سيان في أنطاكية.

وفي الحادي والعشرين من تشرين الأول دنا الصليبيون من أنطاكية ونصبوا خيامهم أمام الأسوار، وتشاور الأمراء والقادة فأوجبوا المحاصرة؛ نظرًا لمناعة الأسوار وتَعَدُّد الأبراج ونقص العتاد، فتفرق القواد بجيوشهم حول الأسوار ولا سيما المداخل وأخذوا بالأهبة للقتال، أما ياغي فإنه لم يُبَدِّ حركة ولم يظهر من رجاله ولا مقاتل فوق الأسوار، وخشي أن يخونه النصارى وكانوا قد عاونوا الصليبيين في معرتا وأرتاح وغيرهما، «فأخرج المسلمين من أهل أنطاكية ليس معهم غيرهم وأمرهم بحفر الخندق، ثم أخرج من الغد النصارى ليس معهم مسلمٌ فعملوا في الخندق إلى العصر، فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال لهم: أنطاكية لكم تهبوها لي حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنج، فقالوا له: من يحفظ أبناءنا ونساءنا؟ فقال: أنا أخلفكم فيهم، فأمسكوا وأقاموا في عسكر الفرنج.»^{٣٠} وجاء في بعض المراجع الغربية أن الأرمن والسوريين تظاهروا بالفرار من وجه ياغي وأبقوا نساءهم وأولادهم في المدينة ثم واصلوا ياغي بأخبار المحاصرين،^{٣١} وكان ياغي قد أمر بالبطريك الأنطاكي يوحنا السابع فسجنه سجنًا، وكان قد حول كتدرائيته إلى إسطنبول لخيله، فلما بدأ الحصار أمر ياغي بوضع البطريك الجليل في قفص من حديد، وبعرضه على المحاصرين من الأسوار،^{٣٢} وحل الشتاء وقلت المثونة

^{٢٨} Honigman, E., al-Ladhiqyya, Enc. of Islam

^{٢٩} William of Tyre, I, 161; Albert d'Aix, IV, 358, I, 363

^{٣٠} الكامل لابن الأثير، ج٨، ص١٨٦، سنة ٤٩١هـ.

^{٣١} Hist. Anonyme, 69; Grousset, R., Hist. des Crois., I, 73-74

^{٣٢} Aboul Fida, Annales, 3; Kamal al Din, Chron., 578-579; Runciman, S., op. cit., I, 214-

واشدد الحال جدًّا ففترت هممةً بعض الصليبيين وأدبروا، ومن غريب الأمور أن بطرس الناسك نفسه ولَّى مدبرًا، فأدركه تنكريد الصقلي فعاد فأقسم بدوام مرافقة الذين قادهم للحرب،^{٣٣} ونهض بوهيموند وروبير على رأس عشرين ألف مقاتل للتفتيش عن القوات الضرورية في قرى وادي العاصي، فاتجها جنوبًا، ولدى وصولهما إلى حماة التقيا بتقيا بالقسطنطين وطمغتكين وشمس بن ياغي آتين لنجدة أنطاكية، فكانت موقعة عند قرية البارة أسفرت عن هزيمة المدد الإسلامي،^{٣٤} وعلم ياغي بخروج بوهيموند وروبير ورجالهما فانقض على ريمون عند الجسر، ولكنه عاد منكسرًا مدعورًا.^{٣٥}

وغنم بوهيموند وروبير برءوس أعدائهما، ولكنهما عادا فارغي اليدين دون الزاد المطلوب، واشتد الجوع في صفوف الصليبيين وفك بهم، وقدم رهبان الأمانوس والنصارى في القرى المجاورة جميع ما لديهم، ولكنه لم يكف، فكتب أديمار الأسقف إلى بطريك أورشليم — وكان لا يزال في قبرص — فأمدّه بالقوت والخمر، ولكن الجزيرة لم تتمكن من إشباع ألوف المحاربين. وتعاون الأسقف اللاتيني أديمار ممثل البابا في الشرق والبطريك الأورشليمي سمعان تعاونًا وثيقًا فحرَّرا رسالتين إلى الغرب يحضان فيهما المؤمنين على القيام بالواجب، وتكلم سمعان في إحداهما بصفته زعيم أساقفة الشرق اليونانيين واللاتينيين، وهدد كل من يتوانى عن تنفيذ النذر الصليبي بالحرم.^{٣٦}

وبينما كان أديمار يؤلف القلوب ويجمع الكلمة باسم سيده الكبير أوربانوس كان بوهيموند يبث نمائمه ويزرع الأحقاد بين الروم واللاتين، ففي شباط السنة ١٠٩٨ اتصل بتتيكيوس ممثل أليكسيوس في معسكر الصليبيين، ونمَّ على رفاقه في السلاح وادعى أنهم يضمرون السوء لتتيكيوس؛ لأنهم يعتقدون أن أليكسيوس يشجع الأتراك على محاربتهم، ونصح بوهيموند إلى تتيكيوس أن ينجو بحياته، فقبل تتيكيوس النصيحة ونزل إلى مرفأ السويدية وأبحر إلى قبرص، وما إن توارى تتيكيوس عن الأنظار حتى دبَّت عقارب بوهيموند مرة ثانية، فقال رجاله وعماله: إن تتيكيوس فرَّ خائئًا، وكان بوهيموند يطمع في إمارة أنطاكية، فرأى من المصلحة أن يتجنَّى على أليكسيوس ويتقول

^{٣٣} William of Tyre, I, 188.

^{٣٤} Gesta Francorum, V, 70–72; Kamal al-Din, 580.

^{٣٥} Raymond d'Aguilers, V, 243–244.

^{٣٦} Hagenmeyer, H., op. cit. 141–142, 146–149; Runciman, S., op. cit. I, 222–223.

على ممثله ليفجر في يمين الطاعة والولاء ويتحرر من العقد الذي قضى بإعادة أنطاكية إلى سيدها الشرعي أليكسيوس،^{٣٧} ثم عاد فلجأ إلى المراوغة والمداورة، فادعى أمام رفاقه في السلاح أن ابتعاده عن ممتلكاته في إيطالية سيفلتها من يده، وأن مصلحته تقضي بالعودة إلى إيطالية، فإذا كان لا بدّ من بقائه في صفوف المحاربين المجاهدين فعلى هؤلاء أن يعوضوه أنطاكية، فتشاغل أقرانه عن سماعه، ولكن الجنود مالوا ليه بالسمع ورأوا في ذلك رأيه.^{٣٨}

واستجار ياغي جاره رضوان صاحب حلب من الصليبيين واعترف بسلطته، فأغاثه رضوان وجاءه على رأس قوة كبيرة يعاونه فيها صاحب ديار بكر وأمير حماة، وقطع الفرسان الصليبيون العاصي وكنموا للخصم عند جسر الجديد، وفي التاسع من شباط سنة ١٠٩٨ ناوش الصليبيون المسلمين عند الجسر ثم استدرجهم إلى ميدان ضيق بين العاصي وبحيرة أنطاكية، فانقضوا عليهم وشتتوا شملهم، وكان ياغي قد خرج إلى القتال في الوقت نفسه وكاد ينتصر، فلما أبصر الفرسان عائدتين منتصرين تراجع فدخل المدينة مديراً.^{٣٩}

وفي الرابع من آذار وصل أسطول إنكليزي حاملاً حجاجاً إيطاليين وعتاداً رومياً من القسطنطينية، فأنشأ الصليبيون أبراجاً عند مداخل أنطاكية وضيقوا الحصار، وكان أليكسيوس قد أوصى الزعماء الصليبيين بوجود التفاهم مع الفاطميين أعداء الأتراك، فلما بدأت أسهم الصليبيين ترتفع بعث المستعلي بالله العلوي وفداً من مصر يعرض الصلح والمسالمة، وأنه يرجع إليهم الكنائس ويحامي عنهم ويفتح أبواب أورشليم للزوار، على أن يدخلوها بلا سلاح، وألا يقيم الواحد فيها أكثر من شهر، فرحب الصليبيون بالوفد العلوي وقدموا الهدايا، ولكنهم لم يَبْتُوا في شيء.^{٤٠}

وطال أمد الحصار وترامى للصليبيين أن كربوغا صاحب الموصل جيّش جيوشاً ونهض بها لإغاثة ياغي سيان، فاندفع بوهيموند يعجل الاستيلاء على أنطاكية تعجلاً،

^{٣٧} .Anne Comnène, Alexiade, XI, 4; Gesta Francorum, VI, 16; Runciman, S. op. cit. I, 224

^{٣٨} .Raymond d'Aguliers 254-256

^{٣٩} .Gesta Francorum, VI, 17

^{٤٠} Raymond d'Aguliers, 247; Gesta Francorum, VI, 17, VII, 19; Hagenmeyer, H., op. cit.,

.151, 160

ففاوض فيروز الزرّاد أحد أمراء الأبراج في أنطاكية وبذل له مالاً وإقطاعاً، وكان فيروز أرمنياً فأسلم وتقرّب من ياغي فأصبح أميراً على ثلاثة من الأبراج الكبيرة، وكان على جانب عظيم من الثقلب وحُبّ الرفعة والمال، فعقد مع بوهيموند شروط التسليم بالخيانة. ثم تواترت الأخبار بقدوم صاحب الموصل بألوف من الرجال لنجدة المدينة، فخاف الصليبيون فخطب بوهيموند بوجود الخيانة لامتلاك المدينة، فأذعن الرفاق فاجتمع بوهيموند بفيزوز واتفقا على وقت وظرف. وفي اليوم الثاني جمع الإفرنج خيامهم وأغراضهم وانسحبوا عن ساحتهم وأعلنوا السير نحو أورشليم، وما زالوا سائرين نحو أورشليم حتى تواروا عن العيون.

ثم انعطفوا راجعين في الليل، وقبيل الفجر أنفذ قوة صغيرة إلى برج الأختين الذي كان يحرسه فيروز، وصعدوا على السلالم إلى هذا البرج وانطلقوا منه إلى غيره، وقتلوا الحُرّاس وهجوا النصارى وكسروا الأبواب، وامتلكوا المدينة في الثالث من حزيران سنة ١٠٩٨ وفتكوا بالأهلين فتكاً ذريعاً، وفر ياغي سيان فقتله الأرمن وجاءوا برأسه إلى أنطاكية، أما القلعة فإنها بقيت بيد شمس الدولة بن ياغي.^{٤١}

وفي السابع من حزيران وصل كربوغا صاحب الموصل بجنود كثيرة من الترك والعرب، فاضطرب الإفرنج وأخذ الضيق منهم كل مأخذ، ولم يعد عندهم زاد كافٍ، ولم يكن لهم يد لاستجلاب المدد؛ لأن القرى المجاورة كانت قد أمست مدمرة أو مهجورة، واتصل شمس الدولة بكربوغا ورجاه الاحتفاظ بقيادة القلعة إلى أن يتم النصر فأبى كربوغا وأرسل أحمد بن مروان فاحتلها باسمه.

وفي العاشر من حزيران طوّق كربوغا أنطاكية، وشدد الحصار، وتضايق الصليبيون ونفذ قوتهم وخارت قواهم وضعفت، وفرّ بعضهم طلباً للنجاة، وفي العاشر من هذا الشهر نفسه أيضاً دخل فلاح إفرنجي اسمه بطرس برتلماوس إلى خيمة بوهيموند وطلب مقابلة الأسقف أديمار ممثل البابا وزعيم الحملة الأكبر، وأذن له بذلك فقال: إن القديس أندراوس ظهر له ثلاث مرات ويبيّن له المكان الذي دُفنت فيه الحربة التي طعن بها السيد وقت الصلب، فلم يكثر الأسقف لسبيين؛ أولهما أن بطرس هذا لم يكن من ذوي السيرة الحسنة، والثاني أن الأسقف نفسه كان قد شاهد الحربة في القصر المقدس في القسطنطينية في أثناء وجوده فيها.

٤١ Gesta Francorum, VIII, 20; William of Tyre, V, 18–23

وبعد هذا بقليل دخل قس اسمه اسطفانوس على الأمراء القادة، وقال: إن السيد والعدراء ظهرا له في أثناء الليل في كنيسة السيدة، وإن السيد - له المجد - أمره أن يقول للأسقف أديمار: إن جموع المحاربين المجاهدين وقعوا في الخطيئة، وإنهم إن تابوا أرسل لهم في ظرف خمسة أيام المعونة الكافية لحمايتهم، فاتعظ أديمار وطلب إلى الأمراء أن يُقسموا بأنهم لن يتخلوا عن أنطاكية إلا بإجماع الرأي ففعلوا.

وفي الرابع عشر من حزيران شاهد الصليبيون نيزكا يتساقط على معسكر الأتراك، فهبوا في الغد يفتشون عن الحربة في كنيسة القديس بطرس ومعهم الفلاح بطرس برتلمائوس، «وحفروا عليها في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر الفلاح، فقال لهم: أبشروا بالظفر، فقويت عزيمتكم، وخرجوا في اليوم التالي من باب المدينة متفرقين من خمسة وستة، فقال المسلمون لكربوغا: ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من خرج، فقال: لا تفعلوا لكن أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم، فلما تكاملوا ضربوا مصافاً عظيماً فولى المسلمون منهزمين.»^{٤٢} وغنم الصليبيون غنائم لا تحصى وجمعوا مالا غزيراً وعادوا إلى أنطاكية بثروة عظيمة، وكان ذلك في الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من حزيران سنة ١٠٩٨.

وشاهد أحمد بن مروان هذا النصر من أبراج القلعة فأرسل من يعلن استعداده للتسليم، ودخل رسوله خيمة ريموند، فأرسل هذا الأمير من يرفع أعلامه على القلعة، فلما علم أحمد أن الأعلام ليست لأعلام بوهيموند امتنع عن رفعها، ولم يفتح الأبواب قبل وصول بوهيموند نفسه، ودخل بوهيموند القلعة واستولى عليها وأذن بخروج الحامية سالمة، فدخل بعض زعمائها في النصرانية وعلى رأسهم أحمد بن مروان،^{٤٣} وتوفي الأسقف أديمار ودفن في كنيسة القديس بطرس، فخلا الجو لبوهيموند، فحنث في يمين الطاعة والولاء للفيلسوف، ولم يبر في ما وعد، فنشأت مشادة بينه وبين الروم كان لها أسوأ الأثر في علاقة كنيسة أنطاكية بكنيسة رومة.^{٤٤}

^{٤٢} تاريخ مختصر الدول لابن العبري، ص ٣٤١-٣٤٢.

^{٤٣} Gesta Francorum, IX, 29; Raymond d'Aguilers, XII, 259-261; Fulcher de Chartres,

XXII-XXIII; Runciman, S., op. cit., I, 236-249.

^{٤٤} Albert d'Aix, V, 2; Runciman, S., op. cit., I, 249-250.

القبر المقدس

وفي أواخر تشرين الثاني سنة ١٠٩٨ قام الصليبيون من أنطاكية وما جاورها، وساروا إلى كفر طاب، فراسلهم منقذ صاحب شيزر، فصالحهم عليها، وسَهَّلَ عبورهم بين شيزر وحماة ووصولهم إلى مصياف، وسالمهم صاحب مصياف فتقدموا إلى رمنية وانحدروا منها إلى البقيعة.

وفي الثامن والعشرين من كانون الثاني سنة ١٠٩٩ هجموا على حصن الأكراد واستولوا عليه، فراسلهم صاحب حماة، ورجاهم طرابلس جلال الملك أبو الحسن بن عمار أن يرسلوا وفدًا للمفاوضة، وأكَّدَ استعداده لرفع علم ريمون التولوزي، ففعلوا وعاد أعضاء الوفد المفاوض وأشادوا بثروة أبي الحسن ووفرة الغلال في إمارته وأشاروا بالحرب طمعًا، فقام الجمع إلى عرقة في السادس عشر من شباط و ضربوا الحصار عليها، وقام بعضهم إلى طرطوس ففر صاحبها فدخلوها بدون قتال، وراسلهم صاحب المرقب وبانياس ودخل في طاعتهم.

وطال أمد حصار عرقة وألحَّ جُمهورُ المحاربين على رفع الحصار والتقدم نحو أورشليم، وتلقى ريموند رسالة من ألكسيوس الفيلسوف؛ يُفيد فيها أنه سيلحق بهم في الصيف على رأس جيش قوي، وأن المصلحة تقضي بانتظاره قبل الهجوم على فلسطين، ولكن معظم الأمراء وأغلبية المحاربين آثروا التقدم وعدم الانتظار. وصالحهم أبو الحسن بن عمار على مبلغ كبير من المال، وقدم لهم الدواب لحمل الأثقال والعلف للجيش كله، ووعد بتقبُّل النصرانية لدى انتصارهم على الفاطميين، ثم سَهَّلَ خروجهم من طرابلس وبعث أمامهم مَنْ أوصلهم إلى نهر الكلب، الحد الفاصل بين إمارته وبين دولة الفاطميين. وواصلوا السير فبلغوا بيروت في العشرين من أيار، وكان يأمر فيها أحد الأمراء التنوخيين، فطلب إلى زعماء الصليبيين أن يكفوا عن أذى المدينة وأهلها ولا يعبتوا بغلات بساتينها، فرضوا بذلك شرط أن يقدم للجنود حاجتهم من القوت والذخيرة، ففعل، ثم سار الإفرنج إلى صيدا، فنزلهم صاحبها فقاتلوا وخرَّبوا، وتابَعوا السير إلى صور ومنها إلى عكة، فبلغوها في الرابع والعشرين من أيار، وما فتئوا يتقدمون في ساحل البحر حتى أرسوف، ثم تحولوا نحو الرملة فوجدوها خاوية خالية فأخذوا يتسلقوا التلال حتى البيت المقدس في اليوم السابع من حزيران.

وكانت أورشليم قد أصبحت بيد الفاطميين منذ أمدٍ وجيز، وكان يمثلهم فيها الفضل بن بدر الجمالي، وكانت حاميتها عربية سودانية، فحاصرها الإفرنجُ نيقًا وأربعين يومًا، ونصبوا عليها برجين، ثم اقتحموها من الجانب الشمالي واستباحوها أسبوعًا كاملًا، واحتُمى جماعةٌ من المسلمين بحراب داود فاعتصموا به، فبذل لهم الإفرنج الأمان فسلموه إليهم وخرجوا إلى عسقلان آمنين، وقتل الإفرنج بالمسجد الأقصى عددًا كبيرًا، منهم جماعةٌ من أئمة المسلمين وعلمائهم وزهادهم، ووافق دُخول الصليبيين أورشليم في منتصف تموز من السنة ١٠٩٩.٤٥

الصليبيون وكنيسة أنطاكية

وأحب أوريانوس المسيح فأحب الكنيسة، وأرادها واحدة؛ لأن المسيح واحد، ولأن لأخيه بيسوع بطريرك القسطنطينية نيقولاوس الثالث وخطب وده، ثم هاله تقدم الأتراك السلاجقة في الشرق ورأعه ضعف الروم، فخفَّ لنجدة النصرانية، وأعلن الجهاد المقدس، وحض المؤمنين على القتال، وأوجب — بقرار مجعني — احترام حقوق الكنائس الشرقية وإعادة أوقافها إليها،^{٤٦} وانتقى أسقفًا صالحًا تقيًا واسع الصدر لئِن العريكة بعيد النظر أديمار ليمثله في الحملة ويسهر على تنفيذ الخطة المرسومة.

وكان البطريرك الأنطاكي يوحنا السابع تقيًا صالحًا جليلاً وقورًا، وكان قد أبصرَ النور في جزيرة أوكسية وقدم النذر في القسطنطينية، فلما رقي العرش الأنطاكي خف للعمل المثمر فسعى لإصلاح الرهبان والرهبانيات، وراسل توما الكفرطابي أسقف المواردة على كفرطاب وكورة حلب وجادله في المشيئة الواحدة محاولاً صرفه عن القول بها،^{٤٧} ومن آثاره رسالة في الحياة الرهبانية احتج بها على تدخُّل السلطات في شئون

^{٤٥} الكامل لابن الأثير، ج٨، ص١٨٦-١٨٩.

Gesta Francorum, X, 34-37; Raymond d'Aguilers, XIV-XX; William of Tyre, VII, 19; Fulcher de Chartres, XXV, 13-17; Runciman, S. op. cit. I, 265-288; Grousset, R., op. cit., I, 116-163.

Hefelé-Leclercq, op. cit. V, 339; Chalandon, op. cit., 44-46; Runciman S., op. cit., I, ^{٤٦} 109.

^{٤٧} المقالات العشر لتوما الكفرطابي: لباب البراهين للمطران يوسف دريان، ص٢٥٢.

الرهبان وتلزم الأديار للعلمانيين،^{٤٨} وله أيضًا رسالة في التقديس على الفطير، اتخذ فيها موقف المدافع عن التقليد الأرثوذكسي.^{٤٩}

ولدى استيلاء الصليبيين على أنطاكية أسرع زعمائهم إلى الإفراج عن هذا الأب الجليل وإعادةه إلى سابق حُرِّيَّتِهِ وكرامته، ثم أمروا بتنظيف كاتدرائية أنطاكية وكنيسة السيدة فيها مما لحق بهما من الأقدار في عهد الأتراك السلاجقة، ثم ترأس يوحنا السابع حفلة التطهير والتكريس، وعاونَه في الخدمة عددٌ من الكهنة والأساقفة اللاتينيين، وأعجب الصليبيون بهذا الرجل البار فأشاروا إليه في كتاباتهم بالعبارة *Virum Christianissimum*،^{٥٠} ومعناه المسيحي المسيحي، واعتبر أديمار ممثل البابا في الشرق البطريرك الأورشليمي سمعان بطيرغا رسولياً، وحينما سمح الظرف برفع تقرير عن سَيْرِ الأعمال في الشرق وضع أديمار هذا التقرير باسم سمعان بطيرك أورشليم وباسمه،^{٥١} ثم قضت الظروف بطلب النجدة من الغرب فكتب أديمار باسم سمعان الأورشليمي أيضاً، وظهر سمعان في هذه الرسالة بطيرغا رسولياً وتكلم باسم جميع الأساقفة في الشرق لاتينيين ويونانيين، وهدد بالحرَم كل من حنث بالندِر الصليبي.^{٥٢}

وتوفي أديمار الصديق في اليوم الأول من آب سنة ١٠٩٨، فخسرت الكنيسة الجامعة بوفاته أباً باراً صالحاً مُحَبَّباً حكيماً، ولم توفق الكنيسة اللاتينية إلى خلف مصاف مسالم يتابع العمل الصالح الذي سعى إليه أوربانوس وأديمار.

وفي الحادي عشر من أيلول من السنة نفسها حرَّرَ الأمراء الصليبيون المجتمعون في أنطاكية رسالة إلى البابا أوربانوس الثاني، وذكروا خبر وفاة أديمار ورجوا الأب الأقدس أن يجيء إلى أنطاكية ليرعى أبرشية بطرس الأولى. والغريب في هذه الرسالة أن الأمراء تناسوا وجود يوحنا السابع بطيرك أنطاكية الشرعي، ولم يذكروه لمناسبة هذا الطلب،

P. G., Vol. 132, Col. 1128 ff.; Brehier, L., *Institutions*, 556-557; Delahaye, H., Byz. ^{٤٨}
Monast., Byzantium. 156

Orientalia Christiana, II, 244-263; Grumel, V., *Patriarches Grecs d'Antioche*, Echos ^{٤٩}
d'Orient, 1933, 286-298

Albert d'Aix, IV, 3.; Rec. Hist. Crois. IV, 433; Mussel, H., *Hist. du Christianisme*, I, ^{٥٠}
.442-443

.Hagenmeyer, H., *Die Kreuzzugsbriefe*, 141-142 ^{٥١}

.Hagenmeyer, H., op. cit., 146-149 ^{٥٢}

ولكنهم أشاروا إلى الصعوبات التي لاقوها على يد النصارى الهراطقة يونانيين وأرمن وسوريين ويعاقبة، واليونانيون الهراطقة في هذه الرسالة هم جماعات من اليونانيين البولسيين الذين كانوا لا يزالون يمارسون نصرانيتهم على طريقتهم الخصوصية في جوار أنطاكية.^{٥٣}

وفي الشهر التالي؛ أي في تشرين الأول سنة ١٠٩٨ انطلق ريموند أمير تولوز من ريحا على رأس رجاله في طلب الموثنة والعلف، فاستولى على البارة عنة وقتل وسبى، ورأى أن يجعلها مدينةً مسيحيةً فحَضَّ المسيحيين على سُكناها وحوَّلَ مسجدها إلى كنيسة، وأقام عليها أسقفًا بطرس النربوني، وكان لا بدُّ من سيامة بطرس سيامة مسيحية، فطلب ريموند إلى البطريرك الأنطاكي يوحنا السابع أن يرأس حفلة السيامة، ففعل هذا البطريرك الأرثوذكسي اليوناني وسام أسقفًا لاتينيًّا لِيخدم على الطريقة اللاتينية.^{٥٤}

وكان بوهيموند منهوَمًا بالسلطة مسهبًا بطبيعته، فاشتدَّ حرصُهُ على إمارة أنطاكية واستمات واستهلك إليها، فلجأ إلى بطرس برثلماوس، فزعم هذا أن أندراوس ظهر له وقال إن أديمار قضى وقتًا في الجحيم، وإنه لم يفلت لولا صلوات زملائه وصلاة بوهيموند من أجله، وزعم بطرس أيضًا أن أندراوس أمره أن يقول إلى ريموند بأن أنطاكية لبوهيموند ما دام تقيًّا صالحًا، وأنه لا بدُّ من مقاطعة الروم والكنائس الأرثوذكسية المحلية وانتخاب بطريرك لاتيني على كنيسة أنطاكية.^{٥٥}

ثم كاشف بوهيموند الروم بالعداوة، فحاول — في حزيران السنة ١٠٩٩ — أن يخرجهم من اللاذقية، وتُوِّفي أوروبانوس الثاني في التاسع والعشرين من تموز التالي، فتمادى بوهيموند في ضلاله وبسط عَنَانَهُ في الجهل، فهجم في السنة ١١٠٠ على مرعش وكانت هذه قد أُعيدت إلى الروم بموجب شروط المعاهدة بينهم وبين الصليبيين، واستولى تنكريد نسيب بوهيموند على طرسوس وأدنة، ووقع بوهيموند أسيرًا في يد الأتراك في تموز السنة ١١٠٠ فتجنى على البطريرك الأنطاكي يوحنا السابع، ورماه بالتواطؤ مع الأتراك وأكْرَهَهُ على الخُرُوج من أنطاكية، ثم جعل من برناردوس والنسية أسقف أرتاح

Anonymi Gesta Francorum, X, 30; Raymond d'Aguilers, XIII, Hagenmeyer, H., op. cit., ^{٥٣} 164.

.Raymond d'Aguilers, XIV.; Gesta Francorum, X, 31 Runciman, S., op. cit., I, 257-258 ^{٥٤}

.Raymond d'Aguilers, XIII ^{٥٥}

بطيريركا لاتينياً على أنطاكية، ولا صحة في القول بأن يوحنا السابع استقال فشجر كرسيه فنُصّبَ برناردوس،^{٥٦} ولا في القول بأن استعفاء يوحنا تم في أثناء الأسر الذي وقع فيه بوهيموند،^{٥٧} فيوحنا السابع لم يستقل قبل وُصُوله إلى القسطنطينية، واستقالته هذه ارتبطت منذ لحظتها الأولى بانتخاب خلف أرثوذكسي له، يوحنا الثامن، وذلك بالطريقة القانونية المرعية الإجراء آنئذٍ.^{٥٨}

الصليبيون وكنيسة أورشليم

وكان سمعانُ الثاني بطيريك المدينة المقدسة الشرعي قد فرَّ منها؛ لأن الأتراك السلاجقة كانوا قد جحدوا الذمام لأهل العهد من النصارى، وغدروا وختروا وانتهكوا حرمة الكنائس، وكان هذا البطيريك العالم الصالح وقد رحب بالصليبيين وقَدَّمَ لهم الزاد والمثونة في إِبَّان محنتهم أمام أسوار أنطاكية، وكان أيضاً قد اشترك مع أديمار الصالح في كل ما يتول للخير، فكان له مع الصليبيين أخوة وأسباب ترعى، ولكنه تُوِّفي قبيل استيلاء الصليبيين على أورشليم (١٠٩٩)، ولا عبرة لما جاء في تاريخ ميخائيل السرياني من أنَّ سمعان شهد الاستيلاء على أورشليم، وأنه اشترك بنفسه في أعمال القتل، فشهادته هذه ينقصها الشيء الكثير من العدالة والضبط،^{٥٩} وكانت المدينة قد حَلَّت من الأساقفة لفرار هؤلاء مع بطيريكهم إلى قبرص، فأقام بعض الأمراء الصليبيين والكهنة اللاتينيون أرنولفوس روهيز بطيريركا على أورشليم، وكان أرنولفوس واعظاً وأديباً، ولكنه لم يكن زاهداً تقياً، ولم يَحْظَ بأصغر درجات الكهنوت، فاعترض ريمون أمير تولوز وعدد من الكهنة الإفرنسيين الجنوبيين على ارتقائه السدة البطيركية، وامتنعوا عن التعاون معه.^{٦٠}

^{٥٦} William of Tyre, VI, 23

^{٥٧} Orderic Vitalis, IV, 141

^{٥٨} Leib, B., Deux Inédits Byzantins, 59–69; Benechewitch, Cat. Cod. Manus. Graec., 279;

^{٥٩} Grumel, V., Patriarches d'Antioche, Echos d'Orient, 1933, 286–298

^{٥٩} Michel le Syrien, III, 329; Musset, H., Hist. du Christ., I, 440, n. 3

^{٦٠} Raymond d'Aguilers, XX–XXI; William of Tyre, IX, 1

وماشى البطريرك الجديد بوهيموند في السياسة الكنسية، فأبعد الكهنة الأرثوذكسيين والأرمن واليعاقبة والأقباط عن كنيسة القبر المقدس، وعيّن عشرين كاهناً لاتينياً للخدمة في هذه الكنيسة، ثم قبض على الكهنة الأرثوذكسيين مطالباً بعود الصليب وأمر بتعذيبهم فقبلوا مكرهين وقَدَّمُوا الأثر المقدس له،^{٦١} فأثار هذا البطريرك اللاتيني باستبداده واستفزازه غضبَ الشعب الأرثوذكسي وكهنته، وشاع خبرُ تعصبه وتصلُّفه واضطربتْ به الألسنة فوصل إلى القسطنطينية، وزاد في النفور والتباعد.^{٦٢}

المملكة اللاتينية والإمارات الصليبية

وفي ربيع السنة ١١٠٠ تجددت الأعمالُ الحربية، فاستولى الصليبيون على ساحل فلسطين من عسقلان حتى عكة، وقضت الضرورةُ العسكريةُ بتأمين الاتصال بين الصليبيين في فلسطين وبين إخوانهم في أنطاكية والرها، وكان ريموند أمير تولوز طامعاً في إمارة له فانطلق من اللاذقية في مطلع السنة ١١٠٢ واحتل طرطوس، ثم تقدم منها نحو طرابلس على رأس ثلاثمائة فارس. وكان فخر الملك محمد بن عمار قد طلب معونةَ الأمير ياخر خليفة جناح الدولة على حمص ومعونة تقاق أو دقاق بن تتش أمير دمشق فأعاناه، واجتمع هؤلاء في السهل عند مدخل طرابلس، فجرت معركةٌ حاميةٌ تغلَّبَ فيها ريموند، فوقع الصلح على مالٍ حمله أهلُ طرابلس إليه.

وفي السنة ١١٠٣ عاد ريموند إلى القتال وقد وصله مددٌ من البحر، فحاصر طرابلس برّاً وبحراً فلم يجد فيها مطمئناً، فعاد عنها إلى جبيل وتسلمها بالأمان، واستولى ريموند على جبلة، وتقدَّم في السنة ١١٠٥ نحو طرابلس، وأقام على حصارها، وبنى حصناً يطل عليها (حصن صنجيل)، وبنى تحته ريبضاً فخرج ابن عمار وأحرق الريبض، ووقف ريموند على بعض سقوفه فانخسف به فمرض ومات وحُمِلَ إلى المدينة المقدسة ودُفِنَ فيها.

وانتخب الضباط غيليوم يوردانوس قائداً وتابعوا الحصار، وقلَّتْ الأَقْوَاتُ في طرابلس فتوجه فخرُ الملك إلى بغداد مستنفرًا، واجتمع بالسلطان محمد وبالخليفة المستظهر فلم

^{٦١} Raymond d'Aguliers, loc. cit.; Fulcher de Chartres, I, 30; William of Tyre, loc. cit

^{٦٢} Runciman, S., op. cit., I, 294-295

يحصل منها على غرض، فعاد إلى دمشق وأقام عند طغتكين وأقطع الزبداني، وأما أهل طرابلس فإنهم دخلوا في طاعة خليفة مصر راجين الفرج.

وفي السنة ١١٠٨ أطل برتران ابن ريموند غير الشرعي على رأس أربعة آلاف فارس قادماً من جنوب فرنسة، فامتنع يوردانوس عن التنازل له عن القيادة، ولا سيما وأنه كان قد انتصر منذ برهة على جموع دمشق وحمص عند عرقة، وأن عرقة كانت قد سقطت بيده، فاجتمع كبار الصليبيين من أنطاكية وأورشليم وغيرهما في قلعة صنجيل الصليبية التي تطل على طرابلس للتوفيق بين الأمرين المتنافرين، وترأس الاجتماع بودوان الأول ملك أورشليم وذلك في صيف السنة ١١٠٩، فاتفق الطرفان على أن يتولى يوردانوس طرطوس وعرقة مقسماً الولاء للأمير أنطاكية، وأن يستحوذ برتران على طرابلس وجبيل مقسماً الولاء والطاعة لبودوان الأول ملك أورشليم، وعلى أن يرث أحدهما الآخر عند وفاته، ونزلوا جميعاً على طرابلس وألصقوا أبراجهم بسورها، وتأخر المدد من مصر فاقتحمها الإفرنج عنوة ودخلوا إليها في الثاني عشر من تموز سنة ١١٠٩، وأصبح برتران قومس طرابلس متسلماً سلطته بالإقطاع من ملك أورشليم، واحتل الجنويون حياً من أحياء طرابلس وقلعة الكونستابل على بُعد خمسة عشر كيلو متراً إلى الجنوب وتلثي مدينة جبيل، ثم تنازل هؤلاء عن حقهم في جبيل إلى الأميرال هوغ إمبرياكو Hugue Embriaco، فجعل من جبيل إقطاعاً وراثياً له ولذريته من بعده، وأصيب يوردانوس بسهم طائش وتوفي، فأصبح برتران بن ريمون قومس إمارة امتدت من طرطوس إلى نهر الكلب، ومن البحر حتى مداخل حمص وشملت رفنية والبقية وما جاورهما.^{٦٣}

وكانت بيروت وصيدا وصور قد تعاونت مع جيوش دمشق وحمص لصد بودوان الأول عن الوصول إلى أورشليم، فربطت في منتصف تشرين الأول من السنة ١١٠١ عند نهر الكلب مستعينة بضيق الطريق ووعورة المسلك، فتظاهر بودوان بالتراجع واتجه نحو جونبة، فلحق به العدو، وما زال حتى وصل بودوان ورجاله إلى مضائق المعاملتين، فصمد بودوان بدوره مستعينا بطبيعة الأرض ثم انقض على الدمشقيين والحمصيين

Albert d'Aix, VIII-XI; Fulcher de Chartres, II, 11, 17, 41; Caffaro, Liberatio, 69-73; Sibb. ^{٦٣} ibn al-Jauzi (R. H. C.) 525-536; Ibn al Qalanisi, 60, 83-90; Soberuheim, Art. Ibn Ammar, Enc. of Islam; Runciman, S., op. cit., II, 56-70; Grousset, R., op. cit., I, 333-364; Richard, J., Comlé de Tripoli, 12-14

وأتابعهم من سكان بيروت وصيدا وصور، فتراجعوا مذعورين ثم تشتتوا، فتابع بودوان سيره إلى أورشليم ليستوي على عرشها خلفاً لغودفروا.^{٦٤}

ولمس بودوان — لمس اليد — ضرورة الاستيلاء على بيروت وصيدا وصور لتأمين المواصلات بين الشمال والجنوب، فعاد إلى بيروت في ربيع السنة ١١١٠ مستعيناً بهرتان وبأربعين مركباً جنوباً وبيزياً، واشتد القتال فقتل مقدم الأسطول الفاطمي وخلقُ كثيرٌ من المسلمين، وهجم الصليبيون على البلد فملكوه بالسيف قهراً،^{٦٥} وأقطع بودوان بيروت لأحد أشراف دولته فولك ده غين Foulques de Guines وخلفه عليها سادةً من ذريته حتى السنة ١١٨٧.

ونهض بودوان من بيروت إلى عكة، فوافق مروره فيها وصول أسطول نروجي بقيادة سيغورد Sigord أخي ملك نروج، وكان سيغورد أول متوج يزور المملكة اللاتينية فاستقبله بودوان بحفاوة فائقة وواكبه حتى المدينة المقدسة، فارتاح سيغورد وقال: إن رجاله راغبون في الاشتراك في الجهاد لمناسبة وجودهم في الأراضي المقدسة، فشكر بودوان لضيفه الملكي هذه البادرة الطيبة، وقال: إن الظروف العسكرية تقضي باحتلال صيدا، وفي أوائل تشرين الأول من السنة ١١١٠ ظهر الأسطول النروجي أمام صيدا وأحاط جيش بودوان بها من البر، واشتد القتال وأقبلت عمارة فاطمية مصرية من صور، فكادت تقضي على المراكب النروجية لولا وصول نجدة بندقية بحرية بقيادة الدوج نفسه أورديلافو فاليري Ordelafo Faliere، ودبر الصيداويون خطة لاغتيال بودوان بواسطة شاب مسلم كان قد دخل في النصرانية والتحق بخدمة الملك الصليبي، فعلم نصارى صيدا بذلك فأطلقوا سهمًا حاملاً الخبر إلى مقر القيادة الصليبية، فأمر بودوان بهذا الشاب فقتل عند أسوار المدينة، وفي الرابع من كانون الأول سنة ١١١٠ سلمت صيدا فرحل عنها أعيانها إلى دمشق، فجعلت بارونية وأقطعت إلى البارون أوستاش غارنيه Eustace Garnier، ووهب بودوان البنادقة كنيسة وأراضي في عكة.^{٦٦}

وحاول بودوان في السنة ١١١١ أن يستولي على صور، ولكنه لم يفلح بضعفه في البحر، فعاد عنها وانشغل بمشاغلٍ أخرى، فظلت صور في يد المسلمين فترة من الزمن،

^{٦٤} Fulcher de Chartres, II, 1; Albert d'Aix, VII, 32–35; Runciman, S., op. cit., I, 323–324

^{٦٥} Grousset, R., op. cit., I, 253–255

^{٦٦} Fulcher de Chartres, II, 44; Albert d'Aix, XI, 26, 30–34; William of Tyre, XI, 14; Ibn al

Qalanisi, 106–108; Riant, Scandinaves en Terre Sainte, Ch. IV

وحاول أعيانها التوفيقَ بين الولاء للفاطميين للاستعانة بأسطولهم وبين الولاء لأمرء دمشق للاستعانة بجيشهم عند الحاجة، فقبلوا أميراً دمشقياً اسمه مسعود حكم باسم طغتكين، وداوموا على الدعاء في الخطبة للخليفة الفاطمي، وفي السنة ١١٢٢ وصل أسطول فاطمي إلى مياه صور فاستقبل فيها أحسن استقبال، فدعا قائد الأسطول الأمير حاكم البلد لزيارة الأسطول، ففعل فقبض عليه ونقل إلى القاهرة ثم أطلق سراحه، فاعترف طغتكين الدمشقي بالحكم الفاطمي في صور.

وفي منتصف شباط سنة ١١٢٤ وصل الصليبيون برّاً وبحراً إلى صور وضربوا الحصار عليها باسم الملك الأورشليمي بودوان الثاني وبقيادة البطريرك غورمونو Gormand، فقطعوا مياه رأس العين عنها وتناولوها بالمجانق، فردّ الصوريون المجانيق بمثلها ورموا المحاصرين بالنار الإغريقية، ولكنهم كانوا قليلين فلم يجرءوا على الهجوم، واستغاثوا بالقاهرة ودمشق فلم يلبّ الخليفة الأمر النداء لعدم توفرّ المراكب، وأنفذ طغتكين جيشاً كبيراً إلى بانياس وبات ينتظر قُدوم المراكب الفاطمية، ثم أطل الصليبيون من معسكر صور فعاد إلى دمشق بدون قتال، وطال الحصار وقل الزاد والماء فصالح طغتكين وسلم صور على شروط، أهمها: أن يسمح لأهلها بمغادرتها، وأن يؤمن الباقيون فيها على حياتهم، وفي السابع من تموز سنة ١١٢٤ فتحت صور أبوابها للصليبيين، فاستولوا عليها باسم بودوان الثاني.^{٦٧}

واقصر الحكم الصليبيّ — في الغالب — على السواحل والجبال الغربية حتى مقلب المياه، وظلّ الداخلُ — كحلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق — بيد الأمراء المسلمين السلاجقة، ونشأ في البلاد ثلاث إمارات صليبية ومملكة؛ إمارة الرها وإمارة أنطاكية وإمارة طرابلس والمملكة اللاتينية، وكان نظام الحكم فيها إقطاعياً على الطريقة الأوروبية، وجاء الملك الأورشليمي صاحب التاج المقدس على قمّة هذا النظام في المملكة اللاتينية وفي الإمارات الثلاث، فكان عليه أن ينجذ الأمير المقطع إذا اعتدي عليه أو هُدّد بثورة داخلية، وأن يكون وصياً على الأمير إذا كان قاصراً، وأن يكون الحكم بين الأمراء. وكان على الأمراء أن يُقسموا يمين الطاعة والولاء، ويهبوا لمعونة الملك بعدد معين من المحاربين.

^{٦٧} Fulcher de Chartres, III, 1-34; William of Tyre, XIII, 13-14; Qalanisi, 170-172; Mathew .of Edessa, 244, P. 314; Runciman, S., op. cit., II, 168-171

وأقطع كل أمير من الأمراء غيره أراضي في إمارته بالشروط نفسها، وشمل هذا الإقطاع الأساقفة والرهبان أيضًا، فكان على هؤلاء أن يقسموا يمين الطاعة والولاء للأمير الكبير، وأن يلبُّوا نداءه في الملمات، فينجدوه بعدد معين من رجال الحرب أو مبلغ محدد من المال أو الاثنين معًا.

الرهبان الفرسان

وكان بعض الأغنياء الأتقياء من سُكَّان أمالفي قد رَقُّوا للحجاج الفقراء، فأنشئوا في السنة ١٠٧٠ نزلًا لهؤلاء في أورشليم، ووقفوه على اسم القديس يوحنا الرحوم البطريرك الإسكندري، ورثى لهؤلاء الفقراء آخرون من أبناء أمالفي، فوقفوا حياتهم لخدمتهم رهبانًا لا يَسْتَكْبِرُونَ، وخضع هؤلاء الرهبان ورئيسهم للسلطات البنذكنتية في الأرض المقدسة، فلما خشي الأتراك السلاجقة قدوم الصليبيين في السنة ١٠٩٨ طردوا هؤلاء الرهبان من الدير والنزل ومن المدينة المقدسة أيضًا، وكان ما كان من أمر الحملة الصليبية الأولى. فلما سقطت أورشليم في يد الصليبيين أشفق الأمراء على الحجاج والرهبان الأملقيين وحبسوا عليهم الأملاك، وعظم شأن هؤلاء الرهبان وكثر عددهم فاستقلوا عن البنذكنتيين، واعترف البابا بهم رهبة مستقلة باسم الرهبان المضيفين Hospitaliers. فسامهم المؤرخون المسلمون «الاسبتالية» أو «الاسبتارية»، وفي السنة ١١١٨ تولى رئاسة هذه الرهبة راهب إفرنسي واسع الصدر بعيد النظر اسمه ريمون ده بوي Raymond du Puy. فلم يكتف بإيواء الحجاج ومواكبتهم والعناية بهم، بل تطلَّع إلى ما كان أهم من ذلك، إلى حماية الحجاج والمحافظة على سلامة وصولهم، فبدل شفاعته يوحنا الرحوم بشفاعة يوحنا الحبيب، وأوجب التدريب على القتال واستعمال السلاح ورَسَمَ صليبٍ أبيض على الجبب.

وفي السنة ١١١٨ أيضًا تقدم الفارس هوغ ده بان Hugues de Payns ورفاقه السبع من بطريرك أورشليم اللاتيني ناذرين العفة والطاعة، واضعين أنفسهم تحت تصرف البطريرك لحماية الحجاج من اللصوص وقطاع الطرق، فوافق البطريرك وأنزلهم الملك جناحًا من أجنحة قصره في هيكل سليمان (المسجد الأقصى)، فعرفوا بالرهبان الهيكليين Templiers وهم «الداوية» في مصنفات العرب المعاصرين، ونظر مجمع تروا Troyes في نظامهم في السنة ١١٢٨ فأقره باسم «جنود المسيح»، وانتظم جنود المسيح طبقات ثلاثًا: طبقة الفرسان من الأشراف، وطبقة الرقباء من أبناء التجار وأصحاب المهن الحرة،

وطبقة الكهنة من خدام الكنائس. وارتدى الفرسانُ الأشرافُ الأبيضَ وعليه صليبٌ أحمرٌ، ولبس الرقباءُ الأسودَ وعليه صليبٌ أحمرٌ، وقضى واجبهم الأولُ بأن تبقى طريق الحجاج حرة آمنة من الساحل حتى المدينة المقدسة، ثم اندفعوا في سبيل الصليب فاشتركوا في معظم الحروب.

وأيد بودوان الأول وغيره من خلفائه هؤلاء الرهبان الفرسان؛ لأنهم وجدوا فيهم أداة عسكرية فعالة مستعدة دائماً للنضال في سبيل الجهاد، فحبسوا عليهم الأملاك لتأمين الدخل ثم أقطعهم الأراضي ووكّلوا إليهم حماية الأبراج والقلاع عند الحدود، ففي السنة ١١٣٧ تولى الاسبتاليون حماية قلعة بيت جبرين وتولى الهيكليون الدفاع عن غزة، وفي السنة ١١٤٢ أقطع أمير طرابلس ريمون الثاني الاسبتاليين حصن الأكراد وكل ما وقع بين هذا الحصن وبين ريفية وبعرين، وأقطع الهيكليين طرطوس وصافيتا وعرقه، وحذا أمراء أنطاكية حذو أمراء طرابلس وملوك فلسطين، فتولى الهيكليون الدفاع عن حدود الإمارة الشمالية الشرقية واحتل الاسبتاليون حدودها الجنوبية.^{٦٨}

الهيرارخية اللاتينية

وهدف الصليبيون إلى القبر المقدس فعدت أورشليم أهمّ مدُن الشرق عندهم، وأصبح بطريركها مقدماً على بطريك أنطاكية، وذكر الصليبيون فضل أوربانوس الثاني واندفاعه وتنشيطه وتشجيعه، فحفظوا حقّ الكنيسة واعتبروها صاحبة السلطة في الأراضي المقدسة، فلما توفّي أديمار في أنطاكية عين أوربانوس دميرتوس Daimbert رئيس أساقفة بيزا خلفاً لأديمار وممثلاً لسلطة رومة في الأراضي المقدسة،^{٦٩} ووصل دميرتوس إلى أورشليم في الحادي والعشرين من كانون الأول سنة ١٠٩٩، فاعتبر أرنول أورنولفوس قائمقاماً بطريكياً Locum Tenens، وفاوض الزعماء في وصوله إلى

^{٦٨} Cahen, C., Syrie du Nord, 511 ff.; Richard, J., Royaume de Jérusalem, 104–112; Comté de Tripoli, 62–70; Delaville Le Roux, Hospitaliers en Terre Sainte; Melville, M., La Vie des Templiers; La Monte, J. L., Feudal Monarchy, 217–225; William of Tyre, XII, 7, XVIII, 4; Michel le Syrien, III, 201–203

^{٦٩} .Annales Pisani, (Tronci), I, 178 ff

الحروب الصليبية

العرش البطريركي، واغدودقت الهدايا الثمينة، فخلع أرنول خلغًا وانتخب دمبرتوس بطريركًا على أورشليم، وخضع غودفروا «وكيل القبر المقدس» وبوهيموند أمير أنطاكية للبطريرك، وأقسما يمين الطاعة والولاء له، فأصبح البطريرك الأورشليمي سيد أنطاكية وأورشليم وحقق في الأراضي حلم غريغوريوس السابع، أما بودوان أمير الرها فإنه امتنع عن الخضوع؛ لأنه لم يثق بشخص البطريرك الجديد.^{٧٠}

وجلس بين السنة ١٠٩٩ والسنة ١١٩٩ أحد عشر بطريركًا لاتينيًا على السدة الأورشليمية، وإليك أسماءهم وتواريخهم:

Arnoul Malecorne	1099	Etienne de Chartres	1128–1130
Daimbert	1099–1101	Guillaume de Messines	1130–1146
Ebremard	1101–1108	Foucher d'Angoulême	1146–1157
Gibelin de Sabran	1108–1112	Amaury de Nesles	1158–1180
Arnoul Malecorne	1112–1118	Heraclius	1180–1190
Gormond de Picquigny	1118–1128		

ويُجمع الثقات على انصراف معظم هؤلاء البطارقة إلى حب المجد الفارغ، واهتمامهم بجمع المال وإنفاقه في سبيل أهوائهم وأغراضهم الشخصية، وعلى أن السيمونية لعبت دورًا هامًا في سياسة كنيسة أورشليم طوال قرن كامل من الزمن.^{٧١}

Grousset, R., op. cit., I, 194–196; Runciman, S. op. cit. I, 299–307; Albert d'Aix, VII, 7; ^{٧٠} William of Tyre, IX, 15

Grousset, R., op. cit., II, 745; Richard, J., Royaume de Jérusalem 93–95; Musset, H., ^{٧١} Hist. du Christ., I, 441

وجلس على السدة البطريركية بين السنة ١١٠٠ والسنة ١٢٠٨ أربعة بطاركة، وهم: برناردوس (١١٠١-١١٣٥) ورءول (١١٣٥-١١٤٢) وإيماري Aymeri (١١٤٢-١١٩٦) وبطرس (١١٩٦-١٢٠٨)، ولم يكن هؤلاء أَسْعَدَ حظًا من زملائهم في أورشليم، فاشتهر برناردوس بتدخله في السياسة والحرب في عهدي تنكريد وروجه،^{٧٢} وتميز رءول برجاله الأشداء واستثنائه بالسلطة البطريركية واستخفافه بأوامر رومة وبخلعه وموته مسمومًا،^{٧٣} وفضل إيماري في نظر غليلموس الصوري أنه أنقذ أنطاكية في السنة ١١٤٩ من السقوط في يد نور الدين، وفي نظر غيره أنه عظم شأن اليعاقبة والأرمن؛ نكايه بالروم الأرثوذكسين.^{٧٤}

وقضت ظروفُ المملكة اللاتينية بأن تنحصر سلطةُ بطريك أورشليم ضمن حدود هذه المملكة، وأن يُعادَ النظرُ في تقسيم الأبرشيات، فنشأت تدريجيًا أبرشيات خمسُ كبرى يرأس كلُّ منها رئيس أساقفة، وهي أبرشيات صور وقيصرية وبيسان وبصرى وعمان، وخضع لرئيس أساقفة صور كل من أسقف بيروت وأسقف صيدا وأسقف بانياس وأسقف عكة، وخضع لرئيس أساقفة قيصرية أسقف سبسطية، ولرئيس أساقفة بيسان أسقفا طبرية وجبل الطور.

وشملت بطريركية أنطاكية ست عشرة أبرشية، وهي أبرشيات مصيصة والبارة وأبامية ومنبج والرها وبانياس وجبله وطرابلس واللاذقية وحارم أو (أرتاح)، ومرعش وقيسون وقوروش ورفنية وطرطوس وجبيل،^{٧٥} ولم ترَضَ هذه البطريركية عن سلخ أبرشيات صور وسائر فينيقية الساحلية وضمها إلى بطريركية أورشليم وطالبت بإعادتها إلى كنيستها الأم، فنشأت مشادةً عنيفةً بين البطريركيتين دامت أعوامًا طويلاً، فقالت بطريركية أورشليم بوجود الملاءمة بين الحدود السياسية والحدود الكنيسة مستندة في ذلك إلى التعليمات الصادرة عن أوربانوس الثاني، واستمكت بطريركية أنطاكية بقرارات المجامع المسكونية ووجوب إبقاء القديم على قَدَمِهِ.

^{٧٢} Grousset, R., op. cit., I, 385; Cohen, C., op. cit., 288, 299, 308, 310, 318

^{٧٣} Grousset, R., op. cit., III, 35, 46

^{٧٤} Cahen, C., op. cit., 566-567

^{٧٥} Cahen, C., op. cit., 319-323

واتخذت هذه المشادة شكلاً فعلياً لأول مرة في السنة ١١١٠ عند سقوط بيروت في يد بودوان ملك أورشليم، فاستسمح هذا الملك البابا باسكال الثاني في ضم بيروت إلى كنيسة أورشليم فوافق باسكال، فاحتج برناردوس بطريك أنطاكية فاعتذر باسكال وقال قولاً مبهماً، فطلب برناردوس إلى مجمع بنفنتوم (١١١٢) أن ينظر في هذا الأمر، فارتأى المجمع أن يكون الحد الفاصل بين طرطوس وطرابلس، فلم يرخص باسكال الثاني.

ولدى دخول صور في حوزة ملك أورشليم سنة ١١٢٨ قام رئيس أساقفتها اللاتيني إلى رومة لتسلم درع التثبيت من البابا أونوريوس الثاني، فأمر هذا البابا بضم طرابلس وطرطوس وجبيل إلى بطريكية أورشليم، فلم يذعن برناردوس بطريك أنطاكية وظل محتفظاً بطرطوس وطرابلس وجبيل، وفي السنة ١١٣٨ طلب البابا أنوشنتوش الثاني إلى بطريك أنطاكية رءول أن يلحق طرطوس وطرابلس وجبيل بأبرشية صور، فأجاب رءول أنه فاعلٌ حالما تعود صور نفسها إلى كنيستها الأم أنطاكية، وظلت المشادة قائمة ونظر فيها كل من أنوشنتوش الثالث وأنوريوس الثالث وغريغوريوس التاسع ولكن دون جدوى، وظل الحد الفاصل بين البطريركيتين الحد السياسي بين المملكة اللاتينية وقومية طرابلس.^{٧٦}

الهيكلية اليونانية الأرثوذكسية

ولم يعترف الأقباط الأرثوذكسيون بالبطريركيتين اللاتينيتين، واعتبروا الإقدام على تنظيمهما عملاً مخالفاً لنصوص المجمع المسكونية؛ إذ لا يجوز أن يكون للأبرشية الواحدة أكثر من رئيس واحد، ورأوا في تدعيم السلطات لهذا العمل الشاذ اغتصاباً لا مبرر له.

واجتمع الأقباط الأورشليميون بعد وفاة سمعان الثاني، وانتخبوا أغاببيوس الأول خلفاً له، ثم انتقلوا من قبرص إلى القسطنطينية وثابروا على الاحتفاظ بالسلطة الروحية في أورشليم وسائر فلسطين، فانتخبوا سابا بعد أغاببيوس، ثم أفخيريوس الأول،

Rohricht, R., *Gesch. des Konigreichs Jerusalem*, 98-99, 184; Cahen, C., *op. cit.*, 314-^{٧٦}

.317; Richard, J., *op. cit.*, 97-98

فمكاروريوس الثالث، فيعقوب الثاني، فأرسانيوس الثاني، فيوحنا السابع، فنيقيفوروس الثاني، فأثناسيوس الثاني،^{٧٧} ولا مجال للظن في صحة هذه الرواية؛ فذبتخة دير القديسة كاترينة في طور سينا المؤرخة في السنة ١١٦٦ تذكر اسمي يوحنا ونيقيفوروس بطريركي أورشليم،^{٧٨} وأعمال المجمع القسطنطيني في السنة ١١٥٧ تُثبت اشتراك يوحنا بطريرك أورشليم في جلساته، كما تبين أعمال مجمع السنة ١١٦٦ أن نيقيفوروس مثل كنيسة أورشليم، وصنف يوحنا رسالة في السنة ١١٦٠ بحثت في الطقوس اللاتينية،^{٧٩} وعند خروج اللاتينيين من أورشليم في السنة ١١٨٧ كان هنالك بطريرك أرثوذكسي مستعدٌ لتسلّم السلطات الروحية هو أثناسيوس الثاني.^{٨٠}

ولجأ يوحنا السابع البطريرك الأنطاكي إلى القسطنطينية — كما سبق وأشرنا — ثم استقال فأوعز الفسيلفس إلى الأساقفة الأنطاكيين الذين فروا مع بطريركهم أن ينتخبوا خلفاً له، فأجمعوا على تسليم عكاز الرعاية إلى يوحنا الثامن (١١٠٦-١١٣٧) فلوفاً (١١٣٧-١١٥٥)، ولا بدّ أن يكونوا قد حدّوا حدو زملائهم الأورشليميين، فتابعوا انتخاب البطاركة في الغربية؛ فقد جاء في لائحة قسطنديوس القسطنطيني أن يوحنا التاسع تسلّم عكاز الرعاية في القسطنطينية في السنة ١١٥٥، وأن أفثيميوس خلفه في الكرسي الرسولي في السنة ١١٥٩، وأن مكاروريوس الثاني تولى السدة الأنطاكية في السنة ١١٦٤، فتبعه في الرئاسة أثناسيوس الثاني سنة ١١٦٦ فثيودوسيوس الثالث سنة ١١٨٠، فألياس الثالث سنة ١١٨٢، فكريستوفوروس الثاني سنة ١١٨٤، فثيودوروس الرابع (بلسامون) سنة ١١٨٥، فيواكيم سنة ١١٩٩، فدوروثيوس في السنة ١٢١٩، فسمعان الثاني سنة ١٢٤٥، فأفثيميوس الثاني سنة ١٢٦٠، وفي عهده أخرج المماليك الصليبيين من أنطاكية.^{٨١}

Dositheus, *Istoria Ierosolumoio Patriar.*, II, 1243; Le Quien, *Oriens Christianus*, III, ^{٧٧}
.498-503

.Briyhtman, F. E., *Liturgies Eastern and Western*, I, 500-502 ^{٧٨}

Chalandon, F., *Les Commènes*, 642, 648, 651, 653; Krumbacher, K., *Gesch. der Byzant.* ^{٧٩}
.Litt., 91

.Runciman, S., *East. Sch.*, 90 ^{٨٠}

Constantius, *Patriarch of Const., Patriarchs of Antioch.* (Neale, J. M., *Patriarchate of* ^{٨١}
.Antioch), 174-177

والواقع الذي لا مَفَرَّ من الاعتراف به هو أن الروايات في هذا الموضوع متضاربةً متخالفةً، وأن أحدًا من العلماء الباحثين لم يعالج هذه الروايات معالجةً علميةً فنيةً، ولكن الثابت الراهن هو أن الإكليروس الأرثوذكسي لم يعترف بسلطة اللاتين على كنيسة أنطاكية، وأنه أقام بطاركة أرثوذكسيين يونانيين في الفترة التي تَوَلَّى الصليبيون فيها أنطاكية وتوابعها، ولكن هذه الروايات تتدامج وتتآلف حول رئاسة أثناسيوس الثاني وثيودوروس الرابع وسمعان الثاني، وتتفق — إلى حدٍّ بعيدٍ — في تعيين ظروفها.

أثناسيوس الثاني (١١٦٥-١١٧٠)

وظلت أنطاكية وجهةً آمال الروم وحديثٍ أحلامهم، وظلوا يرقبون تطوُّر الظروف ويترصدون سوانحَ الفرص للظفر بها. وتُوِّفي بوهيموند الأول في إيطاليا في السنة ١١١١، وقتل تنكريد الصقلي في الميدان في السنة ١١١٢، وخرَّ بوهيموند الثاني صريعًا في قيليقية سنة ١١٣٠ وتولى الوصاية على ابنته قسطندية روجه الساليرني، فارتأى الفسيفس يوحنا الثاني أن يُزوج ابنه عمانوئيل من قسطندية، ووافقت والدتها، ولكن فولك دانجو ملك أورشليم أزوج قسطندية من ريمون قومنس بواتيه، فغضب يوحنا الثاني الفسيفس لكرامته وانتهز فرصة الحرب القائمة بين عماد الدين زنكي والإفرنج، فظهر أمام أسوار أنطاكية فسقطت في يده في آب السنة ١١٣٧، فأقسم ريمون أميرها ولاء الطاعة للفسيفس، ثم اضطر الفسيفس أن يحاصر أنطاكية في السنة ١١٤٢، وأصيب بسهم مسموم في أثناء الصيد في قيليقية فولى ابنه عمانوئيل وقام إلى القسطنطينية وتُوِّفي فيها سنة ١١٤٣، واتسعت آفاق عمانوئيل (١١٤٢-١١٨٠) وطمع في إيطاليا وصقلية وفي إمارات الشرق اللاتينية، وتعدَّى ريمون أمير أنطاكية وأغار على قيليقية فأنفذ عمانوئيل حملة وأكره ريمون على الذهاب إلى القسطنطينية في السنة ١١٤٥ ليطلب العفو.

وقتل ريمون في حرب ضد المسلمين في السنة ١١٤٩ فشمّل عمانوئيل أرملة قسطندية بعطفه وحمايته، وعلى الرغم من عدم انصياعها له في أمر زواجها من رينو دي شاتيون فإنه ظل يعتبر نفسه سيد أنطاكية وتوابعها، وفي السنة ١١٥٢ ثار طوروس بن لاوون الأرمني على عمانوئيل واعتصم بتلال قيليقية، فاستعان عمانوئيل برينو ووعده بمكافأة مالية جزيلة، فجرد رينو حملة على طوروس ثم قلب ظهر المجن وانضم إلى طوروس وتعاون معه في إغارة كبيرة على قبرص سنة ١١٥٦، فاستشاط

الفسيلفس غيظاً وقام بنفسه إلى قيليقية، فأمر رينو مصيصة مقر عمانوئيل أعزل عاري القدمين حاسر الرأس ممسكاً بسيفه من طرف نصلته وارتمى عند قدمي الفسيلفس، وما فتئ حتى أمره عمانوئيل بالنهوض، فاعترف بسيادة الفسيلفس ورضي بتسليم قلعة أنطاكية وبإقامة بطريرك أرثوذكسي في المدينة،^{٨٢} وفي السنة ١١٦٢ بلغ بوهيموند الثالث أشده فانتهت وصاية رينو، وفي السنة ١١٦٤ وقع بوهيموند الثالث أسيراً في يد نور الدين ثم أطلق سراحه لقاء مبلغ كبير من المال، وكان عمانوئيل قد تزوج من مريم أخت بوهيموند، فقام هذا إلى القسطنطينية يرجو صهره الفسيلفس إمداده بالمال اللازم، فصدقه الفسيلفس السعي ولجئ مبتغاه، فعاد بوهيموند إلى أنطاكية يرافقه بطريرك أرثوذكسي يوناني هو أثناسيوس الثاني.^{٨٣}

واعتبر بوهيموند البطريرك اليوناني الأرثوذكسي مساوياً لبطريرك اللاتين بالحقوق والكرامة، فامتعض إيماري بطريرك اللاتين واحتج، ثم لعن المدينة وخرج منها وأقام في برج القصير (قلعة الضو) بين كنوزه وأمواله، وكانت السلطات الأرثوذكسية العليا لا تزال تسعى لردّ اليعاقبة والأرمن عن القول بالطبيعة الواحدة والعودة بهم إلى حضن الكنيسة الجامعة، فلما أطلت السنة ١١٦٦ وانتخب اليعاقبة ميخائيل السرياني بطريركاً عليهم انتهز أثناسيوس الثاني فرصة قدوم البطريرك الجديد إلى أنطاكية، وبحث معه أمر توحيد الكلمة وجمع الصفوف، ودخل اللاهوتي اليوناني ثوريانوس الأرثوذكسي في جدل لاهوتي مع ميخائيل، وأطلع البطريرك أثناسيوس الفسيلفس على ما جرى، فاستدعى عاهل الروم البطريرك السرياني إلى القسطنطينية للنظر في صلب الموضوع، ولكن إيماري بطريرك اللاتين كان قد أظهر استعداداً للتعاون مع السريان دون قيد أو شرط، فامتنع ميخائيل عن الذهاب إلى القسطنطينية، ولم تسفر محاولات أثناسيوس عن أيّة نتيجة إيجابية، وظل إيماري ممتنعاً في برج القصير وواظب كهنته على مقاطعة الروم الأرثوذكس وعلى التوّد إلى اليعاقبة والأرمن. وعاد الطرفان السرياني والأرثوذكسي إلى البحث في السنة ١١٧٨ واجتمعوا في روم قلعة، وترأس الوفد السرياني الأسقف باروهيون وترعم الوفد الأرثوذكسي كل من الفيلسوف ثوريانوس

^{٨٢} Dolger, F., Regesten, 1430-1431.

^{٨٣} William of Tyre, XIX, 11; Michel le Syrien, III, 326; Chalandon, F., Les Commènes, II,

.531; Grousset, R., op. cit., II, 470-474

وزميله خريستوفوروس، ولكن دون جدوى، وانتفخ باروهبون واستكبر من جراء هذه المحادثات، فخرج على رئيسه البطريرك ميخائيل وشرط الكنيسة السريانية شطرين ببطيريكين متخاصمين متراشقين.^{٨٤}

وفي التاسع والعشرين من حزيران سنة ١١٧٠ زلزلت الأرض واشتد المصاب، فتهدمت الدورُ والمباني في حلب وحماة وحمص واللاذقية وطرابلس وجبيل وغيرها، ولم تنج أنطاكية من هذه الكارثة، فأرجفت الكاتدرائية وتناثرت حجارتها فأصاب أثناسيوس الثاني وحاشيته في أثناء قيامهم بالخدمة الإلهية، فادعى إيماري وجماعته أن الغضب حلَّ على المدينة لخروج إيماري منها ودخول أثناسيوس إليها، فأمر بوهيموند بإخراج البطريرك الأرثوذكسي من المدينة، فأخرج وهو في حضرة الوفاة.^{٨٥}

بلسامون ثيودوروس (١١٨٥-١١٩٩)

وأشهر بطاركة كنيسة مدينة الله في هذه الحقبة بلسامون القانوني الكبير، وهو ثيودوروس الرابع بموجب اللوائح الكنسية، أبصر النور في القسطنطينية ونذر نفسه صغيراً، وألحق بكنيسة الحكمة الإلهية والبطيركية المسكونية، فكان مثال الورع والتقوى والنشاط والغيرة، وتدرج في المراتب فشغل وظيفة نوموفيلاكس فخرتوفيلاكس فبروتوسنكلوس، وانتخب بطريركاً على أنطاكية في السنة ١١٨٥، ولكنه لم يُوفق إلى الإقامة فيها فبقي في القسطنطينية حتى أدركته الوفاة في السنة ١١٩٩، وليس هناك أي دليل يؤيد أودوان في قوله: إن بلسامون انتقل إلى رحمة ربه في السنة ١٢١٥.^{٨٦}

وأحبت أسرة كومنينوس الكنيسة فنفذت كلمة الأبحار واتسعت صلاحياتهم القضائية، فعكف بلسمون خارتوفيلاكس كنيسة القسطنطينية على درس القوانين المدنية والكنسية فهالها تكاثرها وتناقضها، فاتخذ أساساً لتدقيقه مجموعة عُرفت بالسينتاغمة Syntagma ونُسبت إلى فوطيوس العظيم، ثم جمع كل ما عثر عليه من القوانين المدنية والكنسية منذ عهد باسيليقه لاوون السادس (٨٨٦-٩١٢) فنسقها وقرَّق بين مهملاتها وما كان لا يزال ساري المفعول منها، ثم مَحَّص هذه تمحيصاً محاولاً

^{٨٤} Michel le Syrien, III, 301-304, 332, 334-336

^{٨٥} .Ibid., 339; William of Ryre, XX, 18

^{٨٦} .Oudin, C., Comment. Script. Ecc., II, 1906

التوفيق بين قوانين الكنسية وقوانين الدولة، فأخرج كتابًا أسماه الدليل إلى القانون Exegesis Canonum لا يزال حتى يومنا هذا منهلاً عذبًا يرده أبحارنا المتبحرون.^{٨٧} ولبلسامون مصنفاتٌ أخرى، أهمها تأملاته^{٨٨} وأجوبته عن المسائل الأربع والستين التي طرحها مرقس بطريرك الإسكندرية،^{٨٩} ومؤانساته الإحدى عشرة.^{٩٠}

جمهور المؤمنين

واعتبرت السلطات الصليبية الروحية والمدنية جمهور المؤمنين الأرثوذكسيين أبناء كنيسة واحدة جامعة، ففرضوا عليهم العشر وأوجبوا خضوعهم لأساقفة لاتينيين واحتلوا الكاتدرائيات والأديار والمباني الكنسية، ومن خضع رتع ومن امتنع امتنع، وسمحوا بعد هذا بممارسة الطقوس البيزنطية في الكنائس العادية كما أبقوا على بعض الرهبان في بعض الأديار، وظلَّ فيلسف الروم يطالب أمراء أنطاكية الصليبيين بالطاعة والولاء. واشتد الاحتكاكُ بين الطبقات الأرثوذكسية اليونانية العالية في أنطاكية واللاذقية وبين الأسر الصليبية المائلة، فتيقظ الصليبيون وتحذروا فنشأ عن هذا كله نفورٌ في قلوب الأرثوذكسيين الأنطاكيين، زاد الشقاق الذي كان قد بدأ سنة ١٠٥٤ اتساعًا وعمقًا.^{٩١}

اللاتين والأرمن

وحاولت السلطات الروحية اللاتينية في بادئ الأمر فرضَ سُلطتها على الإكليروس الأرمني، فامتعضوا ونفروا وأيدُّهم في ذلك شعبهم، وتعاونوا مع المسلمين،^{٩٢} ثم استتبَّ الأمرُ للصليبيين في الميدان السياسي، ورأى هؤلاء أن لا بُدَّ من الاستعانة بالأرمن للصمود

^{٨٧} Beveridge W. Preface to Synodikon P. G., Vol. 137. Col. 19–27; Mortreuil, Hist. Droit Byz., III, 432–445; Heimbach, Griech–Rom. Recht, (Encyc. Ersch et Gruber), Vol. 86, 463–467; Lingenthal, Z., Griech. Nomocanones, 16–17

^{٨٨} P. G., Vol. 119, Col. 1161–1224

^{٨٩} P. G., Vol. 138, Col. 952–1012

^{٩٠} Ann. Assoc. Etudes Grecques 1884, 8–19

^{٩١} Runciman, S., Eastern Schism, 97; Cahen, C., op. cit. 331–332

^{٩٢} Grousset, R., op. cit., I, 412, 490, 561; Cahen, C., op. cit., 335, 336

في وجه الروم والمسلمين، فَخَّفتْ غلواءُ الرؤساء اللاتينيين وواصلوا الإكليروس الأرمني وأحسنوا صلتهم، فأطلقوا يدهم في الروحيات والأحوال الشخصية وتركوا لهم كنائسهم وأديارهم، فحفظ الأرمن العهد وبروا في القول،^{٩٣} ثم تمكنت الألفة فاصطحب الطرفان على العلات، وجاءت السنة ١١٣٩ فأم أنطاكية الكردينال ألبريكوس، فعقد مجمعاً محلياً للنظر في قضية رءول بطيريك أنطاكية، ودعا بطيريك الأرمن غريغوريوس الثالث وأخاه نرسييس لحضور المجمع ففعلا. وفي السنة ١١٤٠ قام الكردينال والبطيريك إلى أورشليم، فاحتفلا بعيد الفصح فيها واشتركا في أعمال مجمعها اللاتيني. ويرى علماء اللاتين أن ممثلي الكنيسة الأرمنية اعترف بالطبيعتين في هذا المجمع، ولكن علماء الأرمن يُصرون على أنه قال قولاً غامضاً، خلاصته أن الكنيستين لم تختلفا في الأمور الجوهرية.^{٩٤}

وجاء بعد غريغوريوس الثالث نرسييس الرابع ١١٦٦-١١٧٣ المعروف بالشرنورهيالي، فحاول التوفيق بين مواقف الكنائس اللاتينية واليونانية والأرمنية، ولبَّى دعوة الفسيلفس عمانوئيل كومنينوس فجالس اللاهوتي الفيلسوف ثيوريانوس وبحث معه الاختلاف الناشئ عن مقررات المجمع الخلقيدوني، وجاء غريغوريوس الرابع ١١٧٣-١١٩٣ فدعا إلى مجمع في روم قلعة اشترك في أعماله ثلاثة وثلاثون حبراً من مختلف الطوائف، فقال الأرمن فيه بالطبيعتين. ولكن إصرار الأرثوذكسين اليونانيين على تطبيق الطقوس اليونانية اضطر الأرمن إلى الاتجاه نحو رومة، فاتصل غريغوريوس الرابع البطيريك الأرمني بلوقيوس الثالث بابا رومة، فأرسل له هذا درعاً وخاتماً وعكازاً،^{٩٥} وجاءت السنة ١١٨٨ فحضر إقليمس الثالث بابا رومة الأرمن على التعاون مع الصليبيين،^{٩٦} واعترض غريغوريوس الخامس على هذا التفاهم (١١٩٣-١١٩٤)، ولكن تدخل الأمير الأرمني لاوون الثاني أدى إلى انعقاد مجمع في طرسوس سنة ١١٩٦ برئاسة غريغوريوس السادس أجمع رؤساء الأرمن فيه على القول بالطبيعتين والتعاون

^{٩٣} Grousset, R., op. cit. I, 587-594; Cahen, C., op. cit., 336

^{٩٤} Runciman, S., Crusades, II, 323; Ormanian, M., Church of Armenia, 48, Musset, H., Hist.

du Chistianisme, I, 454

^{٩٥} Jaffé-Wattenbach, 15, 340

^{٩٦} Ibid., 16, 461, 463

مع رومة، وفي السنة ١١٩٩ تقبل لاوون الثاني تاج الملك من يد كونراد الموفد الرسولي الروماني.^{٩٧}

اللاتين واليعاقبة

ولم يرض اليعاقبة عن هذا التآلف والتعاون بين السلطات اللاتينية المدنية والدينية وبين الأرمن، فاضطربوا ومالوا أكثر من مرة إلى الأتراك السلاجقة، وبلغ أمراء الرها ذلك فحقدوا، وفي السنة ١١٤٨ تنمر جوسلان الثاني أمير الرها فكاشفهم بالعداوة ونهب دير مار برصوم ووزع أنيته المقدسة على الأرمن، وشتت رهبانه وأحل محلهم جنودًا من الأرمن،^{٩٨} وجرى مثل هذا في إمارة أنطاكية؛ فقد جاء لمخائيل السرياني أن جماعته مالوا نحو الأتراك بعد موقعة أبامية في تموز السنة ١١٤٩،^{٩٩} وتمرد باسيلوس بارصابوني رئيس أساقفة الرها على رئيسه البطريرك أثناسيوس السادس، فتدخل برناردوس بطريرك أنطاكية اللاتيني في النزاع، فغضب اليعاقبة لكرامتهم ونقلوا مركز بطريركتهم إلى آمد خارج حدود اللاتين،^{١٠٠} ثم تطورت الظروف السياسية فسعى الأمراء الصليبيون إلى استرضاء اليعاقبة وشجعت رومة الملاينة شرط الاعتراف بسلطتها، وجاءت السنة ١١٥٦ فاشترك الأمراء والأشراف اللاتينيون في تدشين كنيسة مار برصوم وعاد إلى أنطاكية في السنة ١١٦٦ أثناسيوس الثاني بطريركها السرياني الشرعي، وغضب بطريرك اللاتين فوقف اليعاقبة إلى جانب اللاتين وزار بطريركهم ميخائيل بطريرك اللاتين مواسيًا، ثم امتنع عن تلبية دعوة الفسيفس عمانوئيل لتوحيد الصفوف — كما سبق وأشرنا — وفي السنة ١١٨٠ غمط ابن وهبون إحسان بطريركه ميخائيل واستسلم إلى أربعة أساقفة مشاقين فساموه بطريركًا باسم يوحنا، فاستعان ميخائيل بالسلطات اللاتينية المدنية لتأييده ففعلوا، ومن هنا إطراؤه بتسامح اللاتين.

Inter Innocentii III, Epist. P. L., Vol. 214, Col. 775–780; Journeise, F., Armenie, Dict. ^{٩٧}

.Hist. Geog. Ecc., IV, Col. 311–316

.Cahen, C., op. cit., 342 ^{٩٨}

.Michel le Syrien III, 383–391; Grousset, R., op. cit., II, 473–474, n. 3 ^{٩٩}

.Michel le Syrien III, 222 ^{١٠٠}

اللاتين والموارنة

ورحّب الموارنة بالصليبيين لدى وصولهم إلى أبرشيات أنطاكية ترحيب الأرمن واليعاقبة والروم أيضاً، ورأوا في قدومهم وسيلة فعالة للخلاص من مظالم السلاجقة وغيرهم، وكانوا في تلك الآونة أربعين ألفاً منتشرين في تلال طرابلس والبترون وجبيل والجبّة، فلما «خيم الإفرنج فوق مدينة طرابلس هبط إليهم جماعة من المؤمنين السريان الذي يسكنون جبل لبنان فوق جبيل والبترون وطرابلس مما يلي الشرق؛ لأجل تهنئتهم وعرض خدماتهم عليهم، فرحبوا بهم وتلقوهم بعواطف الحب الأخوي، واتخذوا منهم هداة ليرشدوهم إلى أمن الطرق وأيسرها في تلك الجبال الهائلة». ١٠١ ولم ينفرد الموارنة في هذا الترحيب الأخوي الأولي، فالروم والأرمن واليعاقبة سبقوا الموارنة إلى هذا الترحيب، وقدموا الخدمات في حينها وتحملوا الاضطهاد لأجل الصليبيين، وقد سبقت الإشارة إلى موقف البطريرك سمعان الأورشليمي من الصليبيين وإرساله الزاد والمثونة من قبرص، وإلى سجن البطريرك يوحنا في أنطاكية وحجزه في قفص من حديد وعرضه على أبراجها؛ لأنه كان بطريركاً في الكنيسة الجامعة. وقد ذكرنا تعاون الأرمن واليعاقبة مع الصليبيين في فتوحاتهم الأولى في قيليقية وشمال سورية.

واختلفت ظروف الموارنة عن ظروف سائر الطوائف غير اللاتينية؛ فإنهم لم يتمتعوا بحماية الفيلسوف تَمَّعُ الأرثوذكسين ليقرفوا بالخيانة، ولم يسكنوا كبريات المدن لِیَحْتَكَّ أساقفتهم بأساقفة اللاتين وزعمائهم ويناوصوا الجرة ويسالموها، ولم يكونوا طائفةً كبيرةً غنيةً تناظر غيرها من الطوائف، وهكذا فإنه لم يقارب القرن الثاني عشر نهايته حتى توثقت العُرى بين الموارنة والصليبيين، فاجتمعوا على النعماء والبأساء فنضج الود، «فرجعوا إلى رُشدِهِم بِالْهَامِ إِلَهِيٍّ وَهَبُّوا مِنْ حُمُولِهِمْ، فَجَاءُوا إِلَى إِيْمَارِي وَهُوَ الثَّلَاثُ مِنْ بَطَارِكَةِ اللَّاتِينِ، وَبَعْدَ أَنْ رَفَضُوا الضَّلَالَةَ الَّتِي اسْتَمَرُوا عَلَيْهَا بِكُلِّ خَطَرٍ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ؛ رَجَعُوا إِلَى وَحْدَةِ الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ قَابِلِينَ الْإِيْمَانَ الْأَرْثُوذُكْسِيَّ مُسْتَعِدِينَ أَنْ يَتَمَسَّكَوا بِتَقَالِيدِ الْكَنِيسَةِ الرَّومَانِيَّةِ، وَأَنْ يَحْفَظُوهَا بِكُلِّ احْتِرَامٍ». هذا ما رواه غليلموس الصوري تحت أخبار السنة ١١٨٢، ١٠٢ وتاريخ غليلموس هذا هو من أفضل المراجع اللاتينية

١٠١ William of Tyre, XXI, 12

١٠٢ William of Tyre, XXII, 8

لتاريخ الصليبيين بين السنة ١٠٩٥ والسنة ١١٨٤، وُلد مؤلفه في الشرق قبل السنة ١١٣٠ فتكلم العربية واليونانية بالإضافة إلى اللاتينية، ثم رحل إلى فرنسا في طلب العلم وعاد إلى فلسطين حوالي السنة ١١٦٠، وفي السنة ١١٧٤ تولى إدارة المحفوظات الملكية في أورشليم وتدبير سياسة المملكة الخارجية،^{١٠٣} ثم أصبح في السنة ١١٧٥ رئيس أساقفة صور، وفي السنة ١١٨٣ رشح نفسه لبطريركية أورشليم فلم يفلح فاعتزل الرئاسة الروحية، وأقام في رومة، فتوفي فيها في السنة ١١٨٧، وبدأ غليلموس تدوين تاريخه في السنة ١١٦٩، فاعتمد غيره من المؤرخين لتاريخ الحملة الأولى، واستقى أخبار السنوات ١١٢٧ حتى عودته إلى الشرق من المحفوظات الملكية اللاتينية في أورشليم، أما ما تبقى من الحوادث؛ أي ما جرى بين السنة ١١٦٠ والسنة ١١٨٤، وبينها رجوعُ المواردنة عن القول بالمشيئة الواحدة واتحادهم مع كنيسة الغرب؛ فإنها من مرويات عصره عن حوادث جرت في الساحل نفسه الذي أقام فيه.^{١٠٤}

وتتوفر لهذه الرواية في شخص راويها غليلموس السوري معظمُ شروط العدالة والضبط؛ فقد كان الراوي رئيس أساقفة صور عند وقوع ما يروي ودون في وقت قريب من زمن وقوع الحادث الذي يروي، وكان من أدري الناس في موضوع روايته، وقد اشتهر باتزانة وعدم التطرف في الحكم والقول.

وروايته هذه ليست فريدة في بابها، فبولة البابا أنوشنتيوس الثالث التي صدرت في السنة ١٢١٥ ووجهت إلى بطريرك المواردنة وأساقفتهم وجمهور أكليروسهم تذكر المواردنة بوجود التيقظ «وتدأرك الخطأ»، والقول «بدون تردد» بانبثاق الروح القدس من الأب والابن، وبالاكْتفاء بتسمية الثالث مرة واحدة في المعمودية وبحصر سر التثيبت بالأساقفة، وبالامتناع عن إدخال أيّة مادة أخرى غير الزيت والطيب في إعداد الميرون، وبوجود الاعتراف بالخطايا والتناول ووجوب القول «بمشيئتين في المسيح مشيئة إلهية ومشيئة بشرية»، والامتناع عن استعمال الأواني الزجاجية والخشبية والبرونزية في الذبيحة والاستعاضة عنها بالأواني الفضية أو الذهبية، واستعمال الأجراس لإعلان المواقيت ودعوة الشعب إلى الكنيسة،^{١٠٥} وفي هذا القول الرسمي الصادر عن أسقف رومة

Richard, J., Royaume de Jérusalem, 76 ^{١٠٣}

Runciman, S., Crusades, II, 476-477; Cahen. C., op. cit., 17; Prutz. H., Wilhelm von ^{١٠٤}

Tyrus; Lundgreen, Wilhelm von Tyrus

.Quia divinae Sapientiae, Anaissi, T., Bullarium Maronitarum, 2-3 ^{١٠٥}

ما يكفي لتأييد غليلموس الصوري في روايته التي نبحت، ولا يجوزُ الإنقاص من أهمية هذا النص واعتباره مجرد محاولة للبتنة الطقوس والقوانين المارونية.^{١٠٦} فأنوشنتيوس أوجب التيقُّظ والقول بدون تردُّد بالانبثاق من الآب والابن والمشيئتين، ويلاحظ هنا أن البابا لم يوجب القولَ بالطبيعتين في هذه البولة؛ لأن الموارنة كانوا قد قالوا بالطبيعتين منذ بداية عهدهم، ولكنه اهتم بأمر المشيئتين.

ويرى علماء الموارنة أن غليلموس أسقف صور نقل رأيه في عقيدة الموارنة عن سعيد بن البطريق البطريرك الإسكندري، وأن هذا لم يكن على بينة من أمره، وأن ما ورد في بولة أنوشنتيوس الثالث عن أمر المشيئتين والمشيئة الواحدة جاء مقتضباً جداً، فلو كان هذا البابا يعلم أن الموارنة كانوا في الواقع ممن لا يزال يقول بالمشيئة الواحدة؛ ل جاء كلامه في هذا الموضوع أشد وأقوى وأكثر تفصيلاً، ويرون أيضاً أن الظرف الذي ظهرت فيه هذه البولة كان ظرف المجمع اللاتراني الرابع ظرف إصلاح وتثبيت لا ظرف نبذ تعاليم مُعينة، ولو كان هناك نبذ للقول بالمشيئة الواحدة ل ظهر أثره في أعمال هذا المجمع. ويضيفون أن ما تم في طرابلس في السنة ١١٨٢ إنما كان تأييد الموارنة لبابا شرعي ضد مناظر دخيل، والإشارة هنا إلى النزاع بين البابا ألكسندروس الثالث والبابا فيكتوروس الرابع الذي انتهى في السنة ١١٨٠، فيكون الاجتماع في طرابلس الذي يشير إليه غليلموس الصوري من نوع ما جرى في السنة ١١٣١. ومما يقوله علماء الموارنة في هذا الصدد: إن الموارنة ناصرُوا الصليبيين اللاتينيين منذ وصولهم إلى لبنان ومازجوه في عزِّ صولتهم وانتصاراتهم، فهل ظلوا مخالفين حتى إذا غلب الصليبيون على أمرهم وضايقهم خصمهم صلاح الدين الأيوبي باتوا أشد استعداداً إلى الاتحاد بكنيسة الغرب.^{١٠٧}

والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو أن مراجعنا الأولية قليلة، وأن أنوشنتيوس لا يقول بصراحة في البولة التي أصدرها أن الموارنة كانوا يقولون حتى يومه بالمشيئة الواحدة، والواقع أيضاً أن المراجع المارونية متأخرة، لا يجوز الأخذ بها لإثبات ما جرى في طرابلس في السنة ١١٨٢ أو قبلها، فأقدم رواتهم ابن القلاعي وهو من أعيان

^{١٠٦} Dib, P., Eglise Maronite, 198.

^{١٠٧} Dib, Mgr. Pierre, L'Eglise Maronite, 86-113.

لُباب البراهين، للمطران يوسف دريان ٣١٤-٣٣٥، والموازنة، للمطران مخائيل ضومط، ١١-١٢.

القرن الخامس عشر، ولا يجوز كذلك اعتمادُ البولت البابوية كما أثبتتها الأب العنيسي؛ لأنه تلاعب في نصوصها،^{١٠٨} ولعل المستقبل يُظهر من المراجع ما يُعين المؤرخ على البتِّ في هذا الموضوع الدقيق.

دير البلمند

وليس لنا أن نبحث في آثار الصليبيين الفنية الكنسية في هذا التاريخ العام، ولا أن نصف جميع الكنائس الصليبية التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا في بعض أبرشيات أنطاكية؛ لأن وصفها يتطلب استعدادًا فنيًا خصوصياً لسنا من أهله، وجُلُّ ما نريدهُ هو أن نذكر أهمَّ الكنائس الصليبية القائمة، وأن نخص دير البلمند بكلمة مفصلة؛ نظرًا للمكانة التي يحتلها في قلب كل أرثوذكسي أنطاكي.

وأهمُّ الكنائس الصليبية التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا في أبرشيات أنطاكية كاتدرائية طرطوس وكاتدرائية جبيل وكاتدرائية بيروت. وبدأ الصليبيون بإنشاء كاتدرائيتهم في طرطوس بعد السنة ١١٢٣، فأقاموها فوق مزار السيدة والدة الإله الذي فاخرت به طرطوس منذ أوائل النصرانية وادعت أنه أول كنيسة أنشئت باسم السيدة. وأنشئوا في جبيل في السنة ١١١٥ كنيسة باسم يوحنا المعمدان، ولا يزال نصفها الشرقي الشمالي قائمًا حتى يومنا، أما نصفها الغربي فإنه انهدم فأعيد بناؤه في العصور الحديثة، وبابها الشمالي حديث العهد أما الجنوبي فإنه من آثار القرن الثاني عشر.

وقبة المعمودية صليبيةً أيضًا، وتعود — في الأرجح — إلى حوالي السنة ١٢٠٠، وأمر بودوان ملك أورشليم ببناء كنيسة كبيرة في بيروت على طراز الكنائس اللاتينية، فبدأ إنشاؤها في السنة ١١١٣ وانتهى في السنة ١١٥٠، وشيدت على اسم القديس يوحنا المعمدان على شكل مصلب ذي ثلاثة أسواق، «ولما قَدَّرَ اللهُ بنزع بيروت من يد الإفرنج استقرت كنيستهم جامعًا، وكانت تُعرف عندهم بكنيسة مار يوحنا، وكان بها صورٌ

Anaissi, T., Bullarium Maroniarum, (1911); Korolevskij, C., A. Propos d'un Bullaire Ma-^{١٠٨} ronile, Echos d'Orient, 1912, 462-473; De Clercq. C., Conciles des Orientaux Catholiques, (1949), I, 3, n. 2.

.Korolevskij, C., A. Propos d'un Bullaire Maronite, Echos d'Orient, 1912, 462-473

.De Clercq, Ch., Hist. des Conciles, XI, 3, (Paris, 1949)

فَطَلَّاهَا المسلمون بالطين، وبقي الطينُ إلى أيام الجد فبيَّضه وأزال آثار تلك الصور، وكان المسلمون يجتمعون لصلاة الجمعة، فلم يكملوا في بعض الأوقات أربعين شخصًا.^{١٠٩} والإشارة في هذا كله إلى الجامع العمري الكبير، وقد بقي عند بابه الشرقي بقرب المدخل كوةٌ مكتوبٌ فيها باليونانية: «إن صوت الرب على المياه».^{١١٠}

وفي الثلاثين من أيار من السنة ١١٥٧ تولى رهبان القديس برناردوس المعروفون بالكيستركيين بناء دير على التلة المشرفة على البحر بين أنفة والقلمون، وجعلوه على اسم البتول الطاهرة سيدة بلمونت Abbazia Belimontis،^{١١١} وهو لفظٌ لاتينيٌّ منحوتٌ من كلمتين، معناهما الجبلُ الجميل، وتم البناءُ — فيما يظهر — في السنة نفسها التي استولى فيها الصليبيون على قيصرية فيليبوس (بانياس)؛ أي في السنة ١١٦٩،^{١١٢} وخصَّ أساقفة رومة هذا الدير بعنايتهم، فأصدروا باسمه عددًا من البولات الرسمية، منها بولة غريغوريوس التاسع في السنة ١٢٣٨ وبولة أنوشنتيوس الرابع في السنة ١٢٥٠ وبولة أوربانوس الرابع في السنة ١٢٦٢. ويظهر من هذه البولات أنَّ دير البلمند كان أكبرَ أديار الإفرنج في إمارة طرابلس، وأنه في منتصف القرن الثالث عشر كان خاضعًا لأسقفية بيروت، ومن رؤسائه الأولين بطرس الألماني، وهناك إشاراتٌ إلى الأخ اسطفانوس وإلى الأخ سمعان الطرابلسي، وخرج الرهبان اللاتين منه في السنة ١٢٨٩، ولعلمهم ذُبِحوا ذبْحًا.^{١١٣}

ويرى الأثري الكبير الاختصاصي في الفن الصليبي كميل أنلار أن بناء الدير الصليبي قام — في الأرجح — على آثار بيزنطية أقدم منه، ويستدل على ذلك بدليلين أولهما تخطيط كنيسته ووجود تاج عمود بيزنطي في البناء، والثاني خروج رهبان برناردوس عن المألوف عندهم، وتشبيد بنائهم هذا على ارتفاع مائتي متر عن سطح البحر، وكنيسة

^{١٠٩} تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، ص ٥٨، والجد المشار إليه هو جد صالح في أواخر القرن الرابع عشر.

^{١١٠} مزمور ٢٨: ٢ تاريخ بيروت، للأب لويس شيخو، ص ٥١-٥٢.

^{١١١} Jonghelinus, Gaspard, Notitiae Abbatiarum, Cologne, 1644; Janauschek, Originum Cisterciensium, Vienne, 1877.

^{١١٢} Rohricht, R., Syria Sacra, 35; Guthe, R., Zeit der Deut, Pal. Vereins, 1897, 35, 356; Rohricht, R., Gesch. des Konigreichs Jerusalem, 320, 590, 1001-1002.

^{١١٣} Enlart, C., Abbaye Cisterienne de Belmont, Paris, 1923, 1-2.

سيدة البلمند تتجه نحو الشرق الشمالي وتتضمن حنية كبيرة وسوقًا واحدًا ومذبحًا واحدًا، والاكتفاء بمذبح واحد خروجٌ على تقاليد هؤلاء الرهبان الرجال.^{١١٤} ويلاحظ أن اعتماد العلامة أنلار رواية الأب ملاتيوس وقوله: إن الدير أُعيد إنشاؤه منذ أربعمئة سنة جاء ضعيفًا، فقد رأى صديقنا المرحوم جرجي يني في دير البلمند كراسًا قديمًا بخطوطٍ كثيرةٍ تدلُّ على افتتاح الدير مجددًا في السنة ٧١١١ لأدم، وهي تُعادل السنة ١٦٠٣ بعد الميلاد،^{١١٥} ومن هنا في الأرجح قول مكاتب المنار: إن الدير بقي خرابًا حتى السنة ١٦٠٣ وإن يواكيم بن الخوري جرجس متروبوليت طرابلس جدد بناءه،^{١١٦} ويلاحظ أيضًا أن لا قيمة لقول البطريرك الدويهي: إن اللفظ بلمند مشتقٌّ من اسم الأمير بوهيموند صاحب طرابلس الذي أنشأ هذا البناء منتزهًا له في السنة ١٢٨٧، فبوهيموند هذا قضى السنوات الأخيرة من عهده منحصرًا في طرابلس لا يستطيع الخروج منها؛ لِمَا كان يُلقاه من مضايقة على يد قلاوون. وبوهيموند تُو في منكمشًا في طرابلس في التاسع عشر من تشرين الأول سنة ١٢٨٧.^{١١٧}

ويلاحظ هنا أن بعض ما يُرى من نقوش وتيجان أيونية وكورنثية ومعظم الرخام المفروشة به أرض كنيسة القديس جرجس وقفه المشايخ آل زخريا حامات في حوالي السنة ١٨٤٠، ونقلوه بحرًا إلى البلمند من آثار كنيسة قديمة كانت لا تزال باقية في قرية حنوش بالقرب من حامات وعند ساحل البحر، ولعل هذه الآثار هي من بقايا مدينة كوشار البيزنطية، ولا يزال اسم كوشار يُطلق على مضيق صغير يؤدي إلى قرية حنوش.

^{١١٤} Ibid. 3-4, 6-7.

^{١١٥} تاريخ سورية لجرجي يني، ص ٣٩١.

^{١١٦} تسريح الأبخار، للأب هنري لأفسس، ج ١، ص ١٥٥-١٥٦.

^{١١٧} المرجع نفسه، ص ١٥٥.

رُومة والقسطنطينية في أثناء الحروب الصليبية

رومة تجهل الوضع الراهن

وأخطأت رومة في فهم الوضع الراهن في القسطنطينية، فوهمت أن الحلَّ والربط في أمُور الكنيسة منوطان بإرادة الفسيلفس، وأراد كُلُّ من ألكسيوس وابنه يوحنا وحفيده عمانوئيل التعاونَ مع رومة؛ لرغبة أكيدة في توطيد السلام بين المسيحيين ولحاجة دبلوماسية ماسة، ولكنهم أخفقوا لأسبابٍ أهمها أن الرأي العام في القسطنطينية كان قد نفر عن رومة، وأن الإكليروس الأرثوذكسي كان قد أصبح أقوى من البلاط في تكييف هذا الرأي العام، ورأى هذا الإكليروس أن كنيسة العاصمة كانت أولى الكنائس علمًا وعظمة ومجدًا، فصعب عليه أن يحني رأسه لمن كان أقلَّ علمًا وأخف وزنًا.^١

خوف الروم وحذرهم

وأطلَّ الصليبيون بغلاظتهم ووعورة أخلاقهم وقلة انضباطهم واستباحتهم، فعانى الروم في مجيئهم بَرَحًا بارحًا، وتحملوا منهم رهقًا شديدًا، واعتبر ثيوفيلاكطوس المتروبوليت العالم الفاضل الصالح موجة الصليبيين التي مرت في أبرشيات بلغارية إغارةً بربرية جديدة، وهال سكان القسطنطينية النهب والسلب والتخريب الذي صدر عن ضيوفهم الغربيين، وازداد عدد التجار الإيطاليين في عاصمة الشرق، واشتد نشاطهم

^١ Runciman, S, East. Schism, 102-103; Diehl, C., Byzantium, 217

واتسعت أعمالهم، فتوجَّس زملاؤهم الروم منهم خوفًا فنبض نابضهم وغلَى جوفهم، أما ثيوفيلاكثوس وغيره من طبقته وجمهور المؤمنين الأتقياء؛ فإنهم تغاضوا واغتفروا حبًا بالمسيح وتعاونًا في سبيل هدف صالح مقدس، ولكنهم لاموا زُعماء الصليبيين، وأنكروا عليهم استهتارهم وقلة مبالاتهم، ثم جاء رئيس أساقفة بيزا لنجدة الصليبيين، ولم يكن بعيدًا عن البابا، غزا المسيحيين في كورفو وليفكاس وزنتة^٢، وتبين أيضًا أن رهبان الصليبيين وكهنتهم وأساقفتهم كانوا يحملون السلاح ويخوضون المعارك ويسفكون الدماء، فرأى المؤمنون الأرثوذكسيون — في هذا كله — تخديشًا لوجه المسيح وأمرًا لا يُحطُّ عاره، ونسوا قداسة أوربانوس الثاني ومحبهه المسيحية، ولم يذكروا سوى تعاون غريغوريوس السابع مع أعدائهم النورمنديين وإصغاء باسكال الثاني لأقاويل بوهيموند ووشاياته. وتعاونت رومة مع أمراء أنطاكية وملوك أورشليم، وأقامت هيرارخية لاتينية في البطريركيتين الشرقيتين، وأوجبت خضوع الكهنة الأرثوذكسيين فيهما لأساقفة لاتينيين، فزادت الطين بلة، وجعلت من بطاركة أورشليم وأنطاكية الشرعيين المقيمين في القسطنطينية أداة دعاية دائمة ضد رومة وأساقفتها وإكليروسها.

داء الضرائر

ونظر التجار الإيطاليون إلى زملائهم الروم بعين مريضة وطرف سقيم؛ لان هؤلاء كانوا قد بلغوا من التقدم الفني وجمع الثروة رتبة تقاصرت عنها الأقران، وشأوا تقطعت دونه أعناق الإيطاليين، فزرع التجار الإيطاليون الأحقاد ودرجوا بالنميمة، فأصبحوا من سمسرة الشقاق وتُّجار الفساد وزُّراع العداوات.

وطمع بوهيموند وتنكريد وغيرهما من رجالات الصليبيين واضطرم صدرهم حسدًا وانتشر بينهم داء الأثرة فنصبوا للروم الحبائل، ووقفوا لهم بالمرصاد، والحاسدُ مغتاضٌ على من لا ذنب له.

واستصغر الصليبيُّ العاديُّ الروميَّ واستهان به، فرآه مخنثًا ضعيفًا حقيرًا^٣، وتأخر أليكسيوس عن مساندة الصليبيين لأسباب قاهرة، أهمها الخطر التركي، فأصبح ومنَّ

^٢ Anne, Alexiade, XI, 10

^٣ Guibert de Nogent, Hist. Hieros., Rec. Hist. Grois., IX, 154

حواله مخادعاً مروّعاً، ونَشَأَ كرهه لأليكسيوس وخلفائه دام في الغرب قرُوناً طَوَّالاً، وعلى الرغم مما قام به علماء أوروبا من بحث وتدقيق وإجلاء وتوضيح، فإن هذا الكره وما يتبعه من حق؛ لا يزالان يَحْزَنان في صدور بعض المؤرخين الغربيين حتى يومنا هذا.^٤

أليكسيوس وباسكال (١٠٩٩-١١١٨)

ورغب أليكسيوس رغبة أكيدة في إجلاء الأتراك عن آسية الصغرى، فسعى سعياً حثيثاً للسلم والمسالمة في ساحل الأدرياتيك، ولم يكتف بمواصلة أساقفة رومة، بل حاول اجتذاب بعض الشخصيات الكبيرة في الأوساط الإكليريكية الإيطالية كأوديريسيوس Oderisius رئيس دير جبل كسينو، فإنه كتب إلى هذا الرجل البارِّ وأكَّدَ رغبته في مساندة الصليبيين، ولكنه أوضح أن مثل هذه المساندة لا تكون دائماً ممكنة،^٥ وقد رهبان كسينو أليكسيوس قدره فاعتبروه صديقاً مخلصاً وحامياً أميناً، وتابعوا تبادل الرأي والمحبة معه بعد وفاة أوديريسيوس،^٦ ثم طمع بوهيمند بأنطاكية وحنث في يمين اللولاء والطاعة لأليكسيوس ولم يَبْرَ فيها، وقام إلى إيطالية ودب عقاربه بين باسكال وبين الفسيلفس وطاف أوروبا يزرع الأحقاد ويضرب ويحرش، فامتنع ألكسينيون عن مواصلة الفسيلفس، ولكن أليكسيوس ظل يألف الكنيسة اللاتينية ويمازجها ويؤانسها؛ فإنه أنشأ في هذه الفترة عينها مأوى كيفيتوت Civetot واستودعه رهبان كلوتي.^٧

وتوفي بوهيمند وغيره من زعماء النورمانيين في جنوب إيطالية وتولَّت الحكم فيها أراملُ ثلاثُ بريئاتٍ غيرٍ مقلقات أدلة في نابولي وقسطنسة في ترنتو وألدیده في بالرمو، وفي السنة ١١١١ هجم هنريكوس الخامس على رومة وسجن أسقفها باسكال الثاني وأكرهه على تنويجه إمبراطوراً، وعلى الاعتراف بتدخُّل الإمبراطور في أمور الكنيسة، فحرر أليكسيوس كتاباً إلى جيراردوس رئيس رهبان كسينو، أظهر فيه أسفه الشديد لِمَا حَلَّ بالبابا،^٨ ثم كتب إلى السلطات في مدينة رومة، يشكر لهم ثباتهم في تأييد البابا،

^٤ .Groussel, R

^٥ .Hagenmeyer, H., Kreuzzusbrieve, 140-141, 152-153

^٦ .Peter Diaconus, Chronica Monasterii Casinensis, Mon. Germ. Hist., VII, 770, 792

^٧ .Anne, Alexiade, X, 6

^٨ .Riant. P., Inventaire Critique, 138-140

ويومئذٍ إلى استعداده لقبول التاج الغربي، فأرسل الرومان وفدًا إلى القسطنطينية فوعد أليكسيوس بالقيام بنفسه إلى رومة في صيف السنة ١١١٢، ثم ألمَّ به مرضٌ أقعده عن الذهاب إلى رومة فأرسل من ناب عنه في هذه المهمة.^٩

وفي أواخر السنة ١١١٢ كتب باسكال إلى أليكسيوس يوجبُ تسوية الناحية الكنسية من علاقاتهما أولاً، ويشير إلى امتناع بطريرك القسطنطينية عن تَقَبُّلِ رُسُلِهِ ورسائله، فيطلب اعترافَ «أخيه» هذا بتقدم رومة واحترامه لها قبل الشروع في الدعوة إلى مجمع مسكوني ينظر في حل المشاكل المعلقة،^{١٠} ويلاحظ هنا أنَّ باسكال طالَبَ بالعودة إلى ظُرُوفِ القرنين السادس والسابع حينما كان الفسيلفس يفرض على بطريرك عاصمته الحلول فرضًا، وأنه جهل التطوُّر الذي كان قد تم في علاقات السلطتين الزمنية والروحية في عاصمة الشرق وتبلور الرأي العام فيها وكره الأوساط الإكليريكية والمثقفة لرومة وسياستها، والواقع أن أليكسيوس رد على الوفد البابوي الذي حمل رسالة باسكال هذه ردًّا مبهمًا غامضًا.^{١١}

بطرس غروسولانوس (١١١٤)

وفي أواخر السنة ١١١٣ أو أوائل السنة ١١١٤ وفد على القسطنطينية بطرس غروسولانوس Grosolano رئيس أساقفة ميلان، فأحب أليكسيوس أن يقرب وجهتي النظر في أمر الانبثاق واستعمال الفطير، فدعا إلى طاولةٍ مستديرة غروسولانوس وبعض كبار رجال اللاهوت في العاصمة، فقدم غروسولانوس وجهة نظر رومة،^{١٢} فأثار بذلك عاصفة من الرد شديدة سجل فيها أفسراتيوس متروبوليت نيقية ونقيطاس قونية، والرهبان يوحنا فورنس ويوحنا زونراس والشاعر ثيودوروس بروذروموس، والفيلسوف ثيودوروس أزمير أدلتهم على صحة موقف الكنيسة اليونانية،^{١٣} وأظهر غروسولانوس

^٩ .Peter Diuconus, op. cit 185; Chalandon, F., Règne d'Alexis, 261

^{١٠} Paschal II, Epist. P. L., Vol. 163, Col. 388-390

^{١١} .Chalandon, Alexis I, 262

^{١٢} .P. G., Vol. 127, Col. 911-920

^{١٣} Demetracopoulos, A., Biblioth, Ecc., I, 36-198, Graecia Orthodoxa, 11-12; Krumbacher, ^{١٤}

.K., Gesch. der, Byz. Litt., 85-87

وضوحًا في التفكير والتعبير فيما تعلق بأمر الانبثاق، ولكن حُجج زملائه اليونانيين كانت أدقَّ وأكثر اتزانًا، واستشهد هؤلاء بأقوال الآباء في استعمال الخمير، ولكنهم لم ينجحوا في إقناع زميلهم اللاتيني، وانفرط العقدُ دون الوصول إلى نتيجة مفيدة.^{١٤}

أفتيميوس زيغابينوس

وأدرك أليكسيوس أنه ابتسر حاجته قبل أوانها، فأوَعَزَ إلى لاهوتيه أفتيميوس زيغابينوس Zigabenos أن يتحاشى في كتابه البانوبلية Panoplia Dogmatica^{١٥} البحث في الانبثاق، وأن يقصر خطاه في جولته في الفطير والخمير، ويذكر ذلك في أثناء الكلام عن سوء تَصَرُّف الأرمن، ويرى بعضُ رجال الاختصاص أن ما جاء في البانوبلية عن الانبثاق هو لقوطيوس، وقد دسَّ دسًا على مصنف زيغابينوس.^{١٦}

حنة كومنينوس

ولا تمثل حنة كومنينوس الكنيسة الأرثوذكسية في تَهَجُّمها على أحبار رومة، كما أنها تعتف الأمور اعتناقًا عندما تقول: إن المجمع الخلقيدوني رفع أسقف القسطنطينية إلى أعلى الدرجات وأخضع له جميع أسقفيات المسكونة.^{١٧}

بطرس المحترم

وتُوفي أليكسيوس وباسكال في السنة ١١١٨، وتبنى الفسيلفس يوحنا الثاني سياسة والده أليكسيوس، فلأطَفَ الغرب ولاينه، وأظهر استعدادًا حقيقيًا للتعاون مع حبر رومة وإمبراطور الغرب، وحاول ربط أسرته بالأسرات المالكة في الغرب بالتزواج، وتودد في أوائل عهده إلى أحبار رومة وتمنَّى التفاهم بين الكنيستين، ولكنه لم يطلق لنفسه العنان في ذلك ولم يربط إكليروسه بشيء.

^{١٤} Runciman, S., East. Schism, 108–110.

^{١٥} P. G., Vol. 130.

^{١٦} Runciman, S., East. Schism, 110, n. 1.

^{١٧} Anne, Alexiade, I, 12.

وبادل بعض كبار الإكليروس في الغرب إخوانهم في الشرق هذا اللطف وهذه الملائنة، ولم يَعرَفُوا — فيما يظهر — إلى شيءٍ من الانشقاق عنيف عميق، فبطرس المحترم رئيس رهبان كلوتي كتب في السنة ١١٢٠ كتابًا إلى الفسيلفس يوحنا الثاني راجيًا متابعة العطاء لدير كيفيتوت، وحرر — في الوقت نفسه — إلى بطريك القسطنطينية مؤكِّدًا رغبته في زيارة القسطنطينية «المدينة التي أسسها المسيح وقسطنطين» ليزور كنائسها ويتبرك بذخائرها، ثم يضيف فيقول:

«وعندئذ أرى وجهك فأحترم في شخصك جميع أحبار مدينتك المباركين، ونتعاقد برضاك تعاقدًا لا ينفك، ونقسم يمين المحبة المتبادلة، وأرجو عندئذ وجهًا لوجه ما أطلبه الآن عن بعد أن تذكرونا نحن قطع كلوتي بالمحبة في صلواتكم وصلوات شعبكم، فنبادلك المحبة والصلاة.»^{١٨}

أنسلموس ونيقيطاس (١١٣٦)

ووفد على القسطنطينية في السنة ١١٣٦ أنسلموس أسقف هافلبرج؛ ليفاوض يوحنا الثاني باسم لوثر الثالث إمبراطور الغرب في أمر التعاوُّن ضد روجه الثاني الصقلي، فاستقبل هذا الأسقف الغربي استقبالًا حارًّا وأجيب سؤله السياسي، ثم أفسح له المجال للبحث في الخلاف بين الكنيستين مع نيقيطاس متروبوليت نيقوميذية وبحضور الفسيلفس، وتمَّ الجدل في جو هادئ لطيف، وقام بعمل الترجمة موسى برغامو الإيطالي، فنقل الكلام بدقة ووعي وإخلاص، فسُرَّ أنسلموس ثم رفع تقريرًا بما جرى إلى البابا أوجينيوس الثالث صمَّنه دفاعه عن موقف رومة، وأبان فيه وجهة نظر القسطنطينية.^{١٩} ويحث الأسقفان أمر الانبثاق واستعمال الفطير، فأظهر نيقيطاس استعداد القسطنطينية للقول بالانبثاق من الآب «بالابن» لا «والابن»، وأكد في الوقت نفسه وجوب اعتبار ذلك تفسيرًا للدستور لا إضافة عليه، وأظهر نيقيطاس تناقضًا في موقف بابوات رومة من الفطير، فاستعان بمقاطع من كلام البابوين ميلخيداس وسيريكيوس، مستدلًّا بذلك على استعمال الخمير في رومة في القرن الرابع،^{٢٠} وخلص إلى القول: «نحن لا

^{١٨} Pirre le Vénérable, P. L., Vol. 189, Col. 260–262

^{١٩} Anselm, Dialogi, Achery, Spicilegium sive Collectio Veterum aliquot Scriptorum, I, .161 ff

^{٢٠} “fermentum”; Liber Pontificales, (Duchesne), I, 74–75

ننكر تقدم كنيسة رومة بين البطريركيات الأخوات الخمس، ونعترف بوجوب إعطائها مقعد الشرف في المجمع المسكوني، ولكنها فصلت نفسها عنّا بأعمالها، فإنها أعطت نفسها بدافع الكبرياء ملكًا لا يتفق ووظيفتها. وكيف يُمكننا أن نقبل منها أوامر صادرة عنها بدون استشارتنا وبدون علمنا، وإذا كان الحبر الروماني يريد أن يرشقنا بأوامره من عرشه المجيد العالي، ويريد أن يقضي بيننا ويحكمنا تحكّمًا واستبدادًا فأبي أخوية تصبح كنيستنا وأي أبوية تتصرف بشئوننا؟ وإذا كان هذا هو حالنا فإننا نصبح عبيد الكنيسة لا أبناءها، وتصبح كنيسة رومة سيّدة قاسية متجبرة متصلة على جماعة من الأرقاء لا أمًا تقيّة لأولاد لها.»^{٢١}

وأجاب أنسلموس بأنه يحق لرومة أن تكون المرجع القضائي الأعلى؛ لأن أحكامها كانت دائمًا صحيحة، ولأنها لم تقع مرة واحدة في الهرطقة، ثم أردف مبيّنًا حقها في التقدّم والسلطة؛ لأنها وريثة بطرس الرسول، ولكن نيقيطاس أكد أن الروح القدس حلّ على جميع الرسل، وأنه كان لهم جميعًا أن يربطوا وأن يحلّوا على السواء، ولم ير في الاختلافات الناشئة ما لا يمكن حلّه في مجمع مسكوني، ولكنه رفض أن يتلقّى أوامر من رومة؛ «لأن الحبر الروماني لم يكن أميرًا على كهنة أو كاهنًا أعظم، وإنما كان أسقف الأبرشية المتقدمة.»^{٢٢}

وذهب الخرثوفيلاكس نيقيطاس مارونية إلى أبعد من هذا، فلم يرَ ما يمنع القول بالانبثاق من الأب والابن، ولكنه أنكر على رومة حريتها في التصرف وإضافة عبارة الفيليوكوي إلى الدستور، ولم يرَ من مطالبها الإدارية،^{٢٣} ونيقيطاس هذا أصبح فيما بعد متروبوليت تسالونيكية.

الفيلسوف عمانوئيل (١١٤٣-١١٨٠)

ورأى عمانوئيل الأول رأي والده وجده، فسعى للتفاهم مع رومة في الحقل السياسي، وأحبّ الغربيين وفروسيّتهم، وعلى الرغم من تفاهم البغض بين الروم والشعوب اللاتينية

^{٢١} .Anselm, Dialogi, op. cit., I, 196

^{٢٢} .Ibid., I, 197

^{٢٣} .Nicetas Chartophylax, Dialogi de Spiritu Sancto, P. G., Vol. 139, Col. 224 ff

من جراء تصرفات الصليبيين فإنه ظلَّ يواصل الغرب ويفاوضه، وشجع تبادل الرأي في موضع الخلاف بين الكنيستين اليونانية واللاتينية.

أنسلموس وباسيليوس

وفي السنة ١١٥٤ وفد الأسقف أنسلموس مرة ثانية على القسطنطينية، وعرَّج على ثسالونيكية في طريقه إلى الغرب، فباحث متروبوليتها باسيليوس في أمر الانبثاق والفطير، فتبين مرة أخرى أن سَبَبَ التباعد الأساسي كان إصرار رومة على السلطة المطلقة والطاعة العمياء،^{٢٤} وفي السنة التالية كتب البابا أدريانوس الرابع إلى باسيليوس نفسه بوصية برسله الزاهبين إلى القسطنطينية في مهمة سياسية، وقدَّم لهذه التوصية بعبارات ملؤها الادعاء بالسلطة كما عرفها غريغوريوس السابع والتنديد بضلال افترضته رومة افتراضًا،^{٢٥} فأجاب باسيليوس مؤكِّدًا وجوب إلصاق تهمة الضلال باليونانيين عند التثبُّت من إقدامهم على «تحويل دستور الإيمان واستعمال الفطير!» ثم أضاف أن الاختلاف بين الكنيستين صغير جدًّا، وأن تلافيه ممكن، بصدق الطوية وجميل النية وبتعاون الأساقفة غربيين وشرقيين، فانجلى الإشكال الذي كان قد رافق التفاوض مدة طويلة، وتبين أن سبب الخلاف إنما كان مُطالب رومة بالسلطة والطاعة وإلحاح القسطنطينية على المساواة والمشاركة،^{٢٦} وأن العودة إلى الاتحاد استوجبت تعديلًا هامًّا في موقف كل من الكنيستين.

عمانوييل وألكسندروس

وظلَّ البابا ألكسندروس الثالث بحاجةٍ إلى مَنْ يرفع عنه كابوس إمبراطور الغرب، ومَنْ يدفع عنه شرَّ الخطر النورمندي، وظل الفسيلفس عمانوييل يحلم بالسلطة على إيطالية والقضاء على فكرة الإمبراطورية الغربية، فجمعتُ بينهما أواصرُ المصلحة فتَوَاصلاً وتَجَامَلًا وتبادلًا رسائل المودة،^{٢٧} وفي السنة ١١٦٦ كتب عمانوييل إلى البابا

^{٢٤} .Schmidt, Das Basilius aus Achrida, Erzbischofs von Thessalonich

^{٢٥} .Mansi, Sacrorum Conciliorum Collectio, XXI, 795

^{٢٦} .Ibid. 799–802

^{٢٧} .Watterich, Pontificum Romanorum Vitae, II, 404, 410

ألكسندروس الثالث يعرض اتحاد الكنيستين مقابل اتحاد الإمبراطوريتين، وفي السنة ١١٦٩ كتب ثانية يقترح المناداة به إمبراطورًا على الغرب لدى دُخول جيوشه إلى رومة والمناداة بألكسندروس الثالث نفسه بطيريكًا على القسطنطينية، وذلك لمناسبة وفاة البطريرك لوقا وشغور الكرسي القسطنطيني، فأجاب ألكسندروس بأن وصوله إلى عرش القسطنطينية ليس ضروريًا، وأنه يكتفي بالاعتراف بتقدّمه، وبوجوب الترافع أمامه وبذكر اسمه في ذبيحة القسطنطينية.^{٢٨} وكان بمقدور عمانوئيل أن يُحقق اثنين من هذه المطالب: تقدم رومة، وذكر حبرها في ذبيحة القسطنطينية، ولكن أمر الترافع أمام البابا كان قد أصبح مستحيلًا.

ولم يتمكنَ عمانوئيل من تأجيل الانتخاب البطريركي إلى أمدٍ غير محدود، فتبوأ السدة القسطنطينية ميخائيل الثالث (١١٦٩-١١٧٧) «مقدام الفلاسفة»، واطلع هذا البطريرك على رسالة ألكسندروس الثالث فأعد ردًا شديدًا على محتوياتها، وحصر البحث في حجة رومة التاريخية؛ أي تقدّم بطرس على غيره من الرسل ووجوب تقدم خلفائه على خلفاء غيره، فأشار إلى علاقة بطرس بكنيسة أنطاكية وأسبقية هذه الكنيسة التاريخية. وذكر تقدم كنيسة أورشليم على أخواتها في أنها تشرفت بعناية السيد بها، وأنها شهدت عجائبه وتلقّت تعاليمه. وأكد أن تقدم كنيسة رومة على سائر الكنائس نتج عن وجودها في أهم مدن الإمبراطورية الرومانية، وأضاف أن القسطنطينية أصبحت مركز العالم المسيحي بأسره، وأنها تُفوق رومة في الأهمية، وخلص إلى القول: إن ظروف الحاضر تقضي بأن تكون القسطنطينية مركز إدارة الكنيسة الجامعة لا رومة، ومما جاء في رده هذا قوله: «ليكن المسلم لا اللاتيني مدبر أموري المادية، فالأول لا يُكرهني على الدخول في دينه، وأما الثاني فإنه يبعدي عن الله.»^{٢٩} أما القول: «إني أوثر عمه السلطان على قبة الكردينال.» فإنه متأخرٌ يُعزى إلى الغراندوق لوقا نوتاراس.

Liber Pontificalis (Duchesne), II, 419-420; Cinnamus, John, Epitome Historiarum, ^{٢٨} (Meineke), 262; Allatius, L., Ecclesiae Occidentalis atque Orientalis Perpetua Consensio, .II, 664-665

Michael Anchialos, Dalog. (Loparev), Unionism of Emperor Manuel Comnenus, Vizant- ^{٢٩} .tiiskii Vremennik, 1917, 344-347; Runciman, S., East. Schism, 121-122

اغترار الجو وانفصام العُرى

وتُوفي عمانوئيل في السنة ١١٨٠، ففقد اللاتين بوفاته مناصراً حكيماً، وفقد الصليبيون بوفاته مُسانداً كريماً بذل بسخاء في سبيل زملائهم مراراً وتكراراً، وكان عمانوئيل قد أعجب بفروسية الإفرنج فقبلهم في جيشه وأسند إليهم عدداً كبيراً من المناصب العالية، فأثار بذلك حسد زملائهم الروم، وعطف على التجار الإيطاليين فكثُر عددهم في العاصمة، واستولوا على مرفقها فأثارت كبرياءهم غضب التجار الروم.^{٣٠}

ولم يكن لعمانوئيل من امرأته الألمانية الأولى سوى بنتٌ واحدة، سماها حنة وأزوجها في السنة ١١٧٨ من الأمير الإيطالي رينه مونتتي فرات Rainier de Monteferrat، وكان له ابنٌ من زوجته الثانية مريم الأنطاكية اللاتينية اسمه أليكسيوس، وكان هذا لا يزال قاصراً في الثانية عشرة من عمره، فلما تُوفي عمانوئيل نفذت مريم الأنطاكية وصية زوجها، فتردت بثوب الرهينة وتولت الوصاية على ابنها القاصر، وطلبت إلى أليكسيوس ابن أخي زوجها المتوفى أن يُساعدها في الحُكم، ولم يرض جمهورٌ من الأشراف ورجال القصر عن سياسة أليكسيوس المساعد؛ لعطفه على اللاتين وتعاونه معهم، واتهموا الفسيلة الجميلة بأشياء وأشياء منها عطفها على بني جنسها اللاتين، فتآمروا جميعاً واندلعت ثورةٌ في أيار السنة ١١٨١ وتدخل البطريرك ثيودوسيوس وصالح الحزبين.

وكان لعمانوئيل ابنٌ عمٌ اسمه أندرونيكوس، وكان قد تأمر على سلامة ابن عمه الفسيلس، فاضطر أن يفرّ من وجهه. وإذ رأى أندرونيكوس الأمور على ما كانت عليه في القسطنطينية؛ أعلن العصيان، فالتف حوله جيش من المحاربين القدماء وقام بهم إلى العاصمة، فطلب طرد مريم أنطاكية وعشيقها، وبقاء الملك في يد ابنها أليكسيوس الصغير، فساعده الشعب على ذلك، فأيد الإفرنج الساكنون في العاصمة مريم فأعلنها أندرونيكوس حرباً دينية قومية باسم الروم والأرثوذكسية، فكانت مجزرةً في العاصمة سقط في أثناءها معظم الإفرنج من سكانها.^{٣١}

وجاش صدر اللاتين بالغل وياتوا يخاللون، وقطع البابا علاقاته مع القسطنطينية ودفع ملك المجر بجيوشه إلى ضفة الدانوب، وشجع فريديريكوس بارباروسا إعداد

^{٣٠} Heyd, W., Hist. du Commerce du Levant, 198-222

^{٣١} Nicetas Choniates, Historia, 291-355; William of Tyre, Historia, XXII, 10-11; Ostro-

gorsky, G., The Byz. State, 350-356

حملة تقتص من الروم في عقر دارهم، وقام غليلموس الثاني الصقلي على رأس جيش إلى البلقان وحاصر ثسالونيكية (١١٨٥) فدخلها وقتل ونهب وأحرق، ودخل رجاله الكنائس بسيوفهم يشوشون ويطنون حيث لا يجوز، ويكسرون ويسلبون. وفي أواسط أيلول زحفوا إلى القسطنطينية، وكان أندرونيكوس في جزائر الأمراء يتنعم ويتلذذ، فقام إسحاق أنجيلوس وضم الشعب إليه واستولى على القصر المقدس وهب يسعى في قتال النورمانيين فضربهم ضربة قاضية عند ديمترتزة Dimitritza فأخلوا وتراجعوا ووقعوا الصلح.^{٣٢}

إسحاق وصلاح الدين

وعاد إسحاق إلى مواصلة الغرب فحالف البنادقة وعض على الجنوبيين والبيزيين،^{٣٣} وخطب ود رومة وفاتها الكلام في الائتلاف وجمع الشمل،^{٣٤} ولكن تطوّر الموقف في الشرق وعودة الأتراك السلاجقة إلى التوسع والنهب والسلب؛ اضطره اضطرارًا إلى التحالف مع صلاح الدين عدو الصليبيين الألد. ولما سقطت أورشليم في يد صلاح الدين سنة ١١٨٧ عاد إليها بطيريك أرثوذكسي هو أثناسيوس الثاني، فعرض اللاتين لإسحاق بالذكير وقبّحو فعله واعتبروه خائنًا لا يرعى ميثاقًا.

موقف البطريرك الأنطاكي (١١٨٥-١١٩٩)

وتسبب السدة البطريركية الأنطاكية في هذه الفترة بلسمون الشهير (ثيودوروس الرابع)، واضطر هذا الحبر أن يبقى في القسطنطينية؛ لأن السلطات اللاتينية الروحية والزمنية كانت قد اغتصبت عرش أنطاكية اغتصابًا، وكان بلسمون عالمًا فاضلاً وقانونيًا كبيرًا فسأه هذا الاغتصاب وأغضبته مطالب رومة، وصنف في النوموقانون — كما سبق وأشرنا — واجتهد في علاقة السلطات الزمنية بالروحية، فقال بوجوب تعاونها لخير الشعب والدولة، ولكنه ميز الفسيفس فاعتبره مسئولًا عن الدنيا والدين، وجعله فوق

^{٣٢} Dolger, F., Reg. 1567, 2569

^{٣٣} Heyd, W., op. cit., 225-230

^{٣٤} Dolger, F., Regesten, 1615

الشرائع والقوانين، لا يخضع إلا للعقيدة المقدّسة — كما أقرتها المجامع المسكونية السبعة.

والفيلسوف في نظر بلسمون أعلى من البابا، ولا يجوز له إكراه الكنيسة اليونانية على الخضوع إلى كنيسة رومة؛ لأنه بعمله هذا يسخر بقرارات المجامع السبعة ويهينها، وهذه المجامع أقامت سلطة بطيركية خمسة، وأقرت دستورًا للإيمان عبثتُ به رومة، فأضافت إليه.^{٣٥}

وكتب مرقس بطيريك الإسكندرية إلى بلسمون؛ يستشيريه ما إذا كان يجوز له ولكهنته أن ينالوا اللاتين، فأجابه بلسمون «بأن الكنيسة الغربية فصلت نفسها عن البطريركيات الأربع فأصبحت غريبة عن الأرثوذكسية وسقط اسم رئيسها من الذبيحتات، وهكذا فإنه لا يجوز أن يناول اللاتيني إلا بعد امتناعه عما يفصله عنا واعترافه بالخضوع لقوانين الكنيسة متحدًا مع الأرثوذكسيين». ولم يطلب بلسمون إعادة معمودية اللاتين، ولم يعتبرهم هراطقة كاليعاقبة والنساطرة، ولكنه حكم عليهم بالانشقاق.^{٣٦}

واشتهر بلسمون بعلمه وفضله، فشاع رأيه، وقال قوله عددٌ كبيرٌ من مُعاصريه، فاعتبر الروم اللاتين منشقين منفصلين عنهم، ولكنهم لم يجمعوا على ذلك، فإن عددًا من رجال ذلك العصر خالفوا بلسمون في اجتهاده وأعلنوا مخالفتهُم، وأشهر هؤلاء نيمتريو خوماتيانوس Chomateanos، فقد عارض هذا الباحث البطريرك الأنطاكي ولم يرضَ عن مقاطعة اللاتين قبل النظر في أمرهم في مجمع مسكوني.^{٣٧}

ويروى عن بلسمون أنه سمح باستعمال السريانية في جميع كنائس أنطاكية؛ ليسهل بذلك عودة اليعاقبة إلى حضن الكنيسة الأم، وكان قد كُتِر رجوعهم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وأكثرهم يجهل العربية واليونانية. وفعل البطريرك ذلك؛ عملاً بوصية الرسول القاضية بجعل الصلاة بلُغة يفهما الشعب، واستمر نُحُول اليعاقبة في الأرثوذكسية فيما بعد. ومن هنا هذه المخطوطات الكنسية الأرثوذكسية بالسريانية

^{٣٥} .Theodore Batsamon, Canonem XVI Concilii Carthaginensis, P. G., Vol. 138, Col. 93

^{٣٦} .Ibid. Vol. 138, Col 968

^{٣٧} P. G., Vol. 119, Col. 956–960

وحدها، أو بالسريرية واليونانية، أو بالسريرية واليونانية والعربية، وقد رأينا واحدةً من النوع الثالث في طرابلس، تعود إلى السنة ٧١٨٨؛ أي ١٦٨٠. وقد يفيد من يدعي أن اللغة السيرية كانت لغة كنسية أنطاكية الغالبة بدليل وجود مثل هذه المخطوطات أن يعلم أن الكتب الكنسية باللغة الكرجية كثيرةً نسبيًا في دير المصلبة ودير القديس سابا بفلسطين، فهل هذا يعني بأن الكرجية كانت اللغة الغالبة في كنيسة أورشليم، وهل وجود المخطوطات السيرية في دير القديسة كاترينة في سينا يعني أن اللغة السيرية كانت لغة هذا الدير؟

الصليبيون وكنيسة قبرص

وكان إسحاق دوقاس كومنينوس قد استأثر بالسلطة في جزيرة قبرص، ثم أعلن نفسه فيلسفًا مستقلًا وحالف الصقليين والأرمن وصلاح الدين، وكانت الأنواء قد هبت شديدة فكدفت بمراكب ريكاردوس قلب الأسد إلى جزيرة كريت فجزيرة رودوس، وكدت سفينتان عند سواحل قبرص فيهما خطيبة ريكاردوس وأخته (١١٩١). ولم يحسن إسحاق السياسة، فأسرع ريكاردوس غاضبًا إلى قبرص وخرج إليها بعساكره وحبس فيلسفها واقترن بخطيبته فيها، وصادر نصف أملاك الجزيرة وأقطعه إلى رجال حملته،^{٣٨} واشترى غي ده لوزينيان جزيرة قبرص من ريكاردوس قبل رحيله لبلاده، وأنشأ ملكًا له فيها وأدخل قوانين وعادات إقطاعية ظلت قائمة في الجزيرة حتى ملكها الأتراك العثمانيون.

وأدى احتلال قبرص إلى إخضاع إكليروسها أساقفة وكهنة إلى السلطات اللاتينية الروحية، وتقاسى هؤلاء وتصلفوا ولجئوا إلى العنف أحيانًا وإلى إعدام الكهنة الأرثوذكسيين أحيانًا أخرى!^{٣٩} وشاعت أخبار القساوة والعنف والقتل في جميع الأوساط الأرثوذكسيين، فأوغرت الصدور واستوقدت الغيظ وزادت الانشقاق اتساعًا.

^{٣٨} Runciman, S., Crusades, II, 43-47, Sources, 46, n. 1

Hill, G., Hist. of Cyprus, II, 45-47, III, 1041-1104; Sathas, Mesaionike Bibliothek, II, ^{٣٩}

أليكسيوس الثالث وأنوشنتيوس الثالث: واعتبر اللاتين الروم منشقين أيضًا، وامتنعوا عن اعتبار القسطنطينية مدينةً مقدسة كما فعلوا في بدء الحروب الصليبية، وسنسمعهم يتَعَنُّون بعد الاستيلاء على القسطنطينية (١٢٠٤) بالمقطع:

Constantinopolitana

Civita diu profana.

القسطنطينية

المدينة الشريرة.^{٤٠}

وعلى الرغم من هذا ظل البابا والفيلسوف متواصلين، تربطهما مصلحة الصمود في وجه العدو الألماني الإمبراطوري المشترك، فأليكسيوس الثالث الذي رقي العرش احتجاجًا على سياسة العطف على اللاتين فاوض البابا كيليستينوس الثالث وتوصل إلى تفاهم متبادل معه،^{٤١} وتوفي هنريكوس السادس الإمبراطور الألماني في السنة ١١٩٧، فخلفه أخوه فيليبوس السوابي فتشوف إلى المطامع نفسها التي كان يطمح إليها أخوه، وكان قد تزوج من بنت إسحاق أنجلوس الفيلسوف المخلوع فأضاف إلى مطامع أسرته التقليدية حق الدفاع عن حق مسلوب، فلما تبوأ أنوشنتيوس الثالث السدة الرومانية في السنة ١١٩٨ كتب أليكسيوس الفيلسوف إليه مهنئًا مقترحًا عقد تحالف سياسي،^{٤٢} فرحب البابا باقتراح الفيلسوف، ولكنه استصعب التحالف مع أمير لا تعترف كنيسته بسلطة رومة، ثم أشار الوفد الروماني على الفيلسوف بإرجاع ابنة الكنيسة إلى حضان الكنيسة الأم، وبالتعاون في حرب صليبية جديدة،^{٤٣} فأكد أليكسيوس استعداده للتعاون في حملة صليبية جديدة، ولكنه أسف لأعمال اللاتين في قبرص، ثم أضاف «أن اتحاد الكنائس يسهل عندما ترضخ المشيئة البشرية لمشيئة الله؛ أي عندما يلتئم مجمع مسكوني ليعمل بإلهام الروح القدس».^{٤٤}

^{٤٠} .Sequentia Andegavensis, Riant, P., Exuviae Sacrae Constantinopolitanae, II, 45

^{٤١} .Norden, W., Das Papsttum und Byzanz. 130–133, Dolger, F., Reg. 1635

^{٤٢} .Dolger, F. Reg. 1643

^{٤٣} .Innocent III, Epist., P. L., Vol. 214, Col. 327

^{٤٤} .Innocent III, Epist., P. L., Vol. 214, Col. 765–768

البطريك يوحنا العاشر (١١٩٩-١٢٠٦)

وأعد البطريك القسطنطيني يوحنا العاشر Kamateros رسالة وجهها إلى البابا أنوشنتيوس الثالث، ومما جاء في هذه الرسالة أن الكنيسة الأم هي كنيسة أورشليم لا كنيسة رومة، وأنه إذا كان أحدٌ قد جرَّو على تمييز قميص السيد المخلص فإنما هو رومة نفسها، فهي التي غيرت دستور الإيمان بعد أن وقَّعته وقالت به زمنًا طويلًا.^{٤٥} وردَّ أنوشنتيوس على هذا الخطاب ردًّا لطيفًا، فأبان أن كنيسة رومة هي أمُّ الكنائس احترامًا لا عمرًا، وأكد للفيلسوف استعداده للاشتراك في مجمع مسكوني بعد اعتراف كنيسة القسطنطينية بسلطة رومة،^{٤٦} فأبعد بقوله هذا كل إمكانية للاتحاد.

الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٣-١٢٠٤)

واطلع أنوشنتيوس الثالث على شروط معاهدة الرملة (١١٩٢)، فأسف كل الأسف وهبَّ يستنهض الهمم لتأليف حملة صليبية رابعة، وكان أنوشنتيوس عالمًا ذكيًا حازمًا قويًا، ورأى أنَّ من الواجب على كل نصراني أن يخف لنصرة الصليب فَبَثَّ رُسُلَه في جميع أنحاء أوروبا لترويج دعوته، ولكن أحدًا من كبار الملوك لم يَلَبَّ النداء؛ ففيليب الثاني ملك فرنسا كان لا يزال تحت الحرم لهجره زوجته الثانية وتزوُّجه من ثالثة، وكان يوحنا الثاني ملك إنكلترا لا يزال في خصام شديد مع أشرف بلاده وأعيانها، وكانت قد نشأت مشادة عنيفة في ألمانيا لتسليم العرش الإمبراطوري بين فيليبوس السوابي وأوثون الرابع، بيد أن هذا كله لم يمنع الفرسان الغربيين عن تقبل الدعوة.

وألمع من حمل الصليب لهذه المناسبة شيخ البندقية هنريكوس دوندولو Dandolo الأعمى، وكان قد عرف القسطنطينية حق المعرفة وفقدَ بصره فيها عندما حول بعض الروم نور الشمس إلى عينيه بمرآة مقعرة، فغضب وحقد وأضمر السوء. وكان سياسيًا محنكًا ومفاوضًا حاذقًا، فلبى نداء البابا؛ ليقضي على دولة الروم ويستأثر بتجارها،^{٤٧} وكان بين اللامعين بونيفاتيوس مونتي فرات الذي تسلم قيادة الحملة في حُزيران

^{٤٥} Innocent III, Epist., P. L., Vol. 214, Col. 768-769.

^{٤٦} Ibid.

^{٤٧} Diehl, C., Venise, 47-48; Frolow, A., Déviation de la IVe Croisade, 12-15, 15 n. 2.

السنة ١٢٠١، وطمع بونيفاتيوس في عرش القسطنطينية؛ لانتسابه إلى الأسرة المالكية بالمصاهرة، ولشدة إعجابه بنفسه، وهو الذي تظاهر بالدعوة لتحويل الحملة على القسطنطينية يوم كان الرجال الصليبيون لا يزالون في كورفو،^{٤٨} وممن رشح نفسه لعرش القسطنطينية قبل قيام الحملة الرابعة فيليبوس السوابي؛ فإنه أظهر رغبته في تحقيق حلم أسرته منذ السنة ١٢٠٢.^{٤٩}

وقد اختلف رجال الاختصاص في أسباب تحوُّل الصليبيين عن الأراضي المقدَّسة إلى القسطنطينية، فقام في السنة ١٨٦١ ماسلاتري الإفرنسي يتهم البندقية بالوصول إلى تفاهم سري سابق مع سلطان مصر لتحويل هذه الحملة عن أراضيه وممتلكاته،^{٥٠} وأيد قوله كارل هوبف الألماني فحدَّد تاريخ هذه المعاهدة السرية، وجعله في الثالث عشر من أيار سنة ١٢٠٢،^{٥١} وفي السنة ١٨٧٥ قام الكونت دي ريان الإفرنسي يلقي المسؤولية في هذا التحوُّل على عاتق فيليبوس السوابي، فيجعل التحوُّل مظهرًا من مظاهر النزاع بين الإمبراطور الغربي والبابا،^{٥٢} والواقع أن كلاً من هؤلاء كان له مطعمه، وأن أنوشنتيوس الثالث أرادها حربًا صليبية حقيقية، ولكن ظروفًا نشأت في آخر ساعة شجعت الطامع على الجهر بمطعمه، فالحملة تجمعت في البندقية في شهري تموز وأب من السنة ١٢٠٢، والصليبيون عجزوا عن دفع نفقات السفر، فانتهز دندولو الفرصة واقترح تدويخ زارة عبرة الأدرياتيك لحساب دويلته، فقام الصليبيون إلى زارة، وعبئًا حاول أهلها إظهار شعائر النصرانية على الأسوار،^{٥٣} والواقع أيضًا أنه في أثناء السنة ١٢٠٢ أفلت أليكسيوس أنجلوس ابن إسحاق الثاني من السجن الذي كان قد أُودع فيه،

^{٤٨} Robert de Clari, XXXIII; Frolow, A., op. cit., 9–11.

^{٤٩} Riant, P., Philippe de Souabe et Boniface de Monteferrat, Rev. Quest. Hist., 1875, 42 f.;

^{٥٠} Bréhier, L., l'Eglise et l'Orient au Moyen Age, 152 ff.

^{٥١} Mas-Latrie, Hist. de l'île de Chypre, I, 162–163.

^{٥٢} Hopf, K., Geschichte Griechenlands, I, 188.

^{٥٣} Riant, P., Philippe de Souabe et Boniface de Monteferrat, Rev. Quest. Hist., 1875, 320–

374.

^{٥٤} Luchaire, A., Innocent III; La Question d'Orient, 103–105.

وجاء صقلية ثم رومة يَسْتَعطف السلطات الزمنية والروحية على قضيته، ثم اتجه شطر ألمانيا يَسْتعين بشقيقته إيرينة زوجة فيليب السوابي، فأوفد فيليب وفدًا إلى زارة يوصي البنادقة والصليبيين بأليكسيوس، فتفتحت أمام دندول وبونيفاتيوس آفاقٌ جديدةٌ وهبَّ كُلُّ منهما يُقنع الصليبيين بالقبول، ووعد أليكسيوس بدفع مبلغ كبير من المال مقابل معونته، وأظهر استعدادَه لإدخال كنيسة الروم في طاعة البابا واشترآكه اشتراكًا فعليًّا في الحرب المقدسة.^{٥٤}

وأقلع الصليبيون إلى القسطنطينية أولًا فظهر أسطولهم أمام أسوارها في ٢٤ حزيران سنة ١٢٠٣، وقطعوا السلاسل الحديدية التي حمت مدخل القرن الذهبي، فدخلت مراكبُ البنادقة وأحرقَت مراكبَ الروم، ثم اقتحم الفرسان الصليبيون أسوار العاصمة فاستولوا على المدينة في تموز من السنة نفسها، وفر أليكسيوس الثالث بخزينة الدولة وجواهرها، وأطلق سراح إسحاق الثاني وأعلن ابنه أليكسيوس الرابع شريكًا له في الحكم، وطالب الصليبيون بتنفيذ المعاهدة؛ أي بدفع المال المتفق عليه، وبإعداد قوة تقوم معهم إلى الأراضي المقدسة، فاستمهلهم أليكسيوس ورجاهم أن يقيموا خارج أسوار العاصمة، وامتعض الروم من اللاتين الفاتحين واتهموا إسحاق وابنه بالخيانة، وهبَّ صهر أليكسيوس الثالث، وهو أليكسيوس دوقاس، إلى السلاح، فكانت ثورة أدت إلى وفاة إسحاق وخنق ابنه أليكسيوس الرابع، ونودي بأليكسيوس دوقاس فسيلفَسًا، فعُرف باسم أليكسيوس الخامس.

وفي آذار السنة ١٢٠٤ وقَّع الصليبيون والبنادقة اتفاقًا فيما بينهم لاقتسام الإمبراطورية الشرقية بعد احتلال العاصمة، وقضت شروطُ هذا الاتفاق بأن تُقام في العاصمة حكومةٌ لاتينية، وأن تُقسَّم الغنائمُ فيما بين الطرفين، وأن تتولى لجنة مؤلفة من ستة بنادقة وستة صليبيين أمر انتخاب إمبراطور «يحكم لمجد الله ومجد الكنيسة ومجد الإمبراطورية»، واتفق الطرفان على أن يحكم هذا الإمبراطور ربع العاصمة وربع الدولة التابعة لها وعلى تقسيم ما بقي من العاصمة وأراضي الدولة مناصفة بين البنادقة وبين الصليبيين.^{٥٥}

^{٥٤} Nicetas Chon., Hist., 712; Luchaire, A. op. cit, III; Ostrogorsky, G., Byz. State, 368-370

^{٥٥} Tafel und Thomas, Urkunden Zur Altern Handels und Staatsgeschichte, I, 446-452

ثم حاصر الصليبيون القسطنطينية، وفرَّ أليكسيوس الخامس، فتدفقوا إليها في الثالث عشر من نيسان سنة ١٢٠٤ مقتلين فاتكين ناهبين، واشترك في القتل والنهب الرهبان والأساقفة! ورموا الأيقونات رمياً مهيناً ونثروا عظام القديسين المجاهدين، ودلقوا جسد الرب ودمه على الأرض وأخذوا الآنية المقدسة ليشرّبوا منها خمرهم. وفي كنيسة الحكمة الإلهية كسروا المائدة المقدسة وحطموا الأيقونوستاس والمنبر ليأخذوا الفضة التي كانت تغطيهما، وأدخلوا بغالهم إلى حد أقداس الهيكل، وأجلّسوا امرأة فاحشة على الكثيرة، واعتبر الأب مرتينوس رئيس دير باريس Pairis نفسه مترفعاً؛ لأنه لم ينهب سوى الكنائس! وأحرقوا عددًا كبيراً من المخطوطات اليونانية والكتب المقدسة!^{٥٦} وخاضوا في الباطل، وتتابعوا في الضلال فافرض صبرُ الإكليروس اليوناني، فكتب هؤلاء إلى أنوشنتيوس نفسه يصفون ما حلَّ بالكنائس ويرجون ردَّ الجراح والقبص على المنكر.^{٥٧}

أنوشنتيوس وكنيسة القسطنطينية

والتأمت لجنة الانتخاب فأقامت بلدوين قومس فلاندر إمبراطوراً على القسطنطينية، وتسلم إكليروس البندقية كنيسة الحكمة الإلهية، وأقاموا توما موروسيني بطيركاً على القسطنطينية وتوابعها، وفرَّ البطريرك الشرعي يوحنا العاشر إلى مدينة ذبيموتيوخوس وأقام فيها، ثم استعفى وتوفي في السنة ١٢٠٦.

ولم يرض أنوشنتيوس عن حصار زارة وعن اقتحام القسطنطينية؛ لأن الحملة أعدت للعمل في الأراضي المقدسة،^{٥٨} ولم يرض أيضاً عن انتخاب توما موروسيني بدون موافقته،^{٥٩} ولكنه سرَّ بوصول بلدوين إلى عرش القسطنطينية، وبدخول الإمبراطورية الشرقية وكنيستها في حوزة رومة، واعتبر ذلك أعجوبة بهية Magnifica Miracula،^{٦٠} ثم

^{٥٦} Nicetas Choniates, Historia, (Bonn) 757-763; Innocent III, Epist. P. L., Vol. 215, Col. 699-702; Frolow, A., op. cit., 53 ff.

^{٥٧} Cotelarius, Ecclesiae Graecae Monumenta, III, 510-514.

^{٥٨} Frolow, A., op. cit. 43-54.

^{٥٩} Innocent III, Epist., P. L., Vol. 215, Col. 512-517.

^{٦٠} Ibid., Col. 445-455.

تواردت أخبارُ الفظائع وتفاصيلها، فكتب يشجب ويستنكر،^{٦١} ولكن الروم — إكليروسًا وشعبًا — لم ينسوا ابتهاجَه وأعجوبته البهية، واتهموه بالتصنُّع والمداهنة، واعتبروه مسئولاً عن كل ما جرى.^{٦٢}

وعلم أنوشنتيوس أن ليتنة شعب بكامله غيرُ ممكنة، فأوصى بملاطفة الأساقفة اليونانيين، وبعدم التسرُّع في سيامة أساقفة لاتينيين، ولكنه أوجب على الأساقفة اليونانيين أن يقسموا بما يلي:

أقسم بالطاعة والولاء لبطرس الرسول، وللكنيسة الرومانية المقدَّسة، وللكرسي الرسولي، ولسيدي أنوشنتيوس وخلفائه الكاثوليكين، وأدافع قدر المستطاع عن ممتلكات بابا رومة وشرفه وحرمته، وإلى الدعوة إلى المجمع عندما يُطلب ذلك مني، وأزور البلاط البابوي ad limina إما بشخصي وإما بمنْ ينوب عني، وأستقبل باحترام القاصد البابوي، وأعاونه في كل شيء.^{٦٣}

وكتب أنوشنتيوس إلى بطريركه الجديد موروسيني، يوصيه بالاعتراف بالسيامات الأرثوذكسية القديمة، ولكنه يوجب سيامة المستجدين بالطريقة اللاتينية، ويؤكد وجوب ذكر اسمه واسم البطريرك اللاتيني في جميع الذبتيخات.^{٦٤}

وتجاهل أنوشنتيوس أمورًا، أهمها: أن الصليبيين لم يَتَمَكَّنُوا مِنْ احتلال جميع الإمبراطورية الشرقية، وأنه قام على أنقاضها دويلاتٌ ثلاثٌ مستقلةٌ كل الاستقلال، وأنه كان بإمكان الأساقفة اليونانيين أن يلجئوا إلى هذا الدويلات — ولا سيما دولة نيقية — وأن معظم الأمراء الصليبيين كانوا بعيدين عن المسيح، رُعْنَاء، لا يرون إلا قضاء حاجاتهم المادية.

والواقعُ أنَّ عددًا كبيرًا من الأساقفة الأرثوذكسين تركوا أبرشياتهم والتحقوا بالسلطات اليونانية المستقلة. وفي السادس من شباط سنة ١٢٠٦ اجتمع في نيقية كبارُ رجال الدين وأعيان الأمة، ودَعَوْا يوحنا العاشر البطريرك المسكوني للاجتماع معهم، فلما

^{٦١} Ibid., Col. 699–702.

^{٦٢} Novogorod Chronicle, (Nasonov) Acad, of Sc., U. S. S. R., 245–246.

^{٦٣} Innocent III, Epist., P. L., Vol. 215, Col. 1352.

^{٦٤} Ibid., Col. 1353.

أرسل هذا استعفاؤه انتخب الأساقفة المجتمعون ميخائيل الرابع (بافتوريانوس) بطريركاً مسكونياً ونصّبوه في العشرين من آذار، ثم أقاموا بعد وفاته (١٢١٢) ثيودوروس الثاني (أرينيكوس)، ثم مكسيموس الثاني في السنة ١٢١٥، ثم عمانوئيل الأول (١٢١٥)، فجرمانوس الثاني (١٢٢٢).

وكان مَنْ بقي من رجال الإكليروس في داخل الدولة اللاتينية الجديدة قد رأى أن تبقى رومة على تقاليدهم وطقوسهم مقابل الاعتراف بسلطتها، فحرّروا في السنة ١٢٠٦ رسالة إلى أنوشنتيوس أظهروا فيها استعدادهم للاعتراف به بابا وثالث عشر الرسل، ولكنهم رجّوه أن يكون لهم بطريرك من أبناء جنسهم، يتكلم لغتهم ويعرف تقاليدهم وطبائعهم، فامتنع أنوشنتيوس فاضطروا أن يؤيدوا المتطرفين منهم، وأن ينزحوا إلى نيقية وغيرها، وأن يشتركوا في انتخاب بافتوريانوس،^{٦٥} ولم ينعم أنوشنتيوس بموهلة المحبة ولم يفسح المجال لعمل الروح القدس، فكتب إلى الفسيفس الجديد موبخاً مكدرًا، فأضاع بقلّة محبته فرصة سانحة لتوحيد الصفوف.^{٦٦}

سمعان الثاني البطريرك الأنطاكي (١٢٠٦-١٢٤٠)

وتوفي ولي العهد في أنطاكية ريموند بن بوهيموند الثالث في السنة ١١٩٧، فاختلفت كلمة الأنطاكيين في ولاية العهد وتعارضت أهواؤهم واضطرب حبلُهم، فابن ريموند من زوجته الأرمنية كان لا يزال طفلاً، وكان بوهيموند الثالث الأمير الحاكم قد ناهز الستين، فخشي ألا يطول أجله، وأن يتولى الأرمن الوصاية على الوريث الطفل، فأرسل كنته أليس الأرمنية وابنها الطفل إلى أرمينية وراح يدرس قضية الخلافة، وكان لبوهيموند الثالث أمير أنطاكية ابن آخر اسمه بوهيموند أيضاً، وكان أميراً على طرابلس، فلمّا علم بوفاة أخيه ولي العهد في أنطاكية طمع في أنطاكية ورغب في حكمها، وكان كثير المراغب واسع المطامع متضلّعاً في القانون يُجيد الدفاع عن نفسه والإفتاء بما يشاء، وكان قد طمع في أوقاف كنيسة طرابلس، ودخل في نزاع حول ذلك مع أسقفها بطرس، وكان بطرس هذا

^{٦٥} Gardner, A., Lascaridas of Nicaea, 97-98.

^{٦٦} Heisenberg, A., Neue Quellen Zur Gescg. des Lateinischen Kaisertums. un der Kirche - nunion; Norden, W., op. cit., 215-233; Innocent III, Epist., P. L., Vol. 215, Col. 1272.

قد أصبح بطيريكًا على أنطاكية Pierre d'Angoulême (١١٩٦-١٩٠٨)، فلَمَّا شعر بما قد يتول إليه عرشُ الإمارة الأنطاكية ثار ثأره وهَبَّ يعاكس بوهيموند أمير طرابلس، وكان أنوشنتيوس الثالث يتطلع إلى ليتنة الشرق بكامله، وكان قسم من الأرمن قد خضع لرومة — كما سبق وأشرنا — فشمّل البابا أنوشنتيوس الأمير الطفل وأمه أليس الأرمنية بعطفه، ودافع عن حقوقهما في الحكم، فاستحکم الشقاقُ بين أنوشنتيوس البابا وبطرس البطريرك وبين بوهيموند الطرابلسي وأمَسُوا لا تجمَعُهُم جامعة، وكره اللاتين الأنطاكيون الأرمن، ومالوا إلى الرُّوم في أنطاكية ليستعينوا بهم.

وفي نيسان السنة ١٢٠١ تُوِّفِي بوهيموند الثالث أمير أنطاكية، فجاء ابنه بوهيموند الرابع واستولى على زِمَامِ الأمور، وصادق الظاهر ملك حلب ليستعين به على لاوون الأرمني خصمه الجديد، وتَدَخَّلَ البابا أنوشنتيوس الثالث في النزاع الأنطاكي، وأرسل الرُّسل للنظر في هذا النزاع وحله، فقبل الأرمنُ وامتنع بوهيموند؛ مدعيًا أن لا علاقة للكنيسة بنزاع إقطاعيٍّ صرف، وفي السنة ١٢٠٣ طلب لاوون الأرمني إلى البابا أن يتولى شئون الكنيسة الأرمنية مباشرة.

وكان من حُسْنِ حَظِّ بوهيموند الرابع أن تعارضتْ أهواءُ البطريرك بطرس في السنة ١٢٠٥ بآراء القاصد الرسولي، وذلك حول سيامة أرشيدياكون أنطاكية، فاستغل بوهيموند هذا النزاع وخلع بطرس خلْعًا في السنة ١٢٠٦ ودعا سمعان الثاني البطريرك الأرثوذكسي لإدارة شئون الكنيسة، فرأب أنوشنتيوس بين البطريرك والقاصد، وأوجب مقاومة سمعان البطريرك الأنطاكي وصديقه بوهيموند، فحرم بطرس البطريرك اللاتيني بوهيموند ومن شدُّ أزره، فغصت كنائسُ الروم باللاتين، فلجأ بطرس إلى الدس والمؤامرة ودبت عقاربُهُ بين القوم، ثم لجأ إلى العنف فأدخل بعض الفرسان الموالين له وحاول قلب الحكم، فأمر بوهيموند به فحُوِّكَمَ وسجن وتُوِّفِي في السنة ١٢٠٨.^{٦٧}

وراع أنوشنتيوس عودة الروم إلى كرسي الرسولين فأوعز إلى بطريرك أورشليم اللاتيني أن يحرم بوهيموند ففعل في السنة ١٢٠٨، وفي أوائل السنة ١٢٠٩ عين البابا بطرس أسقف إيغري بطريركًا على أنطاكية، وأعلم بوهيموند بذلك وأوجب الاعتراف

Korolewski, Antioche, Dict. Hist. Ecc. Cahen. C., op. Cit., 600-615; Runciman, S., Crusades, III, 99-101, 135-138; Grousset, R., Croisades. III, 225-259; Luchaire, A., Innocent III, 39 f.; Rey, E. G., Hist. des Princes d'Antioche, 389

بالبطريك الجديد بطرس الثاني وهدد بالحرم، فأبى بوهيموند الخضوع لبطريك اللاتين وحرص الإكليروس اليوناني عليه، ثم رأى أنوشنتيوس أن تُعرض قضية الخلافة في أنطاكية على محكمته العليا في رومة، فأجاب بوهيموند أن حق النظر في هذه القضية يعود إلى البلاط البيزنطي،^{٦٨} وظل سمعان الثاني البطريك الشرعي يدير دفة الأمور الكنسية في أنطاكية حتى السنة ١٢١٣، وأطلق أنوشنتيوس لنفسه عنان هواه فكتب إلى الملك الظاهر في حلب يرجو الحماية لبطريك اللاتين في أنطاكية!^{٦٩} وتبدلت الأوضاع السياسية وأصبح بطريك أورشليم ألبرتوس صديق الهيكلين أصدقاء بوهيموند، فاعترف بوهيموند بالبطريك اللاتيني الأنطاكي الجديد، فابتعد مناظره الأرمني لاوون عن رومة ففاوض فسيلفس نيقية ورحب بسمعان الثاني ودعا للإقامة في ربوعه في قيليقية، وأعاد إلى الكنيسة الأنطاكية الأراضي التي كانت قد سُلخت عنها ووُضعت تحت تصرف اللاتين.^{٧٠}

الهيرارخية الأنطاكية

ولا يجوز البتُّ في تَسَلُّسُل السلطة البطريركية الأنطاكية في هذه الحقبة، فالمرآجُ لا تزال متضاربةً في نصوصها، ولم يَقم أحدٌ بعد لجمعها والنظر فيها بالطريقة العلمية الحديثة، فقسطنديوس القسطنطيني الذي اعتمد محفوظات البطريركية المسكونية يذكر يواكيم بعد ثيودوروس الرابع (بلسمون)، ويجعل مدة رئاسته تمتد من السنة ١١٩٩ حتى السنة ١٢١٩، ثم يذكر دوروثاويوس (١٢١٩-١٢٤٥) فسمعان الثاني (١٢٤٥-١٢٦٠) فأفثيميوس الثاني (١٢٦٠-١٢٦٨)، فثيودوسيوس الرابع (١٢٦٩-١٢٧٦) فأرسانيوس (١٢٨٥)،^{٧١} واعتمد لوكيان الغربي نيقيفوروس كاليستوس فذكر داود بعد سمعان (الثالث) فأفثيميوس فثيودوسيوس الخامس فأرسانيوس.

^{٦٨} Lucaire, A., op. cit., 40-41

^{٦٩} Rey, E. G., Dignitaires de la Principauté d'Antioche, 139, Grousset, R., op. cit., III, 259

^{٧٠} Cahen, C., op. cit., 615-619; Runciman, S., Crusades, III, 137-138

^{٧١} Neal, J. M., Hist. of church of Antioch, (patriarchs of Antioch by Constantius), 176-177

مجمع نمفية (١٢٣٤)

وانطلق من الأسر في قونية في السنة ١٢٣٢ خمسة رهبان فرنسيسكانيين، فجاءوا نيقية وقاتحوا البطريرك المسكوني جرمانوس الثاني في اتحاد الكنيستين، فسّر البطريرك بهم واطلع الفسيلفس يوحنا الثالث باطاخي Vatatzes على ما اقترحوه فوافق الفسيلفس، فكتب جرمانوس إلى البابا غريغوريوس التاسع، فجاء نيقية في السنة ١٢٣٤ وفدًا بابويًا لهذه الغاية، مؤلف من راهبين فرنسيسكانيين وراهبين دومنيكانيين، وكان بين المفوضين الأرثوذكسين بالإضافة إلى جرمانوس نيقيفوروس البلميذي، ولعل أفتيميوس الأنطاكي اشترك أيضًا في أعمال هذا المجمع. وأظهرت رومة استعدادها للاعتراف بجرمانوس، واقترح الفسيلفس التسامح في أمر الفطير شرط التمسك بنص دستور الإيمان وحذف العبارة «والابن» عند الكلام عن الانبثاق. وارتأى نيقيفوروس البلميذي أن «يفسر» الدستور بالقول بالانبثاق من الآب بالابن، فرفض الوفد الروماني كل هذا وأصرّوا على الخضوع لرومة، فبدأ من الطرفين ما دعا إلى التحذر، وكفهرّ الجو فانسحب الرهبان الغربيون غاضبين ساخطين، فنعتهم الأساقفة الشرقيون بالهرطقة فردوا بمثل ما نُعتوا به،^{٧٢} فكتب عندئذ جرمانوس مصنفه الشهير في انبثاق الروح القدس.^{٧٣}

البطريرك الأنطاكي داود (١٢٤٠-١٢٤٧)

وتفيد المراجع الغربية أنه لدى وفاة سمعان الثاني رقي السدة الرسولية الأنطاكية داود، وأن داود هذا قبل اقتراح الموفد الروماني لورنزو أورطة بأن يستقل الروم بإدارة شؤونهم الكنسية، وأن يتمتعوا بامتيازات اللاتين، شرط اعترافهم بسلطة رومة. وتُضيف هذه المصادر أن هذا الترتيب الجديد لاقى نجاحًا كبيرًا في أنطاكية، وأن بطريرك الروم

^{٧٢} Hefelé-Leclercq, Hist. des Conciles, V, 1272-1569.

^{٧٣} P. G., Vol. 140, Col. 621-757; Krumbacher, K., Gesch. der Byz. Lit., 174; Logopates, S., Germanos, (Tripolis, Greece, 1913); Golubovich, G., Disputatio Latinorum et Graecorum, Archivum Franciscanum Historicum, 1919, 418-424; Nicephorus Blemmydes, Curriculum Vitae et Carmina, (Heisenberg), 40-42, 63-71.

أصبح هو البطريرك النافذ المطاع، وأن زميله اللاتيني أثر الإقامة في أوروبة تاركًا وراءه في أنطاكية نائبًا بطريركيًا.^{٧٤}

مشروع أنوشنتيوس الرابع (١٢٥٣)

ورغب أنوشنتيوس الرابع (١٢٤٢-١٢٥٤) في فصم التحالف بين الروم والألمان، وأحبَّ أن يتم اتحاد الكنيستين على يده ولمس ضعف اللاتين في القسطنطينية واحتضار دولتهم فيها، فعدل موقف سلفائه ونهج نهجًا جديدًا، وفاوض الروم على أساس الاعتراف برئاسته والقبول بكل ما يقره ما دام لا يُخالف بذلك قرارات المجمع المسكونية ورفع القضايا التي تتعلق بكبار رجال الإكليروس إليه، وإلغاء إمبراطورية اللاتين وعودة بطريرك الروم إلى القسطنطينية، وتلاوة قانون الإيمان في الشرق بدون إضافة «والابن» إليه، وكاد التفاهم يتم بين الطرفين، وأمَّ رومة وفدًا يونانيًا مفاوضًا مطلقًا الصلاحية، ولكن البابا والفيلسوف توفيا في السنة ١٢٥٤.^{٧٥}

نيقية تُفاوض رومة

وفي السنة ١٢٥٦ أرسل ثيودوروس الثاني لأسكاريس نبيلين من نُبلاء الروم إلى رومة ليُعَلِّما حبرها ألكسندروس الرابع باستعداد سيدهما للمفاوضة في سبيل اتحاد الكنيستين، فأوفد ألكسندروس أسقفًا اسمه قسطنطين إلى نيقية لهذه الغاية، وحوَّلَهُ حَقَّ الدعوة إلى مُجَمِّعٍ مسكونيٍّ واتخاذ الإجراءات التي يراها مناسبة، ويرى رجال الاختصاص أنَّ الطرفين اتفقا على أنَّ تتم المفاوضات على الأسس نفسها التي كان قد اقترحها يوحنا باطاغي في مجمع نيمفة سنة ١٢٣٤،^{٧٦} ثم قام ثيودوروس على رأس جيش نيقاوي

Reg. Honorii Papae III, 5567, 5570; Cahen, C., op. cit., 684-685; Grousset, R., Croisades, ^{٧٤}

.III, 512 ff.; Runciman, S., Crusades III, 231-232

Norden, W., Das Papsttum und Byzanz, 756-759, Append, XII; Vasiliev, A. A., Byz. ^{٧٥}

.Emp., 544; Ostrogorsky, G., Byz. State, 392

Schilmann, F., Zur Byzantinischen Politik Alexanders IV, Romische Quartalschrift, ^{٧٦}

.1908, 108-131, II, 14-15

إلى بلغارية وأحرز فيها انتصارات هامة، فلمس ضعف اللاتين وقرب أجلهم، وعلم في أثناء ذلك بوصول الأسقف قسطنطين إلى مقدونية فامتنع عن مقابلته وأمر بخروجه من أراضي الروم.^{٧٧}

وتوفي ثيودوروس الثاني في السنة ١٢٥٨، واغتصب العرش ميخائيل الثامن (بالبولوغوس)، وكتب هذا إلى البابا في أثناء محنته في السنة ١٢٥٩ في موضوع الاتحاد، ولكن ألكسندروس الرابع لم يستغل ظرف ميخائيل في الوقت المناسب، وتغيرت الظروف باستيلاء الروم على القسطنطينية.^{٧٨}

مجمع ليون (١٢٧٤)

وسالم ميخائيل الثامن المغول في آسية؛ ليتسنى له فرض سلطته على ممتلكات الروم في البلقان، وبذل جهده لتدارك حملة صليبية جديدة على القسطنطينية، فتوَدَّدَ لحبر رومة، وسعى لإرضائه بتوحيد الكنيستين.

ووصل أوربانوس الرابع إلى السدة البابوية في السنة ١٢٦١ وسعى لتنظيم حملة جديدة على القسطنطينية، ففاوضه ميخائيل في أمر الاتحاد، فعدل أوربانوس عن مشروع الحملة، وكاد الاتفاق يتم لولا وفاة البابا (١٢٦٤)، وخلف أوربانوس الرابع إقلميس الرابع فغدا أشد اندفاعاً من سلفيه في إعادة الإمبراطورية اللاتينية في الشرق، وصارح إقلميس ميخائيل مهدداً بأنه لا يضمن له شيئاً قبل خضوعه هو وكنيسته لسلطة رومة،^{٧٩} وشجع هذا البابا كارلوس أنجو ملك صقلية على العمل الحربي في الشرق، وتنازل بلدوين الثاني عن حقوقه في عرش القسطنطينية اللاتينية إلى كارلوس أمام البابا في فيتيربو Viterbo، فخشي ميخائيل الثامن سوء العاقبة ففاوض في عقد الاتحاد، وازداد إقلميس تصلُّفاً ولم يرض بشروط سلفه، ولكنه تُوِّفِّي في خريف السنة ١٢٦٨، وانقسم الكرادلة على بعضهم فغدت السدة البابوية شاغرة سنتين وتسعة أشهر، فلجأ ميخائيل إلى لويس التاسع ملك فرنسة؛ راجياً وضع حد لمطامع أخيه كارلوس أنجو في

^{٧٧} Georges Acropolita, Annales, Ch. 67, (Heisenberg), 139-140

^{٧٨} Norden, W., op. cit., 382-383; Janin, R., Les Sanctuaires de Byzance sous la Domination

.Latine, Etudes Byzantines, 1945, 134-184

^{٧٩} Dolger, F., Reg. 1943, 1947

ممتلكات الروم،^{٨٠} وتوفي لويس التاسع في السنة ١٢٧٠، وعاد أخوه كارلوس من تونس إلى صقلية، وعادت مطامعُه في الشرق.

واتفق الكرادلة فأجلسوا على الكرسي الروماني غريغوريوس العاشر (١٢٧١-١٢٧٦)، وكان غريغوريوس آنثذ في فلسطين فراعته الخطر السياسي الدولي الذي هدد الإمارات اللاتينية بالانهيار، ففاوض التتر في محاربة المسلمين وحضَّ الأمير إدوارد الإنكليزي على تنظيم حملة صليبية جديدة، ومر بالقسطنطينية لدى عودته إلى أوروبا، فلافط ميخائيل الثامن وأظَهَرَ استعدادَه للعمل الجدي في سبيل اتحاد الكنيستين، ولم يرض عن مطامع كارلوس أنجو،^{٨١} وأرسل بعثة إلى القسطنطينية لتؤكد حماية البابا في حال وقوع الاتحاد.^{٨٢}

وعمل ميخائيل للاتحاد بكل قُواه، ودعا الأساقفة والأشرف والوجهاء إلى اجتماعٍ عامٍّ، وأبَّانَ الخطر الذي أحدق بالدولة وضرورة الاستعانة بالغرب، ولكن هذه الدعاية قُوِّبَتْ بمقاومة شديدة ومكابرة لا تقبل النقص،^{٨٣} ولا سيما من البطريرك والأساقفة وبعض أعضاء الأسرة المالكة، وجل ما توصل إليه ميخائيل أنه استمال أحد علماء اللاهوت يوحنا فقس Veccos وعدداً قليلاً من الأساقفة.

ودعا غريغوريوس العاشر إلى مجمع في ليون في أيار السنة ١٢٧٤ لمساعدة فلسطين واتحاد الكنائس وإصلاح الكنيسة، فلَبَّى الدعوة خمسمائة أسقف وسبعون رئيس دير وحوالي ألف إكليزيكي آخرين، وترأس الجلسات غريغوريوس نفسه، وتألَّف الوفد الرومي الشرقي من البطريرك جرمانوس المستقيل واللوغوثيتوس المؤرخ جاورجيوس أكروبوليتة وثيوفانس متروبوليت نيقية، وكان على الفيلسوف توما الأكويني أن يتولى الدفاع بنفسه عن موقف الكنسية اللاتينية، لكنه توفي وهو في طريقه إلى ليون، فحل محله الكردينال بونافنتورة Bonaventura. ووصل وفد الروم في الرابع والعشرين من حزيران فاستقبل استقبالاً حافلاً، وتم تبادلُ قبلة السلام مع البابا والكرادلة، وتليت رسالة الفسيفس

^{٨٠} Ibid., 1968, 1971

^{٨١} Norden, W., Papsttum, 470-474

^{٨٢} Reg. Pont. Rom, 68

^{٨٣} Bréhier, L., Byzance, 398

ورسالة ولي عهده أندرونيكوس وبيان إكليريكي مُدَيَّلٌ بإمضاءاتٍ إكليريكية كثيرة، وقال الوفد بالانبثاق من الأب والابن، ووافق على استعمال الفطير وخضع لسلطة رومة العليا، وأكد الفسيلفس استعدادَه للاشتراك في حملة صليبية جديدة.^{٨٤} واستقال يوسف الأول البطريرك المسكوني احتجاجًا على ما جرى، فتولى الرئاسة بعده يوحنا فقس، وقرعت أفلوجية أباها ميخائيل الثامن وضح الأُمراء والتأم مجمع أرثوذكسي في ثسالية لتوبيخ الفسيلفس ولقطع فقس،^{٨٥} ولكن ميخائيل واظب على الاتحاد حتى وفاته، فأنكر الآباء الأرثوذكسيون عليه فعله وقلُّوا رأيه وفندوا قوله.^{٨٦}

رومة تفصم العرى (١٢٨١)

ووفد على القسطنطينية بين السنة ١٢٧٤ والسنة ١٢٨٠ خمسةٌ وُفودٍ رومانية لتثبيت الاتحاد،^{٨٧} وفي السنة ١٢٨٠ تُوِّفي البابا نقولاوس الثالث، فأوصل كارلوس أنجو إلى السدة البابوية رجلًا يثق في إخلاصه ومحافظته على مصالحه الشخصية، هو الكردينال سمعان دي بري الذي أصبح يدعى مرتينوس الرابع (١٢٨١-١٢٨٥)، وما كاد هذا الحبرُ يستوي على عرش الرسول حتى افترى على ميخائيل فاتهمه بالغش والخداع، ثم وضعه تحت الحرم،^{٨٨} وقام بعدئذٍ يدبر خلفًا جديدًا لإخضاع الروم وإيصال صديقه كارلوس إلى مطعمه!

وتُوِّفي ميخائيل الثامن في السنة ١٢٨٢، وتبوأ العرش بعده ابنُه أندرونيكوس (١٢٨٢-١٣٢٨)، فقامت عمته أفلوجية تُحرضه على فسْخِ الاتفاق والاتحاد، وحدًا

^{٨٤} Vernet, F., Le IIe Concile Oecuménique de Lyon, Dict. Théol. Chrét., IX., Col. 1384-1386; Grumel, V., Concile de Lyon et la Réunion de l'Eglise Grecque, Ibid., Col. 1391-1410;

Norden, W., Papsttum, 520-615; Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 656-659

^{٨٥} Grumel, V., En Orient après le Concile de Lyon, Echos d'Orient, 1925, 321-322; Rouil-

Jard, G., Politigue de Michel VIII, Etudes Byzantine, 1944, 73-84

^{٨٦} Nikolsky, V., The Union of Lyons, Pravoslavnoe Obozrenie, 1867, 5-23, 116-144, 352-378, 1867, 11-33

^{٨٧} Grumel, V., Les Ambassades Pontificales à Byzance, Echos d'Orient, 1924, 446-447

^{٨٨} Brehier, L., Byzance, 401

كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الثاني)

حذوها مستشاره الجديد ثيودوروس موزالن، وكان هذا قد ذاق آلام الفلق في عهد ميخائيل لاعتراضه على الاتحاد، وزال خطرُ كارلوس أنجو فلبى أندرونيكوس رغبات معظم الإكليروس والشعب وأمر بدفن والده خارج العاصمة دون أن يصلي على نفسه في الأديار وأبعد البطريرك فقس وأعاد البطريرك يوسف.^{٨٩}

^{٨٩} Pachymeres, Hist., I, 1-2; Nicephorus Gregoras, Hist., VI, 1-2

هولاغو والكنيسة

الإمبراطورية المغولية

وغمرت سلطة المغول آسية، وسيطر الخان الأعظم على آسية العليا والوسطى ونصف الصين وفارس، وانتشرت النصرانية بلونها النسطوري في آسية العليا، ووطدت الأسر النبيلة النسطورية علاقاتها مع جنكيزخان وأولاده، ورغب الأمراء المغول في النصرانيات فتزوّجوا منهم وبألغوا في احترامهن وإكرامهن، وكثر عدد النساطرة في حاشية الخان وجيشه.

الأرمن والمغول

وقضى المغول في السنة ١٢٤٣ على جيش سلجوقي قضاء كاملاً، فتوقع الأرمن توسعاً مغولياً في العراق وآسية الصغرى، فخطر ببال هاتون ملك الأرمن أن يقصد الخان ويستجديه في سبيل الأرمن والنصرانية، فأرسل في السنة ١٢٤٧ أخاه سمباد إلى قرقوروم يقدم الخضوع وينتجع ويستمطر، فرحب المغول به وأجابوا سؤله وأدخلوا الأرمن في حمايتهم.^١

^١ Sempad, Letter to Henry of Cyprus, (William of Nangis), Runciman, S., Crusades, III,

اللاتين والمغول

ولع في سماء الإسلام نور الدين وصلاح الدين، وتَقَلَّصَ ظِلُّ اللاتين، وتقااست أوروبا وقل اندفاعها فأوفد أنوشنتيوس الرابع بابا رومة بلان كاربان Plan Carpin إلى الخان الأعظم غويوك في السنة ١٢٤٥ ليدعوه إلى الدخول في النصرانية.^٢ وفي السنة ١٢٥١ وصل إلى عرش المغول مونغكة Mongka حفيد جنكيزخان، واستتبَّ الأمرُ له فولى أخاه كوبيلاي الشرق الأقصى وأخاه هولانغو فارس وما تبعها، وكانت أمُّهم نصرانية نسطورية، فأوفد لويس التاسع راهباً فرنسيسكانياً اسمه غليلموس روبروك Guillaume Rubrouck إلى قرقوروم ليفاوض في تحالف وتعاون بين فرنسة والمغول، ووصل روبروك إلى عاصمة المغول في ربيع السنة ١٢٥٤ فوجد فيها الرومي والعباسي والسلاجوقي والهندي وغيرهم يفاوضون مثله، ومثل هو أمام الخان الأعظم ونقل رجاء سيده، فأجابه الخان مونغكة: «لا إله إلا إله السموات ولا سيد على الأرض إلا ابنه جنكيزخان، وباسم مونغكة ممثله على الأرض قل لملك فرنسة: أن اخضع!»^٣

هاتون يفوز بالمعونة

وعلم هاتون ملك الأرمن بارتقاء مونغكة عرش المغول، فقام بنفسه إلى قرقوروم في السنة ١٢٥٤ «وخضع وتوسل»، فسَرَّ مونغكة به وجعله مستشاره في أمور غرب آسية والنصرانية، وضمن سلامة حُدوده وأمر برفع الضرائب عن الكنائس والأديار، واعتزم «تحطيم خلافة بغداد» على حد قوله وعقد نيَّته على تحرير أورشليم، وأعلم أخاه هولانغو بما وَطَّنَ النفس عليه وأمره أن يتجهز لذلك بالجهاز الكافي، وعاد هاتون مغتبطاً مسروراً، وقصد هولانغو مؤتمراً ممتثلاً، فعني هولانغو بأمره واهتم بشأنه.^٤ ووصل هاتون إلى مقره في أرمينية الصُّغرى (قيليقية) في تموز السنة ١٢٥٥ فأخذ يهيبُ للتحالف أسبابه، وكانت رابطة الزواج قد جمعت بين الأسرة الأرمينية المالكة

^٢ Pelliot, Chrétiens d'Asie Centrale et d'Extrême Orient, 628

^٣ Grousset, R., L'Empire des Steppes, 248

^٤ Kirakos of Gantzag, Hist. (Brosset), 279 ff.; Barhebraeus, 418-419; Bretschneider, E.,

Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources, I, 164-172

في قيليقية وبين أسرة أنطاكية وطرابلس اللاتينية، وكانت العائلة المالكة في أورشليم فرنجية أرمنية أيضًا، وكان نظام الفرسان الفرنسي قد دخل البلاط الأرمني، وكانت اللغة الفرنسية قد أصبحت لغةً قومية ثانية عند سادة الأرمن، وكانت الكنيسة الأرمنية قى قيليقية قد اعترفت برئاسة رومة — كما سبق وأشرنا.

سقوط بغداد (١٢٥٨)

وقضى هولاغو في أثناء السنة ١٢٥٦-١٢٥٧ على الحشاشين في فارس وأذربيجان، وأمر بهم في كل مكان فدُبحوا ذبحًا، ونظر عطا الملك في مكتبتهم في ألمات فابقى على مصاحفها ومُصنَّفاتها التاريخية والعلمية وأحرق الباقي.^٥

وفي الثامن عشر من كانون الثاني سنة ١٢٥٨ وصلت طلائع المغول إلى بغداد، فأحاطوا بها من كل جانب، ثم قصفوها بالمجانق فتهدمت أسوارها، وفي العاشر من شباط تسربوا إليها فقتلوا ثمانين ألفًا من سكانها واستولوا على كنوزها، وعفوا عن النصارى ثم أشركوهم في النصر، فاستولى جاثليقهم على قصر الدوادار ورُممت كنائسهم،^٦ ويؤكد الراهب ورطان الأرمني المعاصر أن الفضل في هذا كله يعود إلى الأميرة دوقوز خاتون النصرانية، فإنها لم تكتف بعطفها الوراثي على النصرانية، بل أحببت أن تزيد الدين المسيحي مجددًا على مجد.^٧

حلب والجزيرة

وكان الكامل محمد صاحب ميفارقين قد أبى أن يدخل في طاعة المغول، فصلب الكاهن اليعقوبي الذي حمل إليه أوامر هولاغو، فزحف المغول على أمارته وحاصروا ميفارقين، ثم أخذوها عنوةً في أوائل السنة ١٢٦٠، وأكروهوا الكامل على أكل لحم جسمه بيده،^٨

^٥ .Browne, Literary Hist. of Persia, II, 458-460

^٦ Hayton, Hist. des Croisades, Doc. Arm., II. 169-170; Grousset, R., Croisades, III, 575-
.574

^٧ .Vartan, (Dulaurier), Journ. Asiatique 1860, 300-301

^٨ .Kirakos, 177-179; Rashid-al-Din, (Quatremère), 330-331

وانضم الكرج المسيحيون والأرمن إلى صفوف هولاغو في سبيل رفع راية الصليب وتحرير الكنيسة، واستشهد منهم في حصار ميفارقين سواته الخاتشاني الأمير الأرمني، فرأى في ذلك الراهب ورتان إهراق الدم لأجل السيد المخلص.^٩

وكانت السيادة في سورية قد آلت إلى الملك الناصر يوسف بن العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين، وكان الملك الناصر قد أُوْفِدَ ابنه العزيز إلى معسكر هولاغو ليؤكد خُضُوعَهُ بعد سقوط بغداد، ولكن هولاغو واجه العزيزَ باللوم الشديد؛ لأن والده لم يمثل بنفسه ليعفر رأسه أمامه، فاضطر الملك الناصر أَنْ يَتَوَدَّدَ إلى ممالك مصر ويرجو معونتهم. وتَقَدَّمَ هولاغو يعاونه كُلُّ من القادة كت بوغا النسطوري النصراني وبيجو وصنقر، وكانت دوقوز خاتون المسيحية تُرافق زوجها هولاغو وتشارك في الرأي، فاحتل هولاغو نصيبين وحران والرها، ثم استولى على سروج ومنبج وزحف على حلب، وكان الناصر قد أثر الصمود في دمشق فشاءتُ حامية حلب أَنْ تُقابل المغول في السهول الشرقية قبل وصولهم إلى المدينة ففتكوا بها فتكًا ذريعًا، ووصل المغول إلى عزان، فخرج ابن العبري أسقف حلب اليعقوبي إلى لقاءهم ليقدم احترامه إلى هولاغو، وأرسل هولاغو إلى تورانشاه نائب السلطنة في حلب يطلب التسليم، فأجابه النائب ليس لكم عندنا إلا السيف، فقصف هولاغو المدينة بالمجانيق وبذل السيف في مسلميها، واشترك في قتال حلب كل من هاتون الأرمني وبوهيموند السادس أمير أنطاكية، وأبى أهل حارم التسليم، فأمر هولاغو بهم فقتلوا عن بكرة أبيهم.

أفتيميوس البطريك الأنطاكي (١٢٦٠-١٢٦٨)

واحترم المغول سلطة بوهيموند السادس في إمارة أنطاكية فلم يخرقوا حدودها، ولكنهم طلبوا إلى بوهيموند أن يسمح لأفتيميوس البطريك الأنطاكي أن يقيم في أنطاكية ويمارس سلطته فيها بين أبناء كنيسته الأرثوذكسية، فدخلها وأقام فيها حتى السنة ١٢٦٥، ولعل السبب في ذلك أَنَّهُ تَوَدَّدَ إليهم ورحب بقدمهم وسهَّلَ زواج مارية

^٩ Vartan, Journ, Asiat., 1860, 294

^{١٠} Rev. Or. Lat. 1894, II, 213

ابنة ميخائيل الثامن من أباغا بن هولاغو،^{١١} والواقع أن المغول كانوا أَرْحَبَ صدرًا من غيرهم في السياسة الدينية، فاحترموا جميع الأديان.^{١٢}

دمشق

وخاف أهل حماة وحمص فاستسلموا إلى المغول في حلب وفَرَ الملك الناصر، وبعض أنسبائه من دمشق واتجهوا شطر فلسطين، فحدود مصر، فأوفد أعيان دمشق من قَدَم خضوعهم إلى هولاغو في حلب، ورضي الخان عنهم وأنفذ كت بوغا وهاتون وبوهيموند على رأس جيش إلى دمشق للتثبيت من خضوعها، وعين عليها حاكمًا مغوليًّا وقاضيًّا، ووصل المغول إليها في أول آذار سنة ١٢٦٠ فاستسلمت المدينة وامتنعت حاميتها، فقصف كت بوغا القلعة والأبراج بالمجانق فسقطت في السادس من نيسان، فأمر كت بوغا بدك القلعة فهُدِّمَتْ تهديدًا.

وسَيَّر كت بوغا قشلق خان على رأس قوة إلى فلسطين، فامتنعت حامية نابلس، فغلبت على أمرها ثم استسلمت فذبحت بحد السيف كلها، وسار قشلق خان من نابلس إلى غزة فلم يلق معارضًا، وكان الملك الناصر قد خشي غدر المماليك به فقام من حدود مصر إلى ما وراء الأردن، وكان كت بوغا قد قام إلى عجلون ليخضعها، فلما وصل الناصر إلى اللقاء خانه حرسه الكردي وسَلَّمُوهُ إلى طلائع جيش كت بوغا، فأرسله هذا إلى سيده هولاغو، فأكرمه هولاغو ووعده خيرًا بعد الاستيلاء على مصر، ثم استسلمت حاميات بعلبك وبانياس والصبيبة.

وشاع بين النصارى في دمشق أن كت بوغا نصراني مثلهم، وأن عددًا كبيرًا من ضباطه وجنوده نصارى أيضًا، فهرعوا إلى الشوارع تتقدمهم الصليبان وساروا متظاهرين موجبين احترام الصليب حيثما وصلوا، وقرعوا الأجراس وشربوا الخمر وأقاموا الصلاة المسيحية في بعض المساجد، وحولوا مسجدًا واحدًا إلى كنيسة، وشكى المسلمون أمرهم إلى كت بوغا فلم يُصَغِ ولم ينصف،^{١٣} «وشمخ النصارى بسبب دولة التاتار، وتردد إيلسبان

Barhebraeus, in Assemani, *Bibl. Orient.* III, 110; Rey, *Dignitaires d'Antioche*, R. O. L.,^{١١} 1900-1901, 148-149.

.Chabot, *Mar Jaballaha*, *Rev. Or, Lat.*, 1894, I, 125^{١٢}

.*Gestes des Chyprois*, II, 751, Grousset, R., *Croisades*, III, 589-590^{١٣}

وغيره من كبارهم إلى كنائسهم، وذهب بعضهم إلى الملك هولانغو وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناء بهم وتوصية في حقهم، ودخلوا به البلد من باب توما وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم واتضاع دين الإسلام، ويرشون الخمر على الناس وبأبواب المساجد، فركب المسلمون من ذلك همَّ عظيم.^{١٤}

ما لم يكن بالحسبان

ومات مونغكة الخان الأعظم في الحادي عشر من آب سنة ١٢٥٩، فتخالف الأمراء المغول وتشاققوا، فاضطر هولانغو أن يعود إلى فارس (١٢٦٠)، وأن يبقى عند حدودها الشرقية مستعداً متهيئاً للتدخل في النزاع عند الحاجة، ووكل الحكم في سورية والدفاع عنها إلى قائده كت بوغا، وأبقى تحت تصرفه قوة من الجند لم تتجاوز العشرين أو الثلاثين ألفاً.

عين جالوت (١٢٦٠)

وأرسل هولانغو قبل قيامه إلى فارس رسولاً إلى قطز سلطان مصر يدعوه إلى الطاعة، فأبى قطز وأمر بالرسول فقتل ثم تجهَّز وتحرَّم، وفي السادس والعشرين من تموز دخل قائده بيبرس فلسطين على رأس قوة كبيرة من المماليك والخوارزميين، وانضم إلى هؤلاء من بقي من قوات الأيوبيين في كرك الشوبك، وأيد الأمراء اللاتينيون في فلسطين قطز وقائده بيبرس.

وبلغ كت بوغا قدوم المصريين وهو في بعلبك، فجمع من كان في سورية من جنود المغول وانضم إليه فريقٌ من أمراء اللاتين والأرمن، ولكنه اضطر أن يقوم إلى دمشق أولاً ليؤمن النصارى فيها؛ فالمسلمون من أبناء دمشق كانوا قد خربوا الكنائس فيها وأحرقوا مساكن النصارى، «فلما هرب التاتار من دمشق أصبح الناس إلى دور النصارى ينهبونها ويخربون ما استطاعوا منها، وفي الغد كانت الكسرة وأخرب المسلمون من كنيسة اليعاقبة وأحرقوا كنيسة مريم حتى بقيت كومةً والحيطان حولها تعمل النار في

^{١٤} الذيل على الروضتين لأبي شامة، ص ٢٢٨.

أخشابها، وقُتل منهم جماعةٌ واختفى الباقون، وجرى عليهم أمرٌ عظيمٌ، فاشتفى —
بعض الاشتقاء — صدور المسلمين.»^{١٥}

وتقدم المصريون في ساحل فلسطين فبلغوا عكة في أواخر آب واستراحوا في
ضواحيها، ودخل بعضهم إليها زائرًا متفرجًا، وكان بين هؤلاء بيبرس نفسه، ثم علم
المصريون أن كت بوغا عَبَرَ الأردن عند بيسان، فقاموا من عكة إلى عين جالوت في جنوب
بيسان ووصلوا إليها في الثاني من أيلول، وفي اليوم التالي هجم كت بوغا على مقر
المصريين ولم يَدْرِ بكثرتهم، فتراجعوا ثم أحاطوا به، فحطموا جَيْشَهُ تحطيمًا، وأسروه
وجاءوا به إلى قطن، فتَوَعَّدَ وَتَهَدَّدَ، فأمر به قطن فُضِرْبَ عنقه.

^{١٥} المرجع نفسه، ص ٢٢٨-٢٢٩.

الفصل السادس عشر

عهد المماليك

المماليك

وأدى توسُّع المغول واتجاههم نحو الغرب إلى فرار عدد من القبائل التركية من وجههم، والتجأ بعض هؤلاء إلى آسية الصغرى واستقروا فيها ودخل البعض الآخر الشرق العربي وأهم هؤلاء الخوارزميون، ولما جلس الملك الصالح أيوب سابع الملوك الأيوبيين على عرش السلطنة في مصر رأى أن يختار لنفسه جنودًا خاصة يثق بهم، فابتاع من هؤلاء المتشردين ومن غيرهم عددًا كبيرًا جعلهم جيشه الخصوصي، وبنى لهم ثكنة في جزيرة الروضة في مياه النيل فعُرفوا بالمماليك البحرية نسبة إلى «بحر النيل»، وكانوا يسمون الحلقة أيضًا؛ لأنهم أحاطوا بسلطانهم وحموه من كل اعتداء، ورتب الصالح لبعض هؤلاء دروسًا في الإدارة والحرب؛ فتحققت آمالُه وظهر من بينهم رجالٌ فاقوا ساداتهم، وفي السنة ١٢٥٠ قام أيبك أحد هؤلاء وقضى على سيده الأيوبي واتخذ لنفسه لقب الملك المعز أيبك وأسَّس دولة المماليك البحرية (١٢٥٠-١٣٨١).

المماليك البحريون.

١٣٤٠-١٣٠٩	الناصر محمد	١٢٥٠	شجرة الدر أرملة الصالح أيوب
١٣٤١-١٣٤٠	المنصور أبو بكر	١٢٥٧-١٢٥٠	المعز أيبك
١٣٤٢-١٣٤١	الأشرف كجك	١٢٥٩-١٢٥٧	المنصور علي
١٣٤٢	الناصر أحمد	١٢٦٠-١٢٥٩	الظاهر قطز
١٣٤٥-١٣٤٢	الصالح إسماعيل	١٢٧٧-١٢٦٠	الظاهر بيبرس

كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الثاني)

١٣٤٦-١٣٤٥	الكامل شعبان	١٢٧٩-١٢٧٧	السعيد بركة خان
١٣٤٧-١٣٤٦	المظفر حاجي	١٢٧٩	العادل سلامش
١٣٥١-١٣٤٧	الناصر حسن	١٢٩٠-١٢٧٩	المنصور قلاوون
١٣٥٦-١٣٥١	الصالح صلاح الدين	١٢٩٣-١٢٩٠	الأشرف خليل
١٣٦١-١٣٥٦	الناصر حسن	١٢٩٤-١٢٩٣	الناصر محمد
١٣٦٣-١٣٦١	المنصور محمد	١٢٩٦-١٢٩٤	العادل كتبغا
١٣٧٦-١٣٦٣	الأشرف شعبان	١٢٩٨-١٢٩٦	المنصور لاجين
١٣٨١-١٣٧٦	المنصور علي	١٣٠٨-١٢٩٨	الناصر محمد
١٣٨١	الصالح حاجي	١٣٠٩-١٣٠٨	المظفر بيبرس

الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧)

وانقسم الصليبيون بعضهم على بعض، وتحارب البنادقة مع أهل جنوا (١٢٥٧)، وقضى آل باليولوغوس على الإمبراطورية الصليبية في القسطنطينية (١٢٦١).

وعاد الظاهر قطز بعد عين جالوت إلى مصر، وفيما هو في طريقه إليها اتفق بيبرس البندقداري مع فريق من المماليك على اغتياله، وقامت أرنب بين يديه فساق عليها فتبعه المماليك المتآمرون، فلما بعدوا تقدم منه مملوك اسمه أنص وشفع في شخص فأجابه قطز فأهوى لتقبيل يده، فحمل بيبرس على قطز وضربه بالسيف، ثم أعلن نفسه سلطاناً باسم الملك الظاهر بيبرس، ودخل القاهرة (١٢٦٠) فخضع له الأمراء والشعب.

وكان بيبرس طويل القامة مفتول العضل أسمر اللون أزرق العينين قوي الإدارة شديد الجراءة عالي الهمة، وكان تركي الأصل ينتمي إلى قبيلة القبجاق Kiptchak، وقد عُرض للبيع في سوق حماة فهالت خشونته أميرها فلم يرغب فيه، فابتاعه الأمير بندقدار لسلطان مصر، فَعُرِفَ بيبرس بالبندقداري.^١

ولم ترض دمشق عن عمل بيبرس واعترفت بسنجر الحلبي أميراً عليها، فقام بيبرس في السنة ١٢٦١ إلى دمشق وقضى على سنجر وأعوانه فاستتبَّ له الملك في جميع

^١ Sobernheim, Article "Baibars", Encyc. of Islam

الأراضي السورية خارج الإمارات اللاتينية، وفي السنة ١٢٦٢ شهد جماعةً من البدو أن شخصاً أسود اللون اسمه أحمد هو ابن الظاهر بالله محمد ابن الإمام الناصر العباسي عم المستعصم آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، فعقد بيبرس مجلساً حضره العلماء وأثبت فيه القاضي نسب أحمد هذا، فبايعه الملك وسائر الأمراء بالخلافة وسمي المستنصر بالله، فأضحت القاهرة مقر الخلافة العباسية وأكسب بيبرس حكمه صبغة شرعية.

بيبرس والروم

وحالف بيبرس بركة خان أمير مغول القبچاق ضد هولاغو صاحب فارس، وتودد إلى ميخائيل الثامن فسيلفس الروم وقاهر اللاتين في القسطنطينية، ورجاه أن يبقي مضيقين مفتوحين له وللقباقجة بني جنسه؛ لتتم الصلة بين مصر وجنوب روسية عن طريق البحر، وكان خان القباقجة في روسية قد سبق له أن تدخل في شئون البلقان، فوافق ميخائيل على اقتراح بيبرس وأزوج خان القباقجة من بنت له غير شرعية، وفتح المضائق للمماليك مقابل إقامة بطريك أرثوذكسي في الإسكندرية (١٢٦٢)، ثم حالف الفسيلفس السلطان المصري للصبود في وجه كارلوس أنجو.^٢

بيبرس والصليبيون

وتهياً الجو لمحاربة الصليبيين، فقام بيبرس في السنة ١٢٦٣ على رأس جيش قوي وهاجم الناصرة، فاستولى عليها وخرّب كنيستها «وشاهد خرابها وقد سُوي بها إلى الأرض». وأغار على عكة فغنم في ضواحيها وركب عنها.^٣ وفي السنة ١٢٦٤ دعا هولاغو جميع أمرائه إلى اجتماع عام عقده في معسكره بالقرب من تبريز، واشترك في هذا الاجتماع كلُّ من داود ملك الكرج وهاتون ملك أرمينية وبوهيموند أمير أنطاكية، فأشاد هولاغو بالصدقة المغولية البيزنطية ولام هاتون وبوهيموند على موقفهما من أفتيميوس البطريرك الأنطاكي وأغلظ وشد؛ لأنهما أكرها هذا البطريرك على الخروج من أنطاكية.^٤

^٢ Dolger, F., Reg., 1902-1904, 1919, 1933, 1952, 1964, 1975, 1987, 2018, 2028, 2052

^٣ المختصر لأبي الفدا، ج ٣، ص ٢١٧-٢١٨.

^٤ Rashid al-Din (Quatrmère), 417-423; Vartan, 205-206; Barhebraeus. 444-445

ومات هولاعو في الثامن من شباط سنة ١٢٦٥ وتوفيت زوجته المسيحية في صيف السنة نفسها، فجال بيبرس جولة ثانية واستولى على قيصرية فلسطين في السابع والعشرين من شباط سنة ١٢٦٥، فَذَكَ أBRAJĦA وَخَرَّبَ حُصُونَهَا وَأَبْنَيْتَهَا. وفي السادس والعشرين من نيسان سقطت أرسوف في يده، ودخل حيفا منتصراً فبطش فيها بطشاً.^٥ وأنفذ بيبرس في صيف السنة ١٢٦٦ جيشين كاملين أحدهما إلى عكة وصفد والثاني إلى قيليقية وأرمينية الصغرى، ولم يَقْوَ على عكة، فحاصر صفدودس بين صفوف المحاربين الوطنيين وبوق أن عقوه يشمل الجميع عند الاستسلام، فاستسلم المحاربون ولكن بيبرس حنَّت بوعده. وترامى إليه أَنَّ سُكَّانَ قارة بين دمشق وحمص يسرقون المسلمين ويبيعونهم بالخفية من الإفرنج، فأمر ببعض كبارهم ورهبانهم وأخذ صغارهم مماليك وحول كنيستهم إلى جامع. ونزع إليه وفدٌ من نصارى عكة يرجون السماح بدفن من سقط منهم خارج أسوارهم فأجابهم: «إذا كنتم تطلبون جثث شهداء فإنكم ستجدونهم بين ظهرانكم.» ثم اندفع إلى ساحل البحر وخرَّب وقتل وسبى،^٦ وقاد الجيش الثاني قلاوون الشهير، وارتكز — بادئ ذي بدء — إلى حمص، وشن منها هجوماً خاطفاً على القليعات وحب وعرقة، فاستولى عليها وعاد إلى حمص، ثم انتقل إلى حماة حيث انضم إليها ملكها المنصور، وقاما منها إلى حلب فقيليقية، وكان هاتون قد تَوَقَّعَ هذا الهجوم فأسرع إلى تبريز يطلب معونة ابن هولاعو، وصمد ابنا هاتون لاوون وطوروس في مضايق الأمانوس، فتحاشى قلاوون هذه المضايق وانحدر إلى قيليقية بطريق سرودكار، وسقط طوروس في ميدان القتال ووقع لاوون في يد قلاوون أسيراً.

سقوط أنطاكية (١٢٦٨)

وبعد أن شل بيبرس نشاط أرمينية الصغرى أنفذ جيشاً إلى أنطاكية، وذلك في خريف السنة ١٢٦٦، ولكن الأنطاكيين رشوا القادة، فعاد الجيش عن أنطاكية بدون قتال، فثار تائر بيبرس وأنزل العقاب بالمستولين، فأمر بإعدامهم.^٧

^٥ .Gestes de Chyprois, 171; Estoire d'Eracle, II, 460

^٦ .Gestes de Chyprois, 180-181; Estoire d'Eracle, II, 484-485

^٧ .Ibn Abd-al-Rahim, Ms., Paris, 1702, 435; Cahen, C., op. cit., 716, n. 13

وعاد بيبرس إلى عكة في أيار السنة ١٢٦٧ ولجأ إلى الخدعة، فأمر جنوده برفع الأعلام الصليبية التي أخذت من الهيكليين والاسبتارية، فتمكنوا من ملاصقة الأسوار، ولكنهم اضطروا إلى التراجع، واكتفوا بتخريب الضواحي،^٨ وفي أوائل السنة ١٢٦٨ عاد بيبرس إلى القتال فاستولى على يافة وخرّب أبنيتها ونقل رخام قلعتها وأخشابها إلى مصر لبناء جامع فيها،^٩ ثم حاصر قلعة الشقيف، وقصفها بالمجانيق، فاستسلمت في منتصف نيسان، فسمح للنساء والأطفال بالنزوح إلى صور واسترق الرجال،^{١٠} ووصل إلى طرابلس في أول أيار، فقاتل صاحبها بوهيموند السادس، وعاث في ضواحيها مخرباً، ثم انتقل منها إلى وادي العاصي.

واستغل بيبرس بقاء بوهيموند في طرابلس فَأَنفَذَ جيشه إلى أنطاكية، وكانت حاميتها بضعة آلاف مقاتل، فلم تَقوَ على حماية جميع أبراجها وأسوارها، وحاول محافظها سمعان مانسل Simon Mansel الإغارة على جيش بيبرس فأسر. وكان بيبرس قد احتل السويدية ومضائق بيلان، فعزل خصمه عن البحر وعن أرمينية الصغرى، وفي الثامن عشر من أيار ثغر الممالك السور بالقرب من القلعة وتَدَفَّقُوا منه إلى داخل المدينة، وأمر بيبرس بحراسة الأبواب وبالقتل والنهب فلم يسلم سوى بضعة آلاف التجئوا إلى القلعة، ولدى استسلام هؤلاء جرى بيعهم بأبخس الأثمان نظراً لكثرتهم، فبلغ ثمن الصبي اثني عشر درهماً وثمان البنت خمسة فقط، وكومت الحلي الفضية والذهبية أكواماً، ووزعت الدراهم على الفاتحين بالكيل لكثرتها.^{١١}

ودمرت أنطاكية تدميراً والتهمت النيران بعض أحيائها، وخربت كنيسة القديس بولس وكنيسة القديسين قوزمة ودميانوس، وكان العراقُ وتوابعُه قد أصبح مغولياً، فتحولت بضائع الشرق عن أنطاكية إلى إياس في قيليقية، فتضاءلت تجارة أنطاكية، وَقَلَّ الاعتناءُ بها والاهتمامُ بأمرها، وأمست قرية قائمة في وسط خراب كبير، فهجرها رؤساء الدين واتجهوا نحو دمشق مركز السلطة في البلاد.

^٨ Gestes des Chyprois, 181-183

^٩ Gestes des Chyprois, 190; Magrisi, Sultans, I, 50-51

^{١٠} Gestes des Chyprois, loc. cit.; Estoire d'Eracles, II, 456

^{١١} Gestes des Chyprois, 190-191; Estoire d'Eracles, II, 456-457; Bathebraeus, 448; Magrisi,

Sultans, I, 52-53; Aini, Perles d'Histoire (Rec. Hist. Crois, Vol. II), 229-234

ثيودوسيوس الرابع (١٢٦٨-١٢٧٦)

وتُوفي أفتيميوس الثاني البطريرك الأنطاكي في السنة ١٢٦٨ فانتخب الإكليروس الأنطاكي ثيودوسيوس الرابع بطريركاً على أنطاكية، وفاوض الفيلسوف ميخائيل الرابع ببيرس سلطان المالك في أمر بطاركة الكرسي الأنطاكي، فاعترف السلطان برئاستهم وسمح بانتقالهم من أنطاكية إلى دمشق،^{١٢} ولم يشترك ثيودوسيوس الرابع في أعمال مجمع ليون، ولم يعترف بقراراته.^{١٣}

ثيودوسيوس الخامس (١٢٧٦-١٢٨٥)

ثم تولى السدة الأنطاكية ثيودوسيوس الخامس أحد أفراد أسرة فيلهاردوان اللاتينية الحاكمة في آخية، وكان قد تقبل الأرثوذكسية وانتمى إلى دير الأوديغس الأنطاكي في القسطنطينية، ثم زاحم فقس في الوصول إلى الكرسي البطريركي القسطنطيني، وكان قد تم الاتحاد بين الكنيستين اليونانية واللاتينية في ليون فأيده ثيودوسيوس وجاء إلى كرسيه يبشر به، ولدى وصول أندرونيكوس الثاني إلى عرش الفسالسفة في السنة ١٢٨٢ وعودة الأرثوذكسية إلى البلاط الإمبراطوري فرَّ ثيودوسيوس والتجأ إلى صيدا، وكانت هذه لا تزال بيد اللاتين.^{١٤}

أرسانيوس الأول (١٢٨٢-١٢٨٣)

وأقام الإكليروس الأنطاكي أرسانيوس متروبوليت طرابلس بطريركاً على أنطاكية، فتماذى في التقرب من الأرمن، فأسقط اسمه من ذبتيخة القسطنطينية، واعتبر خارجاً على الكنيسة الجامعة.

^{١٢} .Ecclesia Ierosolemon, Anon., 42

^{١٣} .Musset, H., op. cit., I, 549

^{١٤} .Pachymeres, De Andronico Paleologe, I, 19; Echos d'Orient, 1927, 137

ديونيسيوس الأول (١٢٨٣-١٣٠٨)

واجتمع الأساقفة الأنطاكيون لانتخاب بطريرك جديد، فأيد بعضهم ديونيسيوس أسقف بومبيوبوليس القيليقي، واعترف آخرون برئاسة كيرلس متروبوليت صور.^{١٥}

عودة المغول (١٢٩٩-١٣٠٣)

وحقد خلفاء هولانغو على المماليك والمسلمين وجاشت صدورهم بالغل بعد عين جالوت وحمص، فعاهد قازان بن أرغون الكرج والأرمن وعاهد الصليبيين في قبرص، وعبر الفرات بجموعٍ عظيمةٍ تلتهم من النصارى، ووصل إلى حلب، فحماة، ونزل على وادي مجمع المروج. وسارت العساكرُ الإسلاميةً بقيادة الملك الناصر إلى حمص، ثم إلى مجمع المروج، والتقوا في عصر الثالث والعشرين من كانون الأول بجيش قازان، فولت ميمنة المسلمين ثم الميسرة، وثبت القلب، وأحاطت به التتر، وتأخر السلطان إلى جهة حمص، «فولت العساكر الإسلامية تبتدر الطريق وتمت بهم الهزيمة إلى ديار مصر.» واستولى قازان على دمشق وساق في أثر المماليك إلى غزة والقدس وبلاد الكرك، وعصت قلعة دمشق، فأحرق المغولُ الدورَ والمدارس وغيرها من الأماكن الجليلة حولها،^{١٦} ثم نشبت ثورة في فارس فعاد قازان لإخمادها وأبقى في سورية قوة صغيرة، وتخلّى قبجق والي دمشق عن قازان والمغول فسهل عودة المماليك إلى البلاد، وفي السنة ١٣٠٣ أطل المغول بقيادة قتلوشاه نائب قازان والتقوا بالمماليك في مرج الصفر في العشرين من نيسان، واشتد القتال فهُزم المغول وقُتل منهم خلق كثير.^{١٧}

الشيعة والدروز والنصارى (١٢٨٣-١٣٠٥)

وبات الصليبيون تعابى وظهرت عليهم دلائلُ الجهد، فخشى سُكَّانُ التلال اللبنانية بين بيروت وطرابلس من الدروز في المتن وأهل الشيعة في كسروان والنصارى والنصيرية

^{١٥} Le Quien, O. C., Col. 765.

^{١٦} المختصر لأبي الفداء، ج ٤، ص ٤٢-٤٣.

^{١٧} المرجع نفسه، ج ٤، ص ٤٨-٤٩.

في جرود طرابلس؛ استثنَّارَ المالك بالقوة والسلطة، فهَبُّوا لمعونة الصليبيين بشتى الوسائل؛ فأبو الفداء يقول: إنهم كانوا «يقطعون الطرق ويخطفون المسلمين ويبيعونهم للكفار».^{١٨} وجاء للبطريك الدويهي عن حاشية في كتاب صلاة قديم تعود إلى السنة ١٢٨٣ أن العساكر الإسلامية سارت في شهر أيار من هذه السنة في وادي حبرونا، فحاصرت أهدن ومَلَكْتَهَا بعد أربعين يومًا، وخرَّبَت القلعة في وسطها والحصن الذي على رأس الجبل، ثم افتتحت بفيقًا وقبضت على أكابرها وأحرقتهم في بيوتهم، وأعملت السيوف بأهل حصرون وكفرسارون، وزحفت في الثاني والعشرين من آب إلى الحدث فهرب أهلها إلى العاصي وهي مغارة منيعة، فقتلت العساكر مَنْ أدركته منهم، وخربت الحدث تخريبًا.^{١٩}

وروى الأهدني تحت تاريخ السنة ١٢٨٧ أن الكسروانيين (الشيعة) والجرديين (الدروز) نزلوا من الجبال لنجدة الإفرنج في أثناء حصار طرابلس، فقتلوا من عسكر السلطان حُلُقًا كثيرًا، فأمر نائب دمشق بجمع العساكر لاستئصال هؤلاء، وكتب إلى أمراء غرب بيروت أن يتوجهوا بعساكرهم إلى كسروان والجرد: «وأن من نهب امرأة كانت له جارية، أو صبيًا كان له مملوكًا، ومن أحضر منهم رأسًا فله دينار». وفي السنة ١٢٩٢ قصد الأمير بيدرا قائد السلطنة في مصر جبال كسروان، وبعد أن وصل إليها «انثنى عزمه وانكسر حزمه فتمكن الكسروانيون في بعض العسكر في الأوعار ومضايق الجبال فنالوا منهم». فاضطر الأمير بيدرا أن يطيب القلوب ويخلع الخلع، فاشتط الكسروانيون في الطلب، فأجابهم إلى ما التمسوه وأفرج عن جماعة منهم كانوا قد اعتقلوا في دمشق لذنوبٍ وجرائمٍ صدرت منهم.^{٢٠}

وفي السنة ١٣٠٢ نزل الإفرنج عند نهر الدامور، فقتل الأمير فخر الدين التنوخي وأسر أخوه شمس الدين فافتداه ناصر الدين الحسين بثلاثة آلاف دينار، فُرُفعت الشكاوى إلى نائب دمشق الأفرم من الجرديين وأهل كسروان، فحشد النواب الجيوش لمقاتلة الجرديين والكسروانيين، فنزل ثلاثون مقدمًا من كسروان بثلاثين ألفًا وكنوا عند نهر الفيديار ونهر المدفون، فهزموا الجيش السلطاني وأهلكوا أكثره وغنموا أمتعة

^{١٨} كتاب المختصر، ج ٤، ص ٥٢.

^{١٩} تاريخ سوريا، للمطران يوسف الدبس، ج ٣، ص ٣٦٤-٣٦٥.

^{٢٠} تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، ص ٢٩-٣١.

وأسلحة واستولوا على أربعة آلاف رأس من الخيل، وغزا الجرديون التنوخيين فأحرقوا عين صوفر وغيرها من بلاد العرب.^{٢١}

ونقل صالحُ بنُ يحيى عن الحريري والصلاح الكتبي أن أهل كسروان كثروا وطغوا واشتدت شوكتُهُم، وتطاولوا إلى أذى العسكر، وأغضى السلطان عنهم فزاد طغيانُهُم وأظهروا الخروجَ من الطاعة، ففاوضهم نائب دمشق جمال الدين الأفرم في الرجوع إلى الطاعة فأبوا، فأفتى العلماء بنهب بلادهم، فجرد النواب خمسين ألفاً، فجمع الدورز رجال الجرد وكانوا عشرة أمراء بعشرة آلاف مقاتل، والتقت الجموع عند عين صوفر، فجرى قتالٌ شديدٌ، ودارت الدائرةُ على الدورز، فهرب الأمراء والتجئوا إلى كهف ناييه ودافعوا عن أنفسهم، فبذل لهم الأمان فلم يخرجوا، فأمر نائب دمشق بسد الكهف! وصعد اسندمر نائب طرابلس إلى كسروان فقطع وخرّب وقتل، وتفرق الباقيون من الشيعة في البلاد.^{٢٢}

الغيوريون والمعتدلون

وكان قد قام في الكنيسة منذ عهد ثيودوروس الاستوديوتي في القرن التاسع من قَوامَ تَدخُلَ الفسيفس والحكومة في شئون الكنيسة، بل من قال بوجوب تقيد الفسيفس بالأنظمة الإكليريكية، وكانت غيرهُ هؤلاء على الكنيسة قد اشتدت إلى درجة أدت بهم إلى اللجوء إلى العنف في سبيل الدفاع عن حرية الكنيسة واستقلالها، ولم يتطلب هؤلاء الغيورون Zelotai من الإكليروس علماً وافراً أو نكاه مفرطاً، ولكنهم أوجبوا عليهم سيرة طاهرة وتقشفاً صارماً، فنالوا إعجاب الرهبان وتأييدهم في غالب الأحيان، وكان من الطبيعي جداً أن يقول غيرُهُم من أبناء الكنيسة بالتعاون بين الدولة والكنيسة، وهؤلاء هم المعتدلون Politikoi وأصرَّ هؤلاء على وجوب تضلُّع الإكليروس العالي من العلوم الدينية والزمنية؛ ليحسنوا الدفاع عن الكنيسة جمعاء ويحفظوا حريتها.^{٢٣}

^{٢١} للاهوتي، كما نقله الدبس: ج ٣، ص ٣٦٨-٣٦٩.

^{٢٢} بيروت لصالح بن يحيى، ص ٢١-٢٤.

^{٢٣} Nicephorus Gregoras, Historia, VI, 1, 7; Pachymeres, De Andronico, IV, 12; Lebedev,

A., Historical. Essays; 298-297

ووقف الغيورون إلى جانب البطريرك أرسانيوس في نزاعه مع الفسيلفس ميخائيل الثامن، فعرفوا بالأرسانيوسيين، وقضت ظروف ميخائيل السياسية باتحاد الكنيستين — كما مرر بنا — فضح الغيورون وأعلنوا سخطهم ومقاومتهم، وجاء أندروننيكوس الثاني الفسيلفس فألغى الاتحاد، وسيطر الغيوريون على الإكليروس وهيمنوا على البطريركية المسكونية.

الصامتون

وشاع في القرن الرابع عشر في بعض الأديار انعزالٌ عن عالم المادة وانعكافٌ على التأمل واتصالٌ بالخالق عن طريق الصلاة عُرف بالزهد الصامت Hesychia، وأشهر من قال بالصمت التام والتأمل الكامل غريغوريوس بالاماس Palamas متروبوليت ثسالونيكية، وكان قد اشتهر بتقشفه عندما قدّم النذر في آثوس، وكاد ينسحب من ثسالونيكية لينفذ ما قال به عندما فوجئ بشغب أحدثه الراهب برلام في جبل آثوس،^{٢٤} وبرلام هذا راهب يوناني إيطالي أمّ ثسالونيكية وأقام فيها، فاستمع لأقوال بالاماس رئيس أساقفتها وجادله فيها وملاً المدينة ضجيجاً (١٣٣٣-١٣٣٩)، ثم قام إلى أفينيون ليفاوض بنديكتوس الثاني عشر باسم أندروننيكوس الثالث الفسيلفس في أمر حملة صليبية ضد الأتراك، ولدى عودته من أفينيون اطلع على رسالة النور الإلهي التي كان بالاماس قد أعدها في غيابه فكتب في دحضاها،^{٢٥} ثم قام إلى القسطنطينية يشكو بالاماس إلى البطريرك المسكوني يوحنا كاليكاس Calecas، وأثار ضجة في العاصمة، فاضطر البطريرك أن يدعو بالاماس إلى المنثول أمام المجمع، وترأس أندروننيكوس الثالث المجمع القسطنطيني في العاشر من حزيران سنة ١٣٤١، وما إن افتتحت الجلسة حتى أعلن الفسيلفس أن أمر البتّ في العقيدة منوطٌ بالأساقفة وحدهم وأنه ليس على برلام إلا أن يعتذر للرهبان عما صدر عنه،^{٢٦} فعاد برلام إلى الغرب فأذكى نار الشقاق فاستمرت طويلاً.^{٢٧}

^{٢٤} Jugie, M., Palamas, Dict. Théol. Chrét. XI, Col. 1735-1818

^{٢٥} Krumbacher, K., Gesch. Byz, Litt., 103-105

^{٢٦} Tafrali, O., Thessalonique au XIV, Siècle, 188-191; Uspensky, Th., Byz. Civ., 336;

Miklosich et Muller, Acta, I, 201-202

^{٢٧} Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 665-670; Brehier, L., Byzance, 433-434

وظلت المشادة قائمة حول موقف بالاماس من النور الإلهي فدعا البطريك يوحنا الرابع عشر (كاليكاس) إلى مجمع جديد في السنة ١٣٤٥، ففضى بالحكم على بالاماس وحبسه،^{٢٨} ولما استولى يوحنا السادس على عرش القسطنطينية (١٣٤٧-١٣٥٥) أنزل البطريك يوحنا الرابع عشر عن عرشه لتأمره وأحل محله أيسيدوروس مرشح الصامتين، فدعا البطريك الجديد إلى مجمع ثالث في السابع والعشرين من أيار سنة ١٣٥١ فخرج بالاماس ظافرًا وانتصر الصامتون.^{٢٩}

أغناطيوس الثاني (١٣٤٢-١٣٥٣)

وتولى السدة الأنطاكية بعد ديونيسيوس البطريك مرقس، وطالت رئاسته أربعًا وثلاثين سنة (١٣٠٨-١٣٤٢) وجاء بعده أغناطيوس الثاني، ولم يرض عن بالاماس وقوله في النور الإلهي فاشترك في أعمال مجمع القسطنطينية في السنة ١٣٤٤، ووافق على شجب بالاماس وسجنه، وأصدر طوموسًا بطريركيًا ضده، لكن باخوميوس متروبوليت دمشق خاصمه فاضطر أن يلجأ إلى قبرص فترة من الزمن وتوفي فيها سنة ١٣٦٦، وأوفد في السنة ١٣٥١ أرسانيوس متروبوليت صور ليمثله في مجمع القسطنطينية، فكان أرسانيوس من المعارضين لبلاماس واحتج على تدخل الفسيلفس في شئون الكنيسة وأحدث ضجة في المجمع.^{٣٠}

باخوميوس الأول

وأيد باخوميوس الصامتين، فانتهز بانتصار بالاماس، وتولى الرئاسة مدة نجهلها، ولعله ظل جالسًا حتى السنة ١٣٦٨ أو ١٣٧٠ — كما جاء في مصنف لوكيان،^{٣١} وفي السنة ١٣٧٠ أيد بعض المطارنة الأنطاكيين أرسانيوس متروبوليت صور في موقفه من بلاماس

^{٢٨} Tafrali, O., op. cit., 194; Guiland, R., Essai sur Nicéphore Gregoras (1926), 28-29

^{٢٩} P. G., Vol. 151, Col. 718-719; Vasiliev, A. A., Byz Emp. 669-670; Gelzer, A., Abriss der
Byz. Kaisergesch., 1059-1060

^{٣٠} Meyendorff, J., Introduction à l'Etude de Grégoire Palamas, (1959), 145-146

^{٣١} Le Quien, O. C., Col. 767

كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الثاني)

وانتخبوه بطريركاً على أنطاكية وأجلسوه على السدة، ولكنه خلع بعد فترة قصيرة، وإذا ما قدمنا باخوميوس الأول على ميخائيل الثاني وخالقنا بذلك ترتيبَ البطريرك قسطنديوس؛ سهَّلَ علينا التوفيقُ بين ترتيبه وبين ترتيب لوكيان، وتقاربت تواريخ الرئاسة.

ميخائيل الثاني (١٣٧٠-١٣٨٦)

ويرى البطريرك قسطنديوس أن ميخائيل الثاني تولى الرئاسة ست عشرة سنة، وأن باخوميوس عاد إلى الكرسي بعد وفاة ميخائيل في السنة ١٣٨٦، وبقي فيه حتى السنة ١٣٩٣، ثم يذكر قسطنديوس البطريرك نيلوس ويحدد سنوات رئاسته، فيجعلها تبدي في السنة ١٣٩٣ وتنتهي حوالي السنة ١٤٠٠، وجاء للبطريرك ميخائيل الثالث أن باخوميوس تولى الرئاسة ثلاث مرات (١٣٥٩ و ١٣٧٥ و ١٣٧٨)، وأن نيلوس أو نيقون ابتدأ في السنة ١٣٨٧ وانتهى في السنة ١٣٩٥. ٣٢.

المالِك البرجيون.

١٤٦٠-١٤٥٣	الأشرف أيناال	١٣٩٢-١٣٨٢	الظاهر برقوق
١٤٦٠	المؤيد أحمد	١٤٠٥-١٣٩٢	الناصر فرج
١٤٦٧-١٤٦١	الظاهر خشقدم	١٤٠٦-١٤٠٥	المنصور عبد العزيز
١٤٦٧	الظاهر يلباي	١٤١٢-١٤٠٦	الناصر فرج
١٤٦٨	الظاهر تمرغا	١٤١٢	العادل المستعين
١٤٩٦-١٤٦٨	الأشرف قايتباي	١٤٢١-١٤١٢	المؤيد شيخ المحمودي
١٤٩٨-١٤٩٦	الناصر محمد	١٤٢١	المظفر أحمد
١٥٠٠-١٤٩٨	الظاهر قانصوه	١٤٢١	الظاهر ططر
١٥٠٠	الأشرف جنبلاط	١٤٢٢-١٤٢١	الصالح محمد
١٥٠١	العادل طومان	١٤٣٨-١٤٢٢	الأشرف برسباي
١٥١٦-١٥٠١	الأشرف قانصوه	١٤٣٨	العزیز يوسف
١٥١٦	الأشرف طومان باي	١٤٥٣-١٤٣٨	الظاهر جقمق
		١٤٥٣	المنصور عثمان

تيمورلنك (١٤٠٠-١٤٠١)

وأعلن تيمورلنك نفسه خائناً في السنة ١٣٧٠ وأخضع لسلطته خراسان وأصفهان واجتاح بلاد فارس والعراقين والجزيرة، وقصد الهند سنة ١٣٩٧ وأنزل بها الوبال، واتجه في السنة ١٤٠٠ نحو سورية، فأمر الملك الناصر فرج النواب والحكام أن يتوجهوا إلى حلب ويجهتدوا في دفع تيمورلنك، واستولى تيمورلنك على عين تاب وأرسل مرسوماً إلى النواب في حلب أن يطيعوا أوامره ويخطبوا باسمه، فقتل سودون نائب الشام هذا الرسول، واستولى تيمورلنك على حلب وقطع عنق سودون وقتل جمّاً غفيراً ونهب وأحرق، ثم بلغ المعرة «فجفل أهل دمشق وتشتتوا». وقصد بعضهم قلعة أرسون وقلعة الشقيف، ورحب أهل حماة بتيمور ثم وثبوا على نائبه فرجع إليها وقتل ونهب وأحرق، ولما بلغ إلى حمص استجلب خاطره عمر بن الرواس ففعل عن أهلها، ونزل على بعلبك فأرسل فيهم جوارح النهب والاستئصال.

وبلغت عساكر الملك الناصر إلى دمشق وبلغ تيمور إليها، ففرّ الملك الناصر، والتجأ إلى لبنان، واختبأ في قلعة نيجا، فأحاط تيمور بدمشق وقتل أعيانها وسبى نساءها، وأحرق الجامع الأموي وكان فيه جمٌّ غفيرٌ من النساء والأطفال، وأخرب المساجد والمدارس ودكّ القلعة، وأسّر كثيرين من أصحاب الجرف والصناعات وأبعدهم إلى سمرقند.^{٣٣}

الجراد والبدو

ولم يخرج تيمور من دمشق حتى جاءها الجرادُ فغطّى وجه السماء وارتعى الأخضرَ وباض في أرضها وفقس، فاشتد الغلاء وخفت الناس من الجوع وانكسر طرفهم، وشره البدو إلى المكاسب الدنيئة وأقبلوا ناشرين الأذن ومادين الأعناق، فأنزلوا بالناس «ما لا يستحله عباد النار والأوثان».^{٣٤} وجاء الوباء ثالثة الأثافي، وثقلت وطأته حتى بقي الموتى بدون دفن.

^{٣٣} عجائب المقدور في أخبار تيمور، لشهاب الدين الأنصاري المعروف بابن عرب شاه.

^{٣٤} تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، ص ٢٠١ وابن إياس، ج ١، ص ٣٣٥.

ميخائيل الثالث (١٣٩٥-١٤١٢)

وفي السادس من شباط سنة ١٣٩٥ تَسَلَّمَ ميخائيل الثالث عكاز الرعاية، وأرسل رسالة الجلوس إلى زملائه، فإذا به يوافق بالاماس والصامتين، وجاء تيمورلنك في السنة ١٤٠٠، فاضطر ميخائيل أن يُغادر دمشق إلى قبرص، ونهب «بدلاته وعدته الكنسية وماله». ودون في قبرص صفحات قليلة في تاريخ بطاركة أنطاكية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وقد حفظها للتاريخ بولس ابن الزعيم.^{٣٥}

وروى قسطنديوس القسطنطيني أن باخوميوس الثاني خلف ميخائيل الثالث، وأن مدة رئاسته كانت سنة واحدة وأن يواكيم الثاني جاء بعده، فَرَعَى المؤمنين خمس عشرة سنة؛ أي حتى السنة ١٤٢٦، ويذكر البطريرك القسطنطيني مرقس الثالث بعد يواكيم فيجعل مدة رئاسته عشر سنوات (١٤٢٦-١٤٣٦).^{٣٦}

دوروثيوس الثاني (١٤٣٦-١٤٥١)

وهو أسقف زينه (صيدنايا) رقي العرش الأنطاكي في السنة ١٤٣٦، وجاهد في سبيل الأرثوذكسية، فراقب مجمع فراري بممثليه مرقس متروبوليت أفسس وأسيدوروس متروبوليت كيف، واشترك في أعمال مجمع أورشليم في السنة ١٤٤٤ ومجمع القسطنطينية في السنة ١٤٥٠؟ وسنذكر ذلك بالتفصيل عند الكلام عن مجمع فراري. وخلف دوروثيوس الثاني بموجب رواية قسطنديوس القسطنطيني ميخائيل الرابع (١٤٥٤-١٤٦٢)، فمرقس الرابع (١٤٦٢-١٤٧٦)، فيواكيم الثالث (١٤٧٦-١٤٩٣)، فغريغوريوس الثالث (١٤٩٣-١٥١١).

ميخائيل الرابع (١٤٥١-١٤٩٧)

ولا نعلم المراجع التي أخذ عنها البطريرك قسطنديوس، ولكنه جاء لمكاريوس ابن الزعيم وبولس ابن الزعيم؛ أنه لدى وفاة دوروثيوس اجتمع أعيان دمشق ونادوا بمرقس أسقف

^{٣٥} Radu, B., Patrologie Orientale, XXII, 29-30

^{٣٦} Constantius, Patriarchs of Antioch, Neale, op. cit., 178

صيدانيا بطيررگا، وأن يواكيم متروبوليت بصرى وكيرلس متروبوليت بيروت ومرقص متروبوليت الحصن ويوحنا متروبوليت أفخيّة وأفرايم متروبوليت حماة، وميخائيل أسقف الزبداني ويواكيم أسقف يبرود ومكاريوس أسقف قارة وأرسانيوس أسقف عكة؛ اشتركوا في تنصيبه وأن بطيرركيته دامت ستاً وأربعين سنة، وأنه تُوِّفِيَ في السنة ٧٠٠٦ للخليفة (١٤٩٧)، وأن دوروثيوس الصابوني خَلَفَهُ، وأن رئاسة هذا دامت ستاً وعشرين سنة.^{٣٧}

الشماس موسى الجبيلي

ويغفل بعض الآباء الغربيين في الشرق البحثَ والتنقيبَ، ويهملون مراقبته فيتغنون بخدمات الشماس موسى الجبيلي، ويقولون: «إنه عمل على اتحاد الكنائس، فصادفت أقواله قبولاً لدى مرقس البطريرك الإسكندري والبطاركة الأنطاكيين ميخائيل الرابع ومرقس الرابع ويواكيم الثالث، وأن مرقس الرابع أعاد اسم البابا إلى الذبيخة الأنطاكية، وأن يواكيم الثالث ذهب إلى القدس وعمل مع مرقس الإسكندري على إقناع زميلهما البطريرك الأورشليمي بالرجوع إلى الاتحاد سنة ١٤٥٧، وأن هؤلاء البطاركة الثلاثة فَوَّضُوا موسى الجبيلي إيصالَ وثائق اتحادهم إلى الحبر الأعظم، وأن موسى وَقَّعَ صَكَّ الاتحاد بالنيابة عنهم في ٢١ نيسان سنة ١٤٦٠، وأن بيوس الثاني أمر بتدوين ذلك في كتابٍ أحمر الجلدة، لا يزال محفوظاً في المكتبة الفاتيكانية.» ويضيفون أن هذا الاتحاد استمر حتى السنة ١٥١٦ سنة الفتح العثماني، وأن العلاقات مع الغرب أصبحت ممتنعة عملياً، فأخذ نفوذ القسطنطينية يتزايد والاتحاد يتناقص.^{٣٨}

ويُعنى علماء الكنيسة اللاتينية بتاريخ الكنيسة، ويصدرون بين السنة ١٩٤٧ والسنة ١٨٥٦ سبعة عشر مجلداً بإشراف فليش ومارتان، ويتولى روجه أوبيناس Aobenas الأستاذ في كلية الحقوق في إيكس بروفانس كتابة الفصل عن بيوس الثاني،

^{٣٧} Vat. Arab. 689, Fol. 127; Pat. Or., XXII, 33; Nasrallah, J., Chronologie des Patriarches d'Antioche, Proche-Orient, 1957, 26.

^{٣٨} الكنيسة الملكية للآب يوسف الشماس المخلصي (١٩٤٩)، ج٢، ص١٣٦-١٣٧، ومختصر طائفة الروم الملكيين لمجهول (بيروت ١٨٨٤)، ص١٧.

فيهمل ذكر موسى الجبيلي وعمله العظيم، ويكتفي بالقول إنه لمناسبة سقوط القسطنطينية واهتمام بيوس الثاني بصليبية جديدة أمّ رومة من الشرق عددٌ من السفراء الكاذبين، الذين ادَّعوا أنهم يمثلون بلدانهم، فأضاعوا المصلحة العامة بعجرتهم وغموضهم،^{٣٩} ولعله يرى موسى أحد هؤلاء.

وكان الأبُّ موسى قد طرقت الموضوع نفسه في السنة ١٩٤٨ في كتابه تاريخ النصرانية، فدَوَّن أخبار موسى الجبيلي، ولكنه احتاط فأشارَ إلى موقف العالم الألماني فون باستور من هذه الرواية،^{٤٠} أما فون باستور فإنه يرى أن بيوس الثاني نفسه شكَّ في صدق موسى وفي صحة الوثائق التي قدَّمها، فامتنع عن أي إشارة إلى هذا الحادث الذي لو صح لكان جليلاً.^{٤١}

الممالك والكنيسة

وعمل المماليك ببعض النصوص الشرعية القديمة وباجتهادات بعض الفقهاء، فضيقوا على النصارى وأوجبوا الحدَّ من نفوذهم، ففي السنة ١٢٧٧ «هدم شيخ الملك الظاهر كنيسة النصارى بالقدس وقتل قسيسها بيده وعملها زاويةً، وهدم كنيسة الروم بالإسكندرية، وهي كرسي كنائسهم، يعقدون بها البتركة ويزعمون أن رأس يحيى بن زكريا — عليهما السلام — فيها، وجعلها مسجداً وسماها المدرسة الخضراء.»^{٤٢} وفي السنة ١٣٦٤ «ورد الخبر بمنازلة الفرنج مدينة الإسكندرية، فتتبع النصارى وأحضر البطريق والنصارى وألزموا بحمل أموالهم لفكك أسرى المسلمين، وكتب بذلك إلى البلاد الشامية.»^{٤٣} وفي السنة ١٤٤٢ «ختم على كنائس النصارى الملكيين في مصر؛ لأنه وجد داخلها أعمدة كدان من الحجارة المنحوتة وأكتاف جدد، وحصل على جميع أهل الطوائف من أهل الذمة من الإهانة والتعريم ما لا مزيد عليه.»^{٤٤} وفي السنة ١٤٤٧ «أمر السلطان

^{٣٩} Aubenas, R., Pie II, Fliche et Martin, XV, 61.

^{٤٠} Musset, H., Hist. du Christ., II, 26, 55.

^{٤١} Pastor, L., Gesch. der Papste, III, 234–236.

^{٤٢} نهاية الأرب للنويري، باريس، رقم ١٥٧٨، ج ٢٩، ص ٩٨.

^{٤٣} السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي، باريس، رقم ١٧٢٧، ص ٤٦–٤٧.

^{٤٤} إنباء الغمر بأنباء العمر، لابن حجر العسقلاني، باريس رقم ١٦٠٢، ص ٢٦١.

بهدم كنيسة النصارى الملكيين التي بقصر الشمع في مصر، وأمر ببيع أنقاضها وأن يعمر بئمنها المسجد القديم الذي كان بجانبها، وجعل كرسي البطريرك منبرًا، وأخذت جميع عددها من زجاج ونحاس وجعلت في الجامع.^{٤٥} وفي السنة ١٤٤٨ «توفي السيد أحمد بن حسن بن علي الشافعي الشهير بالنعمانى، وكان نقمة على أهل الذمة في ما يجدونه في كنائسهم، وقال لي صاحبنا الشيخ برهان الدين النعماني إنه أسلم على يده ثمانون كافرًا، وإنه لم يبق في قصر الشمع ولا في الجيزة ولا في المدينة كنيسة لليهود ولا للنصارى إلا وقد شملها من السيد إما هدم وإما بعض هدم وإما إزالة منبر أو قنوة وهي الأخشاب التي تصنع فيها التماثيل، أو إزالة حجاب وهي المقاصير التي تجعل على الهياكل.»^{٤٦} وفي أيام السلطان الملك الظاهر جقمق «جهز خاصكيًا اسمه أينال باي، فحضر إلى القدس الشريف بمرسوم من الملك الظاهر بالكشف على الديارات، وبهدم ما استجد بدير صهيون وغيره وانتزاع قبر داود — عليه السلام — من النصارى، فهدم البناء المستجد بصهيون وأخرج قبر داود من أيدي النصارى ونبشت عظام الرهبان المدفونين بالقبر الذي به قبر داود، وأخرج المسجد من دير السريان وسلم للشيخ محمد المثمر وصار زاوية، وهدم البناء المستجد ببيت لحم وبالقمامة (القيامة) وقلع الدرايزين الخشب المستجد بالقمامة وأخذ إلى المسجد الأقصى بالتكبير والتهليل، وكشفت جميع الديارات وهدم ما استجد بها، وكان ذلك في أواخر عمر السلطان، فحتم الله أعماله بالصالحات وإزالة الديارات المنكرات.»^{٤٧}

أيمان النصارى

والأيمان جمع اليمين؛ أي القسم، وكانت تُطلب من النصارى في أوقات الهدى والمصالحات ويخلف بها بعض قواد البحر والرسل الواردين للمواعدة والموافقة،^{٤٨} ونقل القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، عن محمد بن عمر المدائني أن أصل ترتيب أيمان النصارى كان

^{٤٥} التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي، ص ١٨٠-١٨٢.

^{٤٦} التبر المسبوك أيضًا، ص ٢٢٧-٢٢٨.

^{٤٧} الأئس الجليل لمجير الدين الحنبلي، ص ٤٤٣-٤٤٤.

^{٤٨} الروم الملكيون في الإسلام، لحبيب الزيات، ج ١، ص ٤٥.

في زمان الفضل بن الربيع وزير الخليفة هارون الرشيد، وحكي عن بعض كُتاب العراق فقال:

أراد الفضل بن الربيع أن يستحلف عوئًا كاتبه النصراني فلم يدر كيف يستحلفه، فقلت: ولني استحلافه، قال: دونك، فقلت له: احلف بإلهك الذي لا تعبد غيره ولا تدين إلا له، وإلا فخلعت النصرانية وبرئت من المعمودية، وطرحت على المذبح خرقة حيضة يهودية وقلت في المسيح ما يقوله المسلمون: «إن عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب.» وإلا فلعنك البطريك الأكبر والمطارنة والشمامسة والقمامسة والديرايون وأصحاب الجامع عند مجتمع الجنائز وتقريب القربان وبما استغاثت به النصارى ليسوع، وإلا فعليك حرم الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا الذين خرجوا من نيقية حتى أقاموا عمود النصرانية، وإلا فشقتت الناقوس وطبخت به لحم جمل وأكلته يوم الاثنين مدخل الصوم ورميت الشاهد بعشرين حجرًا جاحدًا بها، وهدمت كنيسة لد وبنيت بها كنيسة اليهود وخرقت غفارة مريم وكهنونة داود، وأنت حنيف مسلم، وهذه اليمين لازمة لك ولعقبك من بعدك.^{٤٩}

تواقيع البطارقة

والتوقيع في عهد المماليك هو البراءة، وأقدم البراءات براءة البطريك داود الخوري الأنطاكي، وقد سبقت الإشارة إليه وإلى تَقْرِيهِ من رومة وخضوعه لحبرها، وإليك نصها — كما حفظه القلقشندي:

الطرة

توقيع كريم بأن يستقر البطريك المحتشم المبجل داود الخوري، المشكور بعقله لدى الملوك والسلاطين — وفقه الله تعالى — بطريك الملكية بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة، حسبما اختاره أهل ملته المقيمون بالشام المحروس، ورغبوا فيه، وكتبوا خطوطهم به، وسألونا تقريره دون غيره، حسبما رسم به على ما

^{٤٩} صبح الأعشى للقلقشندي، ج ١٣، ص ٢٨٧-٢٨٨، راجع أيضًا رسالة الزيات المشار إليها، ص ٤٦-٥٢.

شرح فيه، رسم بالأمر لا زال يعز بالالتجاء إلى حرمة من يأوي إليه ويقصد عدله من أهل الملل ويعتمد عليه أن يستقر فلانٌ - وفقه الله - بطريك الملكية بالمملكة الشامية المحروسة، حسبما اختاره أهل ملته المقيمون بالشام المحروس ورجوا فيه وكتبوا خطوطهم به وسألوا تقريره في ذلك دون غيره؛ أنه هو كبير ملته والحاكم عليهم ما امتد في مدته، وإليه مرجعهم في التحريم والتحليل وفي الحكم بينهم بما أنزل الله تعالى في التوراة ولم ينسخ في الإنجيل، وشريعته مبنية على المسامحة والاحتمال والصبر على الأذى وعدم الاكتراث به والاحتفال، فخذ نفسك بالأول بهذه الآداب، واعلم بأنك في المدخل إلى شريعتك طريقٌ إلى الباب فتخلق من الأخلاق بكل جميل ولا تستكثر من متاع الدنيا؛ فإنه قليل، وقدم المصالحة بين المتحاكمين إليك قبل الفصل البت؛ فإن الصلح - كما قيل - سيد الأحكام، وهو قاعدة دينك المسيحي ولم تخالف فيه المحمدية الغراء دين الإسلام، ونظف صدور إخوانك من الغل، ولا تقتنع بما ينظفه ماء المعمودية من الأجسام.

وإليك الأمر في البيع، وأنت رأس جماعتك، والكل لك تبع، فأياك أن تتخذها لك تجارةً مربحةً أو تقتطع بها مال نصراني يقربه، فإنه ما يكون قد قربه إلى المذبح وإنما ذبحه، وكذلك الديارات والقلالي يتعين عليه أن يتفقد فيها كل أمر في الأيام والليالي، وليجتهد في إجراء أمورها على ما فيه دفع الشبهات، ويعلم أنهم إنما اعتزلوا فيها للتعبد فلا يدعها تتخذ منتزهات، فهم إنما أحدثوا هذه الرهبانية للتقلل في هذه الدنيا والتعفف عن الفروج، وحبسوا فيها أنفسهم حتى إن أكثرهم إذا دخل إليها ما يعود يبقى له خروج، فليحذرهم من عملها مصيدة للمال أو خلوة له، ولكن بالنساء حرامًا ويكون إنما تنزه عن الحلال، وإياه ثم إياه أن يؤوي إليه من الغرباء القادمين عليه من يريب، أو يكتم عن الإنهاء إلينا مشكل أمر ورد عليه من بعيد أو قريب، ثم الحذر الحذر من إخفاء كتاب يرد إليه من أحد من الملوك، ثم الحذر الحذر من الكتابة إليهم أو المشي على هذا السلوك، وليتجنب البحر وإياه من اقتحامه؛ فإنه يغرق أو تلقي ما يلقيه إليه جناح غراب منه فإنه بالبين ينقع.

والتَّقْوَى مأمور بها أهل كل ملة وكل موافق ومخالف في القبلة فليكن عمله بها، وفي الكتابة ما يغني عن التصريح، وفيها رضى الله تعالى وبها أمر المسيح.^{٥٠}

ونقل القلقشندي^{٥١} توقيعا سلطانيا ثانيا وجهه السلطان إلى البطريرك الأنطاكي ميخائيل إما الثاني أو الثالث؛ لأنه بين وفاة العمري ناسخ وصية البطاركة التي تضمنها التوقيع السابق (١٣٤٨)، وسنة فراغ القلقشندي من كتابة صبح الأعشى (١٤١٢) قام على الكرسي الأنطاكي بطريركان تسمى كلُّ منهما باسم ميخائيل،^{٥٢} وأهم ما يلفت النظر في هذا التوقيع السلطاني خلوه من الإشارة إلى الباب؛ أي البابا، ولا غرو فداود انفرد بخضوعه لرومة ولم يرد اسمه في لوائح البطاركة الأرثوذكسيين، وهذا هو نص التوقيع الثاني:

أما بعد حمد الله الذي جعلنا نشمل كل طائفة بمزيد الإحسان ونفيض من دولتنا الشريفة على كل بلد اطمئنانا لكل بلد وإيمان، ونقر عليهم من اختاروه ونراعيهم بمزيد الفضل والامتناع، والشهادة بأن الله الذي لا إله إلا هو الواحد الذي ليس في وحدانيته قولان، والفرد المنزه عن الجوهر والأقنوم والوالد والولد والحلول والحدثان، شهادة أظهر إقرارها اللسان وعمت بها الجوارح والأركان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله المبعوث إلى كافة الملل والإنس والجان، الذي بشر به عيسى وآمن به موسى وأنزل عموم رسالته في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فصح النقل بنبوته وأدم في الماء والطين وأوضح بذلك البرهان، وعلى آله وصحبه الذين ساروا بإخلاص الوحدانية وشادوا أركان الملكة المحمدية وأعزوا الإيمان وأزالوا الطغيان، صلاةً ينفع طيبتها ويفصح خطيبتها ويفرح بها الرحمن.

فإن أولى من أقمناه بطريركا على طائفة النصارى الملكية على ما يقتضيه دين النصرانية والملة العيسوية حاكما في أمورهم مفصحا عما كمن في

^{٥٠} صبح الأعشى للقلقشندي، ج ١٢، ص ٢٤٦-٢٤٧.

^{٥١} المؤلف نفسه، ج ١٢، ص ٤٢٤-٤٢٦.

^{٥٢} الروم الملكيون في الإسلام، لحبيب الزيات، ص ٥٨.

صدورهم؛ مَنْ هو أهلٌ لهذه البطيركية وعارف بالملة المسيحية، اختاره لها أهلٌ طائفته؛ لما يعلمون من خبرته ومعرفته وكفايته ودربته، وندب إلى ولاية يستحقها على أبناء جنسه ورغب في سلوكها له مع إطابة نفسه، مع ما له من معرفة سرت أخبارها وظهرت بين النصارى آثارها، وكان البطيريك ميخائيل أدام الله بهجته هو من النصارى الملكية بالمعرفة مذکور وسيره بينهم مشهور، القائم فيها بالسيرة الحسنة، والسالك في مذهبهم سيراً تشكره عليها الألسنة. لذلك رسم بالأمر الشريف لا زال إحسانه العميم لكل طائفة شاملة وبره الجسيم لسائر الملل بالفضل متواصلاً أن يستقر بطرغاً على النصارى الملكية بالشام وأعماله على عادة من تقدمه بذلك، وتقوية يده على أهل ملته من تقادُم السنين بحُكم رضاهم، ومنع من يعارضه في ذلك حملاً على ما بيده من التوقيع الكريم المستمر حكمه إلى آخر وقت.

فليباشِرْ هذه البطيركية مباشرة محمودة العواقب مشكورة؛ لما تجلت به من جميل المناقب، وليحكم بينهم بمقتضى مذهبه، وليسرّ فيهم سيراً جميلاً ليحصل لهم غايةً قصده ومأربه، ولينظرْ في أحوالهم بالرحمة، وليعملْ بتعلقاتهم بصدق القصد والهمة، وليسلك الطرق الواضحة الجليلة، وليتخلق بالأخلاق المرضية، وليفصل بينهم بحكم مذهبه في مواريتهم وأنكحتهم. وليعتمد الزهد في أموالهم وأمتعتهم؛ حتى يكون كُلاً كبير منهم وصغير ممتثلاً لأمره واقفاً عندما يتقدم به إليه في سره وجهره، منتصبين لإقامة حرمة وتنفيذ أمره وكلمته، وليحسن النظر في من عنده من الرهبان، وليرفق بذوي الحاجات والضعفاء من النساء والصبيان، والأساقفة والمطارنة والقسيسين زيادة للإحسان إحساناً جارياً في المساء والصباح والغدو والرواح.

فليمتثلوا أمره بالطاعة والإذعان وليجيبوا نهيهِ من غير خلاف ولا توان، ولا يمكن النصارى في الكنائس من دق الناقوس،^{٥٣} ورفع أصواتهم بالضجيج ولا سيما عند أوقات الأذان لإقامة الناموس، وليتقدم إلى جميع النصارى بأن

^{٥٣} «إذا أرادوا الصلاة ضربوا بالناقوس، وهو خشبة مستطيلة يُضرب عليها بخشبة لطيفة فيجتمعون.»
صبح الأعشى للقلشندي، ج١٣، ص٢٨٤.

كلا منهم يلزم زيه وما جاءت به الشروطُ العمرية عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — لتكون أحوالهم في جميع البلاد مرعية، وليخش عالم الخفيات، ويستعمل الأناة والصبر في جميع الحالات، والوصايا كثيرةٌ وهو بها عارفٌ، والله يلهمه الرشد والمعارف.

ومما تجدرُ الإشارةُ إليه لهذه المناسبةِ التنبيهُ السلطاني بوجوب التقيد بشروط عهدة عمر بن الخطاب واعتبارها واجبة شرعًا.

قضية الباب

والباب في «المصطلح الشريف» عند المماليك هو البابا، وقد ورد هذا اللفظ غير مرة في كتابات الديوان السلطاني وفي بعض التواريخ؛ ففي التوقيع السلطاني الذي وجه إلى البطريك داود الخوري العبارة: «واعلم أنك في المدخل إلى شريعتك طريق إلى الباب.» وقد جاء في مخطوط باريس رقم ٤٤٣٩، وهو من نوع كتابي التعريف للعمري وصبح الأعشى للقلقشندي، كلامٌ عن بطاركة النصارى ووصف لبعض تقاليدهم، وجاء أيضًا أن أول البطاركة هو الباب بتفخيم البائين وأنه بترك الملكية، وأن الثاني بطرك المملكانية بكرسي أنطاكية، وأن ولاية هذا من الأبواب الشريفة، وأنه «بعد كتابة محضر من النصارى المملكانية باستحقاقه يكتب محضر ثاني ويجهزونه النصارى إلى الباب برومية، فيقف عليه ويجهز لهم استمرار الولاية إلى أنطاكية.»

وكان في أمل صديقنا المرحوم حبيب الزيات أن يكون أمرُ رومة في العصور الغابرة مُطاعًا في جميع فُرُوع الكنيسة الجامعة، وأن يكون لها القولُ الفصلُ في الأمور الهامة، فما إن اطلع على هذه العبارات في القلقشندي وفي مخطوط باريز حتى ظن أنه بلغ ما في نفسه، فصنف رسالة أسماها «المملكانيون يدينون بطاعة الباب» خلص فيها إلى القول إن المملكين الأنطاكيين أصبحوا بعد قدوم الصليبيين فرعين مستقلين؛ الأول منهما كان باقياً على حالته السابقة خارج الإمارات الصليبية، له أساقفةٌ ورؤساء متفردون، وهم الذين أشار إليهم كاتب مخطوط باريس؛ أي أولئك الذين «يجهز البابا لبطاركتهم استمرار الولاية»، والفرع الثاني في نظر الزيات كان داخل حدود الإمارات الصليبية، وكانت تتجاوزه أطماع فئتين فئة الروم البيزنطيين حينما كان يشهد نفوذهم في أنطاكية وفئة الصليبيين الذين كانوا يترصدون الفرص للتغلب على الكنائس والأديار، ثم يخلص

صديقنا الزيات إلى القول: «وكان يتفق أحياناً أن يختار بطريك أنطاكية من بين صنائع القسطنطينية، فيلبث في مكانه لتعذر السفر عليه إلى أنطاكية أو لمانع آخر، فيلبس لكل حالة لبوسها وينحاز بالطبع — أو بالضرورة — إلى أهواء بطاركة القسطنطينية ويحاربهم في سياستهم ونفورهم من اللاتين، فيظن من لا معرفة له بالحقيقة أن الكرسي الأنطاكي بأسره الذي يمثله بشخصه كان مشايحاً لشقاق كيولاريوس، في حين أن البطريرك إنما كان يتكلم باسمه الخاص دون موافقة أساقفته وشعبه في ديار الإسلام، وإذا صح قط أن أحد أحبار الكرسي المقيمين في الديار الرومية أو أنطاكية جاهر بشيء في ذلك فيكون قد نطق بلسانه وعبر عن جنانه، وهو بعيد عن كرسيه غريب عن شعبه المستقر في الديار الإسلامية، وشتان بين قوم من البيزنطيين كان الحقد السياسي أو الجنسي المتأثل في صدورهم، ولا سيما بعد انتزاع الصليبيين القسطنطينية، يمي عليهم عبارات الخصام والخلاف لكرسي رومة وبين أقوام من العائشين في ذمة الإسلام تنزهوا عن هذه الأغراض وبرئوا من هذه الأمراض، وجاروا الصليبيين وانقادوا للأساقفة اللاتين منذ القرن الحادي عشر.»^{٥٤}

وكلنا يقول بدستور واحد وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية، وكلنا أيضاً يصلي «من أجل ثبات كنائس الله المقدسة واتحاد الكل». ولكن القضية قضية تاريخية علمية، يجب أن تُعالج معالجة علمية للتوصل إلى الحقيقة وتشخيص الداء الذي منه نشكو منذ تسعمائة سنة لنوفق — بعون الله — إلى وصف الدواء، ونحن لا ننكر خضوع البطريرك داود لرومة، وقد أبنا ذلك في محله، ولكننا لا نرى في العبارة التي وردت في مخطوط باريس رقم ٤٤٣٩، التي تفيد أن النصارى كانوا يكتبون محضراً باستحقاق بطريركهم، ويجهزونه إلى الباب في رومة، فيقف عليه ويجهز لهم استمرار الولاية إلى أنطاكية، نقول لا نرى في هذا القول دليلاً علمياً كافياً يخول الزيات استنتاجه الذي ورد أعلاه، فالزيات يعترف في رسالته هذه نفسها أن المخطوط الباريسي «غفل من اسم المؤلف ومن تاريخ التأليف والنسخ»^{٥٥} وبالتالي فنحن أمام رواية مجهول راويها، وقواعد المصطلح تقضي بالثبوت من هوية الراوي والتعرف إلى شخصيته وسر غوره، ودرس المحيط الذي عاش فيه لضبط أمياله ونزعاته ودرجة علمه وذكائه واتصاله

^{٥٤} الروم الملكيون في الإسلام، ص ٧٣ و ٧١-٧٢.

^{٥٥} المؤلف نفسه، ص ٦٦.

بالحوادث التي يروي أخبارها، والروايات التاريخية هي صلتنا الوحيدة بحوادث الماضي، فإن أخبرتنا الخبر على حقه توصلنا إلى الحقيقة، وإن أُرجفت أو قُعتنا في مهاوي الضلال والتضليل، فمن قال إن نصارى أنطاكية كانوا يجهزون المحاضر إلى بابا رومة فيجهز لبطارتهم استمرار الولاية؟ وأين عاش هذا الراوي ومتى، وماذا كانت مكانته؟ وجواب الزيات عن هذه الأسئلة الأساسية هو لا أدري! وردنا نحن أن رواية الراوي المجهول تبقى ضعيفة واهية ما دام راويها مجهولاً.

وقال الزيات — رحمه الله — في الصفحة ٦٩ من رسالته إن حب التحقيق دعاهُ إلى السفر إلى رومة للبحث في خزائن الفاتيكان عن أحد هذه المحاضر التي كان المليون «يجهزونها ويلتمسون بها من البابا إقرار انتخاب بطارتهم». فعم حين علم أن كل ما كان محفوظاً في حاضرة الكتلثة من هذه المحاضر ضاع وتلف لما دخل رومة شارل الثامن ملك فرنسا سنة ١٤٩٣ وأطلق أيدي جنوده في السلب والنهب والحريق. وأضاف الزيات: إن كل ما هو في خزائن مجمع نشر الإيمان من الكتابات والأخبار الملكية لا يتجاوز اليوم أوائل القرن السابع عشر، فيترتب علينا — والحالة هذه — أن نقول: إن مخطوط باريس غفل من اسم المؤلف ومن تاريخ التأليف والنسخ، وإنه ليس هناك في رومة ما يثبت قول هذا المؤلف: إن نصارى أنطاكية كانوا يجهزون رومة بالمحاضر لتجهز بطارتهم باستمرار الولاية، ولا يجوز لنا «افتراض» وجود هذه المحاضر في رومة قبل السنة ١٤٩٣ سنة السلب والنهب والحريق؛ لأنه ليس لدينا ما يُخولنا هذا «الافتراض». وبالتالي فقولُ الزيات: «إن ما كان محفوظاً من هذه المحاضر ضاع وتلف.» هو قولٌ خاطئٌ صادرٌ عن غير روية.

ولم يجد الزيات في براءة البطريك ميخائيل التي نقلها القلقشندي العبارة: «واعلم بأنك في المدخل إلى شريعتك طريق إلى الباب.» تلك التي وردت في براءة البطريك داود فضلاً وجهة أمره ونعت كاتب براءة البطريك ميخائيل «بجعجة الألفاظ دون غناء غلب عليها التكرار لغير طائل!» ونحن نخشى أن يكون صديقنا قد تغاضى وتغابى، ونرى في إسقاط الإشارة إلى «الباب» في براءة البطريك ميخائيل وإثباتها في براءة البطريك داود؛ مجالاً للقول إن السلطان علم بخضوع الواحد إلى البابا وامتناع الآخر، ودليلاً على تيقظ الديوان السلطاني لا على جعجة كتّابه.

وقد ڪون ڪلام مؤلفنا المجهول صاحب مخطوط بارس وصفًا لتقاليد الجاليات اللاتينية في الإمارات الصليبية؛ فاللاتينُ ملكيون في عرفه والأرثوذكسيون المقيمون في هذه الإمارات أُكْرهوا على الخضوع لأساقفة اللاتين، وهذه الجاليات كانت تجهز المحاضر باستحقاق بطاركتها فترسلها إلى رومة، والبابا كان يجهز — بدوره — استمرار الولاية لهؤلاء البطاركة.^{٥٦}

^{٥٦} Cahen, C., Formation de l'Eglise Latine d'Antioch, op. cit., 208-323.

المجمع الفراري الفلورنسي

١٤٣٨-١٤٣٩

الأتراك العثمانيون

وفي الوقت نفسه الذي كانت تتناثر فيه إمارات الصليبيين تناثر أوراق الخريف كانت قبيلة «كاي كان كلي» التركية الخراسانية قد تقبلت الإسلام، ووطدت أقدامها عند حدود الروم في شمال أسية الصغرى الغربي، وحذا حذوها الصروخان والقرمان وأيدين وغيرها، وتولى عثمان زعامة الكاي كان كلي فعُرفت القبيلة باسمه، وفي السنة ١٣٠١ تمكنت هذه القبيلة بخيولها المصفحة من اختراق صفوف الروم أمام نيقوميذية، وضغطت القبائل الأخرى على ساحل الأرخييل وعلى مُدُن الروم في الداخل، وواصل أورخان بن عثمان الحرب على الروم فاستولى على نيقوميذية ونيقية، ثم جنح إلى السلم ففضى نحو عشرين عامًا يثبَّت دعائم ملكه وينظم الجيش.

وفي السنة ١٣٥٧ قطع الدردنيل وأغار على الشاطئ الأوروبي فاحتل غالبيولي، وأخضع مراد الأول (١٣٥٩-١٣٨٩) الروملي وبلغارية والصرب، وخلفه ابنه بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢) فلم يَقِلَّ عن أبيه مهارة وإقدامًا؛ فأخضع الإمارات التركية في أسية ووطد أركان دولته في أوروبة، وعم الهول والفرز معظم الأوروبيين، وقامت رومة تدعو إلى مقابلة الأتراك، وخرج لذلك جيشٌ عظيم بقيادة سيجيسموند ملك المجر ضم بين كتائبه كثيرًا من فرسان فرنسة وألمانية، وفاز الأوروبيون في بادئ الأمر واستردُّوا من الترك كثيرًا من المُدُن، ثم شرعوا في حصار نيكوبوليس عند نهر الدانوب، فأسرع بايزيد للقائهم فهزمهم (١٣٩٦)، ثم أطل تيمورلنك فخرج بايزيد لصدده وتقابل الجيشان في

أنقرة (١٤٠٢) فكانت الهزيمة على العثمانيين، وأخذ بايزيد أسيرًا ومات كمدًا، وهلك تيمورلنك فاقتتل أولاد بايزيد من أجل العرش عشرين سنة. ثم انتهى الأمر بتغلب محمد الأول (١٤١٣-١٤٢١) فصادق الروم ولمّ شعث الدولة وكبح جماح الإمارات وأصلح ما أفسدته الفتن، وخلفه مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١) فعمل على مواصلة الفتوح، وكان عمانوئيل الثاني فسيفس الروم قد طلب إلى السلطان الجديد أن يبقي ابنه رهينة في القسطنطينية فأبى، وفي السنة ١٤٢١ أعلن يوحنا الثامن فسيفسًا وشريكًا لوالده في الحكم، فأطلق سراح مصطفى بن بايزيد المطالب بالعرش العثماني كما حرر جنيدًا الوزير السابق الثائر، فاضطر مراد الثاني إلى أن يحارب مصطفى، ثم قام بخمسين ألف جندي إلى القسطنطينية وضرب الحصار عليها، ثم اضطر إلى أن يرفع هذا الحصار لمجابهة ثورة هامة أذكاها عمانوئيل في بروسة ونيقية والقرمان.

يوحنا الثامن ومراد الثاني

وكانت دولة الروم قد تضاءلت، فلم تعد تشمل سوى القسطنطينية وضواحيها حتى سلمبرية ثم بعض الأراضي الضيقة في ساحل البحر فجلب أثوس فثسالونيكية فميسرة وميزيمبرية وأنخيالوس، وكانت الموارد قد نضبت وقُلّ الخير وكاد ينقطع، وكانت النقود الذهبية قد أصبحت نادرة في أيام عمانوئيل الثاني (١٣٩١-١٤٢٥)، فلما تسلم يوحنا الثامن دفة الحكم اكتفى بالفضي منها.^١

واستغل مراد الثاني ضعف الروم فاستولى على مودونة في السنة ١٤٢٥ وخرج منها بألف أسير، وفي السنة ١٤٣٠ زحف على ثسالونيكية وضرب الحصار عليها، وكان أندرونيكوس باليولوغوس قد باعها من البنادقة منذ السنة ١٤٢٣ لقاء خمسين ألف زكينة، ولم تتمكن البندقية من إقامة حامية قوية، فاستولى عليها السلطان بنفسه في ٢٩ أيار سنة ١٤٣٠، وأباح نهبها وذبح من قاومه من أهلها وكانوا كثيرًا، وحول جميع كنائسها إلى جوامع ما عدا كنيسة القديس ديمتريوس.^٢

^١ Blanchet, A. Les Dernières Monnaies d'Or des Empereurs Byzantins, Rev. Numis., 1910, ٧

.78 ff

^٢ .Anagnostes, J., Extremo, 481-538

وعظم على يوحنا الثامن سقوط ثسالونيكية في يد الأتراك وأفرجه تقدم مراد وانتصاره، فهرع يرمم حصون العاصمة، ولا تزال بعض النقوش الباقية تنطق باهتمامه هذا، وهاله تخاضم الجنويين والبنادقة في هذا الظرف الحرج،^٢ وحز في صدره أن أخويه ثيودوروس وقسطنطين تنازعا الخلافة بعده واستعدا لحرب أهلية مرة وتسابقا لخطب ود مراد الثاني.^٤

قرب الثرى وبعد النبط

وكان من الطبيعي جداً أن يعمد الروم إلى نصارى الغرب للصمود في وجه المسلمين، ولكن التراب الندي كان قريباً والماء بعيداً، فرومة تطلب خضوع الإكليروس اليوناني ولم ترض عن هذا الخضوع بديلاً، والفسيلفس كان ينتظر المدد الحربي والمالي مقابل الخضوع، وكلُّ وعد بما لم يملك وكلُّ اتعد بما لا أمل في الوصول إليه،^٥ وجاء في بعض المراجع الأولية أن عمانوئيل الثاني أوصى قبيل وفاته ألا ينظر إلى الاتحاد إلا كوسيلة لصد الأتراك، وأن يصار إلى المطالبة بعقد مجمع مسكوني، وأن يماطل في ذلك بقصد كسب الوقت، وأنه لا يمكن التوفيق بين عجرة اللاتين وعناد الروم.^٦

مجمع بازل (١٤٣١-١٤٤٨)

وطالب الغرب بإصلاح الكنيسة إصلاحاً عاماً «يشمل الرأس والأعضاء» ويضم شتات الكنيسة ويدفع عنها خطر الأتراك، فدعا البابا مرتينوس الخامس إلى مجمع في بازل يبحث هذه الأمور جميعها ويحقق الإصلاح المنشود، وتوفي مرتينوس قبل افتتاح المجمع، وخلفه أفجانيوس الرابع (١٤٣١-١٤٤٧) فتم افتتاح المجمع في تموز السنة ١٤٣١، ولم يرض البابا عن البحث في إصلاح رأس الكنيسة فلم يحضر اجتماعات بازل، وفاوض

^٢ Brehier, L., Byzance, 489

^٤ Phrantzes, J., Chron., II, 12

^٥ Ostrogorsky, G., Byzantine State, 499

^٦ Phrantzes, J., Chron., II, 13

الآباء المجتمعون يوحنا الثامن في كيفية التعاون بين النصارى للصوص المتمر في وجه الأتراك المسلمين، وتبادل الطرفان الوفود فقام وفدٌ أرثوذكسي إلى بازل، وكان الأيغومينس أسيدورس ألمع أعضاء هذا الوفد، وهو الذي أصبح فيما بعد رئيس أساقفة كييف، فألقى خطابًا حماسيًا أكد فيه أن إتمام الاتحاد المنشود يتحف العالم بأثر تذكاري يفوق صنم رودوس في سُمُوهُ نحو العُلَى ويصل رأسه إلى السماء، فيضيء الشرق والغرب بلمعانه،^٧ ثم بات الوفد الأرثوذكسي ينتظر البحث التفاهم والاتحاد، ولكن أساقفة الغرب تشاحنوا كثيرًا في أمر المكان الذي يلتئم فيه مجمع مسكوني، ثم اتفقوا على إرجاء البحث في الاتحاد بين الكنيستين إلى أن يكونوا قد حلُّوا مشكلة يوحنا هوس وأتباعه، فغضب الأرثوذكسيون لكرامتهم وظنوا أن أخوانهم الغربيين إنما ساووا بقرارهم هذا بين المؤمنين الأرثوذكسيين وبين هراطقة بوهيمية، وعلمت الأوساط الإكليريكية والشعبية في الشرق بما جرى فهبَّت عاصفة هوجاء من الاستياء في القسطنطينية.^٨

مجمع فراري (١٤٣٨)

وكان يوحنا الثامن قد أرسل وفدًا في مطلع السنة ١٤٣١ ليفاوض مرتينوس الخامس في أمر الاتحاد والمساعدة، وعلم هذا الوفد — وهو لا يزال في المورة في طريقه إلى رومة — بوفاة مرتينوس فعاد إلى القسطنطينية،^٩ فأرسل يوحنا وفدًا ثانيًا يفاوض البابا الجديد أفجانيوس الرابع، وكان الشقاق قد ذر قرنه بين الكرادلة، وكان مجمع بازل قد بدأ يناوئ رومة فلم يرَضَ أفجانيوس عما رضي عنه سلفه وأصر على وجوب عقد مجمع الاتحاد في فراري لا في القسطنطينية، وعلم الآباء المجتمعون في بازل بما جرى بين أفجانيوس والوفد البيزنطي، ولم يرَضُوا عن انتقال المجمع من بازل إلى فراري فأرسلوا — بدورهم — وفدًا إلى القسطنطينية (أوائل سنة ١٤٣٣) يؤكد أن سلطة المجمع المسكوني أعلى من سلطة البابا، وأن أمراء أوروبا يؤيدون الآباء في بازل، وأنه من

^٧ Pierling, L. P., La Russie et le Saint Siège, I, 11

^٨ Ibid. I, 12, 15

^٩ Vast, H., Le Cardinal Bessarion, 42-43; Phrantzes, J., Chron., II, 3

مصلحة الروم أن يبطلوا الانشقاق،^{١٠} فأرسل يوحنا الثامن أخاه ديمتريوس والأيوغومينس أسيدورس ويوحنا نيسيپاتوس إلى بازل للمفاوضة — كما سبق وأشرنا،^{١١} وفي مطلع السنة ١٤٣٤ عاد الوفدُ المفاوضُ من رومة وجاء معه الكردينال غراتوني لمتابعة البحث، وقبل أفجانيوس بعقد المجمع المسكوني في القسطنطينية، ولكن الآباء المجتمعين في بازل أصروا على الاجتماع في أفينيون، فأصر أفجانيوس بدوره على عقد المجمع في بلدة إيطالية، وتجددت البعثات إلى القسطنطينية فأمَّ عاصمة الروم الأب الدومينياكاني يوحنا الراغوزي على رأس وفد يمثل مجمع بازل في السنة ١٤٣٥-١٤٣٦،^{١٢} وفي أيلول السنة ١٤٣٧ وصل إلى القسطنطينية وفدٌ بابوي جديد؛ ينقل رأي أفجانيوس في الموضوع،^{١٣} وتبعه وفدٌ مجمعي آخر، فوصل في الثالث من تشرين الأول،^{١٤} واضطر أفجانيوس أن يأمر المجمع المنعقد في بازل بالانتقال إلى فراري،^{١٥} فأظهر الآباء المجتمعون في بازل العصيان بأغلبية الأصوات وقرروا خلعهم وانتخبوا فيليكس الخامس محله.^{١٦}

تساور الروم

ودعا الفسيلفس يوحنا الثامن بطاركة الشرق للاشتراك في أعمال المجمع المسكوني الجديد، وطلب إلى أمراء الروس وحُكَّام رومانية وديسبوت الصرب وإمبراطور طرابزون أن يُعيَّنوا من يمثلهم في هذا المجمع، وتساور زعماء القسطنطينية في أمر المجمع المسكوني فشايح الفسيلفس على رغبته في الاتحاد عددٌ من كبار رجال السياسة، وكان ديمتريوس كيدونيس Cydonés قد نقل إلى اليونانية شيئاً من أبحاث الآباء الغربيين في اللاهوت فتَسَنَّى للآباء الأرثوذكسيين الاطلاع على آراء إخوانهم الغربيين أكثر من ذي قبل،^{١٧} ونشأ

^{١٠} Chalkondyles, L., Hist., VI, (P. G., Vol. 159)

^{١١} .Vast, H., Cardinal Bessarion, 43

^{١٢} Jorga, N., Notes et Extraits Pour Servir à l'Hist. des Croisades au XVe Siècle, 17 (25)

^{١٣} .Chalkondyles. L., Hist., VI; Vast, H., op. cit., 45-46

^{١٤} .Ebersolt, J., Orient et Occident, II, 58

^{١٥} .Doctoris gentium, 18 Sept., 1437; Hefelé-Leclercq, Hist. Conc., VII, 942-943

^{١٦} Hofmann, G., "Roderigo, Dekan von Braga", Orientalia Christiana Periodica, 1943, 171 ff

^{١٧} .Cydones, Correspondance, (Cammelli), XV, f; Jugie, M., Schisme Byzantin, 263

في الأوساط الإكليريكية الأرثوذكسية استعداداً للتفاهم مع الغرب والاتحاد، وأشهر هؤلاء بساريون الطرابزوني متروبوليت نيقية وأسيدورس أيغومنس دير القديس ديمتريوس في القسطنطينية ورئيس أساقفة كييف بعد السنة ١٤٣٦، ولع في صفوف المدافعين عن العقيدة الأرثوذكسية والتقليد الرسولي كلٌّ من مرقس (أفجينيكوس) متروبوليت أفسس وجورج سكولاريوس الذي أصبح فيما بعد البطريرك جناديوس،^{١٨} وشاور يوحنا الثامن مرادًا الثاني في أمر التفاوض مع الغرب فلم يرض.^{١٩}

الوفد الأرثوذكسي

وترأس يوحنا الثامن الوفد الأرثوذكسي بشخصه، وضمَّ إليه الأمير الملكي عمانوئيل يغارس والبطريرك المسكوني يوسف الثاني وعددًا من المطارنة والوجهاء، ومثل بطريرك الإسكندرية أنطونيوس متروبوليت هرقلية وغيغوريوس (ممّاس) بروتوسنكلوس القسطنطينية، وناب عن بطريرك أنطاكية كل من مرقس (أفجانيكوس) متروبوليت أفسس وأيسيدوروس متروبوليت كييف، وناب عن بطريرك أورشليم ديونيسيوس متروبوليت سرده، وبعد وفاته بالطاعون دوسيثاوس متروبوليت مونبازية، ومثل الكنيسة الروسية أسيدورس متروبوليت كييف.

وركب الوفدُ الأرثوذكسي السفن البابوية في الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٤٣٧، فوصل إلى البندقية في الثامن من شباط سنة ١٤٣٨ فاستقبل فيها استقبالًا حافلًا،^{٢٠} وقام يوحنا الثامن منها إلى فراري فوصلها في الرابع من آذار، ووصل البطريرك وحاشيته في التاسع من الشهر نفسه.

جلسات فراري

وافتح المجمع في التاسع من نيسان فتغيب عن الحضور معظم أعضاء مجمع بازل ومعظم أمراء أوروبا، ولم يشترك من هؤلاء سوى فيليب الطيب دوق بورغندية، وكان

^{١٨} .Vast, H., op. cit., 41, 48-50

^{١٩} .Phrantzes, Chron., II, 13

^{٢٠} .Vast, H., op. cit., 57-58

يهتم لمسائل الشرق فأرسل وفدًا يمثله في المجمع، فخاب أمل يوحنا الثامن وخاب سعيه لتنظيم حملة صليبية فور الانتهاء من أعمال المجمع،^{٢١} ومنع شارل السابع أساقفة فرنسا عن الاشتراك في أعمال المجمع فزاد في الطين بلة،^{٢٢} وتقرّر تأجيل العمل أربعة أشهر كاملة؛ لانتظار الذين تأخروا عن الحضور.

وعين كل فريق لجنةً من عشرة أعضاء تعد الأبحاث لعرضها على الهيئة العامة، فتألّفت لجنةُ الروم من مرقس متروبوليت أفسس وممثل الكرسي الأنطاكي ومن بيساريون متروبوليت نيقية وثلاثة مطارنة آخرين وبلسمون الخرتوفيلاكس، وسيليفستروس (سيروبولوس) الإكليسيارخوس ورئيسين من رؤساء الأديرة وراهب، وأضاف يوحنا الثامن إلى هؤلاء الأمير عمانوئيل يغارس، وتألّفت لجنة اللاتين من الكردينال شيزاريني والكردينال البرغاتي وأسقف والراهب الدومينيكي الإسباني توركو يمادا وستة آخرين. وبحث الأعضاء أمر التصويت، فطالب الروم باعتبار مجموع أصوات الروم موازيًا لمجموع أصوات اللاتين في مسائل العقيدة، فلم يقبل اللاتين بذلك، وكان للاتين مائتان وثمانية أصوات مقابل خمسة وعشرين للروم،^{٢٣} وحرر مرقس أفسس رسالةً إلى البابا شديدة اللهجة، فأوقفها الفسيلفس نفسه،^{٢٤} ولكن الفسيلفس لم يتمكن من منع مرقس عن توجيه السؤال التالي في جلسة الثامن من تشرين الأول: «أتجوز الإضافة إلى دستور الإيمان؟» فنهض بيساريون ورجا الحضور أن يبحثوا القضية نفسها بالشكل: «أيجوز القول بالانبثاق من الأب والابن؟» ثم خطب بوجوب الاتحاد،^{٢٥} وعاد مرقس إلى الموضوع نفسه في جلسة الرابع عشر من تشرين الأول، ولكن بدون جدوى،^{٢٦} فتنشط الأعضاء وتوقوا،^{٢٧} وكان الطاعون قد ظهر في أحياء فراري منذ شهر تموز فانتشر وتلوّث المدينة بكاملها، فأمر البابا بالانتقال إلى فلورنسة، فقام الأعضاء إلى عاصمة توسكانة في أول السنة ١٤٣٩.

^{٢١} Ibid. 63

^{٢٢} .Lavissee, Hist., de France, IV, 2, 265

^{٢٣} .Lambros, Paleologia I, 276–277 (Jean Eugenikos Logos Eucharistiraos)

^{٢٤} .Lambros, Paleologia I, 265–270

^{٢٥} .Vast, H., op. cit., 65; P. G. Vol. 161, Col. 532 f

^{٢٦} .Vast, H., op. cit., 69–74

^{٢٧} .Lambros, op. cit., I, 276

جلسات فلورنسة

وفي الرابع عشر من شباط سنة ١٤٣٩ تابع المجمع أعماله في جلسة افتتاحية في مقره الجديد في فلورنسة، واستمر النقاش في أمر الانبثاق في جلسات ثمانٍ من الثاني من آذار حتى الرابع والعشرين، وأدّى إلى صراع عنيف بين مرقس أفسس ويوحنا راغوزة، فتدخل الفسيفس ومنع مرقس عن متابعة البحث،^{٢٨} واتضح للفسيفس والبابا أن لا فائدة تُرتجى من متابعة المناقشة العلنية، فاتفقا على إيقافها وتعيين لجنة جديدة من العناصر الراغبة في الاتحاد لوضع صكّ بالاتحاد يوقعه الراغبون فيه من أعضاء المجمع أفراداً، وفي الثلاثين من آذار أعلن هذا الاتفاق في قاعة المجمع فضح مرقس ورد بيساريون وأيسيدورس فتدخل يوحنا الثامن وكم أفواه المعارضين،^{٢٩} وتولى بيساريون إعداد النص المطلوب، فاستقصى نقاط الاتفاق في قضية الانبثاق من أقوال الآباء الشرقيين والغربيين،^{٣٠} ووقع الآباء اليونانيون هذا الصكّ في الرابع من حَزِيرَان، ووافق الباب عليه في الثامن من الشهر نفسه، ورحل عن فلورنسة قبل التوقيع كُلاً من الديسبوت ديمتريوس والفيلسوف بليثون والعالم سكولاريوس (جناديوس فيما بعد)؛ كي لا يساء فهم موقفهم من هذا الصك،^{٣١} وكان البطريك المسكوني يوسف الثاني قد عارض الاتحاد قبل خروجه من القسطنطينية، فتوفي قبل إعلانه، وذلك في التاسع من حَزِيرَان،^{٣٢} ويلاحظ هنا أن صحة الوثيقة التي تتضمن موافقة هذا البطريك على ما جرى في فراري وفلورنسة لم تثبت بعد، وأن سبب وفاته لا يزال مبهماً غامضاً، أما مرقس متروبوليت أفسس وأحد ممثلي الكرسي الأنطاكي فإنه امتنع عن التوقيع واحتج على محتويات الصك.

وتم التفاهم بسهولة حول قضية المطهر واستعمال الفطير ومسألة الأبيكليسيس، وهي الابتهاال إلى الروح القدس الذي يتلى بعد كلام التقديس، وذلك بين الثاني عشر من حَزِيرَان والخامس من تموز، واشتدّ النقاش بين الثالث والعشرين والسادس والعشرين

^{٢٨} Ibid., 79–85.

^{٢٩} Hofmann, G., Die Konzilsarbeit in Florenz. Or. Christ. Period, 1938, 157–188, 372–422.

^{٣٠} P. G., Vol. 161, Col. 543–612; Vast, H., op. cit. 90–96.

^{٣١} Hefelé–Leclercq, Hist. des Conciles, VII, 1009.

^{٣٢} Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 673.

من حزيران حول سلطة البابا على البطاركة وصلاحيته في الدعوة إلى المجمع المسكونية، وهدد الفسيلفس بالانسحاب، ثم وفق بيساريون إلى صيغة أبانت سلطة البابا وحفظت «حقوق الكنيسة الشرقية وامتيازاتها».^{٢٣}

إعلان الاتحاد

واستخرج طلاب الاتحاد من مختلف الاقتراحات نصًا واحدًا للاتحاد، وافقوا عليه في جلسة السبت في الرابع من تموز سنة ١٤٣٩، وأعلن هذا النص رسميًا يوم الاثنين في السادس من تموز في قُدَّاس حبري أقامه البابا أفجانيوس الرابع، فتلاه باللاتينية الكردينال سيزاريني يمين البابا وبال يونانية بيساريون متروبوليت نيقية، ثم تعانقا، وإليك تعريب النص كما جاء في منشور البطريك كيرلس التاسع لمناسبة الذكرى المثوية الخامسة لمجمع فلورنسة:^{٢٤}

أفجانيوس الأسقف خادم خدام الله

أكتب هذا للذكر المؤيد، برضى والدنا الأعزُّ يسوع المسيح يوحنا باليولوغوس إمبراطور الروم، ورضى ممثلي إخواننا البطاركة الشرقيين وبقية أخواننا الأساقفة الحاضرين هنا، بالأصلة عن نفوسهم وبالنيابة عن الكنيسة الشرقية جمعاء؛ لتفرح السموات وتبتهج الأرض! فقد انهدم الحائط الفاصل بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، وأقيم السلام والاتفاق ثانية على حجر الزاوية يسوع المسيح الذي ضم الشعبين إلى واحد، جامعا كلاً الحائطين برباط السلام والمحبة الذي لا يَنحَلُّ، وقد اضمحلتْ غيومُ الحزن المديد، وتبدد ظلامُ الخصومة المزمَن وأضاء لنا كوكب الاتحاد البهي الشهوي.

فلتفرح الكنيسة أمنا؛ فإن أبناءها الذين كانت تُشاهدهم متخاصمين تراهم اليومَ راجعين إلى الوحدة والسلام، وتلك التي كانت تذرف دموعًا سخينة على انفصالهم لتشكر الآن بفرح لا يُوصف الإله القدير على اتفاقهم

.P. G., Vol. 160, Col. 52 ff ٢٣

٢٤ مجلة المسرة أيار ١٩٣٩، ص ٣٠٧-٣٠٨.

العجيب؛ ليفرح به المؤمنون في العالم أجمع وليهنئ المسيحيون أهمهم الكنيسة الجامعة، فهذا إن آباء الغرب والشرق بعد مرور حقبة طويلة من الاختلاف والشقاق قد ركبوا أخطار البر والبحر وتغلبوا على المتاعب وبادروا — بسرور — إلى هذا المجمع المسكوني المقدس، راغبين في تجديد الاتحاد المقدس والمحبة القديمة، ولم تحبْ آمالهم؛ لأنهم — بعد الأبحاث الطويلة الشاقة — بلغوا برأفة الروح القدس إلى الاتحاد المقدس المرغوب فيه، فمن يستطيع أن يرفع للقدير الشكر الوفي على هذا الإحسان، ومن لا يتعجب من كل قلبه من غنى مراحم الله، هل من قلب صخري لا تلينه مشاهدة رأفة الله هذه غير المتناهية، حقاً إنها لأفعال إلهية لا اختراعات الضعف البشري.

إذن يجب علينا قبولها بالاحترام العظيم والاعتراف بها بالترانيم المقدسة، لك المديح لك المجد لك الشكر يا يسوع المسيح يا ينبوع المراحم الذي أوليت عروسك الكنيسة الجماعة هذا الخير العظيم، وأظهرت في جيلنا عجائب حنوك حتى يتحدث الجميع بمعجزاتك، فقد رأينا بعيوننا ما طالما تأق السلف إليه فلم يروه؛ فإن اللاتين واليونان التئموا في هذا المجمع المسكوني المقدس، وبحثوا — بمنتهى الجهد والتدقيق — قضية انبثاق الروح القدس مُوردين آيات الكُتب الإلهية، ونصوصاً كثيرة لملفنة الغرب والشرق الآباء القديسين، الذين منهم مَنْ يقول: إن الروح القدس منبثق من الأب والابن، ومنهم من يقول إنه منبثق من الأب بالابن، إنما كلهم يرمون إلى مقصد واحد باللفاظ مختلفة.

وبالواقع أكد الروم أنهم بقولهم: إن الروح القدس ينبثق من الأب؛ لا ينفون انبثاقه من الابن، ولكن بما أنهم كانوا يظنون أن اللاتين بقولهم عن الروح القدس: إنه ينبثق من الأب والابن يُسلمون بمبدأين ونفختين امتنعوا عن القول بأن الروح القدس ينبثق من الأب والابن. على أن اللاتين أكدوا أنهم بقولهم عن الروح القدس: إنه ينبثق من الأب والابن لا ينفون كون الأب ينبوع كل اللاهوت، ومبدأ للابن والروح القدس، ولا ينكرون أن الابن يأخذ من الأب بثق الروح القدس، ولا يجعلون مبدأين أو نفختين، بل يعتقدون بمبدأ واحد فقط وبنفخة واحدة باثقة للروح القدس كما اعتقدوا على الدوام.

وبما أنّ مرجع هذه التعابير كلها إلى معنّى واحد؛ فقد اتفقوا — أخيراً — وأقروا برضى شامل الاتحاد التالي المقدس المحبوب من الله:

باسم الثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس، وبتصديق هذا المجمع المسكوني المقدس المنعقد في فلورنسة، نوجب على المسيحيين بأجمعهم أن يقبلوا حقيقة أيماننا هذه ويؤمنوا بها، معترفين كلهم أن الروح القدس هو — منذ الأزل — من الآب والابن، وأنه يأخذ جوهره وكيانه الخاص من الآب والابن معاً منبثقاً انبثاقاً أزلياً من كليهما كمن مبدأ واحد ونفخة واحدة.

ونصرح بأن الآباء القديسين الذين يقولون عن الروح القدس: إنه ينبثق من الآب والابن؛ لا يقصدون سوى هذا المعنى؛ أي أن الابن مثل الآب علة أقنوم الروح القدس كما يقول الروم، أو مبدأه كما يقول اللاتين، كما أن الآب هو علة الابن ومبدأه، وبما أن الآب عند ولادته لابنه الوحيد منحه كل ما يملك ما عدا الأبوة، هكذا أخذ الابن أزلياً من الآب أن يبيثق الروح القدس، ونحدد أن زيادة لفظة والابن في قانون الإيمان هي حسنةٌ وشرعيةٌ وصوابيةٌ؛ لأنها توضح حقيقةً من حقائق الإيمان، وقد اقتضتها الضرورة.

ونحدد أن جسد يسوع المسيح يقدس حقاً في خبز الحنطة، سواء أكان فطيراً أو خميراً، وعلى الكهنة أن يستعملوا هذا أو ذاك بحسب طقس كنيستهم — غربية كانت أو شرقية.

ونحدد أن نفوس الذين تابوا توبة حقيقية وماتوا في حال محبة الله قبل أن يكفروا عما اجترموه أو أهملوه بأفعال توبة لاثقة تتطهر بعد الموت بعذابات المطهر، وتتخلص منها بإسعافات المؤمنين الأحياء كذبيح القداس والصلوات والصدقات وغير هذه من أفعال المحبة التي اعتاد المؤمنون ممارستها لأجل المؤمنين حسب أصول الكنيسة، وأن نفوس الذين بعد قبولهم سر المعمودية لم يتدنسوا قط بأدناس الخطيئة، أو نفوس المؤمنين الذي بعد ارتكابهم الخطيئة قد تطهروا منها إذا كانوا في الجسد أو بعد الموت على النحو المتقدم أعلاه؛ تدخل حالاً السماء لتشاهد بوضوح الإله الواحد المثلث الأقانيم كما هو، وإنما تتفاوت درجة هذه المشاهدة بحسب اختلاف درجات الاستحقاق، وأن نفوس الذين يموتون في حال الخطيئة المميتة مفعولة كانت أو أصلية فقط تهبط حالاً إلى الجحيم لتتعذب بعذابات مختلفة متفاوتة.

ونحدد أيضًا أن الكرسي الرسولي المقدس والحر الروماني له أولية التقدم في المسكونة كلها، وهو خليفة الطوباوي بطرس هامة الرسل ونائب المسيح الحقيقي ورأس الكنيسة كلها وأبو المسيحيين بأجمعهم ومعلمهم، وقد أعطاه سيدنا يسوع المسيح بشخص الطوباوي بطرس ملء السلطان ليرعى ويدبر ويسوس الكنيسة الجامعة كما تتضمن ذلك أعمال المجامع المسكونية والقوانين المقدسة. ثم نجد النظام الذي رسمته القوانين لبقية البطارقة المكرمين، وهو أن الثاني بعد الحر الروماني الأقدس بطريرك القسطنطينية، والثالث بطريرك الإسكندرية، والرابع بطريرك أنطاكية، والخامس بطريرك أورشليم، على أن تحفظ كل امتيازاتهم وحقوقهم.^{٣٥}

ويلاحظ هنا أن صك الاتحاد لا يُشير إلى الأبيكسيس، والسبب في ذلك أن الآباء اليونانيين الذين وافقوا على الاتحاد؛ ادَّعوا أن القديس يوحنا الذهبي الفم يقول إن التقديس يتم بمجرد تلاوة كلمات السيد المسيح دون سواها، ويلاحظ أيضًا أن الآباء اليونانيين أصروا — عند اعترافهم بسلطة البابا — على أمرين هامين، أولهما أن المجامع المسكونية لا تصحح مسكونية إلا بحضور بطريرك القسطنطينية وإمبراطورها بالإضافة إلى البابا، وأنه لا يجوز محاكمة بطريرك إلا في داخل أبرشيته لمقابلة المدعي بالمدعى عليه.^{٣٦}

ويلاحظ أيضًا أن يوحنا الثامن قصد فراري مستنجدًا مستمرًا، فوعده رومة فاتعد فتدخل في المجمع تدخلًا فعليًا، وألحَّ وضغط ولم يسمح بالمخالفة ولا بالمعاندة، فأخرج موقف العضو العادي واضطر الأقلية الباقية إلى التطرّف إما سلبيًا وإما إيجابًا.

القسطنطينية والاتحاد

وأنتهى المجمع أعماله في جلسة عمومية في السادس والعشرين من آب وغادر الوفد اليوناني البندقية في الحادي عشر من تشرين الأول،^{٣٧} ولم يصلوا إلى القسطنطينية قبل

Hofmann, G., Epistolae Pontificiae ad Concilium Florentinum Spectantes II, Nr. 176, ^{٣٥}
pp. 68–79.

.Mollat, G., Concile de Florence, Catholicisme, Encyc., (1956), IV, 1353 ^{٣٦}

.Syropoulos, Hist., III, 9–12 ^{٣٧}

اليوم الأول من شباط سنة ١٤٤٠،^{٣٨} فصُودِمُوا فيها بمعارضة شديدة من الإكليروس والشعب ونبعتوا بالفطيريين والخونة والهرطقة، وأيد الشعب في هذه المعارضة جمهور الوجهاء ورجال البلاط،^{٣٩} وجل ما سمح به المعتدلون من هؤلاء ذكر اسم البابا في الذبيخة، ولم يوافقوا على إذاعة نص كتاب الاتحاد Tomus Unionis.^{٤٠}

وتزعَّم مرقس متروبوليت أفسس المعارضة، وسانده فيها كُلُّ مَنْ أخيه يوحنا أفجانيكوس وجاورجيوس سكولاريوس، فالتف حولهم الشعب وجمهور الإكليروس، وتراجع عن الاتحاد واحدٌ وعشرون من تسعةٍ وعشرين ممن وقَّعُوا صك فلورنسة! واشتدَّ الجدلُ وضجت الأوساط بالاحتجاج وعدم الرضى، فأمر الفسيلفس مرقس بالالتحاق بأبرشيته فامتثل، ولكنه اتجه شطر جبل آثوس فأمر الفسيلفس بسجنه،^{٤١} ونصح البابا باللجوء إلى الجدل العلني وأرسل إلى القسطنطينية قاصداً رسوليًّا وعدداً من رجال اللاهوت، فناظر مرقس أسقفين لاتينيين وماتنهما وتمادى فادعى النصر كل من الطرفين،^{٤٢} وخطب سكولاريوس في حضرة الشيوخ وارتقى غيره المنابر، فطعنوا في الاتحاد واتهموا مؤيديه بالخيانة،^{٤٣} وكان يوحنا الثامن قد أقام متروفانس أحد أعضاء الوفد المفاوض بطيريرغا على القسطنطينية فكثرت عثاره فاستعفى، فجاء الفسيلفس بأحد خصوم مرقس بغيرغوريوس ماماس وأجلسه على السدة المسكونية (١٤٤٥)، فتهجم سكولاريوس عليه وأهانته علناً في كنيسة الحكمة الإلهية،^{٤٤} واسترسل يوحنا الثامن في تأييد الاتحاد، فركب المعارضون متن غرورهم، واختلف الأمراء في أمر الولاية بعد يوحنا فأيد بعضهم المعارضة تأييداً فاشتد الكُره واضطرب الناس، وقلَّت ثقة الإكليروس بالحكومة، ومال بعضهم إلى الأتراك.^{٤٥}

.Phrantzes, Chron., II, 17 ^{٣٨}

.Ibid., II, 13 ^{٣٩}

.Léonard de Chio, P. G., Vol. 159, Col. 929 ^{٤٠}

.Lambros, Paleologia, I, 27-30; Vast. H., op. cit., 118-119 ^{٤١}

Syropoulos, Hist., XII, 11; Gepoie III, P. G., Vol. 160, Col. 693; Muralte Chron., 6951, ^{٤٢}
6953

.Lambros, Paleologia, II, 94 ^{٤٣}

.Syropoulos, Hist., II, 11; Vast. H., op. cit., 121-122, 132-133 ^{٤٤}

.Bréhier, L. Byzance, 498 ^{٤٥}

وتوفي يوحنا الثمن في السنة ١٤٤٨ ولم يُرَرق ولدًا يخلفه في الحكم، فتدخل مراد الثاني السلطان العثماني في أمر الخلافة، فتوج قسطنطين باليولوغوس فسيلفسًا باسم قسطنطين الحادي عشر في السادس من كانون الثاني سنة ١٤٤٩، فعاهد مرادًا على الولاء، واستقبله الشعب بابتهاج عظيم، ولم يتصل برومة ليثبت لها أن اتحاد الكنيستين كان لا يزال قائمًا — في نظره.

الاتحاد في روسية

وعاد أسيدورس إلى روسية، وأعلن صك الاتحاد في موسكو سنة ١٤٤١، فخلعه باسيليوس الثاني الغراندوق وأمر بحبه ولقّبهُ بالذئب بدلًا من الراعي، ثم أوعز بانتقاء روسي يخلفه في رئاسة الأساقفة، واعتبر الروس يوحنا الثامن وبطيريكه جاحدين، فأفلتت كنيسة روسية من يد بطيريكية القسطنطينية،^{٤٦} وفرَّ أسيدورس من سجنه، والتجأ إلى رومة وبقي فيها، وكان ببساريون شريكه في الاتحاد قد عاد إلى رومة أيضًا ليستقر فيها!

مجمع أورشليم (١٤٤٣)

ونقل أرسانيوس متروبوليت قيصرية قبدوقية إلى دوروثيوس الثاني البطريرك الأنطاكي وإلى يواكيم البطريرك الأورشليمي وفيلوثيوس البطريرك الإسكندري موقف الشعب والإكليروس والوجهاء في عاصمة الأرثوذكسية من الاتحاد الذي تمّ في فلورنسة، فاجتمعوا في أورشليم في السنة ١٤٤٣، وبحثوا الموقف فشجبوا أعمال الوفد المفاوض في فلورنسة، واعتبروا قراراتهم غير شرعية ووصموها بالدنس Miara، وخلعوا متروفانس البطريرك الاتحادي القسطنطيني وكل من رسم من رجال الإكليروس.^{٤٧}

^{٤٦} Ostrogorsky. G., Byz. State, 501

^{٤٧} Allatius De Ecclesiae Occidentalis atque Orientalis Perpetua Consensione III, (4), 939;

Constantius, Patriarchs of Antioch, op. cit., 178-179; Vasiliev, A. A., Byz, Emp., 674; Jugie,

.M., Schisme Byzantin, 268

مجمع كنيسة الحكمة (١٤٥٠)

ويختلف العلماء في صحة قرارات نُسبت إلى مجمع عقد في كنيسة الحكمة الإلهية في السنة ١٤٥٠، وضمَّ أقطاب الكنائس الأرثوذكسية البطاركة الثلاثة وغيرهم، فلاوون الأتيوس العالم الإيطالي الذي نشر هذه القرارات في القرن السابع عشر اعتبرها كاذبة مزورة، ولكن بعض علماء اليونان أيد صحتها، ومنذ ذلك الحين والعلماء على اختلاف في أمرها، فالعلامة البحّاة لويس بريهية يقول بصحتها، وكان دراسيكة العلامة الألماني قد قال هذا القول نفسه في السنة ١٨٩٦،^{٤٨} وبابايانو اليوناني ولبيدوف الروسي وغيرهما ينكران الصحة،^{٤٩} ويرى العلامة المعاصر فازيلاف الروسي أنه ليس هنالك دليل كافٍ يؤيد رُجوع قسطنطين الحادي عشر عن الاتحاد.

وخالصة ما يُقال عن أعمال هذا المجمع: إن بطاركة الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم دعوا إلى مجمع في كنيسة الحكمة الإلهية في السنة ١٤٥٠، فخلعوا غريغوريوس مماس بطريك القسطنطينية «المليت» وأقاموا أثناسيوس «الأرثوذكسي» محله وشجبوا أعمال مجمع فلورنسة، واعتبروا قراراته رجسة خبيثة مخالفة لقرارات المجمع المسكونية، ثم تقبلوا عودة التائبين من الأساقفة والكهنة — والدموعُ ملء أعينهم.

ويفيد سكولاريوس — الذي أصبح فيما بعد البطريرك المسكوني جناديوس — أن خمسة مطارنة وعشرة إكليزيكيين غيرهم رفعوا في تشرين الثاني سنة ١٤٥٢ بياناً إلى الفسيفس قسطنطين الحادي عشر رفضوا فيه الاعتراف بالاتحاد.^{٥٠}

المرسوم الصادر إلى الأرمن

وعمل البابا أفجانيوس لمناسبة مجمع فلورنسة على الاتحاد مع جميع الطوائف المسيحية، وأرسل قسطنطين جاثليق الأرمن في قيليقية وفدًا إلى فلورنسة لإعادة السلام والمحبة،

Draseke, J., Zum Kircheneinigungsversuch des Jahres 1439, Byz. Zeit., 1896, 580; ^{٤٨}
Brehier, L., Attempts at Reunion of the Greek and Latin Churches, Cam. Med. Hist., IV,
.624-625

Papaioannu, K., Aols of the Socalled Council of Sophia, Vizantiysky Vremennik, 1895, ^{٤٩}
.394, 413; Lebedev, Essays on the Byz. East. Church, 294

.Scholarios, G., Oeuvres Complètes, III, 163-188 ^{٥٠}

كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الثاني)

فبحث المجمع أمّ الأرمن، وأعلن البابا في الثاني والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٤٣٩ صك الاتحاد معهم، وجاء هذا الصك حاوياً أكْمَلَ عَرْضَ لتعليم كنيسة رومة بشأن الأسرار، وجاء فيه قولٌ صريحٌ بشأن الانبثاق والطبيعتين والمشيئتين. وفي الخامس عشر من كانون الأول منع البابا إعادة تعميد الأرمن.

الأقباط والأحباش

ووجه أفجانيوس رسالة إلى يوحنا بطريرك الأقباط وإلى نجاشي الحبشة؛ يدعوها إلى الاتحاد، فأَمَّ فلورنسة في شهري آب وأيلول سنة ١٤٤١ مَن فاوض مجموعها في الاتحاد، وفي الرابع من شباط سنة ١٤٤٢ أعلن البابا صكاً آخر ضمنه الاتحاد مع هؤلاء، وفصل فيه موقف الكنيسة من سر الثالوث الأقدس وخلق العالم وأسفار العهدين وطبيعتي السيد المخلص وحقيقة سر الفداء وأهمية قرارات المجامع المسكونية، وتلي هذا الصك باللغتين اللاتينية والعربية.

المانويون البشناق

وفي السنة ١٤٤٣ وصل إلى فلورنسة سفير توما ملك البشناق، فاستنكر تعاليم ماني والقول بمبدأين أزليين، وصرح برغبة الملك في الانضمام إلى الكنيسة.

السريان

ووصل إلى رومة عبد الله مطران الرها، ففاوض المجمع الفلورنسي فيها، وأعلن البابا في الثلاثين من أيلول سنة ١٤٤٤ الاتحاد مع السريان وبين ما يجب الاعتقاد به، ولا سيما فيما يتعلق بالطبيعتين والمشيئتين.

نساطرة قبرص وموارنتها

وكان لا يزال في قبرص نساطرةٌ يقولون بأن السيدة العذراء أم يسوع لا والدة الإله، وما ينطوي عليه هذا الكلام، ويجاهرون بطبيعة واحدة لا بطبيعتين، وكانوا خاضعين لأسقف اسمه تيموثاوس الطرسوسي وكان في الجزيرة أيضاً موارنة خاضعون لأسقف

اسمه إلياس، فأرسل أفجانيوس بابا رومة أسقفًا يدعو هؤلاء إلى الاتحاد، وبعد مفاوضات طويلة رضي الأسقفان بالاتحاد، وأقاما لذلك حفلةً خصوصيةً في كنيسة الحكمة الإلهية القبرصية، وأرسلًا مندوبين إلى رومة للبحث في تفاصيل هذا الاتحاد، وفي السابع من آب سنة ١٤٤٥ أعلن البابا اتحاد هؤلاء، موجبًا القول بالطبيعتين والمشيتتين وغير ذلك، مانعًا النساطرة من إضافة الزيت إلى مادة سر الأفخارستية،^{٥١} وإليك ما جاء في هذا الموضوع للمطران يوسف الدبس:

لا نُنكر أن البابا أفجانيوس الرابع كتب في براءته المفتحة تبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح المؤرخة في سنة ١٤٤٥، عن كلامه في أندراوس رئيس أساقفة رودس، أن أندراوس هذا هدى إلى الإيمان القويم تيموثاوس مطران طرسوس الذي كان بقبرص وكان نسطوريًا يعتقد أن في المسيح أقنومين، وأن العذراء لا تُسمى والدة الله، وأنه رد إلى الهدى إلياس مطران الموارنة، الذي كان مع جماعته بقبرص ملوثًا بضلال مكاريوس أن في المسيح مشيئة واحدة، وأنه جمع هؤلاء في كنيسة القديسة صوفيا كنيسة كرسي تلك الجزيرة، فأقروا بالإيمان الكاثوليكي جهازًا، ثم إنه أرسل تيموثاوس المذكور والقس إسحاق تلميذ إلياس مطران الموارنة إلى رومة فجدد تيموثاوس ضلال نسطور وإسحاق ضلال مكاريوس في كنيسة لاتران برومة، ولا ننكر أيضًا أن المطران إلياس جد تعليم مكاريوس وأقر بالإيمان الكاثوليكي في كنيسة القديسة صوفيا بقبرص، وكذلك فعل تلميذه القس إسحاق برومة.

لكننا نقول إن أندراوس مطران رودس عند بلوغه إلى قبرص ومخاطبته تيموثاوس وإلياس الأسقفين ورؤيته أنهما مستعدان للإقرار بالإيمان الكاثوليكي أنشأ لهما دستور الإيمان الذي يلزم كلاً منهما أن يقرأ به جهازًا وباحتفال، ولما كان يعلم أن تيموثاوس نسطوري ضمن الدستور الذي أعده له جحد بدعة نسطور، ولعلمه من كتاب غوليلموس أسقف صور أن الموارنة كانوا يعتقدون بالمشيئة الواحدة ضمن الدستور الذي للمطران إلياس الماروني جحد بدعة مكاريوس الذي كان مغويًا ببدعة المشيئة الواحدة، فتلا

٥١ Hogmann, G., Epist., Pont. de ultimis Actis Conc. Florent. 1440-1445, Roma, 1946

كل منهما في الكنيسة الدستور الذي أعده له أسقف رودوس، وكتب إلى البابا وجانيوس أنه هدهما إلى الإيمان القويم، فاغتر البابا بما كتبه في براءته المذكورة، على أن إقرار المطران إلياس لم يكن إحداثاً لبحوده، بل تقريراً أو تجديدًا له.^{٥٢}

المجمع والأدب الكنسي

وقضت ظروف الروم في الدور الأخير من تاريخهم بأن يلجئوا إلى الغرب في طلب المعونة ضد الطامعين من الغرب والشرق، ورأوا أن لا مفر من استرضاء رومة واستعطافها؛ لكثرة تدخل أبحارها في السياسة وانغماسهم فيها، فكانت محاولات لتوحيد الكنيستين، فصلنا أبحارها في تضاعيف هذا الفصل وغيره، وأثار موضوع الاتحاد قرائح رجال الكنيسة فصنفوا واختلفوا فيما بينهم.

وكان أكثر رجال الدين استعدادًا لإرضاء أبحار رومة يوحنا فقس أو بكوس، بدأ أرثوذكسيًا متمسكًا بقرارات المجمع المسكونية، فاضطهده ميخائيل الثامن وحبسه، ثم قال بالاتحاد فرقي السدة البطريركية المسكونية، وظل يدير شئونها حتى أيام أندرونيكوس الثاني، وكان من أقدر أهل زمانه علمًا وثقافة وحجة وفصاحة، وأشهر ما صنف كتابه الاتحاد والسلام بين الكنيستين، وقد حاول فيه أن يظهر وحدة العقيدة بين الكنيستين حتى أيام فوطيوس.^{٥٣}

وحذا حذو فقس ديمتريوس قيذونس الذي عمر طويلًا (١٣١٠-١٤١٠) فتعلم اللاتينية في ميلانو، وقضى حياته بين ثسالونيقية والقسطنطينية وكريت، وتضلّع في الأدب اللاتيني، وتعلق بفلسفة توما الأكويني ونقله إلى اليونانية، وقد دعاه العلامة غريغوار «ذيموستينس الاتحاد».^{٥٤}

^{٥٢} تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس، ج٤، ص٥٩٩-٦٠٠، أما فيما يتعلق بغولييموس الصوري وقيمة شهادته فقد سبق لنا الكلام في ذلك في الفصل الحادي والأربعين، فليراجع في محله.

^{٥٣} Zotos, Al. D., Ioannes Beccos, Munich, 1620; Grumel, V., Un, Ouvrage Recent su Jean

.Bekkos, Echos d'Orient, 1925, 26-32; Bréhier, L., Beccos, Dict. Hist. Géog. Ecc

Grégoire, H., L'Opinion Byzantine et la Bataille de Kossovo, Byzantion, 1931, 247; ^{٥٤}

Cammelli, G., Démétrius Correspondance, Paris, 1930; Jugie, M., Démétrius Cydones et

.la Théol. Lat., Echos d'Orient, 1928, 385-402; Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 694-695

واشتهر في الدفاع عن الاتحاد الأنسني بيساريون، ولد في طرابزون حوالي السنة ١٣٩٥، وأم القسطنطينية لمتابعة دروسه، ثم أنهاها في ميسترية في المورة على يد بليثون الفيلسوف، وأصبح رئيس أساقفة نيقية فراق يوحنا الثامن إلى مجمع فراري فلورنسة، فقال بالاتحاد وأمسي منذ الخامس عشر من كانون الأول سنة ١٤٣٩ مع زميله أسيدورس رئيس أساقفة كيف كردينالا في الكنيسة اللاتينية، وأشهر ما كتب في الاتحاد دفاعه عن فقس ضد هجمات بلاماس، وردة على مرقس رئيس أساقفة أفسس، وتوفي في رابينة في السنة ١٤٧٢.^{٥٥}

وتولى السدة البطريركية المسكونية غريغوريوس القبرصي في السنة ١٤٨٩، فجادل فقس وصنف في «الإيمان» وفي «الانبثاق»، وكان خطيبًا مفوهًا وكاتبًا كبيرًا، فألف في اللغة والأدب وخطف رسائل كثيرة، هي من أكثر المراجع فائدة.^{٥٦} وأشد الأرتوذكسين تمسكًا بالمجامع المسكونية وأقواهم شكيمة مرقس أفجانيكوس رئيس أساقفة أفسس وممثل الكرسي الأنطاكي، حضر مجمع فراري فلورنسة فعارض وأبى أن يوقع قراراته، وعاد إلى القسطنطينية ينادي بالمحافظة على العقيدة الرسولية وعلى تنظيم الكنيسة كما أقرتها المجامع المسكونية، وأشهر ما صنف سبعة وخمسين فصلًا في نقد العقيدة اللاتينية، وكتب عددًا من الرسائل في الرد على بيساريون، وخلف بعض مراسلات له.^{٥٧}

واشتهر في حقلي اللاهوت والفلسفة جاورجيوس سكولاريوس الذي أصبح فيما بعد البطريرك المسكوني جناديوس أول بطريرك مسكوني في عهد الأتراك العثمانيين، واشترك سكولاريوس في أعمال مجمع فراري فلورنسة، ولكنه لم يوقع قراراته وعاد إلى القسطنطينية يدافع عن التقليد الأرتوذكسي بخطبه ورسائله ومصنفاته، وجادل بليثون الفيلسوف في موضوع أرسطو وأفلاطون، فأيد الأول تأييدًا كبيرًا وخلف مما خلف كتابًا

Vast, H., Le Cardinal Bessarion, Paris, 1878; Mohler, L., Kardinal Bessarion als Theologe, °° Humanist und Staatsmann, Funde und Forschungen I, Darstellungen, Paderborn, 1923; Brehier, L., Bessarion, Dict. Hist. Geog. Ecc., 1935, Col. 1181–1199
Lameere, W., Tradition Manuscrite de la Corresp. de Grégoire de Chypre Bruxelles- °٦
.Rome, 1937; Cayré, F., Georges de Chypre, Dict. Théot. Cath., VI, Col. 1231–1235
Petit, L., marc Eugénicos, Dict. Theol. Cath, IX, 1968–1986; Grumel, V., Marc d'Ephèse, °٧
.Estudis Franciscanes, 1925, 425–448

أسماء «المراثي» ضمنه معلومات مفيدة لتاريخ الكنيسة الأرثوذكسية في أول عهد الأتراك العثمانيين في القسطنطينية.^{٥٨}

مجمع القسطنطينية (١٤٨٤)

ودالت دولة الروم واستولى الأتراك العثمانيون على جميع أبرشيات البطريركية المسكونية، وخشي الأتراك مطامع الدول الغربية واستفزازات رومة وتحريضها، فأيدوا الانفصال بين الكنيستين الكبريين وعارضوا التفاهم والاتحاد، وظلت رومة متشبثة بموقفها من نقاط الاختلاف بينها وبين كنائس الشرق مطالبة بالخضوع لها في العقيدة والإدارة؛ فاشتد النفور وزاد الشقاق.

وفي السنة ١٤٨٤ دعا سمرعان الطرابزوني البطريرك المسكوني إلى مجمع في القسطنطينية؛ للبحث في موقف الكنائس الأرثوذكسية من كنيسة رومة ومن أبنائها الذين يطلبون العودة إلى حُضن الكنائس الأرثوذكسية، فلبى الدعوة كل من بطريرك الإسكندرية وبطريرك أنطاكية وبطريرك أورشليم، واعتبر المجمع قرارات فراري فلورنسة ملغاة لا قيمة لها، ثم اتخذ قرارًا بشأن عودة اللاتين إلى حُضن الكنيسة الأرثوذكسية، فأوجب على هؤلاء نبذ قرارات مجمع فلورنسة، وتخليط كنيسة رومة في تقديم بطرس على سائر الرسل وفي تقديم خلفائه أساقفة رومة وفي أمر العصمة، وأوجب المجمع أيضًا إعادة تثبيت هؤلاء بسر الميرون.^{٥٩}

Petit, L., Oeuvres Complètes de Gennade Scholarios, 8 Vols., Paris, 1928–1936; Jugie, ^{٥٨}

M., Georges Scholarios, Studi Byzantini, 1939, 482–494

Rhalls et Politis, Suntagma, V, 143–147; Petit, L., Entrée des Catholiques dans l'Eglise ^{٥٩}

.Orthodoxe, Echos d'Orient, 1896, Justinus 129–131

الفهارس

سلسلة البطاركة

١٥١١-٦٣٤

- (٦٣) مقدونيوس ٦٢٨-٦٣١.
- (٦٤) أثناسيوس الجمال ٦٣١.
- (٦٥) مقدونيوس ٦٣٢-٦٤٠.
- (٦٦) جاورجيوس الأول ٦٤٠-٦٥٥.
- (٦٧) مكاريوس ٦٥٦-٦٨١.
- (٦٨) ثيوفانس الأول ٦٨١-٦٨٧.
- (٦٩) سياستيانون، أو اسطفانوس الثالث ٦٨٧-٦٩٠.
- (٧٠) جاورجيوس الثاني ٦٩٠-٦٩٥.
- (٧١) ألكسندروس الثاني ٦٩٥-٧٠٢.
- (٧٢) اسطفانوس الرابع ٧٤٢-٧٤٨.
- (٧٣) ثيوفيللاكتوس (ابن قنبرة) ٧٤٨-؟
- (٧٤) ثيونوروس الأول ٧٦٧-٧٨٧.
- (٧٥) يوحنا الرابع ٧٩٨-٨١١.
- (٧٦) أيوب الأول ٨١١-٨٢٦.
- (٧٧) نقولاوس الأول ٨٢٦-٨٣٤.
- (٧٨) سمعان الأول ٨٣٤-٨٤٠.
- (٧٩) إلياس الأول ٨٤٠-٨٥٢.
- (٨٠) ثيودوسيوس الأول ٨٥٢-٨٦٠.
- (٨١) نقولاوس الثاني ٨٦٠-٨٧١.

- (٨٢) اسطفانونس ؟-٨٧١.
- (٨٣) نقولاوس الثاني ٨٧١-٨٧٩.
- (٨٤) ميخائيل الأول ٨٧٩-٨٩٠.
- (٨٥) زخريا ٨٩٠-؟
- (٨٦) جاورجيوس الثالث ٩٠٢-٩١٧.
- (٨٧) أيوب الثاني ٩١٧-٩٣٩.
- (٨٨) أفسترانيوس ٩٣٩-٩٦٠.
- (٨٩) خريستوفوروس الأول ٩٦٠-٩٦٦.
- (٩٠) ثيودوروس الثاني ٩٦٦-٩٧٧.
- (٩١) أغابوس الأول ٩٧٧-٩٩٥.
- (٩٢) يوحنا الخامس ٩٩٥-١٠٠٠.
- (٩٣) نقولاوس الثالث ١٠٠٠-١٠٠٣.
- (٩٤) إلياس الثاني ١٠٠٣-١٠١٠.
- (٩٥) جاورجيوس الرابع (لاسكارس) ١٠١٠-١٠١٥.
- (٩٦) مكاريوس الأول الفاضل ١٠١٥-١٠٢٣.
- (٩٧) الفثيريوس النقي ١٠٢٣-١٠٢٨.
- (٩٨) ثيودوروس الثالث (جرجس) ١٠٣٤-١٠٤٢.
- (٩٩) باسيليس الثاني ؟
- (١٠٠) بطرس الثالث ؟-١٠٥٦.
- (١٠١) يوحنا السادس ١٠٥٧-١٠٦٢.
- (١٠٢) أميليانوس ١٠٦٢-١٠٧٥.
- (١٠٣) ثيودوسيوس الثاني ١٠٧٥-١٠٨٤.
- (١٠٤) نيقيفوروس الأول ١٠٨٤-١٠٨٨.
- (١٠٥) يوحنا السابع ١٠٨٨-١١٠٦.
- (١٠٦) يوحنا الثامن ١١٠٦-١١٣٧.
- (١٠٧) لوقا الأول ١١٣٧-١١٥٥.
- (١٠٨) يوحنا التاسع ١١٥٥-١١٥٩.
- (١٠٩) أفتميموس الأول ١١٥٩-١١٦٤.
- (١١٠) مكاريوس الثاني ١١٦٤-١١٦٦.

سلسلة البطارقة

- (١١١) أثناسيوس الأول، أو الثاني ١١٦٦-١١٨٠.
- (١١٢) ثيودوسيوس الثالث ١١٨٠-١١٨٢.
- (١١٣) إلياس الثالث ١١٨٢-١١٨٤.
- (١١٤) خريستوفوروس الثاني ١١٨٤-١١٨٥.
- (١١٥) ثيودوروس الرابع (بلسامون) ١١٨٥-١١٩٩.
- (١١٦) يواكيم الأول ١١٩٩-١٢١٩.
- (١١٧) دوروثيوس الأول ١٢١٩-١٢٤٥.
- (١١٨) سمعان الثاني ١٢٤٥-١٢٦٠.
- (١١٩) أفثيميوس الثاني ١٢٦٠-١٢٦٩.
- (١٢٠) ثيودوسيوس الرابع ١٢٦٩-١٢٧٦.
- (١٢١) ثيودوسيوس الخامس ١٢٧٦-١٢٨٥.
- (١٢٢) أرسانيوس الأول ١٢٨٥-١٢٩٣.
- (١٢٣) زيونيسيوس الأول ١٢٩٣-١٣٠٨.
- (١٢٤) مرقس الأول ١٣٠٨-١٣٤٢.
- (١٢٥) أغناطيوس الثاني ١٣٤٢-١٣٥٣.
- (١٢٦) ميخائيل الثاني ١٣٥٣-١٣٨٦.
- (١٢٧) باخوميوس الأول ١٣٨٦-١٣٩٣.
- (١٢٨) نيلوس الأول ١٣٩٣-١٤٠١.
- (١٢٩) ميخائيل الثالث ١٤٠١-١٤١٠.
- (١٣٠) باخوميوس الثاني ١٤١٠-١٤١١.
- (١٣١) يواكيم الثاني ١٤١١-١٤٢٦.
- (١٣٢) مرقس الثاني ١٤٢٦-١٤٣٦.
- (١٣٣) نوروثيوس الثاني (ابن الصابوني) ١٤٣٦-١٤٥٤.
- (١٣٤) ميخائيل الرابع (ابن الماوردي) ١٤٥٤-١٤٦٢.
- (١٣٥) مرقس الثالث ١٤٦٢-١٤٧٦.
- (١٣٦) يواكيم الثالث ١٤٧٦-١٤٨٣.
- (١٣٧) غريغوريوس الثالث ١٤٨٣-١٤٩٧.
- (١٣٨) نوروثيوس الثالث ١٤٩٧-١٥١١.